باتريس نغانانغ

قصر الأحلام والكلام

رواية



ترجمة: عدنان محمد



قصر الأحلام والكلام

الكتاب: قصر الأحلام والكلام
المؤلف: باتريس نغانانغ
المترجم: عدنان محمد
الطبعة الأولى: 08/ 2013

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الفرنسي:

Mont Plaisant
©Patrice Nganang, 2011
Published by arrangement with Agance litteriarie Pierre Astier & Associés
ALL RIGHTS RESERVED

ISBN: 978 – 9933 – 477 – 68 - 4



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: 339 422 41 963+

البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com



باتريس نغانانغ

قصر الأحلام والكلام

ترجمة: عدنان محمد

"تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق"

دار الحوار

بكل تأكيد، من أجل نياشا

ملاحظات هامة حول الكاميرون

الكاميرون بلدٌ مكوَّن من 238 مجموعة إثنية، لكلٍّ منها لغتها الخاصة، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية واللغة الكاميرونية ـ الفرنسية ـ الإنكليزية (الكامفرنكليزية) le camfranglais. وأهم هذه المجموعات: الإيووندو les Ewondo حول ياووندي Yaoundé، والباموم les Bamoum حول فومبان Foumban، والباميليكيه les Bamilékés حول دشانغ Dschang، والمانكون les Mankon في بامندا Bamnda، والدوالا les Douala على الساحل، والفولبيه les Foulbés في الشمال...

أما تاريخياً، حوالي القرن السادس، ففي معرض حديث القائد القرطاجني حنون عن الرحلة التي قام بها إلى الشواطئ الأفريقية، حوالي القرن السادس، ذكر "عربة الآلهة" التي أصبحت جبل الكاميرون.

1472: أطلق البحّار البرتغالي فرناو دو بوو Fernao do Poo على نهر ووري Wouri اسم "ريو دوس كامارويس Rio dos Camaroes" أي (نهر القريدس)؛ فأصبحت كلمة "كامارويس" الكاميرون.

12 تموز 1884: وقّع رؤساء من دوالا معاهدةَ مساعدةٍ مع تجّارٍ ألمان، تبعها بعد عدة أيام إعلان سيادة الحكومة الألمانية على كامل أراضي الكاميرون.

28 حزيران 1914: تمّ اغتيال الأرشيدوق فرانسوا-فرديناند، ونشبت الحرب العالمية الأولى. وقد دارت المعارك في أفريقيا أيضاً، في أراضي القوى المتحاربة، ومنها الكاميرون.

8 آب 1914: شُنق رودولف دوالا مانغا Rudolf Douala Manga، رئيس دوالا، وسكرتيره أدولف نغوسو دين Adolf Ngosso Din، ومارتان بول سامبا Martin Paul Samba، بعد أن اتّهمتهم السلطات الألمانية بالخيانة. وهو نفسه تاريخ ولادة القومية الكاميرونية.

1916: خسرت ألمانيا معركة الكاميرون. وقُسّم الكاميرون الألماني ليدخل تحت هيمنة الاحتلال الإنكليزي والفرنسي: فوقعت فومبان في البداية تحت الاحتلال الإنكليزي، وياووندي تحت الاحتلال الفرنسي.

10 تموز 1919: عهدت عصبة الأمم إلى كل من فرنسا وإنكلترا بإدارة الكاميرون في قسمين منفصلين مؤكّدةً بذلك الاحتلالَ الفعلي لهذه المستعمرة.

1920: اختيرت ياووندي عاصمةً للكاميرون الشرقي، الفرنسي؛ وأصبحت بويا Buéa، العاصمةُ السابقة إبّان الاستعمار الألماني، عاصمةَ الكاميرون الغربي، البريطاني.

1921: نفَتْ السلطات الفرنسية نْجُويا من فومبان، عاصمة سلطنته. وأنجز كتابَةُ الشهادة: ساآنعام Saa'ngam، المعروف أكثر بترجمته الفرنسية: تاريخ الباموم وعاداتهم، وقد حُرّر بإشراف السلطان نْجُويا.

22 تشرين الأول 1922: وصل المونسنيور فرانسوا ـ كزافييه فوغت François-Xavier Vogt إلى الكاميرون. وبعد يومين، أعلَن عن نيته في الاستقرار في ياووندي.

30 كانون الثاني 1933: أصبح أدولف هتلر مستشاراً لألمانيا.

30 أيار 1933: وفاة نْجُويا في منفاه في ياووندي.

3 أيلول 1939: نشوب الحرب العالمية الثانية.

1 أيلول 1943: وفاة الرئيس الأعلى للإيووندو شارل أتانغانا في ياووندي.

13 تموز 1955: طالَب حزبُ اتحاد سكان الكاميرون (UPC) وهو حزب قومي، باستقلال الكاميرون وإعادة توحيده، فحظرتْه السلطات الفرنسية.

1 كانون الثاني 1960: استقلّ الكاميرون الناطق بالفرنسية.

1 تشرين الأول 1961: استقلّ الكاميرون الناطق بالإنكليزية. وأُعيد توحيد الجزء الجنوبي من الأراضي الواقعة تحت الوصاية البريطانية المسمّى: " Southern Cameroon" وجمهورية الكاميرون تحت اسم جمهورية الكاميرون الاتحادية.

هي ذي قصة نْجُويا وشارل أتانغانا وسارة، ابنة أمها..

الجــــــزء الأول

ســـارة وبـــرثا

واجبنا الوحيد نحو التاريخ هو أن نُعيد كتابته..

أوسكار وايلد

-1-

محادثات في إحدى ظهيرات شهر آب

كانت سارة صبياً عندما دخلَتْ إلى مون بليزان، مقر إقامة السلطان في منفاه. هذه هي الحقيقة بكل بساطة. لم يكن عمرها آنذاك إلا تسع سنوات، ومع ذلك فقد أُهديت إلى السلطان نْجُويا لدى وصوله إلى ياووندي، عربونَ صداقة، "صداقة وأخوّة". الرئيس الأعلى للإيووندو شارل أتانغانا هو من أقنع الحاكمَ المطلق بمغادرة بلده باموم لكي يقيم في عاصمة المحمية. وأقلّ ما يفعله هو أن يجعل إقامة ضيفه مريحة، فالتقليد يفرض عليه ذلك ـ آه، ويا له من تقليد!

أصاب الجفافُ الموسمَ في تلك السنة، سنة 1931. الأشجار تتحدّث عن شهر آب، والنهارُ متّشحٌ بألوان الرفض: رفْض سارة ـ هكذا صاروا ينادونها منذ أن أخطأ كاهنٌ كاثوليكي في كتابة اسمها الحقيقي: سالا- لأنها لا تريد أن تترك أمها. ورفْض السلطان الذي لا يفهم لماذا قد يقلّل وجودُه في كَنَف وصاية الفرنسيين من الريبة التي يكنّها له هؤلاء منذ أن نشَب خلافُه مع ممثّليهم المحلّيين في فومبان، قبل عشر سنوات.

ذات يوم، سأل نْجُويا صديقَه الذي يضغط عليه:

ـ أليس هذا سحق ذيل الأفعى؟

أجابه شارل أتانغانا وهو يداعب قبّعته المصنوعة من اللبّاد القاسي:

ـ ماذا أقول؟ ما هذا إلا تغيير للمشهد.

هو ونْجُويا يعلمان، أن الفرنسيين، إذا كانوا يكرهونهما، فليس ذلك بسبب كلماتهما ولا بسبب سلطتهما، بل لتحالفهما السابق مع المستعمرين الألمان.

وأضاف الرئيس:

ـ هل تجهل أن فرنسا امرأة غيورة جداً؟ مع نسائكَ كلّهنّ....

قاطعه السلطان قائلاً بابتسامة ماكرة:

ـ وأنتَ إذاً! ليس لديك سوى زوجة واحدة، ومع ذلك...

ماذا بوسع شارل أتانغانا أن يقول؟ فهو ونْجُويا ما يزالان معروفين بقصص ما قبل الحرب التي لا يمكنهما التخلّص منها. كَتَبَ نْجُويا في كتاب مذكّراته ساآنغام: "أنا مثل امرأة، والبيض مثل الرجال. فماذا بوسعي أن أفعل سوى الطاعة؟" إنه يلمّح إلى الإنكليز لأن الفرنسيين تركوه بلا صوت، وهم الذين قرّروا نَفْيَه، نعم بلا صوت. وهكذا فإن سارة تشعر هي الأخرى أنها بلا صوت، لأسباب مغايرة تماماً، بطبيعة الحال. وقد لفظت كلماتها الأخيرة ليلة ذهابها. لم تَدَعْ لها أمُّها أيَّ مجالٍ بعد أن أيقظتها، وضاع همسها في الليل، في بامبو السرير الذي تحدّده بأسنانها وهي تأكله بصمت.

في ذلك الصباح، أيقظ صوتُ أمها الأجوف الصالونَ في عمليةِ حرقٍ احتفالية للأحلام. وجهُ الطفلة الشاحب فراغٌ لم يشأ أحدٌ أن ينظر إليه نظرةً جادّة، وبخاصة أمها، تلك الفلاحة العاقلة التي كانت في الليلة السابقة قد جفّفت دموعها راضيةً بقَدَر ابنتها؛ انتابها الحزنُ أياماً طويلة حتى وصلت إلى هذا القبول المر، وهي التي رأت مراراً الرجال يبتّون في مصائر النساء. والآن، ها هي تشدّ خصرها بمئزر لكي تفتح فمها بشكل أفضل في هذا الغبش المحتوم الذي ستعيش فيه ابنتُها من الآن فصاعداً. صمَتَ العمُّ أوونا، عرّاب الفتاة. لطالما أمِل أن يضع هذه اللحظة من العذاب خلفه بحيث لم يعد لديه كلمة يقولها. هو يعلم أنه مسؤول، وهذا كافٍ.

ولمّا كان كارل، أخو سارة، ما يزال صغيراً جداً، لم يجد أيٌّ من الكبار نفسَه مضطرّاً إلى أن يفسّر له لماذا يجب عليه أن يُمضي أيامَه من الآن فصاعداً من دون أخته.

وسارة؟ لقد أُبلغَتْ أن ساعة "حظّها" قد أزفت، نعم حظّها، بحسب رأي أمها، بتلبية نداء القدر وهي ما تزال مجرّد طفلة.

أضافت أمها:

ـ لو كنتُ مكانكِ، لسعدتُ.

"سعدتُ؟" هذا هو السؤال الذي عبر خاطر الطفلة الصامتة، بينما أخذت عيناها تحفران الصالون الصامت لكي تُحصي خفقانات مصيبتها بشكل أفضل.

ـ كنتُ سأرقص.

ـ ترقصين؟

لا تستطيع سارة أن ترقص، حتى بعد أن مشَت أمُّها بضعَ خطوات، وبدأت تغنّي أغنيةً معروفة، أغنية تغطّيها بأسماء المديح:

ـ ابنة الفهد، كما تقول الأغنية.

ـ ابنة النهر، تقول أيضاً.

ـ زهرة الليل.

ـ أم فستق العبيد.

الغناء بالنسبة إلى هذه المرأة الريفية طريقةٌ لطرد بكائها. ومع ذلك فهي تعلم أنْ لا فائدة من أن تُخفي عن ابنتها حياةَ المرأة التي بدأت بالنسبة إليها. فيما بعد، وبعد زمن طويل جداً، ظلّت سارة تسمع صوت أمها وهي تناديها في أغاني المديح. وأحياناً تسمع أصواتاً أخرى تناديها في الليل، أصواتاً مألوفة، أو غريبة أيضاً. وأحياناً تسمع مقاطع اسمها تتردّد بين هضاب ياووندي السبع، ثم تتدحرج على صخر الوادي، قبل أن تتلاشى بين حبّات المطر، وفي ضحكات أترابها الفرِحة. وتسمع أيضاً صوتَ أخيها الصغير الذي لم ترَهُ إلا مرة بعد ذلك الصباح، وكان في الثامنة فقط من عمره، يحمل زجاجة العرق، عفواً، الكحول، بين ساقيه، ويناديها "يا امرأة"، كما يفعل الزوج حين ينادي زوجته.

بكل تأكيد، سمعت أيضاً صوت نْجُويا الرملي الذي يناديها من جوف سرير الموت، وسط ذهول الستمائة والثمانين امرأة. أوه، سارة ستسمع هذه الأصوات كلّها التي تتناثر دائماً عند أسفل هضاب حي نسيميونغ الخضراء، ستسمع هذه الصرخات وهذه النداءات، وهذه الثرثرات وهذه الأغنيات عن القدر. في الواقع، قصتها أغنية، أغنية مؤثّرة جداً وعميقة جداً بحيث أنها لا تستطيع أن ترنّ إلا في صمت الأب الذي كان غائباً يوم رحيلها. ظلّت سارة تبحث عن صوت هذا الأب

طوال حياتها، طوال حياتها. هي تخشى الصوتَ الحازم لهذا الأب المجهول حتى في صدى نباحات الكلاب النهمة، ومواءات القطط الليلية.

وسأعود إلى هذا التفصيل.

عندما التقيتُ بها، لم تكن تتذكّر من السلطان إلا عينيه. وكيف تنساهما؟ كان وجه نْجُويا مُرضياً كهاوية، قالت لي.

ـ هاوية؟

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ كان كأنه يستطيع أن يبتلع روحاً.

وابتسمت. في سن التسعين، ما تزال سارة تُظهر الطفلةَ التي كانتْها في سن التاسعة: مذهولة. سألتُها ما إذا كانت قد نظرت إلى نفسها في المرآة فيما مضى، فردّت:

ـ لا. وكيف كان بوسعي أن أفعل ذلك؟

لم أستطع أن أصدّق أنها رأت نفسها لأول مرة عبر نظرة نْجُويا. فقالت مصحِّحةً:

ـ لا، نظرة الرئيس.

وهي تقصد نظرة شارل أتانغانا.

ـ 2 ـ

اختطـــاف ابنـة الآخـر

وصل رسُل الرئيس الأعلى في وقت مبكّر جداً، فتركتْهم أمُّ سارة ينتظرون. كانت نظراتهم مُتوعِّدة كرجالٍ آتين بمهمة. وكان أحدهم يعتمر خوذة استعمارية وهو غزير الشعر على صدره وظهره، وعلى خصره مئزر أرجواني معقود على جانبه، مع زهرة تتدلّى برخاوة. طريقته في الحركة تنمّ عن مراقب استعماري بقدر ما تنمّ عن نصّاب، أو عن الاثنين معاً.

وهو من طلب "الفتاة"، فردّت الأم بصوت حانق:

ـ لن تهرب!

التفت المراقب النصّاب نحو رفاقه فانفجروا ضاحكين، ثم قال بعد لحظة صمت:

ـ نعلم ذلك... نعلم ذلك!

وأيّده رجاله قائلين بجوقة واحدة:

ـ نعلم ذلك.

ـ نعم، نحن نعلم.

قدّمت لهم أم سارة ماءً وطعاماً، وجلسوا في غبار فناء البيت، ودخّنوا سجائر، وتبادلوا رواية نكات جنسية لم تُضحك سواهم. ومع ذلك فإن قائدهم، الرجل الذي يعتمر الخوذة، لم يكن يخفي أهميته. سأل أمّ سارة ثلاث مرات، وثلاث مرات أجابت إن الفتاة ليست جاهزة بعد. وفي المرة الرابعة غضب الرجل وقال وهو يشد المئزر حول خصره كمن سيدخل في مشاجرة:

ـ علينا أن نذهب!

ـ علينا...

ـ الذهاب.

توسّلت إليهم أم سارة:

ـ خمس دقائق أخرى، من فضلكم...من فضلكم خمس دقائق أخرى.

سد الرجل أذنيه بأصابعه، وأشار إلى رفاقه فنهضوا ونفضوا الغبار عن مؤخراتهم وأزالوا تقلّص سيقانهم. وبصق بعضهم على الأرض. إن تفصيلات حبٍّ أمومي يمكن أن تجعل رئيساً إلى الأبد على طريق الزمن الضائع، الرجال يعرفون ذلك.

انفجر الرجل ذو الخوذة صارخاً وهو يُبدي ظاهر يده:

ـ يا امرأة! ليس لدينا وقت!

طلبت أم سارة:

ـ امنحوني دقيقتين أيضاً!

ولكن الرجل يعرف أن دقيقةً إضافية هي رجاء لن يعيره الرئيس الأعلى أية أذن مُصغية.

أضاف المراقب وهو يراقب مدخل البيت:

ـ يجب أن نأخذ الفتاة!

شدّد على "الفتاة" وهو يحكّ خصيتيه من خلال مئزره. ورجاله من خلفه كرّروا "نعم" بصوت واحد، وألقوا نظرات موافقة.

ـ الفتاة.

ـ نعم، الفتاة.

سألت الأم فجأةً:

ـ ثم ماذا؟

ـ السلطان ينتظر هو أيضاً.

أجاب الرجل ذو الخوذة كما لو أن كلامه يتميّز.

جرض ريقه، لأن الرد العنيف من أم سارة أفقده توازنه.

ردّ الرجال:

ـ نعم، السلطان ينتظر أيضاً.

ـ ينتظر.

ـ أيضاً.

فشلت تمثيليتهم في إخفاء الخوف الذي يشعرون به من جعلهم نْجُويا أو الرئيس ينتظران.

انفجرت أم سارة:

ـ وهل دقيقة كثير بالنسبة إليكم؟ يا إلهي، أليس لديكم أولاد؟ ماذا تنتظرون مني؟ أن أعطيكم ابنتي ببساطة، هكذا؟ أي نوع من الرجال أنتم؟

العنف غير المتوقّع الذي أظهرته المرأة فرض الصمت. وأخذ رجال الرئيس ينظر كلّ منهم إلى الآخر.

وأضافت:

ـ هل أنتم حيوانات؟

وكانت تضع قبضتيها على ردفيها، بينما كان فمها يُلقي حممه. ووصفت الرجل ذا الخوذة بأنه من أنصار العبودية، وأنه مصدر عار كل الإيووندو، وبأنه قاتل، وابن جرذ. وأطلقت قاموساً من الأسماء المنحطّة، لكن رفاق الرجل لم يدعوها تكمل سيمفونيتها الشاتمة. إنهم يعرفون أن فم امرأة من الإيووندو يمكن أن يكون عنيفاً كلسعِ سوطِ جنديٍّ مستعمِر. دخل أحدهم إلى البيت ثم خرج منه حاملاً على كتفه سارة وهي تصرخ طالبةً النجدة. كانت فوضى هذا الخطف عنيفةً، لكنّ رجال الرئيس نجحوا في مهمّتهم.

وتتذكّر سارة أن عمَّها، وحدَه من بين كلّ الرجال الذين تجمّعوا لدى سماع صراخها، أمسك بيد أمها وطلب منها أن تدع الأمور تسير. وهو يقول:

ـ هذه هي الحياة. ما هذه إلا الحياة!

ربما كان العم أوونا يعلم أن ألمَ أمٍّ بابٌ لا يتمنّى أي رجلٍ أن يُبقيه مفتوحاً زمناً طويلاً جداً.

أضافت سارة:

ـ وما لا يعلمه هو أني لن أراه بعد ذلك حيّاً.

أظلم وجهها. فقد فهمت في ذاك اليوم أنها إذا أرادت أن تهرب من جسدها الأسير، يجب عليها أن تكون شخصاً آخر. تُرى لماذا قرّرت أن تروي لي قصّتها؟ لن أعرف إلا مبكّراً جداً.

في أثناء رحلة بحث إلى البلاد قمتُ بها منذ بضع سنوات، قال لي صديق كاتبٌ إن عليّ أن أرى بيتاً سمع كلاماً عنه. انطلقنا بالسيارة نحو نسيميونغ، وتهنا في دروب بلا نهاية. ليس لدى الحي الصغير ما يقدّمه لي، ما خلا الوجوه المألوفة لمدينة مفطومة عن المستقبل، تختنق تحت وطأة الموسم الجاف، مع فتيات شابّات يراهنّ على الشبكات الافتراضية لكي يطرن إلى "شاب أبيض" مفترض، وشبّانها هُرعوا جميعاً إلى إشارتي لأن لي هيئة القادم حديثاً.

وعندما ذكرت اسم السلطان، ظهر نحو دستة من الوجوه من حولي وأقسموا لي جميعاً أنهم سميّوه وأسلافه. ففي الكاميرون، وكنتُ أعرف هذه المعلومة من قبل، يوجد اسم نْجُويا بقدر أوراق الشجر. في الواقع، في الجوار، عدد من يُسمّون أتانغانا كان بلا حدود أيضاً. ومع ذلك، فإن أحداً من هؤلاء الأشخاص لم يستطع أن يقول لي أين يقع المكان الذي أبحث عنه. وكان صديقي قاطعاً: فالمكان يحوي آثاراً لفئة نشيطة من فنانين اجتمعوا طوال عقد الثلاثينيات في أرض مرتفعة على قمة نسيميونغ، حول السلطان نْجُويا في منفاه، وكانت تُسمّى مون بليزان.

تدخّل صوتٌ من مجموعة الشبّان المضطربين بقدر ما هم تائهون، وقال:

ـ أنا أعرف ما تبحثين عنه.

للشاب الذي تكلّم عينان واسعتان وابتسامة ساخرة، واسمه أرونا. سرعان ما عرفتُه، تماماً مثلما عرفتُ الاتساعَ الضاري لأحلامه. فهي بسيطة في الواقع ـ "الولايات المتحدة، لأن فرنسا انتهت ـ وبالتأكيد يأمل أن أسهّل له الحصول على البطاقة الخضراء كثمن لجهده، إلا إذا تزوّجتُه بكل بساطة لتسهيل هجرته. حالياً، حديثنا محدود لأنه رفع آمالي...

ـ أنت تبحثين عن العميدة، أليس كذلك؟

ـ العميدة؟

... من أجل تخييب أملها بسرعة:

ـ فقط هي بكماء.

ـ ليتني استطيع أن ألتقي بها.

ـ إنها لا تكلّم الغرباء.

ـ أو رؤية بيتها.

أنا أعلم أن هذا الحديث الذي يميل إلى التفاهة هو طريقة آرونا لكي يرفع ثمن معلوماته. سلطة صوته فرضت الصمت من حوله. لقد صار دليلي لانعدام الأدلاء، وفي الوقت نفسه صوت شبّان نسيميونغ. فهو من أخذني إلى فناء بيت من الطين المضروب، وعرّفني بالأم العجوز.

هكذا التقيتُ بسارة، عميدة الحي، بحسب تعبير آرونا الذي يعني أنها الأكبر سناً في هذا الحي الصغير. سارة لم تخالفه، بل بالعكس، قالت له وهي تزين كلماتها:

ـ البيت الذي تبحثين عنه احترق منذ زمن طويل.

ذُهل آرونا وأصدقاؤه، فقد كانوا يحسبونها بكماء. وقالوا إن الأم العجوز لم تتكلّم طوال "ثمانين سنة"، وسألوني عمّا فعلتُه لحلّ عقدة لسانها. مثل حريق بيت الفنّانين، وحي هذا الصمت الطويل أضاف إلى إرادتي في المعرفة ما أغلق شفتي هذه السيدة. بقي من مون بليزان قرميدتان فقط، ولكن انطلاقاً من هذه الزيارة الأولى، أملتُ أن تتمكّن سارة التي استعادت صوتَها المفقود أن تُحسن تشكيل كلمات كبيرة ما يكفي لتحل محل الجدران التي لم تبقَ بعد وفاة بُناتها. وكان هذا قضية أخرى بكل تأكيد.

- 3 -

وجـه سـارة العجـوز

ليست عودة صوت سارة المدهشة هي التي جعلتني أتخلّى عن أبحاثي عن القومية الكاميرونية لأستمع إلى قصصها كعميدة، بل وجهها هو ما دفعني إلى ذلك. من كان سيقول لي إنها سوف تأسرني منذ كلماتها الأولى في شبكة شهادتها، وأنني سأحتاج إلى أسابيع، بل إلى أشهر لإيضاحها؟ ومن كان سيقول لي إنها هي، في حقيقة الأمر، التي ستعطينني مفتاح عصرٍ كنتُ قد عدتُ لأبحث فيه بالتحديد في الكاميرون؟ هي وليس آرونا، أوه، ليس آرونا الذي عندما رآني لاهثة كسمكة جزّيتٍ واقعة في فخٍّ وهو يميل إلى التسلّي! ثم إن دفْعَ سارة إلى استئناف قصتها من النقطة التي انتهت عندها في الليلة السابقة ليس بالأمر السهل.

في اليوم التالي لزيارتي، أوحت إليّ عيناها المجعّدتان بأنها لم يعد لديها ما تقوله. وأمام جبينها الثائر، الجبين النموذجي للمرأة في بلادنا، لم ألحّ عليها، بل جلستُ على مقعد واستسلمتُ لصمتها. الأمر سهل: فسارة معْلَمٌ تاريخي. وحتى فمها المَخيط كان حدثاً بحدّ ذاته. عيناها لم تتأثّرا بسنّها، بل بدتا كمصباحين متوهّجين، تشقّان طريقهما عبر جلدها المتهاوي. وحدهما يداها جفّفهما الزمن، وجلدهما المعروق يُظهر أوردة متعرّجة زرقاء.

سيول الحياة افترست سارة، فجلست على الأرض تائهة في فستانها الواسع، الكابا نغودو، الذي غالباً ما ترتديه نساء ياووندي. ورأسها معصوب بمنديل أحمر، وقدماها متقاطعتان أمامها. تنفث التبغ ببطء، وترفع رأسها لترمي للدجاجات حبوب الذرة الصفراء فتنقرها بشراهة، أو تكشط حلقها وتبصق بعيداً.

لاحظتُ أنها تحبّ التبغ حبّاً جمّاً وتتزوّد منه بكمية كبيرة لا تتخلّى عنها. تمدّ لسانها وتضع عليه سيجارة ثم تنظر بفرح طفولي. قلتُ لها:

ـ إن هذا التبغ من فرجينيا، في الولايات المتحدة.

وكان آرونا قد أخبرها من قبل أني قادمة من "أمريكا"، فلم أكرّر ما تعرفه.

أوه، أنا أرى سارة يومياً في الوضع نفسه- وضعها المفضَّل: وهي ترتدي كابا نغوندو بلون مختلف في كل مرة، ورأسها مغطّى بمنديل أصفر أحياناً، وأزرق أو أحمر أحياناً أخرى. وسرعان ما انغرست في روحي بقوة كانغراس تمثال شارل أتانغانا في ياووندي، أو كتمثال نْجويا في فومبان، شرق البلاد، وسط المدينة، حيث كانت تنتصب في السابق شجرة حُميرة ضخمة. شهادة حية على زمن أظهرت لي ما خفي منه بجزء من جملة، فجسم سارة كان يتكلّم حتى عندما تصمت، قصر ألف صوتٍ صامت متساقط على ضفة الزمن. وسط باحة بيتها، قالت لي حتى بصمتها إن كلاً منا يحمل على منكبيه مجموع عصره. هدية الزمن هي الذاكرة: فسارة تبدو وكأنها تعيش في انتظار. ولكن انتظار ماذا؟ هذا ما سأكتشفه بسرعة.

- 4 -

عينا سارة حكاية تبدأ بسؤال

ـ ما اسمك؟

كرّر آرونا سؤال العجوز:

ـ ما هو اسمك؟

شرح لسارة أني أحببتُ نسيميونغ، وأني أريد أن أعرف تاريخها. لم أعارضه حتى لو كانت معلوماته كلّها عني من نسج خياله. كان ينظر إليّ ويبتسم وهو يتكلّم. وأنا أعرف أنه يقدّمني أحسن تقديم لكي يطلب مكافآت على جهوده فيما بعد. يجب أن أعترف أني بحاجة إلى بعض الوقت لكي أردّ هذا الصبي إلى الجدّية. كيف خمّنتُ أن بقيةً من خيال نقدي ما تزال توجد في افتتانٍ كهذا بكل ما هو أمريكي- وبصورة خاصة من أجل الدولارات؟

ما جعلني أغيّر رأيي عن شبّان نسيميونغ هو الصمت الذي يهبط على كلامه المتناثر بمجرّد أن تفتح سارة فمها. في البداية، آرونا وحده هو من كان يطرح عليها الأسئلة. ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً في الواقع، فسارة تعرفه منذ طفولته. قلت لنفسي بكل تأكيد هي تفكّر أني "زبونة" جديدة بالنسبة إليه، كشبّان الجامعة الذين غالباً ما يأتون حاملين آلة تسجيلهم ليسجّلوا حقائق المسنّين التي يسمّونها فيما بعد أدباً.

ـ اسمكِ؟

أجبت:

ـ برثا.

لمعت عينا سارة ونقلتا إليّ "آه!" وفي الوقت نفسه انفجرت في ضحكة لن أنساها أبداً، ضحكة فرضت الصمت على الكون. ورنّ صوت العجوز في الفناء ففرّق الدجاجات، ثم أضافت:

ـ ولكنك لستَ مثلها.

وتحوّلت ضحكتها إلى سعال مجنون، جعلها تكرّر "مثلها" في جري للكلمات كما لو أنها تريد أن تكبح التوثّب المفاجئ لذكرى قابعة في قاع ذاكرتها.

سألتً:

ـ مثل من؟

بقي آرونا حائراً.

وهكذا بدأت سارة تروي لي قصتها. برثا هي الأم العجوز التي سلّمها إليها رجال الرئيس وهي طفلة. كانت أمَةً هذه البرثا، مكلّفة بتربية زوجات نجويا المقبلات، وتلك مهمة أمّنتها طوال حياتها. ولم تكن برثا، لا، لم تكن تكراراً لهذه السارة التي أراها أمامي، على الرغم من أن الحياة أكلتها ووسمتها بندبة عريضة على رقبتها نتيجة عنفٍ مورس عليها في الماضي.

مسنّة، نعم، "مسنّة جداً" حتى، ومع ذلك فقد كانت أصغر سنّاً من العميدة.

قلت:

ـ يا للمصادفة!

ضحكت سارة بمجموع جسدها، وفصلت ضحكتُها عينيها عن مخبئهما العميق. وهكذا اكتشفتُ أنها لم تفقد أي سنٍّ من أسنانها. كانت سارة تضحك لأنه على الرغم من فارق في الزمن قدره ثمانين سنة، فإن برثا عادت إلى أمامها، ولكن هذه المرة لكي تستمع، لتستمع إلى القصة التي لم يكن لديها أذنان لتستمع إليها في الماضي. طوال حياة سارة وهي تنتظر لحظة اللقاء هذه.

قالت أخيراً:

ـ هذا مضحك جداً، أليس كذلك؟

لم يفهم أيٌّ من شبّان نسيميونغ لماذا ألْفَتْ الأم العجوز هذا مضحكاً إلى هذا الحد. على أية حال، احتجتُ إلى عدة جلسات لكي أفهم أن البيت الذي دخلته

سارة وهي طفلة، بعد أن غادرت عائلتها، هذا المون بليزان، كان في الواقع ممرّاً ملتوياً، ومربكاً كتقارب الأسماء الذي حلّ نهائياً عقدة لسان السيدة العجوز. وفي بيت القصص هذا أصبحت برثا، التي اتّخذت مكان أم سارة، الشخص الأهم في حياة الفتاة الصغيرة.

أسرّت لي:

ـ لم أحبب برثاً يوماً، ولكنكِ لستِ مثلها.

تنهّدتُ بصمت، فأردفت:

ـ يمكنني أن أقول لك إنكِ لستِ مثلها.

بم أجيب إزاء هذه العلامة المُفعَمة بالثقة؟ ثمة شيء مؤكّد: هو أني صرتُ جزءاً أساسياً من حياة سارة. وشيء ثان فرض نفسه مع مرور الزمن: أنا لم أدخل في قصّتها لكي أخرج منها سريعاً. أريد أن أعرف التتمّة، أريد أن أعرف كل شيء. أنا مستعدة لابتلاع الحياة، وعالمَ سارة بأسره. كان صمتُها دعوة ملحّة، وأسئلتي دقّات مهذّبة على بابها.

ـ كيف كانت برثا؟

أتت نبرة سارة قاطعة:

ـ لقد كانت ساحرة.

كيف أتابع هنا؟ بدت لي سارة هاربةً من حكاية، من أسطورة. صوتها المرتعش، لكنه قوي، يشبه صوتَ تلك التي ما تزال مرتبطة بقصصٍ عمرها مئة سنة. هل أصدّق أنها لم تتكلّم طوال ثمانين عاماً كانت خلالها تنتظر برثا؟ أم أن هذا لم يكن إلا اختلاقاً من آرونا لكي يرفع مزاد جهوده؟

أضافت سارة:

ـ لا تقلقي. فيما بعد، ستصبح فيما بعد أمي. هل يمكنك تخيّل هذا؟

انفجرتُ ضاحكةً أنا أيضاً.

ـ العالم رهيب!

فيما كانت تتذكّر برثا المرأة الشرسة، كنتُ أبحث عن سارة، طفلة السنوات التسع، في جسد المرأة التسعينية التي تتسلّى بسخريات الحياة. أريد أن أعرف لماذا

قرّرت تلك الطفلة أن تمتنع عن الكلام. أيّ جحيمٍ عاشت ليُسكتها طوال هذا الزمن؟

سأعلم ذلك قريباً. وستجد سارة الكلمات لتقولها لي. هي وأنا سنكرّر لعبتنا، لعبة الأم الضالّة، أنا أُصغي، وهي تتكلّم. سنكرّر هذه اللعبة طويلاً جداً بحيث أن العميدة ستعيش حياتها من جديد عبر حديثنا. نعم، سيكون ذلك بايامسلَّم، سيكون تبادلاً للأسرار تعيد سارة من خلاله، كلمةً إثر كلمة، وجملةً إثر أخرى، بناءَ بيت القصص الذي كان في الواقع مون بليزان. بضحكة مفرقعة استعادت سارة الكلام. وهي قول كل شيء. نعم، الضحكة، ماذا يُقال أكثر؟

أردفت وهي تسحق بعوضة حطّت على رقبتها:

ـ أنا واثقة من أنها كانت تكذب كثيراً. كيف يمكنها أن تعرف كل ما روته؟

لو سألتني سارة: "هل تعرفين عمّن أتكلّم؟" كنتُ سأجيب بارتباك: "عن برثا" ومع ذلك، أيّ يقين لديّ أن سارة نفسها لم تختلق القصص التي ترويها لي؟ فقط، أنا لا أجد أبداً الشجاعة لأقاطعها. وفكرة أن امرأة في التسعين تكذب فكرة مهينة بكل بساطة. ارتجفت لتخيّل نفسي وأنا أمسك يديها لأقاطعها: "ولكن يا جدتي، ألا تبالغين قليلاً؟" تخيّلتُ تفكّك قسماتها، وإظلام جمال وجهها الكهفي، كمصباح تحت عنف نفَس؛ نعم، يمكنني أن أرى فمها ينغلق من جديد وإلى الأبد. ستموت العجوز مع قصتها المسكوت عنها، وهذه المرة أنا من سأكون قاتلة كلامها. كلمة شكٍّ تكفي لقتل الحكواتية، ومعها قصتها.

ـ 5 ـ

بــرثا وظلّــها

سألتني سارة يوماً:

ـ هل لديك أولاد؟

ـ بنت.

وأريتُها الصورة التي أحملها في محفظتي.

قالت بعد بضع لحظات من التأمّل:

ـ طفلة جميلة جداً، أليس كذلك؟ كم عمرها؟

ـ تسع سنوات.

غمغمت العجوز مفكّرةً:

ـ تسع سنوات أيضاً. وما اسمها؟

قلت اسمها لها فابتسمت. ضربت ساقها، ثم وضعت الصورة إلى جانبها لتحضّر عبوة جديدة من التبغ.

ـ على الأقل، ليس اسمها سارة.

ضحكنا معاً.

ـ كان ذلك سيكون كثيراً، أليس كذلك؟

سألتها:

ـ ماذا تعنين؟

ـ يا للطفلة الجميلة!

قالت العميدة ذلك ببساطة وهي تمسك من جديد بصورة ابنتي، وأخضعتها لامتحان عينيها الناريتين، ثم أضافت:

ـ لا بدّ أنكِ أمّ سعيدة، أليس كذلك؟

فيما بعد فقط، عرفت أن تلك كانت طريقتها في تمييزي عن برثا: فأنا الأم السعيدة. قالت سارة ذلك وهي تغمض عينيها كما لتُغلق روحها على مشهدٍ كان نظرُها مرآة له. رأت وجهي يرسم أسئلةً مفكِّرة عجز فمي عن لفظها، ورفضت أن تدخل في حقل صمتي الخجول.

آه سارة!

ألم تكن تعلم أن الاستماع أصعب من قول الحقيقية؟ أوه، إنها تعرف ذلك بكل تأكيد! سارة تريد أن أصغي إلى قصتها، هذا كل ما في الأمر؛ وأنا سرعان ما فهمت أن قصتها مكوّنة من قطع متناثرة، أصداء للحيوات العديدة التي كانت أمينة عليها، وأنها تضم أقداراً طباقية. ومع ذلك، عندما كان صوتها يجتاز رأسي كنتُ أرى عينيها تصبحان جمراً في عمق وجهها المغضَّن.

قالت بعد صمت طويل:

ـ تبغ جيد. في سن ابنتك كنتُ زوجة نْجويا.

ـ في سن التاسعة؟

ـ في التاسعة. وهو من علّمني الكتابة.

نظرتُ إلى سارة مستغربةً مرةً أخرى، لأني كنتُ أحسبها أمّية. ضحكت لنظرتي المندهشة. كم تحبّ أن تراني تائهة!

ثم أكّدت:

ـ نعم، الكتابة.

في هذه اللحظات من الولدنة، تعود سارة إلى طفلة التاسعة التي كانتها: غيورة. أراها جالسة في فناء؛ وعلى مقعد خلفها، تجلس برثا مفتوحة الساقين تضفر لها شعرها، واضعةً الخيوط بين أسنانها، ومُجبرةً سارة على رفع رأسها، وتغنّي أغنية أطفالٍ في أذنها لتُنسيها عذابها.

سألتني سارة ذات يوم شاهدتُ فيه أماً تضفر شعر ابنتها:

ـ وأنتِ أيضاً، هل تضفرين شعر ابنتك؟

ـ لا.

ـ وكيف ذلك؟

ـ آخذها إلى عند المزيّنة.

أخبرتني سارة في ذلك اليوم:

ـ وبرثا أيضاً، لم تضفر لي شعري قطّ. فقد كانت تقصّه دائماً.

نظرت إليّ سارة مستغربةً أني لا أعرف قصّتها من قبل. في البداية طلبت أن أحذف من ملاحظاتي الأم التي تمشّط ابنتها: كليشيه. قالت لي إن حياتها في مون بليزان لم تكن حياة "طفلة كالأخريات". وهذه المرة أيضاً، كنتُ برثا السعيدة. فقد كانت سارة تفضّل أن تدفن برثا الشقاء، شخصيةَ العذاب تلك، في غياهب الصمت. قبلتُ لعبة التحاشي التي تريدها، والتي رأيتُها في أثنائها تعيد اكتشاف رائحة كلمات قديمة عندما كانت تُغلق أذنيها لموسيقاها؛ الشعور بوزن القصص حتى وإن كانت لا تريد طعمها؛ وبصورة خاصة، الانحلال في أجساد تستشعر نبضها العصبي في لحمها عبر عبارات مهموسة. غريبة كانت تلك المجموعة التي اكتشفتها في بلاط السلطان؛ والأغرب منها كانت تلك الأم الظالمة، برثا، المكلّفة بأن تجعل منها امرأة.

دخل رجال الرئيس إلى مون بليزان من الباب الخلفي، ومرّوا في ممرّ أو ممرّين خانقين؛ صوت أو صوتان مرتعشان؛ وجهٌ أو وجهان مستغربان- ووجدت سارة نفسها أمام العينين الحمراوين لهذه المرأة الطوية كرجل، مع ملامح فولبيه، ملفوفة بمئزر أزرق، له ألوان الترمّل إذن؛ امرأة كان نهداها الغافيان كرتين معلّقتين أمام جسد هزيل، والشعر محلوق مع خصلة على رأس مرتفع. معبد حقيقي للأسف، ونظرتها نظرة امرأة رأت أكثر من مرّة زوجها يسقط ميتاً. وترمّلها المعلَن يحمل هيئة الأبدية، والوجه السامي لحِدادٍ يبدأ إلى ما لانهاية.

سألت برثا الرجال:

ـ أهذه هي الفتاة؟

حلّت مئزرها ثم أصلحت ربطه على مستوى إبطيها، كاشفةً تحت هذا الثوب المتقشّف مئزراً آخر ألوانه حيّة.

ردّ الرجل ذو الخوذة الاستعمارية:

ـ نعم، إنها هي.

انحنت المرأة لكي تكلّمهم لأنها كانت أطول قامةً منهم. بصعوبة أخفت نفاد صبرها الطبيعي. لكن الرجل ذا الخوذة أضاف، بينما كانت نظرته مشتّتة.

ـ اسمها سارة.

كرّر الرجال كالعادة:

ـ سارة.

سألها رئيس العصابة:

ـ أليس لديك شيئاً لنشربه؟ لا شيء لنشربه؟

اختفت برثا في البيت وهي تجرّ خلفها سارة الصامتة. ثم عادت وحيدة، وبيدها دنٌّ من خمر النخيل. سكب الرجل ذو الخوذة الاستعمارية جرعة على الأرض ثم شرب ملء الكأس الذي قدّمته له برثا.

سألها أحد رجاله بخيبة أمل:

ـ ألا يوجد بيرة؟

وسأل آخر:

ـ ألا يوجد بيرة ألمانية؟

قاطع القائد رجليه المتذمّرين:

ـ اخرسا، واشربا!

ابتلع الواحد تلو الآخر كأس برثا، ثم مسحوا شفاههم بظواهر أيديهم، وقال الواحد تلو الآخر:

ـ لا بأس، إيه؟

لم تعد برثا تنظر إليهم. كان بإمكان هؤلاء المهرّجين الشرّيرين الذين تهزّ ضحكاتهم الباحة أن يكونوا ظلالاً. ولكن هل ألقت نظرةً على سارة عندما سحبتها إلى البيت، وهل رأت دموعاً تسيل على وجهها، دموعاً غزيرة؟

سرعان ما اكتشفت الفتاة أن تصرّف الأسيرة العجوز الذي قلّمان كان يراعي شقاءها إنما فرضه عليها الواجب؛ وأن كل حركة من حركاتها له يقين عبودية مستفحلة. أحسنت سارة رؤية أن تفسير هذا القلب القاسي كالحجر في الندبة العميقة التي تركها ظلمٌ على رقبة الأم الظالمة. وقالت لي سارة فيما بعد إن هذا يعني أن برثا رأت كلّ شيء من قبل.

- 6 -

خجل برثا

لم تكن الأولى! فبرثا كانت قد حضّرت عشرات الفتيات ليدخل بهن السلطان. كيف إذا كان سرّ فنّها لباساً لا ترتديه إلا وهي مغمضة العينين، ومع ذلك فإن الأم القاسية ليس لديها أي إيمان في هؤلاء الفتيات اللواتي كُلّفت بتحويلهن إلى نساء ملكيات. إن قلبها المشلول يَصمّ أذنيه عن قصصهن!

لماذا فقدت برثا الإيمان بهؤلاء الفتيات جميعاً؟ هل هذا عندما تأتيها فتاة أو اثنتان أو ثلاث ووجوههن مغطّاة بالدموع على عذرية فقدنها في أنهار لا يتذكّرن حتى أسماءها؟ أعندما تبدأ خمس أو ست أو سبع منهن اختلاق قصص عرجاء لا يجد السلطان نفسه فيها كما يجب؟ أم عندما تختفي عشرات منهن في الغابة ليُبلّغ عنهن أنهن مومسات في المدينة؟

أو عندما تُقدم فتاة في فومبان، قديماً، في بلاد باموم-أوه، برثا ستتذكّرها حتى النهاية! ـ تحمل اسم الأم الملكية نجابدونك، على الدخول إلى سرير ملازم فرنسي اسمه برستا، وهو الضابط الفرنسي المحلّي، وتنام في هذا السرير، لتخرج منه بسرعة وتتهم ابن برثا، نعم، نيبو، ابن برثا، بأنه اغتصبها؟ أوه برثا لن تنسى أبداً هذه الخيانة البعيدة لمدرستها، مدرسة العفّة. عرفت سارة ذلك بسرعة، مثلما عرفت تفاصيل تلك الخسة التي ما تزال تنهش روح الأم القاسية بنفحات من كراهية.

قالت لي سارة:

ـ ما تزال تدمى، ويمكن رؤية ذلك.

سلطنة باموم بأسرها لن تنسى هي أيضاً هذه القضية. حتى لو أن سقوطها حدث قبل ذلك بكثير، عام 1902، في السادس من تموز، إذا توخّيت الدقّة، عندما قرع البابَ الجنوبي لفومبان أوائلُ البيِض، ثلاثةُ ضبّاط ألمان: الملازم سنادروك والنقيب رامسي، يرافقهما التاجر السويسري هابيش، فطلب السلطان نْجويا من رُماة سهامه الذين تأهّبوا لقتلهم، إلى إعادة أسلحتهم.

ولأصحّح هنا، إن استطعت: فسقوط سلطنة باموم تكرّس بصورة أكيدة في 13 نيسان 1903، عندما ذهب نجويا بنفسه وطبق بيض في يده ليرحّب بضابط ألماني يدعى هيرتلر-وكيف أنسى هذا الاسم البغيض؟-عند أبواب عاصمته. آه، هل كان السلطان يعلم أنه سلّم بلاطه لسلسلة لا تنتهي من المصائب؟ أولاها: الضابط طلب سلق البيضات التي قُدّمت له قرباناً وأكلها مع جنوده؛ وثانيها: عندما وصل إلى البلاط الملكي، ذهب هذا الضابط الغبي ليجلس على عرش السلطان، ماندو بينو، الذي لم يكن ينتظر إلا مؤخرته الاستعمارية، كما كان يعتقد. حسنٌ، سارة لا تستطيع أن تعرف ملابسات هذا الخجل ـ 1903، 1931، 1914....

كيف لهذا أن يكون ممكناً؟ ونحن في عام 2000.

ومع ذلك فقد اكتشفت أنه بالنسبة إلى الأم القاسية، فإن هذه الجراح المحفورة في ظهر أهل باموم كلّها إنما هي إهانات شخصية. عنف قبضتها، كرفضها لسماع تذمّرات بناتها، يعبّر عن فقدانها للإيمان بعذابات الآخرين. كانت الندبة على رقبتها تُظهر بما يكفي تلك الأعمال العنفية التي كانت تُسكتها، حتى وإن لم تكن كافية لتفسير قسوتها. أما بالنسبة إلى العربة الميتة في باحة مون بليزان، فلم تكن تستجيب حتى لغناءات وصرخات وبكاءات الأطفال الذين كانوا يكتشفون أنفسَهم فيها سائقين متخيَّلين، ويجتهدون في جعلها تسير: فروم، فروم!

1914، 1931...محرّك السيارة ينبض، مثل قصة سكان باموم ـ وكقصة العالم بأسره. مهما عاشت برثا، فإن سارة ستفكّر ذات يوم، وهذه الجملة ستصف ظرفها أيضاً: كان ذلك رهيباً.

1931، بدأ نهارها باكراً في هذه المزرعة، بينما كانت الشمس ما تزال خجولة. كيف لم تتصوّر برثا أن هذا كاف لتكسر فتاةٌ رأسها بالجدار؟

"أمكِ دلّلتكِ!" هذا ما رأت الأم الجافية أن تقوله.

وهذا كان رأيها بالفتيات اللواتي يأتين إليها جميعاً: "فتيات مدلّلات" لم يكن لديها بنت، بل أنجبت صبياً، نيبو الذي سرعان ما تعرّفت سارة إلى مغامراته السيئة. ومع ذلك برثا تعد الفتيات اللاتي تربّيهن، وكذلك الطفلات اللاتي تقدّمهن هذه لنجويا، كأولادها. تربية نساء السلطان لم يكن بالأمر القليل، أوه. فهذه المهمة استهلكت حياتَها في فومبان، حتى وإن لم يكن انعكاسُ العيون الغريبة وحدَه كان ما يزال يجعلها ترى ذلك. سارة أصبحت هذه العيون، الأمر الذي لم يكن بلا فائدة! فبرثا لم تتخيّل قطّ ماضياً خارج جدران مون بليزان، في ياووندي، وليس من قبيل المبالغة القول إنها كانت تعيش حياةً بلا مستقبل، لأن ذلك كان الثمن الذي يجب أن يدفعه أولئك الذين كان يملكون الحق في رؤية السلطان عارياً.

وها هو بالضبط، هذا الغياب للمستقبل هو ما كانت الأم القاسية تقرؤه في عينَي سارة التائهتين. كيف كان بوسعهما أن تكونا صديقتين؟ كانت الفتاة ستفتح شفتيها، ولسانُها كان سيلفظ كلماتٍ ما كانت الأم القاسية ستفهمها. وكانت مصيبةً كافية أن سارة لم تنجح في اختبار العذرية عندما فُرض عليها. ركامٌ من القصص المقموعة انبسط أما ناظرَي برثا، محرِّراً أسئلةً كانت مخصَّصةً حتى ذلك الحين لفتيان باموم.

ـ مع من نمتِ، يا قذرة؟

وبعد ذلك:

ـ هل هو رجل واحد؟

كذلك لم يكن لفتيات ياووندي أصابع بين أفخاذهن ليُحصين عدد الرجال الذين عرفنهم. أي يأس أن تضيع الفضيلة بهذه السرعة! احتجّت سارة على هذه الملاحظات كلّها بقدر ما كانت برثا تصرخ بها في أذنيها. نعم، كانت الأم الجافية تصرخ مقتنعةً بفعلها وهكذا فهمت من شخص لا يتكلّم لغتها. كانت عينا الفتاة المرعوبة تبحثان في الظلام عن أن تُنتزع على الألف صورة التي كانت تسكن ماضيها هي. الأم الجافية تصرخ، وسارة تعتصم بالصمت. لقد كانت البدايةُ نهاية أيضاً، بالنسبة إلى البنيّة، كما بالنسبة إلى أي شخص آخر.

- 7 -

امـــرأة شـــرّيـــرة

خاطرتُ بسؤالها مرةً:

- ألم تحاولي الهرب؟

- بكل تأكيد نعم، وليس مرة واحدة. فلطالما أردت أن أعود إلى بيت أمي.

ذات يوم خرجت من بيت الأم القاسية ومشت على طول ممرات مون بليزان. مشت ومشت، وتجاوزت وجوه الحرس الغافية وهمسات البيوت السرية، والدعوات السعيدة للعب حول سيارة السلطان الميتة. مشت ومشت. ولم تشأ أن تجري لئلا تثير انتباه الرجال الجالسين أرضاً في الباحات الداخلية، والذين يتسلّون بالنغيكا، لعبة الحساب التي يعشقها الإيوونـدو. وأخيراً وجدت نفسها أمام برثا الواقفة أمام باب بيتها، ملتفّةً بمئزرها الأزرق، وقبضتاها على خصرها تعلنان الغضب:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

بقيت سارة صامتة. وفي ذلك اليوم أيضاً، لم تستطع برثا أن تنتزع منها أية كلمة! وعادت الأم الغاضبة تاركة سارة التي كانت تظن أن القصة قد نُسيت، ولكنها سرعان ما ستعرف ثمن حَرَدها. غابت برثا في الباحة الكبيرة وعادت سريعاً وبيدها غصن أوكالبتوس منزوع الأوراق. واختبرت مرونة السوط بليّه أمام الوجه المرعوب للفتاة الصغيرة التي أمسكت بذراعها. رفعت الأم المعاقِبة السوط أمام وجهها المكفهر. وحدها يدها بقيت جامدة. لم تقوَ على تحريك يدها لتنفيذ

العقوبة! رفعت سوطها من جديد، ولكنه بقي معلّقاً، وجسمها مندفع إلى الأمام، ويدها في الهواء، ودموع تسيل من عينيها.

ـ أين كنتِ يا طفلة المصيبة؟

لم تُجب سارة، فقامت الأم المتوعّدة بتجربة جديدة:

ـ لا تهربي بعد الآن أبداً، وإلا سأُريك!

ـ أريد أن أعود إلى أمي!

هذه الكلمات أصابت المرأة العجوز بالصمت. رمت سوطها أرضاً ومضت مهزومة. ومع ذلك، في مرة أخرى، وهي في أوج سعارها، أرسلت سارة بنفسها لتبحث عن سوط عقوبتها في الباحة! بعض أطفال المزرعة ساعدوا سارة على إنجاز عملها العبثي، وهم مسرورون بتحويل ألعابهم الفظّة إلى كراهية مكتشَفة. وهذه المرة أيضاً، لم تستطع الأم تنفيذ العقوبة التي هدّدت بها سارة. وقد اعترفت بذلك فيما بعد:

ـ هل تعلمين أني بحثتُ عنكِ في كل مكان؟

وحنّ صوتُها حين سألت:

ـ إلى أين ذهبتِ؟

ذاك اليوم، أدركت سارة أن غضب برثا لم يكن موقّتاً فحسب، بل كان لها تغيّرات غريبة في نبرة صوتها. وفي نهاية محاولاتها للهرب كلّها، كانت البنيّة تجد نفسها أمام الهيكل الأزرق للأم الضخمة التي تنتظرها على باب الشقاء وقبضتاها على خصرها. وكانت سارة تدع برثا تسحبها إلى الغرفة وترفع عليها سوطاً عاجزاً. برثا التي يبصق فمُها ناراً غاضبة، لم تكن يداها ترفعان السوطَ المهدِّد إلا لئلا تستخدمه. ذات مرة، أمام وجه برثا الملتهب، أخذت سارة تجري متراجعة، مرعوبة من صمت السيدة المهزوم. انفجرت برثا: "لقد تعبتُ من الجري خلفك. أنا منهكة، اتسمعينني؟ لا تجعليني أبداً أجري خلفك!"

بدأتُ حديثي معها ذات مرة بجملة ندمتُ عليها بسرعة:

ـ ألم تسأليها يوماً لماذا لم تكن تستطيع؟...

ـ تستطيع ماذا؟

كانت سارة تحلم أحياناً أن تجتاز امرأةٌ الظلام لكي تأخذها. كانت المرأة تفتح الباب الذي يفضي إلى غابة، وسارة ترتمي خلفها. ولكن سرعان ما اختلطت الطرق أمام خطا البنيّة التي توقّفت. رأت المرأةَ تختفي شيئاً فشيئاً. مرةً أو مرتين جرت خلف المرأة الهاربة. ركضت سارة، ولكنها تعبت بسرعة. وعلى الرغم من أنها لم ترَ قطّ وجه امرأة أحلامها، ظلّت مقتنعة أنها أمها. تلك المرأة عديمة الوجه سكنت طويلاً لياليَ سارة ونومَها اليقظ. لم ترَ أمها بعد ذلك في أي مكان إلا في أحلامها. وغدت هذه الأحلام لحظات معاناة حقيقية، فكانت تستيقظ وهي تُطلق صرخات مجنونة. سألتها برتا مؤنّبةً: "لماذا تصرخين في الليل؟ في النهار يجب أن تتكلّمي وليس في الليل."

اعترفت لي سارة بصوتها الأكثر يأساً:

ـ كنتُ أظن أنها باعتني. وقد كرهتُها لهذا السبب!

لا، لا يمكن أن تكون أمها قد باعتها. أمام عينيها الخاليتين، وهذه الغضون العميقة وصمتها الملغّز، قلتُ لها:

ـ لا تفعل الأم هذا النوع من الأشياء.

بدت سارة وكأنها قبلت ملاحظتي، فأجابتني وهي تحكّ قدميها، تائهةً في أفكارٍ بعيدة:

ـ أنتِ على حق.

واعترفت لي سارة ذات يوم وهي تحتويني بيديها السخيّتين:

ـ لطالما ظننتُ أن أمي أيضاً كانت سجينة جسدها كامرأة.

حتى فقدان سارة لعذريتها لم يفتح لها أبواب الحرية. لقاؤها مع برتا كان سيتم في فومبان، وحالتها كانت ستُعامَل بطريقة مختلفة: كان الخزي سيجلّل مصير الفتاة وكانت ستُطرد إلى بيت أمها، وعلى جسدها علامة الرفض. وكانت أية بنتٍ من بنات عمّها ستحلّ محلّها؛ كانت برتا سترشو التانغو، وهو رئيس الشرطة السلطانية وكانت المعاملة ستتم بلا ضوضاء. لو اكتُشف دنسها في الليلة السابقة لدخولها سرير السلطان، كان دم فرّوج سيلطّخ السرير الملكي بآثار هي غير مسؤولة عنها.

وثائق الأرشيف صريحة حول تلك الفترة من حياة نْجويا، حتى وإن سكتت عن التفصيلات التي كانت تجري في غرف النوم والردهات. هل هو حياء استعماري؟ لقد رأيتُ بينها ملاحظات بيروقراطيين، وكذلك ملاحظات كهنة وعلماء نبات وأطباء بيطريين، وحتى مسافرين مغفلي الأسماء لم يُمضوا في ضيافة شارل أتانغانا أكثر من ليلة واحدة، ولكنهم كانوا يجدون ما يكفي من الكلمات ليملؤوا صفحات وصفحات من دفاترهم. إذن لم يقل هؤلاء الكتّاب عن حياة نْجويا الحميمة إلا أشياء قليلة جداً.

ومع ذلك أليس من المهم معرفة أن الرئيس شارل أتانغانا لم يتخلّف قطّ عن تقديم فتاة لليلة هؤلاء المسافرين المستعمرين، كما فعل من أجل نْجويا؟ واحد فقط من هؤلاء الكتّاب كم كانت "قذرة" الليلة التي أمضاها في وادي الإيوونّدو، التي لا يمكن إيقاظها إلا بمعجزة." كان مؤلّف هذه الأسطر كاهن كاثوليكي!، وسآتي على ذكره قريباً. ومع ذلك ما من أحد من هؤلاء الرجال بدا غير مبالٍ بألمعية شارل أتانغانا. الاختلاف في المعاملة المطبَّق على نْجويا وعلى الرئيس لم يكن يتوقّف على سريرهما. فقد أصلح شارل أتانغانا علاقته مع الفرنسيين بعودة عانى السلطانُ نفسه في فهمها. وكيف! ما يزال أتانغانا مذكوراً في كتب التاريخ على أنه الشخص الوحيد في المحمية الذي تمكّن من تغيير اسمه في عزّ الحرب بين عامي 1914 و1920، باختصار، انتقل من Karl الألماني إلى carl الإنكليزي، ثم إلى Charles الفرنسي دون أن يربك هتافات الجمهور الاستعماري. ولا يُعتدّ بالوثائق القليلة الموجودة في الأرشيف الفرنسي التي تؤكّد على خبثه، وازدواجيته، وتبرز طفولته الذليلة، ولنقل كلمتهم "عبد".

عندما دخلت سارة إلى مون بليزان، كان شارل أتانغانا عائداً من رحلة إلى باريس، كان في خلالها ضيفاً على الرئيس غاستون دومرغ، وحضر الافتتاح الكبير للمعرض الاستعماري في غابة فنسن. أوه، باريس لم تكن عاصمته الأوربية الأولى! فقد كان يعرف مدريد حيث عاش سنتين، وكذلك برشلونة وروما. إذن كان بوسعه أن يصلح رأيه في العاصمة الفرنسية إلى ما رآه في مكان آخر في أوروبا، تماماً مثلما وافق بين الفكرة التي كان يحملها عن رئيس فرنسا مع ما تأكّد منه عند القيصر

الألماني والملك الإسباني والبابا. بالتأكيد لم يعبّر قطّ عن دراساته المقارنة عندما كان في الكاميرون، لأسباب بديهية جداً.

تعود الصداقة بين شارل أتانغانا ونْجويا إلى فترة زوال حظوة الرئيس، في عام 1920، بعد عودته من إسبانيا، فقد حرمه الفرنسيون الذين كانوا يديرون الكاميرون من سلطته العليا، وعُيّن في الإنشاء الطرُقي في منطقة فومبان. وهكذا وجد نفسه في المدينة نفسها التي كان نْجويا يعاني هو أيضاً في الحفاظ على سلطته السابقة، إذ خضع لسلطة سياسية أصبحت فجأةً متقلّبة جداً. كلمة واحدة حوّلت بسرعة كبيرة قدَر الرئيس، إذ أعادت إليه جميع السلطات التي كان يتمتّع بها طوال فترتي الإدارة الألمانية ثم الإنكليزية: كلمة كاكاو.

وسأعود إليها فيما بعد.

وبالمقابل فإن سيرة حياة نْجويا سلكت طريقاً متعرّجاً أكثر خزياً، ومأساوياً أيضاً، هو طريق أولئك الذين وضعوا بيضهم في سلة الألمان في أثناء الحرب: طريق العميل. ونما لديّ انطباع أحياناً بأن شارل أتانغانا، المترجم المحترف، قد شغّل بهلوانية لغته لكي يبقى حياً في لحظات الاضطراب تلك. حكمه البدئي وضعه في معسكر الألمان لأنهم هم من جعلوا منه Oberhauptling، أي رئيساً أعلى، وأذاقوه طعم القيادة. رافقهم إلى أوربا بعد الحرب، وشهد معهم في المحاكم كلّها التي حمل إليها المستعمرون الألمان حالة زراعاتهم الضائعة في نهاية الصراع. ومع ذلك، لم يلبث الرئيس أن غيّر معسكره، لأنه فهم أن هذا هو الوسيلة الوحيدة من أجل أن يعود إلى بلاده، الكاميرون.

بالنسبة إلى نْجويا، لم يكن الاستعمار إلا لعبة شطرنج يمكن أن تكون نقلتها الأخيرة مفيدة. ومع ذلك، يمكنني أن أقسم أنه ما كان يتخيّل أن سارة، ابنة التسع سنوات التي أُهديت إليه من صديقه ستكون العنصر الأساس في متاهة افتدائه الاستعماري. وعن هذه الشهادة بالتحديد، سكت الأرشيف الاستعماري. وبالتالي، هنا تتّخذ كلمات العميدة أهميتها، حتى لو كان من الصحيح أن الفتاة الصغيرة التي دخلت مون بليزان مرتعدةً في ردهات المزرعة لم تكن لتتصوّر قدراً كهذا.

فكيف تمكّنت سارة من ذلك في لحظات اكتشافها، وهي غرفة الأم الظالمة المظلمة، وساقاها متباعدتان، أن فرجَها الذي ابتلع بيضة مفترضة كبير جداً عليه. لم تنهض في ذلك اليوم إلا لتلتقي بنظرة برثا المكفهرّة من الخجل. ثمة سقطات يظن المرء أنه لن يبرأ منها أبداً. لحسن الحظ، لقد حفظ العالم سر الارتداد.

- 8 -

بنت - صبي

تلكم هي الأحداث: ما كانت سارة لتبلع لسانها لو أنها وجدت كلاماً تعبّر به عن انفعالاتها. فكلّما لمست يدا برتا ساقيها، أخذت تعضّ شفتيها، وتضرب الأرض، وتخمش جلدها. فقد كان لديها انطباعٌ بأن يداً تخترق لحمها. أوه! لم تصرخ، ولكن عينيها ازدادتا انتفاخاً.

هنا، أبدت برتا بعض الشفقة، وطرحت سؤالاً أو سؤالين، باختصار: فتحت أذنيها، وحرّرت بكل تأكيد أبواب هذا الصمت الأكثر اضطراباً: صمت عمّ سارة أمام رجال الرئيس الذين أتوا لانتزاعها من أمّها؛ وصمت رجل الظل، العم أوونا، الذي لم يستبقِ ابنة أخيه، بل وجد يدين ليحجز يدي أم سارة اللتين أرادتا حمايتها.

والأب؟

أي أب؟ ألم يصبح العم أوونا أبا سارة منذ أن توفّي أبوها؟ ألم يرث الأم بعد وفاة والد سارة؟ آه، لننسَ الأب لحظة؛ كلمة كانت ستكفي، خطوة، حركة-نعم، كانت حركةٌ كافيةً لبرتا، لتكتشف عمق صمت سارة النابض. ولكن "جميع الفتيات كاذبات": هكذا كان رأيُها. ليس غير الوجه الممزّق للأم التي عرفت الرعب الذي من أجله لم تُصغِ برتا. ما كانت برتا لتخسر شيئاً لو عرفت قليلاً عن بناتها. هذا ما قالته العميدة لي.

- ماذا كان يُعرف في ذلك الزمن؟

كان هناك عائلات تسلّم بناتها للسلطان أملاً في حظوة ما. كانت ابنتهم سلماً في صعودهم نحو قمة السلطة؛ شجرة لا تكبر إلا لتحميهم بظلّها الوارف. لا ريب في أن الآباء كانوا المحامين الأفصح في هذه المنطق الهزيل، وهم الذين يحلمون بالاقتراب من القصر بأي ثمن. ومع ذلك فقد كانت قصة سارة مختلفة عن السيناريوهات الكلاسيكية التي يمكن أن تخمّنها برثا في فومبان لأن الفتاة كانت من مجموعة إثنية ومن عالم مختلفين. كانت من الإيووندو، والأم الظالمة التي شاخت وهي تنظر إلى بنات باموم اللواتي يؤتى بهن إليها من أجل مصلحة فقط، كانت ستكسب في هذه الحالة الخاصة لو أنها كانت فضولية قليلاً، ولو فتحت أكثر الأبواب الموصدة لكلام الطفلة المهموس، باختصار: بطرح أسئلة عن الماضي.

قالت لي سارة وهي تهزّ رأسها:

ـ غرابة الناس حجة لها ساقان قصيرتان جداً، أليس كذلك؟

ولأن سارة انتقلت من الصمت إلى التشنّجات المجنونة، فإن الأم الجافية وجدت نفسها مضطرةً لإيلائها اهتماماً خاصاً. وسرعان ما صار نظرها يتبع الفتاة في ممرات البيت. وكثيراً ما سُمع صوت برثا ينادي سارة في ممرات الحدائق. ويوم اختبار البيضة، وعندما حرّرت العجوز رجلَي الطفلة، ركضت سارة لتختبئ، عاريةً، في أول غرفة وجدت أبوابها مفتوحة. وحدها الأم تستطيع أن تغطّي قصة مخزية لمئزر حب. فالصبي، نعم الصبي الذي سحبته إلى خارج الغرفة التي اختفت فيها سارة سيفهم سريعاً لماذا تنفّس الأم القاسية الذي يزداد تقطّعاً كان تنفّسَ أمومة مستعادة بطريقة غير منتظرة.

أوه، كيف أفسّر ما رطّب فجأةً وجهَ برثا المكفهرّ، ونفخ نهديها الغافيين، إلا بالقول لها إنه تمّ التعرّف إليه من جسم أمومي؟ أبدى هذا الصبي بعضاً من الفضول حتى لمح في هذا الجسم لأم متأخّرة القصة المعذَّبة لفقدان، قصةً معيشة في الطرف الآخر من قصته.

ـ ماذا حدث؟

برثا هي من طرح السؤال الوحيد الممكن هنا.

مسحت بغضب يديها على مؤخّرتها، كما لو أنها لمست إفرازات فجأةً، ثم سألت:

ـ ما بك؟

الصبي الذي قاطعت نظرتُها نظرتَه لم يطرح أي سؤال، بل كان ينظر إلى برثا بصمت، وبيأسٍ أيضاً.

هذا ما حدث باختصار: سارة ارتبكت. في الظلمة التي لجأت إليها لبست ثياباً غير ثيابها. وكان ذهنها مليئاً بأفكار عن الهرب: الهرب من الأم القاسية، الهرب من العم أوونا، الهرب. بطبيعة الحال، لم تلاحظ ما حلّ بها بسبب ارتباكها الشديد. لكن برثا رأت الصبي الذي صارته من الآن فصاعداً. واعترفت به على أنه ابنها. نعم، وحدها الأم القاسية عرفت في البنيّة التي كانت تتخبّط بين يديها الابنَ الذي فقدته في اضطرابات حياتها البعيدة في فومبان. أصبح وجهها من الصلصال. غطّت فمها براحتها لتخنق صرخةً، فهي تريد أن ترى بشكل أفضل.

ـ من أنت؟

تراجعت برثا خطوةً، لكنها توقّفت عند باب الغرفة التي حرمتها من الضوء الذي كان سيكشف كل شيء.

ـ ماذا يحدث؟

قلّصت بطنها لتوقف فيه هزّات ما كانت لتشك فيها أبداً.

أخذت برثا ترتجف وهي تضمّ نهديها المرطّبين، وتضغط بطها بألم. كانت تعلم أن أسئلتها تافهة، وسارة لن تردّ على أيٍّ منها. عرّت الصبّي المرتجَل بعنف خيبةٍ هي وحدها تشعر بها. رفعت يدها لتضرب، لكنها أسقطتها بعد أن فهمت أخيراً إلى أين يمكن أن يؤدّي بها غضبها. لم تطلب من الفتاة أن تُحضر سوط العقاب. بل بالعكس، امتلأت نظرتُها بالدموع، عندما تمكّنت أخيراً من أن تتلعثم: "لماذا؟"

في ذلك اليوم، تغيّرت العلاقة بين سارة وبرثا تغيّراً جذرياً، حتى وإن كانت ما تزال تائهة في متاهة الكذب. الأم الحنون التي رأت في لحظةٍ ابنَها يعود إليها مسحت عينيها لتكتشف أمامها سارةً هلعة. ولم يقدّم لها الظلام إلا وجهَ البنت

البكماء والتائهة. ومنذ ذلك اليوم لاحظت سارة أن برثا تراقبها بريبة، بحثاً عن شيءٍ وحدَها نظرة الأم يمكنها أن تلتقطه.

لم تشتبه سارة المسكينة بإرهاص الخطة المجنونة التي تولّدت في خاطر الأم التي استيقظت أمومتها فجأةً. كان استغرابها عظيماً عندما انفجرت برثا باكية، متجمّدةً أمامها وهي التي حاولت الهرب، مع سوط عجزت فجأةُ عن استخدامه. شفاه الأم الحنون تهمس كلمة: "ابني!" كفراشة عالقة في شبكة عنكبوت، علقت سارة في شباك العجوز. فقصّت لها شعرها ولم تترك لها إلا خصلة صبيانية في قمة رأسها.

ولمّا كان الباموم يفضّلون الصبيان على البنات، تمكّنت سارة من التسلّل بزيّها الجديد دون أي إزعاج في حدائق مون بليزان. وحدهم أولاد سيارة السلطان كانوا يزعجونها أحياناً: كانت تشغلهم عن ألعابهم بالسيارة الجامدة. وكانوا يوجّهون دعوات لسارة التي تمرّ من أمامهم، ولكن عندما كانت تشيح بوجهها عنهم، كانوا يغنّون أغنية الأطفال المثيرة للأعصاب والتي تصيبها في الصميم:

كا كا كا! تقول الدجاجة! انظر! انظر!

انظر إلى الصبي الصغير الذي أتى!

سوف أُقتل هذا المساء!

لحسن الحظ، ليس لهؤلاء الشياطين الصغار عيون ليكتشفوا هذه المتنكّرة. ولم يُثر انتباهَهم شيءٌ لديها. على أية حال سرعان ما يمتثلون لأمر برثا، ظل السلطان، والتي لا يستطيع الأطفال أن يسخروا منها. أما سارة فكانت تسعد لأنهم تركوها بسلام أخيراً على الرغم من أنها لم ترفض فرصة للعب مع صبية في سنّها.

أضافت العميدة:

ـ إذا كان التجوّل برأس حليق هو الثمن الذي يجب دفعه للهرب من سوط الأم المعاقِبة، فلم يكن ثمناً مرتفعاً.

وعكس وجهها الصلب كامرأة عجوز نفعية رأيها.

ولم يكن هذا كل شيء: فقد كوت برثا صدر سارة بحصى حارّة لكي توقف نمو نهديها. الحق يُقال أن هذه الحركة لم تفاجئ الفتاة الصغيرة: فقد فعلت ذلك أمها

أيضاً وغير مرة. بيد أن الأم الكاوية لم تكن تسعى إلى منع التشكّل السريع لامرأة. كانت تريد أن تلد ابنها مرة أخرى. كانت تريد أن تجعل من سارة ما تحوّلت إليه الفتاة بالمصادفة: نيبو.

سألتُ العميدة:

ـ ولماذا قبلتِ؟

كانت سارة تروي قصة حياتها دون أن تفارقها الابتسامة، وهي تسحق سيجارة التبغ، وكأن قصتها ليست غريبة. بدت في غاية السعادة وهي تخدع السلطان الكلّي العلم نجويا، وتضحك لأن لباساً بسيطاً غيّر حياة فتاة.

قالت سارة:

ـ حتى الساحرة، انطلى عليها الأمر، وعدّتني صبياً كاملاً.

ـ وهل كان ذلك يسرّك؟

ـ وماذا تعتقدين؟

تحوّلها إلى صبي لم يحرّر امرأة واحدة، بل امرأتين من مآسي حياتهما. إذا كانت سارة قد خمّنت ذلك من الدموع التي كانت تسيل من عيني الأم الرقيقة كلّما رفعت هذه السوط لتضربها، فإنها لم تعرف إلا فيما بعد ماذا يعني لسارة أن تناديها بعد ذلك: "يا بني".

ـ9ـ

متاهة الطفولة

السعادة البالغة في أن تكون شخصاً آخر، هي بالفعل التي حرّرت سارة من شقائها. فالفتاة دخلت إلى بيتٍ، عفواً، إلى حياةٍ لم تلتقِ فيها بأطفال في سنّها، ولكن امتلأت فيها أذناها بألف قصة. دخلت إلى وجودٍ فُرضت عليها فيه مهمة محدّدة. دخلت سارة إلى بيت أسرار، بيتٍ فيه ألف صوت مهموس، بيت صمته مخيف دائماً، بيت للأشباح الخفيّة. وإذ تُضاف المصادفة إلى العبث، فقد كان السلطان بحاجة إلى ظل بجانبه، ومن كان يشغل المهمة حتى الآن، كان قد استقال مفضّلاً النفي على أحياء المدينة.

اضطرّت الصغيرة إلى الاعتياد على الاسم الذي منحتْها إياه برثا. ومن حسن الحظ أن قرارَها بالتزام الصمت قد سهّل انتقالَها إلى حميمية نْجويا. وهكذا مع اسمها، تبقى أسرار السلطان مدفونة في فمها كما في قبر ـ الأمر الذي تفرضه تقاليد باموم على أية حال.

قالت لي سارة:

ـ آه، لم أكن إلا أَمَةً. مجرّد أمة.

هل كانت جادة؟ كنتُ سأجيبها بأن النصوص الاستعمارية في المحمية كانت قد ألغت العبودية. بيد أن وضعها غير محدّد. فهناك أسئلة لا يستطيع المرء أن يمتنع عن طرحها، ولاسيما عندما يكون لديه ماضٍ أمريكي. فسألتُها:

ـ قولي لي، ما معنى أن تكوني أَمَةً في ذلك الزمن؟

ـ كنتُ من أملاك السلطان. فقط إذا رفع إصبعه محذّراً، لا يعود سيّدي.

هل أدركت سارة أني لم أفهم إجابتها؟ لكنها أضافت مبتسمة:

ـ ظلّك لا ينتمي إليك، أليس كذلك؟

ـ لا.

ـ ولكنه يتبعك.

ـ نعم، إنه يتبعني في كل مكان.

ثم أضافت وهي تنظر من حولنا:

ـ ما عدا بعض الأحيان، لا ترينه فيها. حسنٌ، تلك كانت حياتي، حياة ظل.

هل كانت سارة ستوفّر كثيراً من المنغّصات لو أنها ردّت على نداء برثا بخبث أقل؟ لقد اكتشفت الأبعاد غير المتوقّعة لمخاض متجدّد. وعلى غير العادة، فقد طلبت برثا أن تُمضي ظلُّ السلطان لياليها في "البيت". طلب غريب! ومع ذلك كانت هناك آذان تُصغي إليها، وحتى إرادات لإرضائها. لقد شعرتُ ببعض المعاناة، أعترف بذلك، في تخيّل امرأة دخلت في القصة على شكل "ساحرة" فجأة تذرف دموع أمومة. ذكّرتني سارة بهذه الحقيقة البسيطة:

ـ كانت برثا تناديني دائماً نيبو.

وطلبت الأم القاسية: "أريد أن أملك الحق في رؤيته."

الحق؟ يجب فهم أن علامات تعلّق تنمو في بطن امرأة تكتشف متأخّرةً طفلاً كان سيكون طفلها. ومن بوسعه أن يفترض أن برثا التي استيقظ ثدياها فجأةً قرّرت أن تلد ابنها من جديد؟ من سيشكّ بالآلام التي تحسّ بها في بطنها كلما ظهر "ابنها" في غرف نجويا؟ ومن لم يسمع صرخات امرأة تعمل وهي تهرب في تلك اللحظات من غرفته؟

وحده نيبو يمكنه أن يعلم أن كل شيء بدأ يوم استقبلت برثا فتاةً هديةً من الرئيس. وإذا ما شوهد صبيٌّ يخرج من البيت كلّ يوم، فمن بوسعه أن يُقسم أن فتاة دخلت إليه؟ أما بالنسبة إلى رجال الرئيس، فلم يأتوا إلا مرة، ثم اختفوا في سر العنف الاستعماري اللامتناهي.

نادت برثا:

ـ نيبو! نيبو، تعالَ إلى هنا!

وكان كل من في القصر يستمتع برؤيتها وهي تطارد ابنها الحليق في باحات مون بليزان. ويضحك عندما يسمعها تلفظ الاسم الكامل للصبي وهي تلهث: "نيبوشادنيزّار!"

كانت برثا تنادي حتى يظهر وجه ابنها أمام الباب. وأحياناً كانت يدُ شخصٍ بالغ تساعدها وتوصل الصبي الحرون وتقول: "هذا هو!"

وكانت برثا تسلك طرق التملّق أيضاً: "هل تعلم أنك عندما كنتَ طفلاً، كنت تأكل كثيراً؟" وهكذا علمت سارة أن نيبو لم يمت طفلاً، بل في سن النضج. فهمت أن برثا كانت تحلم، في الصميم، في أن تلد من جديد ليس هذا الابن الغائب فحسب، بل حياةً أخرى أيضاً. فكانت تظن أن هذا ممكن إذا ما روت لابنها المستعاد عذابات الابن الذي فقدته قصةً بعد قصة، وطرفة بعد طرفة؛ وإذا لقّنت كلمةً كلمة طفلَ المعجزة هذا حياةَ من فقدته على دروب الجحيم. لم يكن عائقاً أن يكون نيبو ظل السلطان، بل بالعكس.

استخلصتُ من قصة العميدة أن وجود هذا الابن كان ضرورياً لمنح الأم الجافية حب العمل الذي ضحّت فيه بحياتها. حب الأم ليس له حدود، أليس كذلك؟ ولكن برثا استعادت إيمانها حين لم يعد لديها أية فتاة لتهتم بها. فقد كانت سارة آخر فتاة عُهد بها إليها. لم تكن ترغب في تذكّر هذا التفصيل. ولاسيما أن "تلك الفتاة" لم تنجح أيضاً في اختبار العذرية، وهذا ما تريد من صميم قلبها أن تنساه أيضاً. وبالعكس، فإن ابنها نيبو أيقظ في داخلها طاقة كانت تعتقد حتى ذلك الحين أنها فقدتها. وروت لها تفصيلا حياة الآخر كلّها: "هل تعلم أن..."

وإليك كيف كان يحدث ذلك. كانت سارة تجلس أرضاً، وبرثا خلف ظهرها، على مقعد، كما لو أنها تضفر لها شعرها. كانت الأم الراوية تضغط جسم الصغيرة بين ساقيها وتمسك رأسها بين يديها، وتكلّمها في أذنيها مباشرة همساً وغناءً. حدّثتها عن حياة نيبو، وعن تفاصيل ملحمته الغريبة، وعن حياته في بلاد الباموم، وعن أسفاره إلى فومبان. كانت تكلّم الطفلة كما لو أنها في مناجاة طويلة. تكلّمها حتى يتعب الكلام، وحتى تفرغ كلماتها من الحياة، وتحرق شفتيها. تتكلّم كأمٍّ تُكلّم ابنَها، كما تغذّيه كلاماً ولبناً. وفي نهاية قصتها كان الأمر كما لو أن شخصاً آخر أخذ

يتحرك في جسم الفتاة، وفي أعضائها. كان نيبو البعيد وقد استعاد حياته، واستيقظ وجود كامل. وكأن ابن برثا لم يكن إلا وجهاً من هذا الجمهور الصاخب الذي سأكتشفه تحت قوقعة سارة.

- 10 -

سمفونية مدينة استعمارية

ياووندي في الثلاثينيات لم تكن مدينة، بل ضاحية سكّانها يقاربون المائة والخمسين ألف نسمة، من بيض وسود مختلطين. في تلك الأيام، كان قصر المفوض السامي، والبريد المركزي، ومقرّات الشرطة العدلية، والمخبز الفرنسي ـ المقهى-البار لا باغيت دو باري، وكنيسة حي مفولييه وقصر الرئيس الأعلى، كلّها العلامات الوحيدة للعاصمة التي صارتها ياووندي اليوم. كانت تلك المدينة الأوربية تذكّر كل واحد بحاضره الاستعماري. من أعلى المحور المركزي إلى أسفله، محلات عديدة، وصيدلية وحتى محل للحيوانات تطلّ على مركز المدينة أونغولا، كما يسمّى، منطقة نشاطه الواعد. مون بليزان وجدرانه المصنوعة من الخيزران المزينة، وسطحه المصنوع من الرافيا، ومؤثّراته من الجيكو والأفاعي ذات الرأسين، تتمّيز بوضوح عن العمارة العامة التي كانت بحد ذات مختلفة. ويمكن رؤية بعض الملكيات المبنية على الطراز فولبيه، وبخاصة في مصنع القرميد، والحي الإسلامي، ولكنها كانت أكثر فأكثر ندرة.

الحقيقة أن تجمّع العائلات الأصلية إيووندو التي تتبنّى اليوم تاريخ ياووندي على أنه تاريخها، وتاريخها وحدها، كانت قد تم تجاوزها من مجموعات رعاة فولبيه التي كانت قد أقامت في الوديان على جانبي نهر مفوندي، ومن مهاجري باميليكيه القادمين من الهضاب الغربية أو من نيجيريا. لم يكونوا يتحدّثون بعد عن الاستقرار. وأسفارهم داخل أراضي الإيووندو المستنقعية تعود إلى دعوة قام بها شارل أتانغانا نفسه، وكان آنذاك بحاجة إلى عمال لمزرعة الكاكاو التي يملكها.

وسأعود إلى ذلك. وإذا كانت المدينة لا تحوي متاجر يشرف عليها الهنود كما في أفريقيا الوسطى، ذلك لأن الإدارات الفرنسية راهنت على اللبنانيين الذين استقدمتهم من بلادهم. وسرت إشاعة بأن "لبنانيي" ياووندي هم في الواقع هنود حقيقيون، أي جنود استعماريون إنكليز مدنيون استقرّوا هنا عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وثمة من يدّعي أن هؤلاء الهنود هم مصريون، ولكن ما أهمية ذلك؟

من بين البيض يمكن أن نحصي عدة جنسيات: فهناك فرنسيون بكل تأكيد، وكذلك إنكليز، ويونانيون (في الواقع هم قبارصة يونانيون يمتلكون عدة شركات تجارية) وحتى ألمان كانوا قد تأفرقوا جميعاً تحت تصرّف جامع أزهار وعصافير وفراشات، يُدعى زنكر. هذا الشخص الغريب الأطوار الذي عزل نفسه وسط الغابة مع مواطنيه رفض أن يعود إلى وطنه، وبلا مزاح، سمّى نفسه "كاميروني". أغلبية المستعمرة البيضاء مكوَّنة من فرنسيين يملكون أفضل المحلات في المدينة، وكذلك المواخير التي يُحظّر على السود الدخول إليها.

وعلى الرغم من كوسموبوليتية ياووندي المكونة من طابقين، فإنها ما تزال تحتفظ بآثار القرى السبع التي تكوّنت منها في الأصل؛ وهذه القرى تحوّلت إلى أحياء، وحتى إلى أحياء فرعية. ومعظم بيوت السكان الأصليين مبنية من الطين المجفّف، وأسطحها مكونة من سعف النخيل، على الرغم من أوامر المفوّض السامي الذي منع استخدام هذه المواد في المدينة، وطلب أن تُبنى البيوت من البلوك وأن تُسقف بالصفيح المتموّج. هل أُطيع هذا الأمر؟ هم، لم تستخدم الوصاية أية وسيلة لتطبق قراراتها ما عدا قوة القانون، كما هي الحال دائماً. ذهب القانون...

ماذا كان يمنعه من العودة إلى بلده الأصلي؟ نعم، ما الذي يُبقي نيبو بين رجال نْجويا؟ برثا، أو بالأحرى...آه! إنها عيون العم أوونا التي لا تستطيع سارة أن تنساها أبداً، اللهب المجنون في عيني الخيانة، التي حتى بعد أن أصبحت في التسعين تصفها لي بهلع.

ـ لقد أعطاني للرئيس لكي ينسى.

ـ ينسى ماذا؟

تحوّل صوت العميدة إلى صوت طفلة عندما قالت: "جريمته".

لا، إنها لم تُشفى منها.

أضافت وهي تتكلّم من حلقها:

ـ ثمة أمور لا يمكن أن تمحوها حتى حياة كاملة.

ـ وهل كانت أمك تعلم؟

ـ كانت تعلم أن عمي يصبح مجنوناً عندما يثمل.

فكّرت ملياً ثم أردفت:

ـ كانت أمي تعلم أن العم أوونا يقوم بأشياء يندم عليها طوال ما تبقّى من حياته، وأنه ما يزال يشرب لكي ينسى.

خاطرتُ قائلة:

ـ ككل سكّير.

قبول لحم نيبو كانت طريقتها الخاصة للهرب من طوق العم أوونا: أو الانتهاء منه دفعة واحدة؟ بعد سنوات كثيرة، ما يزال وجه عمّها يخترق كلامها وهي تروي لي قصّتها، كبرق عنف.

- 11 -

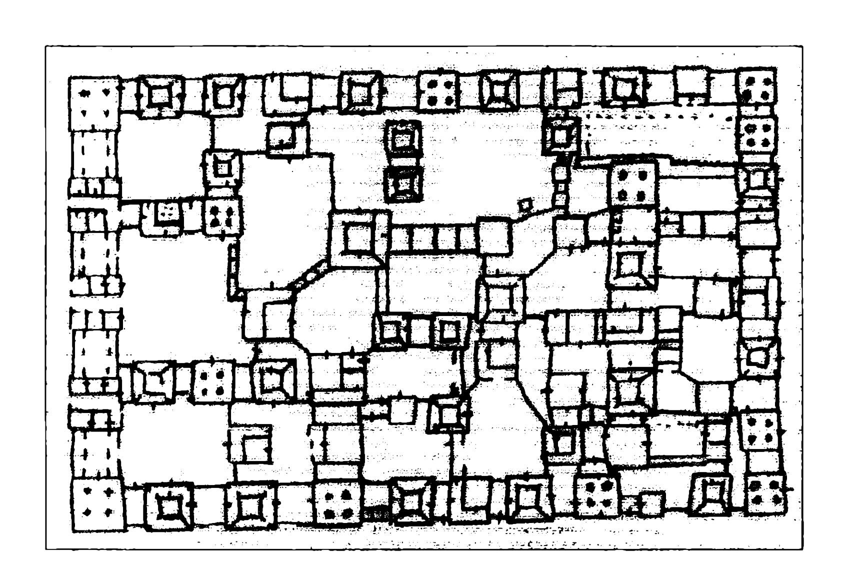
يا لـه مـن رجـل!

يا له من رجل!

نعم، يا له من رجل! عدة نصوص ألمانية وإنكليزية تتحدّث هكذا عن نْجويا: بتعجّب متكرّر. أما النصوص الفرنسية، فإنها تقلّل عادة من عبقريته. وبعضها كان يسمّيه: "الملك الزنجي". من المؤكّد أن نيبو لم يكن يعرف ما كتبه المؤرّخون المستعمرون، ناهيك عن فهم دينامية أحاديثهم. فكيف تمكّن من ذلك؟ قبل سفري إلى الكاميرون، حالفني الحظ وزرتُ مكتبة الكونغرس في واشنطن دي سي، ثم في برلين في الستاآتأرشيف الألماني. الأرشيف الوطني الكاميروني ساعدني في لحظات شكّي، وعرض أمامي مجموع الكلمات وركام الرسائل التي تبادلها السلطان مع السلطات الاستعمَارية آنذاك. انطلاقاً من تلك الصفحات الهائلة من التقارير السرية ومن هذه الكتب المليئة بالإعجاب وبالكراهية، استطعتُ أن أعيد بناء هذا النْجويا مخترعةً كتابةً أحلامه ومشتغلة خلال عشرين سنة على ضوء نار المصابيح الشحيحة لإعطائه شكلاً قابلاً للاستخدام: إني أعيش نْجويا مرتدياً قفطانه، مستيقظاً عند الساعة الخامسة صباحاً، ومستعدّاً للعمل! أعيشه واقفاً أمام طاولته في ظلام مشغله، متصوّراً نماذج تصويرية، ومنتقلاً إلى التخاطيط الصوتية ثم إلى الوحدات الصوتية؛ مُجرياً حسابات وراسماً أشكالاً بدئية لآلة طباعته مع مونليبير، الحدّاد الذي اصطحبه معه للإبقاء على شعار باموم. أعيشه وهو يُتلف الرسوم كلّها ليبدأ من جديد، وليراقب مخطّطات القصر الجديد، "قصر جميع الأحلام" الذي يريد أن يبنيه عند عودته إلى فومبان بعد المنفى.

أعيش نْجويا متفحّصاً هذه البدايات على الرغم من مسافة منفاه المؤلمة، ويجدها خربشات. متأملاً باحتقار هذه المخطوطات التي يصرّ الأرشيف الغربي على الاحتفاظ بها، وممتنعاً عن تمزيقها، وموقفاً حركته الغاضبة بسبب صوتٍ سمعه خلفه. قال للرجل الذي دخل للتو، ناقلاً إليه سعاره: "يجب أن تتحكّم بالزمن! فأنت تصل متأخّراً دائماً، ماما!"

طأطأ نْجي ماما رأسه خجلاً. كان المعاونَ الأقرب إلى السلطان، وكانت نادرةً جداً المناسباتُ التي أغضب فيها نْجي ماما السلطانَ، ففي النهاية هو من بنى مون بليزان. وقد لزمه لذلك شهر واحد ولم يفرط في التباهي. وفي خضمّ تعجّله استخدم كروكيات قصر فومبان القديم الذي كان قد بناه في عام 1917. وقد سبّب وصول نجويا إلى المدينة كثيراً من الفوضى، إذ وجب عليه أن يُسكن المحيط الواسع بالسلطان في مكان ما. وكون نجي ماما قد نسخ كروكياته الخاصة، فقد شكّل ذلك ذلاً كبيراً لهذا الرجل الذي كانت شهرته الفنية واسعة جداً. على أية حال، من لا يعرف موهبته؟



مخطّط محتمل لمون بليزان

نسخة عن قصر فومبان القديم، وقد رسمه نجي ماما في عام 1917.

ضم نجي ماما إلى كروكياته تفاصيل مميزة، على سبيل المثال: صور الأفاعي والجيكوات التي كان قد رسمها فوق الأبواب. وأحاط النوافذ بخمسة خطوط من البامبو، وليس بخطّين فقط كما كانت الحال العادية في فومبان. وزيّن أبواب المداخل بصور تمثّل رؤوس جواميس، وليس ببقايا رؤوس بشرية. والأهم هو أنه استبدل الكمية الهائلة من الغرف في القصر القديم بعدد محدود جداً (ستين) غرفة وطلى الداخل بالحوّار الأصفر، مثل الشمس. والخارج أعطاه لون تربة فومبان. أما الأبواب والنوافذ، فقد ظللها باللون الأبيض.

حتى وإن منحت هذه التزييناتُ البناءَ صورة أصيلة، فقد ظلّ بعيداً عما كان نجي ماما قد بناه.

مع نجي ماما أقام السلطان طبوغرفيا باموم قبل حرب عام 1913. وفي عام 1920، رسم خارطة فومبان مع فريق من ثلاثين مساعداً. وهو أيضاً، نجي ماما، من كان معمار "قصر جميع الأحلام" في فومبان، وسيد العمل فيه. ولم يقتصر نبوغه على البناء فقط، بل ضم أيضاً مراكز تعليم في مدارس نجويا، ووصفة مونتغو، وشرطة القصر، وجمع وتسجيل حكايات باموم. وقد وُصف بصورة عامة بالمشاركة في اختراع، بل وفي اختراع الكتابة، الذي نُسب رسمياً إلى نْجويا. ومع ذلك كان المعلّم ذليلاً جداً، وسأقول إنه كان يكنّ احتراماً كبيراً للسلطان، لكي يعرض عبقريته. كان لقبه "معلم معمار"، وكان يناسبه.

ـ يجب أن تتحكّم بالزمن، ماما!

في هذه اللحظة، الذلُّ أمرٌ عادي أمام غضب السلطان الذي كان يعنّف ويضرب الأرض بعصاه، غير عابئ كثيراً بماجستير مخاطبه.

ـ لا يمكن أن تستمرّ الأمور بهذا الشكل!

ـ نعم، ألاريني!

حتى مهاراته في المراهنة، لم تخفّف من غضب السلطان. لقد بات من المؤكّد أن نجي ماما ضائع في ياووندي من دون مساعدة أخيه إبراهيم، الذي كان مدير أعمال أيضاً ـ ولكنه كان مسلماً، فكان إيقاع صلواته الخمس هو ساعته. وقد بقي إبراهيم في فومبان لأنه هو من كان يدير أملاك السلطنة في غياب نجويا.

صاح نْجويا:

ـ دونيرورتر! يا للشيطان! لقد اشتغلتُ طوال الليل، وانظر في أية ساعة وصلتَ!

ـ أوه، فران نْجويا.

قال مهمِلاً لقب المديح...

وصرخ نجويا مكرّراً:

ـ لا يمكن أن تستمرّ الأمور بهذا الشكل!

يمكنني أن أتخيّل هنا نْجي ماما وهو يخاطر بلفظ جملة هدّامة من قبيل: "ربما تبالغ في العمل، مفون باموم؟"

بكل تأكيد، لم يكن بوسعه أن يوجّه عبارة كهذه لنجويا، حتى لو كانت مغلّفة بشكرٍ شكلي. فثمة أشياء لم يقلها أي رجل قطّ للسلطان ما عدا بعض المستعمرين. لطالما أفرط نجويا في العمل، فقد كان حلماً متنقّلاً، وكان العمل ملاذه، ومعطفه الذي يرتديه ليغطّي به روحه المتألّمة. ذلك أنه كان يجب على نجويا أن يحتمي من أهواس عديدة! الفترة التي أتحدّث عنها أنتجت في الصميم أدباً غزيراً حول النشاطات الفكرية للسلطان، لم يكن لسارة أية فكرة عنها. السبب؟ كان نيبو أمياً، ولكن، لنوقف هذه المضاربات، بحق الله! فما أنا إلى فم الأرشيف المغبّر، والوثائق التي أكلتها بنات وردان. وأعترف أني أنساق نحو أحلام اليقظة أحياناً بعد أن تحملني رائحة صفحات مذكرات السلطان، سآانغام، المحصورة بين غلاف جلدي.

ومع ذلك، لا يحقّ لي أن أنسى هدف جهودي: زيارة بناء حياة امرأة عجوز، حياة سارة.

فلماذا لا أستمع إليها بالأحرى؟

قالت العميدة:

ـ أي رجلٍ كان! يا له من رجل!

- 12 -

أبجديـــــة الحـب

- أنت ولد طيب.

كان صوت برثا ملحّاً. تُمسك بيدٍ رأسَ نيبو، وتمرّر بالأخرى آلة الحلاقة الرطبة. ولم يتذمّر الصبي.

- ستصبح رجلاً وسيماً.

وكانت تملأ صمت الصبي بصوتها المليء:

- ستكون رجلاً وسيماً جداً.

لو تكلّم نيبو، لانتظرت برثا منه كلمات بالشوباموم، لغة الباموم. ذلك أن الأم الحنون امرأة براغماتية. فقد كان هذا الصبي الذي عاد إليها فرصتَها الثانية التي لا تريد أن تهدرها. إنها تريد أن تُري هذا الصبي العائد المظاهر الأجمل للحياة، فكأي شخص أُتيحت له فرصةٌ ثانية، تعرف بالضبط ما يجب عليها أن تفعله.

قالت:

- ستتكلّم بشكلٍ أفضل.

وغاص نظرها في نظر نيبو لتمحو منه آثار سارة. هل كان الصبي الآخر متلعثماً؟ ذلك أمر تريد أن يتخلّص منه ابنُها الثاني. هل كان يبول في فراشه؟ وهذا أيضاً يجب الشفاء منه. برثا لا تريد ابناً أبكم أيضاً. إنها تريد التغلّب على الموت. الفم المغلق لابنها، تلك هي الفرصة الأفضل لتلقيمه الكلمات التي تنتقيها. فعليها هي، نعم، أن تضع على شفاه هذا الصبي كلمات الحب التي بها سيستبدل قصة نيبو المأساوية. كانت برثا تعلم أن ابنها لن يتكلّم ليقول شيئاً ما، بل ليقهر قدَرَها

الذي كان. عليه أن ينهل من قاموس جمالٍ متجدّد. وماذا عن سارة؟ آه، البنت دخلت في لحمه، واستدارت بصمت وشيئاً فشيئاً، ستكوّن لنفسها مفردات البقاء. كانت تمتلك بلغةِ حياةٍ معرّفةً من جديد. قالت برثا: "سأعلّمك الكلمات اللازمة، الكلمات الأفضل، الكلمات النقية."

سيطر عليها فرحها. وذات يوم فكّت مئزرها وأعطت ثديها المليء لسارة، كما تفعل نساء باموم مع طفل ضال! وقالت ويدها تشير إلى السماء: "هل تريد أن تأكل نجوماً؟" بينما كانت نظرتها تعبّر عن فيض سعادتها.

سألتني سارة:

ـ هذا جنون، أليس كذلك؟

وابتسمت.

حتى شبّان نسيميونغ ذُهلوا.

سألتُ المرأة العجوز:

ـ وهل أكلتِ...النجوم؟

سمعتُ سارة تجيبني جادّةً: بكل تأكيد، لا."

ومع ذلك أجابت:

ـ بكل تأكيد نعم.

ـ ماذا؟

سألتني وهي تريني وجهها عندما كانت في التاسعة:

ـ وهل كنتِ سترفضين؟

وهكذا رضعت سارة ثديي برثا، وفي الوقت نفسه ابتلعت كلمات الأم الحنون الجديدة. حرصت الأم على اللفظ الذي توخّت أن يكون صحيحاً، وعلى النبر الذي يجب أن يكون منغّماً. وقالت: "هنا يكم جوهر الجملة. وإلا فكيف لروح فاضلة أن تسكن بطناً من طين؟" تذكّرت برثا ابنها، تذكّرت نيبو وهو يصف نساءً بأنهن "مومسات". لقد حذفت مثل هذه الكلمات البذيئة من لغتها المحترمة.

قالت: "فراشة" ثم أشارت إلى عينيها. لقد أدركت أن نيبو سوف يتحول طوال دروسه، باختصار، أن ابنها كان مصاباً بحياء لا يُعرف كنهه. فبالنسبة إلى الأم الكمال الأخلاقي يُقاس أيضاً بالمسؤولية عن اختيار مفرداتها.

"فراشة"

الحقيقة هي أن برثا لم تعد تريد كلمات بذيئة من حولها. وكانت تفضّل أن لا تلفظها هي نفسها. وما كانت تفضّله أن لا يكون ذلك القبح موجوداً. والأمر نفسه بالنسبة لأعضاء الجسم، التي كانت تدفعها إلى قاع قاموسها.

"موسيقى"، قالت ذلك وأشارت إلى موضع القلب؛ "قرع"، ثم أشارت إلى مؤخرتها.؛ و"بنات"؟ لا أعرف.

الأصعب كان الإشارة إلى الأعضاء التناسلية، دون علاقة مع حياة الأم. تحريك اليدين، ولجلجة الكلام، وترسانة العالم المعقّم لدى برثا، ربما أظهر لسارة العمق المأساوي الذي يختبئ خلف ألوان الفراشات.

آه، لماذا يسكت الأطفال دائماً عن جوهر الأشياء التي يرونها؟

تابعت الأم المعلّمة: "سماء"، "رقص"، وكان ذلك من أجل "الحبّ".

ذات يوم، استيقظ نيبو وكان كل شيء من حوله مغطّى بالكلمات: السماء والعصافير والغيوم. هذا ما قالته لي سارة. فأجبتُها مازحة:

ـ إذن كان عالماً كاملاً من الحب!

ـ نعم.

قالت لها برثا: "لطالما أحببتِ الأكل." وكان نيبو يرضع ثدي الأم المرضع ودموعٌ تسيل من عينيها. لقد كان يأكل كلمات برثا بشهيّة، وبطنه المليء ذكاءه اللذيذ. وصار يميّز أكثر فأكثر بين الوجوه الغريبة من بين الفنانين والحرفيين الذين يرتدون ثياباً متطابقة. كان الأمر كما لو أن مفتاح هذا البلاط المضطرب موجود في قواعد رضعاته الشرهة. في بطنه أصبح عالم نجويا بالنسبة إليها سائلاً. وسرعان ما سيهضم اسم كل شخص، مع فارق أن مون بليزان لن يصبح أبداً ما سماه بيته دون أن يرف له جفن.

ما تزال العميدة تتذكر بقوة يوم أُدخلت إلى نجي ماما. رأت برثا الرجل يمر، وحيّته هامسةً. التفت المهندس المعماري. كان يطلق عثنوناً، وكانت عيناه عميقتين جداً. كان البوبو الذي يرتديه مقصوصاً على الموديل الكلاسيكي للحرفيين، وليس في مشيته أي ادّعاء. ومن يراه لا يعرف أنه مدير الأعمال. الطريقة التي ردّ بها على برثا تدل على كرامته الذليلة. فارتمت الأم على الأرض لتحيته، محرّرةً صندل النبلاء المرصّع الذي ينتعله.

وقالت لنيبو فيما بعد: "هذا نجي ماما."

كان المهندس المعماري من أحد الوجوه البارزة. وكان موجوداً في غرف نوم نجويا كل يوماً وفي أية ساعة، يرسم الخرائط والكروكيات. كان يعمل لبناء واجهة، هذا ما يُقال. وعندما لا يكون عند نجويا، كان نيبو يرى خياله يجتاز الممرات، ويظهر له قريباً جداً، تائهاً في أفكار لا تُدرك. أو كان الصبي يسمع وقع صندله الذي يطرق الأرض بخفة. ومن لا يعرفه؟ ومن لم يصادف وجهه الحالم؟

"ما-ما" تلك كانت أول كلمة في لغة الشوباموم لفظها نيبو. برثا التي لطالما انتظرتها، بقيت صامتة. ولكن لسبب آخر: عندما تكلّم الصبي أولاً، بمساواة والده، فقد كسر التابو.

قالت الأم للمهندس المعماري الذي أشار إليه الصبي بإصبعه:

ـ لا تهتم بما يقول أيها السيد. فما هو إلا طفل.

ـ إنه طفل طيب.

أردفت برثا:

ـ اسمه نيبو.

صرخ الرجل مستعيداً بعيدة:

ـ يا للمصادفة! يا للمصادفة! فله اسم ابنك نفسه، أليس كذلك؟

كان ذهن نجي ماما في مكان آخر، وإلا كان سيسمع وشوشة الأم:

ـ إنه...ابني!

لم أستطع إلا أن أبتسم لهذه القفزة في قصة سارة. لأني أعرف شيئاً ما عن تداخل هذه الأسماء والحيوات والأقدار. ألسنا ما نزال مأخوذين بتلك اللعبة، مع

فارق ثمانين سنة، التي جعلت العميدة تنفجر ضاحكة، وتفتح فمها على قصتها؟ حتى لو أن أدوارنا لم تكن أدوار الماضي، مدفوعين بأسرار سارة وبرثا، فإننا ما نزال مرتبطين بقصة حب غريبة جداً.

قالت برثا للمهندس المعماري، ولكن بصوت مرتفع هذه المرة:

ـ يا للمصادفة!

ـ أية مصادفة؟

ابتعد الرجل بينما كان صدى خطواته يختفي في ممرات البيت.

كمعلم مدرسة، كان نجي ماما يكرّر دائماً ما قيل له. تائهاً في أفكاره، لم يلاحظ السعادة على وجه الأم المستعادة.

- 13 -

عربـــة الجحيـم

كانت زيارات شارل أتانغانا أحداثاً يلزم وقتٌ طويل للشفاء منها. لم يكن نجي ماما هو من أعلن وصول الرئيس، بل الصدمة العامة التي يثيرها ظهورُ سيارته في مون بليزان. كان يأتي ليقدّم احترامه للسلطان، كعادته، ولكن هذه المرة كان يرغب أيضاً بكل تأكيد أن يقدّم الكاديلاك الصفراء والسوداء، السيارة المذهّبة التي اشتراها من المعرض الاستعماري. لم يكن شارل أتانغانا أول شخص في المدينة يمتلك سيارة. فكثير من البيض يمتلكون سيارات. والجميع يعرفون البيجو السوداء العائدة للمفوّض السامي، ـ حتى بالسمع. ونْجويا، هو الآخر، يمتلك واحدة، وهي التي هيكلها في الساحة، ولم تبقَ بعد رحلة حياته إلا من أجل تسلية الأطفال. فبالنسبة إليهم، بالضبط، ليس بالأمر العادي سماع صوت محرّك حقيقي، فرووم، ولا رؤية سيارة من بعيد، تتهادى نحوهم. عندما يحرّك البوق العالم، حتى الكبار يتجمّدون في أماكنهم ويسارعون إلى ترك نشاطاتهم ليركضوا خلف الآلة، وهم يصرخون ويلوّحون بأيديهم وسط الغبار الذي يغطّي أجسامهم.

الحرفيون والخدَم، وحتى الحيوانات، في مون بليزان يتبعون عربة الرئيس عندما تدخل إلى ساحة قصر السلطان. لم تكن تلك إلا ولادةُ شعبيةٍ دامت طويلاً لأنه، حتى بعد أن أصبحت السيارات أمراً عادياً، اختارت الدولة الكاميرونية اللون الأصفر لسيارات الأجرة، كما لو أنها تريد أن تذكّر كل شخص بكاديلاك الرئيس الأسطورية.

بالنسبة لنبيو، كان هذا الحدثُ المناسبةَ الحقيقية الأولى للخروج من البيت. كيف؟ فقد تبع الطفل بطيبة قلبٍ الجمهور الذي أذهلته السيارة العجيبة، وهذا ما بيّن له أسرار ممرات حدائق مون بليزان. ولم يستطع ثديا برثا ولا نداءاتها ثَنْيَه. ولا حتى تهديدات نجي ماما تمكّنت من تأديب الأطفال الذين كانوا يرقصون حول هذه المعجزة! ناهيك عن الأهالي الذين بقيت أفواههم فاغرة! وحين خرج الرئيس من سيارته الجهنمية ووقف أمام الجميع، وسيكار طويل في يده، وقدمه على الدرابزين، تضاعف السعار الجماهيري. بدا وكأنه ينتظر مصوّراً، وهو الذي يرتدي ألوان سيارته نفسها من رأسه حتى جواربه. حتى السلطان لم يبقَ عند أبواب قصره.

لم تُفلح ضحكة شارل أتانغانا المفرقعة في تخفيف الضوضاء التي أحدثها وصوله. وأمام أعجوبة التكنولوجيا، صار السلطان طفلاً بصندل جديد. كان يشعّ فرحاً بينما كان صديقه يتبختر حول سيارته، يفكّكها قطعة قطعة بصمت. فتح الرئيس الباب واسعاً، كدعوة موجّهة إلى هذا العالم المذهول لإيصاله إلى مخبأ الآلهة.

سأل نْجويا الذي خرج من دون عصاه:

ـ ألن تأتي؟

اخترق صوتُ شارل أتانغانا ضوضاءَ المجتمعين واستأثر بالسلطان الذي كان متردّداً في الدخول إلى سيارة النور. يجب الإقرار بأنها كانت مختلفة تماماً عن الشاحنة الحمراء القديمة. ومن حظّه أنه لم يُؤخذ على حين غرّة، فقد كان يرتدي أفضل ملابسه.

قال أخيراً:

ـ دونيرورتر! (يا شيطان الرب!)

كانت ابنتُه نغوتان أولَ من دخل إلى عربة الإغواء. ولم يُفاجأ أحدٌ ممن يعرفونها. نغوتان؛ أوه نغوتان! فقد كانت مشيتها استعراضاً فنياً. وهي تحرك ردفيها من اليسار إلى اليمين، في حركة عصيّة على التقليد! وفيما مضى، كانت أول من لبس قماشاً ملوناً في فومبان، وكان رائجاً جداً في برلين-هدية من معلمتها

الألمانية فراولين فورمان. وفيما بعد، أمرت خيّاطيها أن يخيطوا لها ثوباً مشابهاً لثوب الصبي كانت قد رأته في كتالوجات كيل Quelle التي تمتلك منها صديقتها السويسرية مجموعة.

هناك صورتان لها في أرشيف مدينة بال، وهي ترتدي الثياب المراعية للموضة. وقد تمكّنتُ من أن أقابل أناساً في فومبان يتذكّرونها. وكانت تعتمر قبعة واسعة وحذاء عالي الكعب، تسير في شارع الفنّانين في فومبان، كنجمة منوّعات قادمة من ونتربلاست مباشرة. ولم تُسمَّ نجي مونغو (البنت الأولى) عبثاً. إذن هي من رمت نفسها في السيارة قبل الجميع، وطلبت من والدها أن يتبعها، ما لم يجرؤ على فعله أي شخص آخر. ونْجويا لم يرفض لها طلباً قطّ. ومن نافل القول أيضاً أنها أول امرأة تقود سيارة في الكاميرون، وبالتحديد السيارة التي دخلتها للتو. نعم، فقد أقنعت الرئيس أن يعلّمها القيادة! وها هي الآن تفيض ـ ليس جرأةً، بل سعادة. أصلحت وضع ملابسها ثم مدّت يدها عبر النافذة لكي تودّع الجميع.

قال الرئيس:

ـ في المرة القادمة، سوف نأتي بالشركة لتقوم بجولة في المدينة.

وأضاف أنه في هذه المرة يريد فقط أن يُري السلطانَ ملكيته الجديدة.

يُري؟ يا لهذا المزاح؟ وأضافت العميدة أنه أدار المحرّك إكراماً لنغوتان، كما ادّعى. كانت نغوتان المرأة الوحيدة التي منحت نفسها ترف الزهو وسط رجال السلطة هؤلاء. أوه، أعلم أن سارة ربما كانت تبالغ وفي وصف هذه المرأة! ولكن ليس هذا هو الأهم، لأن الفعل يبقى: فالرئيس يحمل في نفسه الفرح الذي لم يعد ضيفَ مون بليزان. الانتقام الذي دخلت به نغوتان إلى سيارته لم يكن إلا انعكاساً للكآبة التي كانت تسكن غرف نوم والدها. كان السلطان يفضّل الانغماس في تجاربه العلمية. وقد استبدل المسؤوليات التي كانت السلطة تفرضها عليه في الماضي بالراحة التي توفّرها له آلاتُه في المنفى. كان ما يزال يقبل أن تقرأ له ابنته الصحف لأنه لا يستطيع الاستغناء عنها. وكانت نغوتان تنفّذ بمتعة، فهي بذلك تطّلع على تطورات عالم الموضة في العواصم الأوربية.

كان اختيار هذه الطفلة (كان نجويا ينادي نغوتان "طفلته" على الرغم من أنها متزوّجة، ولديها أولاد، هي أيضاً) يذهب إلى لو جورنال إيلوستريه Le Journal illustré التي كانت صفحاتها المليئة بالصور تسافر مباشرةً في حلمها. المنغّص الوحيد هو أنها كانت تُضطر أحياناً للانتظار شهوراً لكي تحصل على نسخة. لم يمنع الفرنسيون نجويا من قراءة المجلات الأوربية، العادة التي نشأت في حضن صداقته مع المبشّر غورينغ.

وكان غورينغ أول من كتب مقالاً عن السلطان. وهكذا بدأ كل شيء. وقد وجب على هذا السويسري أن يترجم المقال ويقرأه للسلطان الذي يريد أن يعرف عما تتحدث المجلّة، در إيفانغيليش هايدنبوت، التي نُشر فيها المقال. الفضول النرجسي سببٌ لكثير من التصرّفات الغريبة. ومع ذلك، بعد أن قرأ المبشّر الصفحات كلّها، خطرت له فكرة أن يتابع مع الكتاب المقدس، ومع العهد القديم أولا. ولمّا لم تُثر القصص الغريبة شهية السلطان، اختار غورينغ أن يقرأ له رواية توماس مان البودنبروكس التي كان يستخدمها على التوالي لقتل الوقت وكوسادة. وهذا النوع من الأدب الألماني ـ أفضل المبيعات آنذاك ـ أسر نجويا الذي كانت العائلة بالنسبة إليه تكتسب دلالة جوهرية.

ولكن، لنعد إلى نغوتان، فبعد تخرّجها من المدرسة الألمانية، تسلّمت مهمة القارئة التي كان غورينغ يشغلها حتى ذلك الحين إلى جانب والدها. وحده ضابط استعماري حقاً محدود يمكنه أن يكتب، كما تأكّدت من وثائق الأرشيف، أن حب نغوتان للملابس الأوربية لم يكن إلا بسبب غرورها. فكيف يمكن أن ننسى أنها أصبحت أول امرأة مثقفة في الكاميرون؟ أوه، ربما كان المؤرّخون الفرنسيون يسخرون من جلسات القراءة تلك لأنه لا يوجد أي ذكر لقارئة تُدعى نغوتان في قصصهم، في حين أنهم يذكرون غير مرة "الأحلام العظيمة" لابنة السلطان.

"فتاة مدلّلة" هذا ما كتبوه، عندما لا يريدون أن يعبّروا عن ضيقهم من "زنجية طامحة إلى هذا الحد". وقراءتها لـ مدام بوفاري كان سيخلق إحساساً معينا في المستعمرة، برأيي، وكان سيسبّب المنع الثاني لهذا الكاتب الكلاسيكي، وهذه المرة في الأراضي الواقعة ما وراء البحار. كانت نغوتان ستمتلئ بكل تأكيد استلطافاً

"للمسكينة إيما"، ككثيرين قبلها في باريس وفي العواصم الأوربية. ومع ذلك، في الوقت الحالي، إن أحلام نغوتان لا تتوافق مع جناحي سنونوة، بل مع المقاعد المعطرة لسيارة مذهّبة. ليس من عشيق، فوالدها هو من كان يجلس إلى جانبها. دورة في الباحة،؛ فروم، والجمهور من حولهم يرفع أناشيد التهنئة. دورة أخرى، فروم! فروم! والجمهور يغوص في نشوة كما يتوه في الغبار.

كانت تلازم هذه السيارة لكي تنظر سارة إلى السلطان بعين أخرى. فبعد هذه الحادثة صارت الضحكة التي تملأ أرجاء ممرات مون بليزان هي ضحكة نْجويا. وكان السلطان سعيداً، نعم؟ كيف توصّل شارل أتانغانا إلى هذه النتيجة؟ في المساء، أخذ يحكي الطرائف عن سيارته وعن حياته وعن كل شيء. وكعادته، بدا وكأنه يخاطب مجلساً مجتمعاً. وهذه المرة أيضاً تحدّث عن رحلته الباريسية، في أثناء المعرض الاستعماري. آه، هل ستنتهي هذه القصة يوماً؟ في القاعة المليئة بالحياة، تخيّل الجميع المرأة السمينة التي وصفها: "كونتيسة معطّرة، شفتاها حمراوان" وقد بقيت صامتة حين أعلن لها أنه ليس متعدّد الزوجات. الرئيس قلّد الكونتيسة: "لست متعدد الزوجات، حقاً!"

وانساق في حديثه فنسي أن الرجل الذي يروي له هذه القصة كان لديه أكبر عدد من النساء في المحمية بأكملها. وتابع:

ـ زنجي، وليس متعدّد الزوجات!

ثم غيّر صوته وهو ينحني كما يفعل رجل أرستقراطي وأضاف:

ـ لكنه كاثوليكي، يا عزيزتي، كاثوليكي!

كان الوحيد الذي يحمل لقباً بطبيعة الحال، لأن أياً من الرجال في مجلسه لم يكن كاثوليكياً، ولا حتى مسيحياً، ناهيك عن كونه وحيد الزوجة. ولكن من يكسر فرح الرئيس عندما تكون قصةٌ على شفتيه؟ والأهم: من كان سيلومه على قلة تهذيبه؟ ففي النهاية، هو الوحيد الذي يستطيع نجويا الاعتماد عليه في ياووندي، ذلك الذي يعوّض تعويضاً أفضل كفاءات السلطان. وهو أيضاً الوحيد الذي يستطيع أن يروي طرائف كهذه في عاصمة الوصاية! لهذا السبب رافق ضحكاتٌ كلامه الأخير. ولكن ربما كان هذا أيضاً لأن نجويا أدار ظهره لصديقه مع نقطة شخصية: "في حال عودتك من جديد إلى الوثنية، فاعتمد عليّ!"...

- 14 -

أســرار الصداقــة المعقّــدة

تُرى ما الذي قرّب هذين الرجلين، أحدهما من الآخر؟ فهما ليسا متشابهين! الالتزام العَمَالي، كما قالت بعض الألسنة السيئة؛ وموقع سلطةٍ نفسه في المحمية، قالت ألسنةٌ أخرى. ومع ذلك، عندما كان شارل أتانغانا يقود سيارته الجهنمية، وهو وحيد الزوجة العنيد، كانت زوجته "العزيزة جداً جوليانا" جالسةً إلى جانبه دائماً. وبالعكس، كان نْجويا يختار محظيةً من بين نسائه الستمائة وإحدى وثمانين، ولا ريب في أن نفاد صبر ابنته لم يكن يدع له الوقت! إذن هل كان طبعاهما متشابهين؟

أوه، نعم: فقد كان صوت الرئيس، وليس أي صوت آخر، هو دائماً الذي يسيطر على الأحاديث، لأنه كان متحدّثاً لبقاً...أو بالأحرى: متحدثاً عظيماً. وعلى الرغم من أن لقبه كرئيس أعلى لم يكن إلا ترجمة محظوظة للكلمة الألمانية *auberhaubtling*، فإنه ليس مديناً بسلطته إلا لقوة صوته.

أما بالنسبة إلى نْجويا، صاحب الصوت الأخن، والذي هو من النوع المُنصِت، فإن سيطرة أسرته (توضيح: الأرشيف الاستعماري يتحدّث بالأحرى عن "مؤامرات إجرامية" قامت بها أمه نجابدونكي") على الباموم، أسّست سلطتها في فومبان. كان الرئيس قد رأى كثيراً من الناس، ليس في خارج أرض الوصاية فقط. فقد قام بجولة حول المستعمرة مع الألمان. وبالمقابل، فإن الرحلة الوحيدة لنجويا لم تُوصله إلا إلى بويا، عام 1908. ونفيُهُ إلى ياووندي هو أطول انتقال يقوم به في حياته: وهي حملته الثانية فقط إلى خارج باموم.

ما الذي قرّب الرجلين؟ لنرَ: حبّهما للملابس الغالية؟ هل لأن كلاً منهما يرتدي، بلا أدنى شك، أفضلَ الملابس في المحمية؟ وسلسلة عصيّ نجويا المنقوشة كانت تعادل قيمة السيجار والبذلات المتعددة الألوان عند صديقه، هذا يمكنني أن أؤكّده. وحده الغرور لا يقرّب بين الرجلين؛ بل بالعكس، فهو يباعد بينهما. وما يجعل من نْجويا وشارل صديقين قد يكون الشعور بأنهما عاشا مع المستعمرين، وجرّباهم جميعاً.

أو ربما كانت العادة التي اتّخذاها، ولم يتركاها قطّ، وهما يلعبان لعبة التخاطب بأول لغة ترد على شفتيهما؟ لعبة غريبة تسلّي من يستمع إليهما. فعندما يتكلّم الرئيس لغة الإيووندو، يرد عليه صديقه بالشوباموم، ثم يتابع بالألمانية ويتلقّى جواباً بالفرنسية. آه، كيف يتفاهمان؟ وكيف يتفاهم الكاميرونيون حتى الآن وهم يتكلّمون مائتي لغة؟ الثابت أن صداقتهما بدأت بدايةً حقيقية في مانتوم، عام 1920، بضحكة مفرقعة. كان شارل أتانغانا قد زار نْجويا في مقرّ إقامته حيث كان هذا يمضي أشهر نفيه الأولى، وتفرَّعَ حديثُهما إلى المستعمرين الذين أقاموا في مدنهما كل بدوره، وأن الحرب وضعت أحدهما في مواجهة الآخر.

بدأ شارل أتانغانا حديثه قائلاً:

ـ إذن أيهما أفضل الألمان أم الفرنسيون أم الإنكليز؟

احتجّ السلطان:

ـ هذا ليس عدلاً! لا يمكنك أن تسألني سؤالاً كهذا!

أضاف الرئيس بصوت متآمر:

ـ صدّقني، لا تقارن أبداً بين فرنسي وألماني.

ـ أو ألماني وإنكليزي.

ـ إنكليزي وفرنسي.

ـ فرنسي مع أي شخص كان.

فكّر الرئيس لحظةً بكلام نْجويا، ثم قال مفرقعاً ضحكة:

ـ أنت على حق. البيض قبليون جداً.

جلجل السلطان ضحكةً بدوره. فهذا صحيح.

الكاميرون كما نعرفها الآن، لم تكن قد ولدت. فبالنسبة إلى السلطان نجويا، لطالما عنت الكلمةُ مدينةً. كاميرون سيتي، وهي حالياً دوالا، لتدل على شيء آخر. أما بالنسبة إلى شارل أتانغانا، هذا البلد ـ إذا كان بوسعنا الكلام عن بلد ـ لا أهمية له إلا لحظة تصبح مدينته، ياووندي، التي أقنع فيها الألمان أن يُنشئوا معسكراً، مدينة حلم: حاضرة الكاميرون!

على الأقل هكذا كانت سمعتها: كان يريد أن تصبح ياووندي روما ثانية. وبحسب رأي بعض الناس، كان مشروعه متهوّراً لسبب بسيط: المكان فقيراً جداً، لا ينمو فيه إلا الفستق، وبكثرة. الشيء الوحيد الذي يستطيع الرئيس أن يرهنه ليحقّق جنونه هو المستقبل، كما يمزح بعضهم. متشوّف للمستقبل، ولكن من دون السائل اللازم لتحقيق أحلامه الكبيرة. فقد كان شارل أتانغانا يعلم أن عليه أن يقوم بتسويات، وبصورة خاصة أن يجد أكبر عدد ممكن من الأصدقاء. ضاعف الدعوات إلى ياووندي؛ ولم يكن نْجويا إلا الأخير من ضمن قائمة طويلة. كان الألمان أسرع من لبّوا النداء بسبب صداقة الرئيس مع بطلهم دومينيك. والفرنسيون اقتربوا بعد ذلك لأنه أقسم لهم أنه سيحوّل غابة جنوب الكاميرون إلى مزرعة شاسعة من أشجار الكاكاو. بمفردات جنون العظمة، كان ذلك مخطّطاً مجنوناً جداً بحيث أنه أعجب المفوّض السامي مارشان نفسه. لكنه كان سياسياً جداً بحيث أنه تعرّف إلى نوعيته للرجل في هذا الرئيس ذي النظرة البعيدة والحركات غير النمطية، فقال لمعاونيه: "هذا الصبي عبقري. لقد حلم حلمي، بلا مزاح."

بفضل القوة التي امتلكها شارل أتانغانا في أن يحلم أحلام المستعمرين، تحوّلت عاصمة الكاميرون من جبال بويا إلى ياووندي، عام 1921، وعُيّن هو لمواكبة بنائها. كانت أونغولا، مركز المدينة، الأرض التي اختارها، وماذا غير ذلك أيضاً؟ لم يكن هذا كافياً لهذا الرجل الذي يفتح يديه ويقول لشوارع مدينته ـ مساحات حرجية ـ بأنه يتخيّلها "مدينة الهضاب السبع". ومن ما يزالون يشاركونه حلمه حتى اليوم، يحتفظون بهذا اللقب؛ كما ليُبقوا على رؤية الرئيس في أحيائنا الفرعية؛ وكما ليخترعوا مستقبلاً آخر غير العماء والحماقة لهذه المدينة الحزينة جداً والقذرة جداً

في الواقع. ومون بليزان أيضاً اسم من مفردات الرئيس المتوهّجة. ومن الغريب أنه غرق فيما بعد في نسيان الرعاع. سأعود إليه، نعم، سأعود إليه.

شارل أتانغانا ونجويا؟ ما أهمية الطرق التي أوصلت هذين الرجلين إلى الالتقاء- الحدود الضاغطة لبلد وليد، أو رئيس يدعو إلى مسقط رأسه سلطات محلية واستعمارية لكي يطلق عشّه إلى قبة الآلهة-، إنها الصداقة التي انفجرت في غرف نوم السلطان كلما وُجد فيها شارل أتانغانا. كانت أصوات وضحكات، وسلسلة من المفاوضات التي لا تعد ولا تُحصى والتي لم يشبع منها الرئيس - منتهى الفيض.

وهنا أيضا، هو من كان يروي أكثر: كم كان من الصعب عليه الحصول على تسجيل سيارته ("هل تعلم لماذا؟ لأنها سيارة أمريكية")، ورحلته من ياووندي، وإلى أين أيضاً؟ ("ليس على صهوة حصان، كما كان الأمر في زمن هانس دومينيك، أنت تعرف، رحلتي إلى كوسيري...") إلخ.

وأخيراً، في وقت متأخّر من الليل، اختفت سيارته، تاركة وراءها آثاراً غير محتملة، وكلمات تمور في الأحلام المضيئة.

- 15 -

لنتكلّم عن الجحيم

لم يستطع نيبو أن يغمض عينيه بعد ذهاب الرئيس. كانت روحه مترعة، وفي كبد الليل ما تزال سمفونيات لشبونة وهامبورغ ترنّ في أذنيه. ذلك المساء، لم يشارك في تعرية السلطان. اثنتان من نساء نْجويا، وهما المفضّلتان في تلك اللحظة، ماتا وبينا، بقيتا معه. عاد الصبي إلى الأم لاهثاً. تمدّد على الفراش وغطّى عينيه براحتيه لكي يرى المكان الآخر.

ارتسمت ابتسامة على شفتيه، انعكاس نهار، لم يستطع أن يعطيه سبباً إلا هذا الطعم للسعادة التي تنبثق فجأة من أوردته. كانت برثا نائمة. وأنفاسها توقّع الغرفة. فكّر نيبو بظرف العبودية. وتساءل لماذا يجب على فرح رجلَي سلطة أن يُدفعا بإهانة فتاة صغيرة. وتساءل أيضاً عما سيحدث لو أن السلطان رفض القدوم إلى ياووندي، فهل كانت سارة ستعيش حياةً أخرى؟

وهل كانت ياووندي ستكون مختلفة؟

والتاريخ، هل كان سيغيّر مساره، التاريخ؟

آه، التاريخ! هل هو محتوم؟ سلسلة من العُقد في تركيب ضفيرة هائلة، أليس هذا هو في نهاية المطاف؟ روحه امتلأت بالرعب. تذكّر عيني العم أوونا المظلمتين، فهم أن عليه أن يقبل حقيقة حياته: سارة. نيبو سمع الفتاة التي كانت تبكي. صرخة. أحسّ بنَفَس عمه الحار في أذنيه، وسارع إلى فتح عينيه. ماذا كان يحدث؟ يقين: لم تكن سارة هي التي تبكي. أغمض الصبي عينيه، ولكن الصرخة تلحّ عليه، حادّة، ومبعثرة. ثم خطوات متعجّلة، ونداء: "نغوسو!"

كان ذلك صوت السلطان. ولم يتوقّف: "نغوسو! سامبا! مانغا!"

قفز نيبو من سريره وركض إلى الخارج. وفي باحة مون بليزان الواسعة التقى ببينا مرعوبةً. كان رأسها مكشوفاً ووجهها مذعوراً، تجري نحو بيت المعلّم-الطبيب في مون بليزان. سرعان ما فهم الصبي أن شيئاً رهيباً قد حدث. وهل كان ذلك فعلاً انعكاسياً؟ فقد وجد نفسه مباشرة في غرفة نْجويا. رأى السلطانَ ممدَّداً على الأرض، ويده تمسك قلبه، ويتنفّس بعناء.

صاح: "مانغا!"، وبدت عيناه حليبيّتي اللون.

انكبّ عليه رجلان، وسنداه، وهما يكرّران تعاويذ لا يفهمها نيبو. بيد أن حركتهما لم تغطِّ كلام السلطان الهاذي، فقد كان يصرخ: "سامبا!" وهو يباعد يديه ورجليه، وفمه مفتوح واسعاً في عماء الغرفة. "نغوسو!"

وكانت امرأة تُدعى ماتا تقف إلى جانبه مذهولةً، وتُكثر من حركات بلا طائل. ركض نيبو إلى غرفته، فلم يجد برثا. لا ريب في أنها انضمّت إلى الخدم الذين نبّههم الصخب في غرفة السلطان، فركضوا في كل مكان، أو جمعوا فضولهم في الممرات. صورة السلطان ساقطاً ملأت نفس نيبو بأشكال الرعب كلّها. فجأة مشى متراجعاً فاصطدم برجل قادم من الباحة. إنه نجي مولوه، ابن نْجويا الوارث.

سأل نجي مولوه وهو ينهي ارتداء ملابسه على الطريق:

ـ ماذا يحدث؟

لم يُجبه أحد لأن أحداً لم يكن يعرف.

صوت نْجويا الكهفي قطع الصمت:

ـ مانغا! سامبا!

وقال أحدهم في الظلام:

ـ ألاريني!

ثم كرّر هذا اللقب المغالي في التملّق، كتعويذة، ألاريني!

إنه نجي ماما.

واصل نيبو مشيه التراجعي، فهو يعرف الطريق المؤدّية إلى خارج مون بليزان. وليس بحاجة إلى البحث عن مفاتيح الممرات السرية. في الباحة، وحده الهيكل

العظمي لشاحنة السلطان كان يردّ على غناء السماء.لا أطفال هنا. لا أحد. حتى السماء كانت خالية. وقريباً سيجد الطفل نفسه خارج الملكية. ركض إلى غابة مضبّبة، بين الأشجار. نزل هضبة نسيميونغ، وكان كمن لديه أجنحة. اتبع المساحات الصخرية فسمع نباح كلاب. شقّ طريقه بين الأحراج. وأصوات تصرخ بقدر لن يعترف أنه قدره. في نفسه، الوجه الشاحب للسلطان ساقطاً بيّن له الكارثة التي يفرّ منها، لقد كان وجه والده ساقطاً. كان نيبو يركض ليهرب من هذه الرؤى الضبابية للسقوط، ليهرب من سارة ومن برثا.

في البعيد، دلّه ضوءٌ إلى أنه وصل إلى كنيسة حي مفولييه. كان متقطّع الأنفاس. ضرب بكلتا يديه على الباب.

وحده الصمت أجابه.

ضرب من جديد، وأخيراً سأل صوتٌ ضعيف:

ـ من هناك؟

كان صوتَ امرأةٍ خائفاً. ضرب نيبو الباب بقوة أكبر.

ـ من أنت؟

فتح البابَ رجلٌ أبيض يحمل بيديه مصباحاً مرتعشاً. وجهه المتطاول بلحية يدلّ على أنه الكاهن، حتى لو كان يرتدي منامة. سأل بصوت مألوف:

ـ من أنت؟

نعم، إنه الكاهن. ولباسه يمنحه هيئة غريبة. وحين رأى الصبي، أصبحت حركاته أبوية.

قال بلغة سارة:

ـ ادخل يا بني.

تقدّم نيبو نحوه، ثم توقّف. ظهر رأسا امرأتين سوداوين خلف الرجل. ربما ظن الكاهن أنه أمام حالة مأساوية جديدة لطفل من السكّان الأصليين هارب من براثن الوثنية. أليست هذه حال كثير من الفتيات اللائي وصلن إليه ليلاً هاربات من زيجات أُكْرِهن عليها، أو من أرواح قاتلة تلاحقهن، أو عادات متأصّلة ولعنات، أو من أعمام أساؤوا التصرّف معهن أو من أزواج عنيفين؟ الكنيسة ملاذهن جميعاً،

والكاثوليكية هي سماء هذه النفوس اليائسة. لا حاجة لسكاكر لجذبهن؛ فالأمر سهل بإقناعهن بأن يصبحن راهبات وبتقديم حياتهن للرب. هذه المرة، الأمر يتعلّق بصبي. وهذا الصبي ـ الرجل الملتحي لا يعرف ذلك ـ فكّر فجأةً بنجوياً متروكاً لعذاباته بين محظيتيه اللتين لا تعرفان ماذا تفعلان لإنقاذه من الموت.

قال الكاهن:

ـ اقترب، وقل لي ما مشكلتك!

بدلاً من أن يطيع الصبيُّ الكاهن، تراجع محرّكاً يديه إلى اليسار، إلى اليمين مروِّحاً بحركة غير منتظمة.

صاح الكاهن الذي عرف ما لا يستطيع الصبي قوله:

ـ انتظر! انتظر، سأعود.

لم يأخذ حتى وقته لارتداء ملابسه بشكل مناسب، ثم انطلق في إثر نيبو. من حسن الحظ أنه طبيب بالهواية، حتى وإن كان كاهناً بالاختيار! لقد أتى إلى الكاميرون هرباً من مضايقات قريةٍ ألزاسية حيث لم يعد من أحد فيها يروي له قصةً لا يعرفها من قبل. وكان ذلك منذ عشر سنوات. لم يُنجز بعد طريقته في اصطياد الوثنيين، وما يزال ينقصه الوقت لنشر تعاليمه. لأن التجارب الرائعة تتوالى منذ أن قرّر أن يُنشئ كنيسة صغيرة على الأرض الحراجية التي تنازل له عنها الرئيس بسخاء. ورجل الله يرفض أن يصدّق أن السكاكر التي يوزّعها على الأطفال تنفعه في شيء. لقد لخّص الوضع بعبارة باتت شهيرة: "الإيمان ينفجر في بلد الإيووندو!"

كلمة تلخّص كل شيء: "معجزة!"

لا يستطيع أن يمشي في الشارع إلا إذا كان جمهور من الأطفال يتبعه. وأحياناً شوهد وهو ينزل عن هضاب كنيسته على درّاجة، يتبعه نحو عشرة أطفال.وهؤلاء الأولاد يعتقدون أن الكنيسة الكاثوليكية مملكة، مملكة يمكنهم أن يأكلوا فيها السكاكر فقط. وقد تحمّسوا لفكرة أن يصبحوا من أتباع الديانة المسيحية. على أية حال، معظمهم اعتنقوها بخلاف رأي أهاليهم، الأمر الذي لم يزعج الكاهن الذي يؤمن بوجوب فصل البذرة الجيدة عن البذرة السيئة.

ومع ذلك كان قادراً على معرفة مقدار الخوف في نظرة صبي يطرق بابه ليلاً. إنه يرى الكاميرونيين هكذا: أطفال يتحرّرون من سوادات الليل لكي يوقظوه. إنه يسمع في ذلك نداء إلى دينه. ألم يأتِ إلى هنا لكي يجب جواباً؟ هذا ما وجدتُه في تعميم موقّع من الرجل الذي يمكنني الآن أن أناديه باسمه الحقيقي: الأب فوغت. نعم، الرجل الذي يدل اسمه اليوم على مدرسة في العاصمة، والذي ما يزال الإيووندو يتحدّثون عنه باحترام. إذا أسهمت منامة الأب فوغت في تغذية ذكرى قدّيس (الراهبتان اللتان كان يمضي معهما الليل لم تلبثا أن روتا هذا التفصيل المعبّر عن الحماسة نحو التراتبية الكاثوليكية)، تلك الليلة، ملابسه سهّلت عليه طريقه عبر ممرات مون بليزان المظلمة، وفتحت له غرفة السلطان.

صاحت عدة أصوات عندما رأته:

ـ الدكتور! دعوا الدكتور يمر!

فتح خدَمٌ له الطريق. وكفّت نساء نجويا عن البكاء. خطوات نيبو ترشد الكاهن الذي سدّ أذنيه على حداد مبكر.

أمر نجي مولوه:

ـ دعوه يمر!

وانسحب الفريق الطبي التابع لوالده. أوه، لا أتخيّل كيف كان أهل مون بليزان سيتصرّفون لو أن هذا الرجل الملتحي أتى بثياب كاهن إلى سرير سلطانهم المحتضر! يبقى في نظرهم الطبيب الذي أنقذ حياة نجويا.

أمر الأب فوغت:

ـ افتحوا الطريق، إنه بحاجة إلى الهواء!

طلب كل أنواع الأشياء، ولم يُرفض له طلب. انتشر خبر انهيار السلطان عبر هضاب المدينة، بينما بقي اسم مرضه غارقاً في الأسرار.

عندما كانت سارة تروي لي هذه القصة لم تكن مقتنعة بعد بأن الرجل الملتحي الذي أيقظته لم يكن متعدّد الزوجات، فسألتني:

ـ هل تعرفين الكهنة الكاثوليك؟

سألتُها لماذا ركضت نحوه، لأنها قالت لي، وأنا ما أزال أتذكر ذلك، إنها لا تحبّ هذا الصياد للوثنيين؛ ولماذا لم تستفد من هذه الفرصة الوحيدة للهرب من مون بليزان. ابتسمت، ومرةً أخرى ناقضت كلامها:

ـ وإلى أين أذهب؟

كنتُ أتأهّب لأقول لها:

ـ لتعودي إلى أمّك!

ولكنها استأنفت حديثها معترفةً:

ـ ربما ذهبتُ إليه لأنه كان يمتلك القدرة على القيام بالمعجزات.

ـ وهل صدّقته؟

انفجرت ضاحكة، وقالت:

ـ كنتُ ما أزال طفلة، ولكني لم أبقَ في كنيسته، لأني، والكلام بيننا، كنتُ أفضّل أن أكون ابناً لبرثا على أن أكون إحدى راهباته، أليس كذلك؟

حقاً؟

-16-

أغنيـة الأرض الحمـراء

يقول أحد الأمثال: الماضي طريق، ووحدهم من يمتلكون آذاناً يمكنهم أن يروا. ولا أعرف ما إذا كان مثلاً من الباموم أو الإيووندو أو الباميليكيه. ما أعرفه هو أني كنتُ سأقول العكس: "وحدهم من يمتلكون أعيناً يستطيعون أن يسمعوا." منذ زمن طويل سارة كفّت عن الرضاع، بيد أن ثديي الأم الرؤوم لم يكفّا عن إنتاج الحليب. كما إنها لم توقف دروسها في اللغة. وسجّادة حبّها اتّخذت أبعاد كتاب لغة لا يرقى إليه الشك. ومفرداتها تلامس حدود الشعر. وأحياناً يحملها التأثّر بأمومتها المستعادة فتأخذ بالغناء، وفي أحيان أخرى تنهض وتبدأ خطوتي رقصٍ أو ثلاثة.

في الواقع، القصة التي ترويها لابنها في سلسلة من كلمات ممتازة هي قصة حب. هي أغنية تغنّيها الأمهات لابنهن لكي ينام مبتسماً، ولتحذّره من سخريات القلب المقبلة. أغنية يدندنها الأشخاص في حدائقهم، وغرفهم، وتردّدها فتيات عاشقات بصمت. أغنية الكوارث، أغنية ألم عميق، على الرغم من جمال كلماتها؛ أغنية سامية جداً وممزِّقة جداً بحيث أن عيني برثا تغرورقان بالدموع كلّما غنّتها. كانت أغنية تتحدّث عن بلد ضائع، مع بعض التنويعات.

بالنسبة للأم المغنّية، هذه الأغنية تزخر بذكرى متوهّجة. هي مكان لذاكرة أرجوانية. فبعد المأساة التي حدثت في غرفة السلطان، بات من الواضح أن برثا لم تعد تستطيع أن تدندن أغنيتها الحزينة. وسكّان مون بليزان لا يسمحون لها بذلك.

وجدران البيت سترتجف لأن أبياتها توقظ ذاكرة الأرض الحمراء في باموم، التي ما إن ينزل عليها المطر حتى تمسك بك من صندلك لتمنعك من مغادرتها.

سألت إحدى النساء الأمّ المغنّية، حين سمعتها تغني في غرفتها:

ـ هل تريدين أن تقتلينا بأغنيتك؟

وأمرها صوتٌ آخر:

ـ كفّي!

ـ كثير! هذا كثير!

ـ اصمتي يا امرأة!

ولحسن الحظ أن من بين الأصوات المحتجّة والغاضبة ارتفعت كلمات مصالحة، إذ سألتها إحدى النساء:

ـ ولماذا لا تغنّي أغنيةً أخرى؟

ما يزال صدى أسماء نغوسو! مانغا! سامبا! ـ التي صرخ بها نْجويا إبّان عذابه ما تزال ترنّ في ذاكرة كل شخص، ولاسيما العجائز. لم يكن من الوارد أن تؤلّف الأم أغنية تصف ظرف العبيد: ليس هناك من ذكريات أسوأ.

كان المنع باتّاً.

ـ ما من أغانٍ حزينة!

ـ أغنية فرح!

ـ أنشودة للفرح!

ـ للحياة!

وفي النهاية اقترح أحدهم:

ـ قولي يا برثا، هل تريدين أن نشنق أنفسنا لأننا منفيّون؟

ـ أو لأننا بعيدون عن فومبان؟

ـ أو لأننا في ياووندي؟

وأضاف شخص آخر:

ـ وهل تريدين أن يقتل السلطان نفسه لأنه سقط؟

لم يكن احتضار السلطان نجويا أمراً يؤخذ بسهولة. والمشاهد التي تصف مصير العبيد عندما يموت الحكّام تغزو روح الأم وتُطبق على شفتيها. فكّرت بقدَرها هي، ثم بقدَر زوجات السلطان، فغضبت لأنها لا تريد أن تفكّر إلا بابنها، إلا بنيبو، إلا بفومبان. قد يكون هذا من أجل الاحتماء من تيه الحياة غير المحتملة التي قرّرت أن تعطي سارةَ صورةَ ابنها الشاب، والذي بدأت تروي له قصته كمراهق. في النهاية، لم تكن حياة نيبو إلا نسخة أخرى من حياتها هي.

أعلنت برثا ذات صباح:

ـ نيبو قتل والده.

كان صوتها هادئاً، ولفظت الجملة الفضائحية كما لو أنها كانت قد كرّرتها مراراً في السابق.

ـ نعم، لقد قتل أباه.

هل كانت هذه مزحة؟

لا، بل أردفت:

ـ ولكن الكلب كان يستحق الموت!

وجب على سارة أن تعتاد على سماع أمها الراوية وهي تصف زوجها بـ"الكلب". نبرة برثا التائهة ونظرتها المتآمرة كانتا كافيتين لتسترعيا انتباه الفتاة، على الرغم من الانطباع الذي ينتابها أحياناً بأنها تجد نفسها في مجاري مياه ظنت أنها هربت منها يوم اختفت عينا العم أوونا. كانت أذناها تسجّلان قصة نيبو كلّها. وبرثا تصف أبنها، لأنه ألن يكون من المهم أن تكون مستمعتها قد كوّنت فكرة عن ذلك الذي حلّت محلّه؟

قالت:

ـ أي صبي لطيف كان! أي ملاك!

حاولت سارة أن تضبط روحها المجنونة، بينما الأم تضيف:

ـ كان صبياً طيباً حقاً!

وامتلأت عينا الأم بالدموع، وهي تكرّر:

ـ صبي طيب.

ثم:

ـ فقط كان مسكوناً بالشيطان.

ولفظت "الشيطان"بسعار، وتحوّلت دموعها إلى خطوط نار تريد أن تحمي سارة منها.

ـ كأبيه، ذلك الكلب!

هذا ما تمكّنت سارة من فهمه من هذه القصة التي قطعتها اللعناتُ والدموع غير مرة: كانت برثا قد طوّرت شعوراً لا يمكنه أن يكون بالنسبة إلى كثيرٍ من نساء فومبان إلا ترَفاً؛ لقد أصبحت غيورة. كيف؟ لم تكف عن تصوّر الرجل الذي مُنحت إليه برفقة نساء أخريات. فبحسب رأيها، هي من تزوّجها زوجُها، "إذن لقد كانت تستحق حبّه". كلام متغطرِس، لاسيما أنه مقول من امرأة بحالتها عند الباموم. ومع ذلك، فإن برثا الأَمَة ابتكرت أفكاراً عديدة لتجذب ولتأسر انتباه "زوجها".

ذات مرّة، أخرجت مشهد انتحار. فهي لا تعدم الوسائل لذلك: بضع نقاط من دم معزة على جسمها، ويصبح الكلب أحطّ رجل على وجه الأرض! وعلى الرغم من أن برثا امرأة ذكية، مع ذلك لم تكن تجهل أن زوجها الذي يمتلك وفراً من المال يؤهّله لشراء امرأة جديدة، ولن يكون انتحار زوجته الأولى إلا تحريراً له.

الحكمة الخبيثة التي يتداولها الرجال فيما بينهم هي: "المرأة دواء المرأة!" والباموم ليس استثناءً. وفي الوقت نفسه من المستحيل تكرار انتحار مزيّف إلى ما لا نهاية. زوج برثا لم يسألها لماذا أرادت أن تموت، هو الذي أغلق فصل حياته الذي كانت المرأة الوحيدة فيه. ويمكن الافتراض أيضاً أن نداءً سيئاً دوّى في لحمه الذكَري، نداء يذكّره بأن يكتفي بحياة وحيدة الزوجة أيضاً بينما رفاقه في الشركة أو مجايلوه يحيط كلٌّ منهم نفسَه بعدة زوجات. والقول إن هذا الرجل لديه أشياء عليه تداركها، يعني إساءة تقدير الضغط الذي يشعر به عندما يكون في المجتمع. كان كاتباً، وأعماله الفكريه تدرّ عليه مبلغاً زهيداً. ومع ذلك لم يصبح متعدّد الزوجات بالهواية، بل كان يشعر أن عليه أن يكون كذلك من باب التقليد.

كان يقول لنفسه: "كل رجل متعدّد الزوجات دون أن يدري!"هذه العبارة هي عبارته المفضّلة مع أنها لم تكن له، بل لأصدقائه. المشكلة أنه اتّخذ هذا القرار في

سن متأخرة. وابنه نيبو، كان صاحب صوت قوي، وبدأت لحيته تنبت. وبصراحة أكثر، أخذ نيبو ينظر إلى النساء باهتمام. وكان هذا الشاب يعلم بالتأكيد أنه لا يستطيع أن يتمتّع بحق الحصول على فتاة، ولأنه ابن امرأة أسيرة، ليس لديه أي حق في ذلك. عينُه، وبصورة أخص ذَكَرُه لم يقبلا قيد ظرفه. كانا يتصرّفان كلٌ بحرية عندما تمرّ فتاة، وعينه اليسرى بصورة خاصة. وأحياناً يلتهب سرواله، فتسيل دموعه ويسخن وجهه، ويشعر بقساوة بين ساقيه، ولكن لحسن الحظ، لا أحد سواه يعلم بانتصاب لحمه.

كانت برثا تسأله حين تفاجئه في لحظات من الالتهاب الشديد:

ـ هل هناك شيء ليس على ما يُرام؟

يظلّ نيبو صامتاً، فتلحّ الأم:

ـ ماذا بك؟

ـ البصل! البصل!

قال ذلك على الرغم من أن أمه لم تكن تحضّر طعاماً فيه بصل.

في تلك اللحظات كثير من العبيد يلتفتون إلى الحيوانات. ومراراً سُمعت بقرةٌ أو كلب يصرخان ليلاً. كان نيبو يفضّل أن يحلم بالنساء اللواتي لا يستطيع امتلاكهن. ذات يوم، ضبطته برثا راقداً في الحقل وهو يؤشّر ويصرخ في فراغ الشمس. ذلك اليوم، حنّ عليه قلبها، وقالت لنفسها: في نهاية الأمر، الأرض حل مقبول. ولكنها لا تريد أن تكون شاهدةً مرتين على هذه الهواية عند ابنها. حذّرته أن لا ينسى أن عقوبته سوف تتضاعف مرتين إذا ما ضبطته يشتهي امرأةً موعودة لرجل حر. قوانين باموم واضحة في حال مارس رجلٌ عبدٌ الحبَّ مع امرأة حرة. ثم كان الأمر أصعب إذا مارسه مع الحيوانات. إن مجرّد التفكير بهذه الأمور يسبّب لبرثا الغثيان.

هل كان يقين نيبو بأنه سيُرجَم هو ما يثيره؟ برثا لن تعلم ذلك أبداً، ما دام المنطق الذكَري غريب جداً. لقد قالت لابنها إن نار هؤلاء العبيد الذين لا يستطيعون الامتناع عن النظر إلى زوجات الآخرين، مثله، هي رفيقة المشنوق. لقد كبحت نساء حرائر كثيرات مشياتهن وهن عائدات من النهر عندما يمررن بمحاذاة

مجموعات من العبيد يعملون على الطريق. بعضهن يهززن مؤخراتهن على البطيء أمام عين آسرة، وهن يحملن على رؤوسهن ثمرة قرع تُبرز تفاصيل أجسادهن. وكان ابن برثا يقول لنفسه: أوه، هناك لحظات يكون فيها، بالنسبة لرجل، رجم عجائز مشهورين لم يعد يُعتدّ به مقابل خفق رغبة عارمة. بعضهن الآخر يخلعن مآزرهن، أوب! وهن يضعن دلو ماء على رؤوسهن، ويقدّمن أجسادهن العارية للناظرين. ويركض عبدٌ ليساعد المرأة الوقحة مع حملها المستحيل وملابسها المستقلّة، لكن اللباقة هي الشيء الوحيد المسموح له. وكان جسم نيبو يُبدي شهيةً مثلما الأيدي الخبيرة لكثير من النساء تفقد فجأةً ثقتها عندما تؤدّي مهمات مشتركة مثل حمل الماء، ويباعدن بين سيقانهن، وبغير إرادة منهن، يهبن أنفسهن لرجالٍ مسنّين.

لنعد لحظةً إلى أمه، المرأة الغيورة برثا التي لم تكن تستطيع أن تقتسم زوجها مع امرأة أخرى: نعم، لنتخيّلها في هذه اللحظات. أليست ذروة المصائب أن تُمضي لياليَ مسهَّدةً، ينهشها الخوف من أن ترى ابنها مخصيّاً وسطَ المدينة، أو مرجوماً، لأنه لمس زوجة أحد النبلاء؟ أوه، لنرَ برثا، يمزّقها العناء وهي تلاقي قدرها، لأن فتاة نبيلةً ستأتي قريباً لتطرق بابها وتكشف لها وجهاً غطّته الدموع، لتبيّن لها وسط شهقات مصطنعة أنها قد اغتُصبت.

كان اسم الفتاة نغونغور.

ـ اغتُصبت؟

تنهض برثا في المطبخ، وتعقد مئزرها آلياً وتشدّ العقدة تحت إبطها. إذن لقد أتى يومُ خوفها، هي تعرف ذلك. تنظر ملياً إلى الفتاة التي انتظرتها طويلاً منذ أن وُلدت الرغبة عند ابنها؛ كشفت ذلك "الوجه القبيح" وابتسمت، لأن الأمر جليٌّ: فوحده الاتهام بالاغتصاب في فومبان يفتح للقبح أبواب الزواج.

ـ ومن اغتصبها؟

ـ نيبو.

- 17 -

حمـراء هي الأرض الغربيـة

الأم هي المحامية الأولى عن ابنها. من البديهي أن تدافع برثا عن نيبو ما دامت التُّهم المرفوعة ضده ثقيلة. أمام هذه الفتاة التي لم تطلب أقلّ من رأس ابنها، شعرت بحبّها الأمومي فجأة يعجن قلبها ويصل إلى حلقها. ويديها وقدميها وتتحول إلى ضحكة مجلجلة رمتها خارج مطبخها، في فناء بيتها، وتجعلها تلفظ الجملة النهائية التي تصرخ بها آلاف النساء في أرجاء الأرض كلّها: "إلا ابني!"

وكانت حاسمة:

ـ ليس نيبو!

وصفقت بيديها لتدعم قناعتها، وغطّت شفتيها براحتها، طأطأت رأسها وأطلقت صرخة نساء باموم: "وديديدي!"

هل للحماقة حدود؟ لا. لقد رأت منها برثا أصنافاً كثيراً، باسم الله، أما هنا، فقد ميّزت المؤامرة مباشرة!. فخلف سيل دموع تلك الفتاة اكتشفت حساباً بارداً موحى من رغبةٍ عنيفة بالخصيتين.

ـ ولماذا لم تذهبي إلى القصر؟

كانت الفتاة واقفة على باب المطبخ، تقضم أظافرها. فهمت أم نيبو أن تلك الفتاة تفضّل عدالة النساء الرهيبة على حكمة الشيوخ.

ـ وماذا تريدين أن أفعل؟

أكلت الفتاة إبهامها، فأضافت الأم:

ـ أن أقتل ابني؟

ردّت الفتاة:

ـ لا!

فثارت ثائرة برثا وهي تسألها:

ـ ماذا تريدين إذاً؟ إيه؟

لماذا يعيش الحب دائماً في لحظات العذاب؟ هذا سؤال لم تطرحه برثا على نفسها إلا فيما بعد. أما في تلك اللحظة فقد شعرت برغبة في خنق هذه الفتاة، وبقطع أصابعها الطفلية، وبانتزاع لسانها. ومع ذلك، فإن يدي الأم الجريحة المرتجفتين لم تفعلا شيئاً سوى الاقتراب لتضربا فم نغونغور العصبي، بينما فتحت الفتاة شفتيها وصرّفت فعلاً لم تسمعه برثا:

ـ أحبّ...

ثم قاطعتها بعنف:

ـ كفّي عن قضم إبهامك، أيتها القذرة!

لم تستطع نغونغور أن تنهي جملتها كما تحب: "ابنكِ..

فكّرت برثا: لقد انتهى فومبان. لقد كان زمن لن تأتي فيه فتاة نبيلة النشأة أبداً إلى باحة أَمَةٍ لتصرّف فعل "أحبّ" بهذا القدر من الجنون! الحب؟ برثا امرأة أكثر من كونها عاقلة. تذكّرت وجه ابنها المجعّد تحت الشمس حين فاجأته في حقل البطاطا الحلوة. أضاء وجهها لفكرة أن من الأفضل في نهاية المطاف أن يجد ابنُها المرأة التي تلمسه برغبتها. اشترت صمت الفتاة ببعض الكوريات[1]وتغلّبت على ابنها. بكل تأكيد، أغفلت ذكر هذه التفاصيل لزوجها. والقضية انتهت بالنسبة إليها، ولفّها الغبار، ويمكنها أن تنتقل إلى شيء آخر.

وحين أبلغها زوجها في المساء أنه عاشق، لم تستطع برثا إلى الانفجار ضاحكة للمرة الثانية، وسألته:

ـ أنت أيضاً؟

وأغلقت فمها براحتها مرة أخرى وقالت: "وديديديدي!"وأطلقت شتيمتين على وباء الحب هذا الذي يجتاح فومبان، ثم قالت لزوجها إن عليه أن يخجل من

---

[1]. الكوري le cauri، قوقعة تُستخدم كنقود في أفريقيا الشرقية وتشاد. المترجم.

نفسه، وأن يحضّر لعرس ابنه. وهنا بدأت تكره الكلب. الحدود بين الحب والكراهية نفوذة، كما هو معلوم، وبصورة خاصة عند المرأة الغيورة. فبرثا تعلم أنه لم يكن يتكلّم عنها عندما قال إنه عاشق. ثمة أشياء لا تُطلب، ولكن ما كانت لتعطيها الأم لمعرفة المرأة التي تدين لها بهذه الضربة.

وسارت الأمور بوتيرة سريعة.

فبعد عدة أشهر، أعلن لها الكلب أنه قرّر أن يتزوّج ثانيةً. لم تصدّق برثا عينيها حين قدّم لها المرأة التي اختارها، قال إنها "فتاة طيبة". وكانت نفسها، نعم، نغونغور، تلك التي طرقت باب مطبخها وفي فمها اتهام صريح ضد ابنها، حبيبها. فمتى استقرّ الكلب مع "الشيطان" (هكذا كانت تلقّبها برثا التي كانت مسيحية) في البيت الجديد، بيت الهوى، الذي بناه لها، رأت الأم نبتة مجنونة تنمو في باحة بيتها. لم يفرض الصمت نفسه قطّ بهذا الشكل، ولم يكنْ قطّ مستفزاً بهذا الشكل! قالت برثا لنفسها: "لقد نالت منّي!" وصفعت نفسها لأنها أساءت تقدير حساباتِ قحبةٍ، "لقد نالت منّي!"

وليس هذا كل شيء. فقد لامت نفسها على إساءة تقدير الفتيات جميعاً. "كان يجب عليّ أن أقتلها! واحمرّت عيناها، كان يجب عليّ أن أقتلها!"

لم تستطع أن تُخفي عجز يديها المفتوحتين على جريمتها المحبَطة. كان زوجها عاشقاً جداً بحيث أنه قصد هابيش، التاجر السويسري لكي يشتري ألبسة أوربية، وسترة خضراء، وحزاماً أسود، وقفازات بيضاء. كما اشترى حذاء أسود له خطوط بيضاء. أخبره البائع: هكذا يتزوّج الأوربيون. ودعا زوجته الأولى إلى عرسه. فقانون الباموم يفرض ذلك. المسكينة التي تحوّل الحب لديها إلى كراهية فكّرت بأمور حمقاء كثيرة لكي تهدم هذا الفرح المؤربَن الذي غرس في باحتها جذور اللعنة. كان بوسعها أن تطلق إشاعات مخرّبة: كأن تدّعي أن زوجة الكلب متعدّدة الأزواج. لكنها كفّت عن ذلك: فبوصفها زوجة مشارِكة، انعدم حكمُها، وسيثير قهقهة الجميع. كما فكّرت برثا أن تصرخ: يا للفضيحة، وأن تصرخ بكل بساطة، ولكنها أدركت أن من صالحها أن يمرّ حفل الزواج بانتظام؛ إنها لا تريد أن تضطر للهرب أمام الاتهامات بالشعوذة، فليس من اتهامات أسوأ منها في فومبان!

فقدت برثا أسهمها كلّها حين أُصيبت بالغيرة. ومن ناحية أخرى، كأي رجل في عرسه الثاني، انفجر الكلب ضاحكاً من تحذيراتها "المضحكة"، هذا ما كان سيقوله. شعرت المرأة الغيورة أن الكلمات تنحلّ في فمها، ومع ذلك فهي ما تزال ترفض أن تصمت. ثم إن هناك ابنها. وما تراه لم يكن ليواسيها: فقد رأت نيبو يتسحّب عند الجدران ليدخل خلسة إلى بيت الهوى عندما يكون والده في الحقل. كان الصبي مصمّماً جداً بحيث أن التهديد باللعنة من أمه وحدَهُ ثناه عن فعلته، وكان ذلك للحظات فقط. سألته برثا:

ـ ماذا تفعل هناك؟ هل تريد أن تموت؟

سرعان ما أدركت أن سؤاليها ضاعا في متاهة نظرة صبي لا يعرف بعد ماذا يفعل بقضيبه الغاضب. بدا نيبو غير مبالٍ كشابّ يتأمّل قضيبه المنتصب، ثم قال لأمه:

ـ العنيني إذاً! بالإضافة إلى ذلك!

ـ إنه والدك!

ـ لقد أخذ امرأتي!

إذا كان نيبو قد نسي أنه يكلّم أمه فهو يتذكّر جيداً أنها وافقت على علاقته مع نغونغور. لقد نسي أن نغونغور زوجة أبيه، من الآن فصاعداً، صار فكرُه ملتهباً. ذلك أن نيبو لُعن! وباتت أمه تراه يحترق بنار أول ما استعرت في عينيه.

قال الصبي:

ـ فليرجموني!

وكان يتكلّم عن مانتغو، شرطة السلطان. كما كرّر هذه المخاوف وهو يضاجع زوجة والده. الحب؟ أوه، لقد رُجم نيبو من قبل! ولم يعد بحاجة إلى الموت! فقد مات من قبل، هو الذي جعلت ضحكتُه في غرفة نوم أبيه أمَّه تنزف من أوردتها كلّها، وقد أضاف:

ـ احرقي البيت! احرقينا في البيت!

ـ أنت ابني.

لم تكن معضلة الأم معضلة الابن نفسها!

ـ أنا رجل.

ـ أنتَ ابني.

وأمسكت برثا بيديه وحملتهما إلى صدرها، وأخرجت من مئزرها ثديها لتُرضعه، وقالت:

ـ ابني!

في سن معينة يصبح حليب الأم مرّاً على الطفل.

صرخ نيبو:

ـ دعيني بسلام!

كان يفضّل أن يختفي عطشه في لهب نارٍ، بدلاً من أن يخدم رغبات امرأة. ويفضّل أن يواجه حبُّه وجهَ زوجة والده، صديقته. كثير من الزوجات الأوائل في فومبان أضرمن النيران في بيوت ضرائرهن، ولكن غيرتهن لم تُعد إليهن أزواجهنّ قط. حتى صفة أم لم تكن كافية لتهدئة سعار جمهرة من الرجال يقرّرون أن يثأروا لابن جنسهم المُهان. لطالما كانت المرأة هي من يُلقى بها عند حدود السلطنة. هكذا كان الاجتهاد. فكان على برثا أن تهدّئ مخاوف أمٍّ وعذابات زوجة، وكان ذلك عذاباً إضافياً.

لو أنها أضرمت النار في بيت نغونغور كانت ستقول: "لقد فعلتُ ذلك من أجل ابني!" وكان الرجال سينفجرون ضاحكين ويقولون: "هاتي شيئاً جديداًُ، يا امرأة!

رأت برثا ابنها مرجوماً، فتكوّرت خوفاً. وغطّت الدموع وجنتيها. دموع حب لابنها على خدها الأيمن، ودموع كراهية لزوجها على خدّها الأيسر. للمرة الثانية منذ ولادة نيبو تحسّ بتقلّص في بطنها، وكأنه يعمل! وكأنها تهب الحياة من جديد لهذا الابن الذي تراه ميتاً سلفاً!

قالت لي العميدة: عندما روت لي الأم هذه القصة أمسكت بطنها، كما لو أن ألمها لا يُطاق.

وبينما كانت سارة تنظر إليها، حوّل الرعبُ الذي سبّبته رؤاها إلى تعاطف.

فكّرت: أريد أن أكون نيبو، ما دام هذا الابن محبوباً.

هي تعلم أن قصة رُويت لا يمكنها أن تُنفى، وأنها في ذلك شبيهة بقصةٍ معيشة. تاه صوت برثا في صرخات ألم، "وديديدي!"، باحثة عن مكان تدفن فيه هذه الدموع التي كانت محرّمة في مون بليزان، كما في فومبان البعيدة؛ وباحثة عن مخبأ لعينيها التالفتين اللتين لا تريد أن تُريهما لابنها غير الحقيقي. هذا كلّه لم يكن إلا الجزء الأول من قصة طويلة مُخجلة تأمل أن تُنقذها منها سارة: الفصل السابع عشر من إذلالٍ ترك آثاره على رقبتها، وفي أصابعها سجّل القسوة الكريهة لجريمةٍ، قبل أن يسرق منها الإيمان في الفتيات اللواتي كانت تربّيهن. ومع ذلك كانت تؤكّد: "الشيطان سرق ابني".

لم تكفّ عن تسمية نغونغور "الشيطان".

بداية القصة هذه لم تترك من شكٍّ عند سارة. فهي تعلم الآن لماذا كانت سارة سعيدة جداً بعودة ابنها إليها، ولماذا تريد أن تلده من جديد.

لاحظتُ:

ـ من المستغرب أنها لم تراقب قصتها، فلم يكن عمرك إلا تسع سنوات.

فسّرت العميدة:

ـ لقد اجتازت الجحيم، ولم يكن بوسع روحها إلا أن تكون قذرة خلف اختيار كلماتها.

ونظرة سارة منحتني فكرة عن ذلك الجحيم.

ـ كانت المرأة المسكين تبصق اللهب دون أن تدرك ذلك. كانت تأكل الخراء دون أن يكون لها أنف للشم.

سارة تروي قصة برثا-وكان يكفي عدة جلسات لإدراك ذلك- لكي تخرج من ذلك الأتون التي بقيت حارسة له طوال ثمانين سنة، ولكي تُطفئ النار التي انتشرت من حولها. أما برثا فكانت تضاعف من أزهار مفرداتها السامية لكي تعوّض وحلَ حياتها الكئيبة. لقد استهل سماع سيرة عذاب برثا طفولةَ سارة، يوماً بعد يوم، وفصلاً بعد فصل، وقصة بعد أخرى.أما أنا، فلم أستطيع الامتناع عن التساؤل: هل كان من الأفضل نقل قصص كهذه إلى طفلة، أم إخفاء طفلة في الغرف المظلمة لحياة سلطان؟

بطريقة معينة، ثما لدي انطباعٌ بأن الأمر سيّان.

القصة يمكنها أن تغتصب روحاً أيضاً.

بقصص الأم القاصّة تمنح سارةَ وعياً مُحرقاً بالجحيم الذي كانت ضحيته هي نفسها، ورؤية لفردوس حبّ هي تريد أن تعرف نهايته. فتحتُ لها أذنيّ كمن يحل صماماً. وكان الكلام الرابط الوحيد الذي يوحّد بين الروحين، وهذين العالمين، ولكن ذلك كان من أجل تسجيل صمتهما المشترك تسجيلاً أفضل.

الحياة قصة بقدْر ما هي قدَر.

- 18 -

قصة منتشرة بكلّ تأكيد

كلٌّ منا مقياس أحداث لزمانه. فمن المستحيل أن لا يُسمع صدى أحداثٍ حدثت في أقصى زوايا الأرض في عاصمة العالم، لأن الوهم وحده يمكنه أن يجعلنا نعتقد أن بوسعنا أن نعيش معزولين على هذه الأرض. الحب هو قبول الحياة المجهولة التي تدقّ أبواب القدر. حب الأم هو انعكاس العلاقة الغريبة التي تربطنا بالكائنات التي كانت دائماً هنا، وفي الصميم مجهولة منا بقدر جهلنا برضيع أمامه حياة رجلٍ بأكملها لكي تفاجئنا بقصته. جزء من قصة العميدة، بعد الآخر، كنتُ أكتشف العقد اللامتناهية لشهادة روح؛ الأم العجوز كشفت لي عالم امرأة أحمل اسمها، وكانت بالنسبة إليّ بعيدةً جداً وغريبةً جداً.

لاحظتُ ذات يوم:

ـ أعلم أنكِ لم تكوني تتكلّمين، ولكن لو أنكِ طرحتِ أسئلةً على برثا، فأيها كان سيكون الأول؟

نظرت إليّ لحظةً، ثم قالت:

ـ كنتُ أعلم أنكِ ستعودين إليها.

ـ إلى ماذا؟

ـ إلى الندبة على الرقبة.

في الليلة السابقة أخطأت ماما. فقد كنتُ أريد العودة نحو سامبا ونغوسو ومانغا، لأعرف مَن هم، والأهم من ذلك، لماذا كانت أسماؤهم على شفتي نْجويا يوم سقوطه. لم تترك لي الوقت، فقد مضغت تبغها وجحظت عينيها، وفتحت فمها

واسعاً كما لو أنها ستبتلعني، ثم تجمّدت في هذا الوضع. لم تعطس، لا. ضحكنا، نحن الاثنتين، عندما اعترفتُ لها أنها أخافتني. الحقيقة هي أني كنتُ أعاني من مصاعب في التكيّف مع إيقاع سردها المتموّج، وفي الذوبان في الحيوات المتعدّدة التي تعرضها أمامي. هي وحدها تتحكّم في زمن سردها.

فتقبّلت القصة التي فرضتها عليّ.

ـ إذن تلقّت تلك الندبة من زوجها؟

لهذا معنى، أليس كذلك؟ مع ذلك، لا، فقد كان ردّ سارة:

ـ القصص أيضاً يمكنها أن تجرح. ألا تعلمين هذا؟

ـ بلى.

كنتُ آمل أن تجيب على أسئلتي بطريقة أكثر مباشرة، ولكني لم أجد الكلمات لكي أفهمها ذلك. كنتُ أريد أن تحترم تسلسلاً منطقياً في سردها، وأن تروي تعطّشي بكؤوس متتالية. ثم انفتحتُ على إناء قصصها، وكلّما تهتُ في ممرات مون بليزان، برزت أسئلةٌ بسيطة في خاطري: من هي سارة؟ ومن هم أبواها؟ من، من كان والدها؟ آه، لماذا أنتِ نافدة الصبر كثيراً؟ أجابتني. قصتها أدخلتني إلى متحف الاستعمار مع مجاهيله الكبيرة. نيبو مع سيّديه نجوبا وأتانغانا، ولكن مع شهدائه المشهورين أيضاً، نغوسو ومانغا وسامبا ومن أيضاً؟ ثمة قصص لا تحتاج إلى عُقَد. عاجلاً أو آجلاً، تنتزع تكتّلها وتحلّ عقدها في سلسلة من الجمل.

وسارة تأثّرت بقصة برثا. فإذا كانت النهاية هي بطريقة معينة البداية نفسها، فإن درب آلام الأم المعذَّبة بدأ عند حدود جنونها الدامية. برثا أخذت قصة سارة الصغيرة على محمل الجد، بحيث أنها سمعت صدى نيبو يترجّع في عويل الفتاة ذات الماضي الغامض، كلّما حلقت لها شعرها.

أضافت العميدة ببعض الانزعاج:

ـ لا، لم يكن زوجها من سبّب لها هذه الندبة. فقصة نيبو ما تزال في بدايتها.

مضغت سارة قطعة أخرى من التبغ. وهذه المرة لم تعطس ولكنها وضعت صرّتها في عبّها وهي تفتح نظرها إلى أوسع ما يمكن وكأنها تقرأ في كتاب الحياة، قبل أن تُتابع:

ـ لن تصدّقي التتمة.

أحياناً يحتاج المستمع الأكثر انتباها إلى الانسحاب للحظة، وبرثا تعرف هذا. ولكن الحياة هي بائع تبغ نعود إلى متجره دائماً ودائماً. مثل الخيال المتسكّع لامرأة عجوز، وجب على سارة، أو الصبي، أن تترك قصة نيبو، المراهق غير المكتملة؛ فقد كان هناك عمل يجب القيام به. كان هناك السلطان. والسلطان في غيبوبته لا يستطيع أن ينتظر، فقد رمى مون بليزان بأكمله بالمقلوب، هل يتذكّر أحد ذلك؟ فالصرع ليس أمراً سهلاً، حتى يومنا هذا. فما بالك في الثلاثينيات، وفي ياووندي الخاضعة للاستعمار، حيث المشفى المركزي لم يكن موجوداً بعد؟ اسألوني عن ذلك، اسألوا سارة عنه. في الأرشيف ثمة تفسيرات عديدة لبقاء نجويا على قيد الحياة. فعلى سبيل المثال، الكاهن الطبّي، الأب فوغت، كتب في تعميمه الذي يحمل الرقم 37 أن يد الرب هي التي نفّذت فعل الخلاص، ولكني أتخيّل أن ذلك الأب صاحب التفكير المنهجي شكر ربّه على هذه المعجزة التي تمّت دون السكاكر المعتادة، والتي لم تتأخّر نتائجها.ألم تكن غرف الأماكن حيث مقاومة صيد الوثنيين الأصلب في المدينة؟ وبالعكس، فإن أطباء نجويا عزوا قرار ترك الحياة لسلطانهم إلى الأسلاف ـ وبصورة خاصة نشار ين، السلف المؤسّس ـ وإلى روح ريفوم الحامية، المكان الحاضن لباموم. لكن أولئك الرجال العلماء لم يتمكّنوا من القول لماذا خرج السلطان في تلك الليلة التعيسة، أسير نعاس مبهم. لم يكن لنيبو صوت في الموضوع، بالتأكيد، ولكن كان سيُسأل عن رأيه الذي صوت به مع المعجزة. ما يزال يتذكّر الصعداء التي تنفّسها أهل المحمية عندما أبعد الأب فوغت أذنه عن قلب السلطان، وأعلن للجمهور المحيط به: "ما يزال يتنفّس!"

تردّدت العبارة صدى مركّباً في أرجاء ممرات القصر.

ـ يتنفّس؟

صاح كل موجود:

ـ الحمد لله، إنه يتنفّس!

لقد تم تجنّب الأسوأ، بكل تأكيد، ولكن لا أحد يستطيع أن يقول ما يعِده المستقبل.

سرعان ما أصبحت شقة السلطان هدفاً لحجّ متواصل بعد الأيام الأولى من المرض، حيث أشخاص قليلون جداً دخلوا إلى غرفته. وكان نيبو منهم، لحسن الحظ.

ومهمته ساعدته على ذلك. إذن كان الصبي موجوداً عندما أتى الرئيس أتانعانا لعيادة صديقه، محافظاً هذه المرة على هيئة عادية. وكان نيبو موجوداً أيضاً عندما زاره المفوّض السامي مارشان. منذ قضية فومبان والملازم برستا، فضّل الفرنسيون التعامل مع وسطاء على التعامل مع نجويا نفسه: أولاً الممثّل الرسمي للسلطان في فومبان فومبويوم، وبعده نجي مولوه، الابن الآخر لنجويا الذي كانوا مقتنعين معه بأنهم يستثمرون في المستقبل.

قالت سارة:

ـ كنتُ هناك، عندما أتى الأبيض.

كانت زيارة المفوّض السامي حدثاً سياسياً، وعوملت كذلك. إذا كان بعض الناس، مثل، نجي ماما، يرون أن الرجل ليس له من هدف آخر سوى التحقّق "بأم عينه" من أن السلطان لم يمت، فبالعكس، كانت نغوتان ترى، أنها فرصة للحديث. في ذلك اليوم، لبست أجمل ملابسها: ثوب قطني مع رسوم باللون الأزرق الغامق، زي باموم.

كان تصريحاً. لم تنسَ نغوتان أن الفرنسيين منعوا عن والدها المساعدة التي يحتاج إليها لا ليصلح شاحنته فحسب، بل وحياته المقبلة أيضاً. وعند وصول أسرة السلطان إلى العاصمة، عندما عرض السيارة التي نقلته عبر الطرق الأكثر خطورة في منفاه، قال له المدير الاستعماري: "إنها خردة، الآن!" فكيف ينسى ذلك؟ ولم يفاجئها أن يترك والدها سيارته تتلف في باحة قصره، حتى غدت شاحنة نجويا الصورة الأجلى للعلاقة السيئة التي تربط العائلة السلطانية بالفرنسيين.

لم يبق المسؤول الفرنسي طويلاً، ولم يقل كلاماً سامّاً، مدركاً أن مجرّد حضوره تفجيري. أو ربما فهم في النهاية أن خجل الباموم هو ما يُلبسونه ثياب الفخر. وكان قد أحضر معه كتباً، روايات مخصّصة للسلطان، فقُبلت منه من باب الإنسانية. بعد ذهابه، أخذت نغوتان تقرأ في غرفة والدها وبصوت عالٍ صفحات صحيفة فرنسية كان المفوّض السامي قد أضافها إلى قائمة هداياه. ليس هناك من طريقة أفضل من هذه لمواساة قلب هذه المرأة المعذَّب، فالصحيفة كانت لو جورنال إيلوستريه.

لم يكن نجويا يُبدي حراكاً في أثناء قراءتها، فقد كان منغلقاً في خزائن مفاوضاته مع الموت. مدّت له الفتاة يدها، وأخذت تقرأ له على ضوء المصباح. قرأت لمدة ساعة أخبار العالم، ثم نهضت وخرجت لتمسح دموعها. فهي لم ترَ قطّ والها بهذا الوهن! ومع ذلك، لم تهِن. أية قراءات قامت بها في خلال هذه الساعات المظلمة! وجدتُ في خزائن نجويا نسخاً من نوفيل كولونيال ولا غازيت دو باري. كما وجدتُ كتاباً لهوغو، فن أن تكون أباً عظيماً. ولمّا كان الأوربيون يميلون إلى عدم التفكير إلا انطلاقاً من مرجعياتهم فقط، تخيّلتُ أحد الزوّار الفرنسيين للسلطان (بهلوان استعماري، لنقُل) يعطيه هذا الكتاب متمنياً له أن يكون هو نفسه "بطريرك غرنيزي". ولم لا، فإن هذا الزائر يعرض العودة المظفرة لنجويا من منفاه، عودة تتزامن مع نهاية الاستعمار الفرنسي. ومع ذلك ليس هناك من طريقة أفضل لنشر الغصن الذي يقفون عليه!

من المحتمل أن يحمل الأب لنجويا هذا الكتاب المقدّس باللغة الفرنسية الذي وجدتُه في أمتعة السلطان. من الصعب تصديق أن تقرأ نغوتان صفحات من الكتاب المقدّس لوالدها، رجل العلم هذا، الذي لم يتأثّر كثيراً بقصص يعقوب ولا نوح وغيرها التي ترجمها له غورينغ فيما مضى، في عام 1913. ومع ذلك هي لا تجهل أن والدها الذي صدمته مبالغات الرب المسيحي، قرّر أن يكتب كتابه الخاص عن الإيمان، وهو مليء بقصص تجدها عموم باموم قابلة للتصديق، وهو كتابه الشهير نويت نكويت. أكثر من قصص الكتاب المقدّس ومن وعودها بالحياة الأبدية، ألا يمنحه الفرح في سماع قصص رواها أبناؤه رغبة في مواصلة الحياة؟

أكّدت سارة:

ـ كانت نغوتان تعلم أن الكلمات من تلقين نجويا.

سألتُها:

ـ ونيبو؟

نيبو؟ له قصة أخرى في أذنيه. وكانت قصة الجنس هذه تمتلكه لحظة عودته إلى البيت.

بل إنها لم تترك له الوقت ليتعرّى.

- 19 -

من يبدأ في فومبان ينتهِ في فومبان

فومبان، 1913. في الواقع، لم يكن السؤال "إذا" بل "متى" سيرى بوضوح من خلال فوضى بيت الهوى: هذا ما قاله الصبي نفسه. وكانت أمّه واثقة، إن هذا سيحدث قريباً حتى لو أن الكوابيس الأكثر جنوناً لم تستطع أن تتوقّع تتمة القصة. أما الكلب، فإن أصدقاءه لم يكونوا ينتظرون إلا التفاصيل الرائعة للياليه في زواجه الثاني، وكيف! كان يعلم أن قصة سريره المُبَهِّرة ستضعه أخيراً على الحامل الذي تركه طويلاً شاغراً. فبعد شهرين أو ثلاثة أشهر من الحب المجنون من أجلها لم يمتنع عن ابتلاع كميات كبيرة من مبيتاكولا وأعشاب أخرى مقوّية، قرر أن يمسك جوهر قصته.

ركض إلى بائعة خمر الرافيا[1] وفمه مليءٌ بالكلمات، وكان يأمل أن ينتظره أصدقاؤه هناك، وآذانهم مفتوحة. أخذ يفرك يديه دون أن يتخيّل أن أصدقاءه، بعد أن تعبوا من انتظاره، قد ذهبوا ليقوموا بأعمال أخرى، أو أنهم وجدوا شيئاً آخر يسلّيهم أكثر من تكرار الحديث عن أعراسهم المتعددة الزيجات، حتى وإن تزيّنت بإثارةِ مُنتمٍ جديد. كان يكفي قليل من الحكمة فقط، لكن عقل رجُلِنا هو أول ما رماه مع ساتر عورته. وكان بوسع برثا أن تؤكّد ذلك عند الحاجة! زوجها يعتقد، ككل عاشق، أن قصته فريدة. فعندما وصل إلى المكان الذي يلتقي فيه بأصدقائه عادةً، وهو يرتدي ملابسه الأوربية لكي يُضفي انطباعاً معيناً، لم يجد

---

[1]. نوع من النخيل غليظ الجذع ينمو في أفريقيا وأمريكا اللاتينية. (المترجم)

أحداً. حتى بائعة الخمر التي تعطي بصورة عامة مجالاً لتجمّعات صاخبة، كانت غائبة. الكلب صَمَت. فتّش في فومبان بأكملها، وعند الظهر قرر أن يغادر: "فليذهب أولئك الغيورون إلى الشيطان!"

سلك طريق بيت الهوى. الوعد بلقاء نغونغور والبدء معها من حيث توقّفا بالضبط أنعش مشيته. في الأغنية التي أخذ يدندنها هي أجمل امرأة على وجه الأرض. توقّف فجأةً عندما بلغ ظل البيت. سمع حركات في الداخل. ركّز انتباهه ليتأكّد مما تسمعه أذناه. آي! كانت صرخة متسارعة، وصوت جهد متكرّر، وارتفاع غير مسيطر عليه، ثم؟ أغنية صمت انفجرت في جوقة.

الكلب مسعوراً رأى جدران البيت تهتز تهتز تهتز. برعبٍ وضع يديه على رأسه "وويوو!"

ثم فجّر ضحكة هستيرية، كأنه معتوه. وويوو، الرب يعلم أن مقدار التوتّر الذي يعبر جسمه في تلك اللحظة لا يمكن أن يُفضي إلى الضحك أبداً. خطواته المتسارعة أوصلته إلى أمام باب البيت، لاهثاً ولكنه متماسك، فاغراً فاه ولكنه مليئه. باختصار، كان متصدّعاً. فما رآه لا يُصدّق. ما رآه بقي بلا اسم. تحرّكت قدماه ورأسه ويداه بسرعة نحو ساطوره. وشعر في جسمه بحاجة ملحّة إلى أن يقتل ما لا يستطيع تسميته، وأن يسكت ضحكة بيت الهوى المجنونة، هذه الضحكة التي لا يمكن أن تخرج إلا من شفتين مفتوحتين على الخيانة. فصرخ بالألمانية:

ـ شفاين! خنزير!

ما أوقف اندفاعة الكلب هو وجه ابنه الذي برز له فجأةً وسط جنونه. أغمض عينيه وفتحهما على حقيقةٍ رفَضَها بكامل جسمه، وميّز حركة رجل يقفز من النافذة. وجد نفسه في غرفة نومه، مع زوجته. رأى نغونغور عاريةً تماماً كما تخيّلها على طريقه. الفارق الوحيد بين هذا الجسم والجسم الذي رسمه بعناية في مخيلته هو أن هذا لم يُثِرْ فيه إلا شعوراً بالغثيان. أحسّ بنداء إلى القتل يتردّد في نظرة المرأة ويضيء ساطوره. مشى خطوة وقام بحركة. فهمت نغونغور الاستحواذ الشيطاني على روحه، لأنها انفجرت ضاحكةً فجأةً، فصرخ بها:

ـ اخرسي!

لم تستطع الامتناع عن الضحك، مرّرت يدها اليمنى على فمها، يديها الاثنتين، ومع ذلك ظلّت تضحك، كشخص يعلم أنه مُدان، ولكنه يستهلك لحظته الأخيرة، ثانيته الأخيرة لكي يشير بإصبعه إلى قاتله، ضاحكاً من حمله سلاحه بيده اليسرى مع أنه يميني. باختصار، إنه تائه في التفاهات. نغونغور تضحك، ولأول مرة تساءل الكلب لماذا أحبّها. كان قد أغلق باب البيت خلفه. كان سيتركه مفتوحاً، لا أحد سيلاحظ جنونه، فالجميع في الحقول في تلك اللحظة.

قالت الفتاة وهي تسند خصرها:

ـ هل تعتقد أني أحبّك؟ يا لها من مزحة! أنا أحبك؟

اختارت الإهانة بعد أن عرفت أنها مُدانة.

ـ اخرسي!

ـ هل نظرتَ إلى نفسك؟

ـ اخرسي!

ـ رقبة مطوية!

ـ اخرسي!

ـ كلب قذر!

ثمة كلمات لا تحتاج إلى أن تُعاد. "كلب"، مثلاً، والتي تذكّره بزوجته الأولى.

ـ اخرسي يا امرأة!

لم تعبأ نغونور بهذه الكلمات ولا بالرعب البركاني لسلطتها، إذ سألته:

ـ هل تعتقد أني هنا من أجلك، أيها العجوز القذر؟ هل تعتقد حقاً أن جسمي هذا ملكك، أيتها السمكة الجافة؟

رأت السمكة الجافة أن معطف الإهانة يلفّها. فتح الكلب فمه ليسرق نفحة هواء وينبح لكي ينقذ الرجل من القاتل الذي يسدّد سلاحه:

ـ أحبّ...

ـ قلتُ لكِ اخرسي!

رأس نغونغوز الذي قُطع بضربة واحدة سقط عند قدمي الرجل كسمكة سلّور ألقيت على ضفة النهر. فالفتاة المسكينة لم يكن لديها الوقت حتى لإنهاء جملتها- بلا شك بكلمة "ابنك".

فمها توقّف إذن عند تصريف الفعل بالزمن الحاضر مع ضمير المتكلّم لفعل أحبّ. "أحبّ!"...."أحبّ!"..."أحب!" هذا الفعل يقول هذا حتى لو أن الرجل أوقفه بحضوره الفاضح. فم نغونغور صرّف حتى الإعياء، لقد كانت بحاجة إلى قول هذا الفعل في كلّيتها المستديرة، النازفة، لتحديد المأساة التي يجب أن تُمثَّل حتى النهاية. بم فكّر الكلب أمام هذا الرأس الذي يبصق الأحمر القاني ويقفز عند قدميه وهو يردّد إلى ما لا نهاية "أحب!"...."أحبّ!"..."أحب!" في هذه اللحظة من العزلة العميقة؟ ظمأٌ مبهم يغزو حلقه: نعم، لقد بقي حلقه جافاً.

يجب على الرجل أن يشفي غليله، وأن تقتل يداه المزيد. أخذ يرتجف لأن النداء القاتل لا يهدأ. لاحَظَ وجودَ قطرات مَنْي لم تكن منه على الفراش الذي صنعه ليشهد على حبّه هو، فانكمش قضيبه. اضطربت يداه وتاهت نظرته. أمسك ربطة عنقه وكأنه يريد أن يخنق المرأة التي اجتثّ رأسها، ثم ألقاها نحو عارضة تسند سقف البيت. صار رجلاً فاض غضبه عن جسده، ورأسه الملامس لسقف بيت الهوى، وعند قدميه رأس القحبة، زوجته، بقي في مكانه يفكّر في لعبة القدَر غير المتوقَّعة مع البشر. صعد على الكرسي الأول.

أقْبَلُه، نعم، فما رويتُه للتو قد لا يكون إلا محض اختلاق من سارة، خيال، سجّادة من الأكاذيب. ومع ذلك، استؤنفت القصة: برثا وصلت في الوقت المناسب لكي تقطع ربطة العنق التي شنق بها الكلبُ نفسَه. ومع ذلك، كان الوقت قد فات على معرفة تفاصيل ما حدث، ولو أنها كانت موجودة، لكانت المأساة مختلفة. مهما يكن من أمر، فقد حدثت مأساة، وهذا هو المهم. إذن وصلت برثا إلى بيت ضرّتها ووجدت زوجها يرقص عند السقف، في ملابس الاحتفال. هي تعرف أنه اشترى هذه الملابس لكي يعيش حياةً أخرى. أوه، كيف لها أن تتخيّل أنها ستكون ملابس الموت!

لكن الكلب لم يمت. فقد وصلت برثا لتنقذه في النفَس الأخير. سقط أرضاً على جسد نغونغور الهامد، على الدماء التي روت الفراش في بيت الهوى، وسط صرخات زوجته الأولى التي انتابها الذعر. كانت برثا قد تنبّهت لدى سماعها الصدى العنيف للفعل المتردّد هنا: "أحب!"...."أحبّ!"..."أحب!" والذي تردّد بوضوح أيضاً في أرجاء الحقول. استشعرت أن الأمر يتعلّق بتكرار موت أكثر منه تكرار حياة. وثبتت شكوكها بظل رجل عارٍ رأته يركض ليختبئ في الغابة.

لم تسعَ برثا إلى تعقيد الأمور، فقد كان ذلك الرجل الهارب ابنَها. كيف لأم أن تخطئ في هذا؟ لم تتبعه. بل بالعكس، سارعت لكي تتأكّد من أن القضية التي لم تستطع إيقافها بإشاعاتها وعقدها وجدت حلاً من دونها. كان لديها حضور بديهة بأن تخترع لها نهاية من اختيارها. فالساطور الذي استخدمه زوجها للقتل، استخدمته لإنقاذه. استيقظ الكلب في بركة من الدم، وأدرك أنه لم يمت. وفي غمرة جنونه لم يفكّر أبداً بالبقاء، لأن ذلك يعني أن يستيقظ في عالم خالٍ من الحب ومليء الكراهية. أغمض عينيه لكي يُقنع نفسه: الوجه الذي يراه ليس وجه برثا، والجمهور الذي يتأمل المشهد ليس فومبان بأسرها. رفع عينيه: زوجته الأولى لم تتبخّر، والجمهور ما يزال موجوداً، وتوسّل إليها:

ـ العنيني!

ردّت برثا:

ـ إنه ابنك!

سقطت نظرة الكلب على الساطور الذي تحمله برثا، وانفجرت روحه في تعطّش للدم:

ـ اقتليني!

الكلمات النارية جعلت برثا تتراجع مرعوبةً، لكن الرجل الجائع إلى الموت تبعها، ويداه المتوسّلة ممدودنان أمامه كمسرنم.

ـ قطّعيني!

ألقت برثا نفسها خارج بيت اللعنة. فصرخ زوجها في أعقابها:

ـ احرقي البيت!

لم يكفّ عن التوسّل إليها بقتله، وبجَلده وببقر بطنه. كان ينادها باسم التحبّب، ويدلّلها، ويُقسم لها بأنها الوحيدة القادرة على تلبية حاجته: لا حب، بل موت! ولم يتركها الكلب تنام طوال الليل.

اضطرّت برثا إلى مغادرة البيت واللجوء إلى قصر السلطان لأن أبواب نجويا وحدها هي القادرة على حمايتها من جنونه. أوقفته شرطة السلطان، ثم أطلقت سراحه لأن قضاة القصر حكموا أنه مجنون. فوجد الكلب نفسه في شوارع المدينة، أكثر سكراً وتعاسة من أي وقت مضى. ما يزال يرتدي البذلة التي اشتراها من التاجر السويسري هير هابيش، والآن معطرة بضراط التيس، وربطة عنقه الملطخة بالدم تتدلّى من عنقه، ويطلب من المارّة مساعدته على نزعها.

قصة الحب هذه حدثت بعد أن وصل الملازم هيرتلر إلى فومبان وارتكب الحماقة المعروفة بالجلوس على عرش نجويا. لم يكن الألمان، وكانوا قليلي العدد آنذاك، قد شكّلوا محكمتَهم الاستعمارية بعد. أردتُ أن أعرف كيف كانوا سيحكمون على قضية كهذه. سرت عدة روايات في البيوت والغرف وحانات المدينة، ولكني لم أجد أي أثر لها في علاقات الأسفار الاستعمارية. قيل إنه يوجد نسخ مسودة مفصّلة لحكم محكمة فومبان مكتوباً بلغة الشوموم. ولكن هذه الوثيقة تنتمي إلى أرشيف موزي يبياب الثمين، المنافس للسلطان، والذي، وهنا مأساة المآسي، توفّي قبل وصولي إلى ياووندي ببضع سنوات. إذن رفض أبناؤه أن يفتحوا لي الصناديق التي تركها بعد وفاته لأنها، كما يقولون، مليئة باتهامات لنجويا.

سنرى قريباً ما كان بوسع موزي يبياب أن يفعل. ولنكتفِ الآن بمعرفة أن برثا لم تبيّن للقضاة اسم الرجل الذي رأته يجري عبر الحقول، الأمر الذي يعطينا فكرة واضحة عن وشائج الحب اللامتناهي الذي يربط برثا بابنها. قالت لهم: "أنا لا أعرفه!"

وقالت لي سارة:

ـ لقد أبدت لهم وجهها الأكثر صدقاً، أقسم لك.

أعلنت للجميع أن نيبو ذهب إلى بامندا، وهي مدينة مجاورة مباشرة بعد المأساة، وأضافت أن ذلك جيد هكذا "لأنه لا يجوز أن يرى ابنٌ أباه مجلّلاً بالعار". وكانت تلك المرةَ الأولى التي تسبّب لها فيها أمومتُها كثيراً من العناء بحيث أنها لم تجد كلاماً للتعبير؛ والمرة الثانية التي ترفض فيها أن تخون ابنها. أما بالنسبة إلى نغونغور، للأسف، فقد وجدت برثا ملامحها على وجوه جميع الفتيات اللواتي عُهد بهن إليها في ردهة السلطان. تستطيع الأم الرؤوم أن تكذب على الناس جميعاً، ولكنها لا تستطيع أن تكذب على يديها. موت "هذه الفتاة" تركها متعطّشةً لكي تقصّ لها لسانها، وتلوي عنقها، نعم، وتقتلها أيضاً. وهذا التعطّش الغريب، هذا التعطّش القاتل، الذي كان قد خلّع نظرة زوجها، قسّى قبضتها ودفن صوتَها في أغنية لا يودّ أحدٌ في مون بليزان أن يسمعها.

ثمة قصص يجب أن تُروى لترضي الراوي أولاً، فقط من أجل الراوي.

ولننسَ المستمع لحظة.

الجـــزء الثاني

نغوتان ونغونو

لأن كل الذين كبروا أمس هم صغار اليوم...

هيرودوت، تواريخ، 440 قبل الميلاد

- 1 -

ذاكــرة سـارة

أليست كتابةُ التاريخ تتبّعاً للعطر المتلاشي لغائب؟ نشتبه في حضوره في نهاية الطريق؛ ندفن آثار قدميه الحافيتين في الغبار؛ المرء يعتمد على ذاكرته. فكصبي خجول يخربش كلمة حبّ ويعتمد على أخيه الصغير لتسليمها، كيف يجد المرء الجرأة ليعبّر عن نفسه دون أن يذلّها؟ آه، الرسول؟ إنه غير مسؤول كفراشة، إنه يتلوّى على الطرقات؛ ويختفي على طول الطرق المسدودة، ويعود من جديد إلى بيت الانتظار، حاملاً بيده الحقيقة المرتعشة، كوعدٍ سعيد! زمنَ بحثنا التائه عن الفتاة ـ الصبي الذي كانته، أبقت سارة تعطّشي سجين كلماتها الخافقة. أحياناً كان جسم نيبو يظهر كدفقات وسط استطراداتها، ولكنّ مراراً كثيرة أيضاً، لم تكن الأشكال التي بقيت لي من الشاب لتثير إلا شكّي.

ليست موهبة تناقض العجوز فحسب هي التي تجعلني حذرة، بل خطأٌ كثيرٍ من معلوماتها التي ظهرت لي بسهولة. أنا لم أنتظر أن تكون لها ذاكرة بيتونية، أبداً! حتى الأسماء المشتركة تبدو مضطربة في لغتها التائهة. فكانت تذكر أحداثاً من البديهي أنها لم تعشها، ولم تكن شاهداً تاريخياً عليها. شاهدة؟ وشهادة؟ بكل تأكيد، كانت الرؤية الكاذبة لامرأة تسعينية تقتل أسئلتي. أفضّل أن أتّهم ذاكرتها، المقياس المشترك. ومع ذلك ما من شيء كان ينذرني بذلك إلا عندما تحل منديلها وتطلب مني أن أضفر لها شعرها.

وأي شعر؟ تقول نظرة شبّان نسيميونغ، منشئة التتمات الفاضحة لإلفة يقيمها تبادلنا للكلمات فيما بيننا. ولحسن الحظ، كانت سارة تفهم سخريتهم. فتقول مازحة:

ـ لا تقولي لي إن شعري مشعّث!

وتدوّي ضحكتها على الشرفة. فأقول:

ـ إنه...

ـ ماذا؟

ما كان أمامي إلا الاستسلام. أتناول مقعداً وأجلس خلفها فتسند ظهرها إلى ساقيّ.

تسألني مبتسمة:

ـ تبحثين عن مشط، أليس كذلك؟

ـ نعم، وخيط أيضاً.

أنا سعيدة لأن سارة ما تزال تشعر بلحظات من الفخر في سنّها هذه. وصفت لي بتفاصيل دقيقة كيف تريد أن أضفر لها شعرها. تحتاج إلى قَصَّةِ أفرو واسعة لتحقيق حلمها. ولكن لماذا أبيّن لها أن كمية شعرها لا تسمح لها إلا بالموتوبو، تلك الضفائر الصغيرة التي تصنعها النساء لبناتهن لتسريع نمو شعورهن. راح شبّان نسيميونغ يضحكون بصمت، وهم يرونني واقعة في الشرك. وأخذ أروما يغلق فمه بيده لكي يمنع ضحكته من الانفجار والانتشار في الباحة. إنه غير قابل للإصلاح هذا الأروما!

أمرته:

ـ كفّ عن الضحك، أيها المغفّل، وأحضر لي مشطاً!

تتدخّل سارة:

ـ اتركيهم بسلام، فماذا يعرفون؟

ثم تسوّي وضع رأسها بين ساقيّ وتبتسم. وإحدى فتيات المجموعة تحضر لي مشطاً خشبياً.

أضافت سارة بعد فترة طويلة من الصمت:

ـ وبرثا أيضاً لم تكن تستطيع قطّ أن تمسح فمها. لم تكن إلا امرأة مسكينة قذرة الروح.

كيف أنسى الاحتقار الذي علّقت به سارة عبارة: "امرأة مسكينة"؟ ولكني لستُ تلك البرثا. أخذتُ أضفر بعناية شعرَ العجوز وأنا مطمئنة. وأبقيتُ أذنيّ مفتوحتين لأسمع تتمة قصةِ الأم القذرة. لأن برثا لم تكتفِ بذلك. فكانت سارة تقطع حديثَها لتقطع الخيط بأسنانها وتمدّه لي من خلف رأسها. أعترف: كلما أصغيتُ إليها، رغبتُ في الضياع في الأرشيف، وتلك هي الطريقة الوحيدة لضبط الصدى غير المعقول لكلماتها في أذنيّ، وتعديل بريق جملها.

قلتُ لها:

ـ لا تتحرّكي!

أخذت تتشنّج من ألم ضفري. ولكن هل هذا كل شيء؟ وقصة سارة أيضاً، تتلوّى بحسب مزاجها، أو بحسب حكم سنها الكبيرة. وعندما أنهيت تمشيطها، ناولتها المرآة. نظرت إلى نفسها بسعادة، والتفتت إلى اليسار وإلى اليمين، وأُعجبت بجمالها ثم قالت لي:

ـ لقد أعدتِني فتاة صغيرة.

أبدى وجهها إشعاعاً لن أنساه أبداً. ثم أضافت:

ـ هذا ما تريدينه، أليس كذلك؟

بماذا أجيب؟ فتحتُ فمي، فلم يخرج منه إلا سؤال:

ـ هل تعرفين من هو أبوك؟

لم تتردّد سارة بالقول:

ـ كان يُدعى نغونو.

سألتُها مباشرةً:

ـ وهل تعرفين اسمه؟ أقصد اسمه المسيحي؟

هنا أمسكت العجوز بيديّ، واخترقت حرارتُها جسدي:

ـ لم أنادِ أبي باسمه الأول قطّ. فإنا لستُ سيئة التربية إلى هذا الحد.

ليس هذا ما قصدته. لقد منعتني من التبرير...حاولتُ أن أقول:

ـ ربما...من يعلم؟

قاطعتني:

ـ جوزيف. لم أعرف حقاً.

ربتت على رأسها كما لو أنها كانت تريد أن تعتاد على الموتوبو الذي نثر بضع خصلات، ولتسكّن ألم رأسها.

ـ جوزيف نغونو، المشاغب السياسي.

شك المؤرخة غزاني فجأةً، لأن ذلك جميل جداً: آه، إنها عادة في اختراع أشجار نسب مجيدة، عندنا! أمثلة؟ عدد الأطفال الذين انتسبوا لنجويا يجعل كل تقدير تاريخي عبثياً، وعلى أية حال فقد عُدّ والد الباموم جميعاً. وفضلاً عن ذلك، فإن عمليات التهريب كانت شائعة في مون بليزان. حتى اسم عائلة آرونا كان نجويا! وكذلك لن أُفاجأ إذا ما قالت لي سارة إنها، هي أيضاً، في الواقع البنت غير الشرعية للرئيس الأعلى. من سيكون غبياً كفايةً لكي يشكّ في شجرة نسب امرأة عجوز؟ وساذج كفاية ليصدّق أن ذرية شارل أتانغانا تقتصر على هذا الصبي وهذه البنت اللذين منحته إياهما عزيزته جوليانا ـ وطفلان عمّدهما الأب فوغت، بوصفهما أول ثمرتين لكنيسته؟ هيا، افتح دليل هاتف كاميرونياً! ابحث عن "أتانغانا"، وسترى!

وحتى المؤرّخ الأكثر سذاجةً لن يصدّق أن بنطال رجل لامع مثل الرئيس كان محزّماً بتهديدات الجحيم الديني، والكاثوليكي تحديداً؟ المعروف هو أن شارل أتانغانا تزوّج مرتين. فبعد وفاة زوجته الأولى تزوّج من "عزيزته جوليانا" التي كان مرتبطاً بها منذ نعومة أظفارها. لا يهم: فلن أفاجأ إذا أعلنت لي سارة أن الرئيس والدها. فهذا سيُفسّر لماذا قدّمها هديةً لصديقه من بين فتيات أرض الإيوونڈو جميعاً. أليست ممارسةً شائعة في الغابة الاستوائية أن يُعطي الإنسان ابنته زوجةً لصديقه؟

ألححتُ وأنا مستغربة حقاً: "وجوزيف نغونو"؟

ذلك أن السبب الحقيقي لعودتي ولأبحاثي في الكاميرون هو التاريخ المضطرب لاستقلالنا، التي حرّكها هذا الذي نسيه ضميرنا. كنتُ قد صادفتُ اسمه في الماضي،

بطريقة تميل إلى المغامرة، في مكتبة الكونغرس في واشنطن دي سي، بين طيات ملف يُسمّى: "شتات ألمانيا الاستعماري الأفريقي". صمْتُ الذاكرة الجمعية الكاميرونية حول حياته أيقظ المؤرّخةَ في داخلي، ووعد بأطروحة دكتوراه غير منشورة سابقاً أرشدت خطواتي حتى برلين. وهكذا في نهاية أسفاري، وجدتُ نفسي في باحة....ابنته. من كان سيصدّق هذا؟ اكتفت سارة بالابتسام، فمصادفة زائدة أو ناقصة لن تؤثّر فيها، وجمال وجهها الجديد يشغلها كفاية. حتى أصدقائي في نسيميونغ لم يفهموا تأثّري. ومع ذلك فإن عقد القصة العجوز المتناثرة تتجمّع وسط بحر أكبر لدي خريطته. أهي مصادفة حقا؟

ما كنتُ لأتخيّل أن تكون سارة ابنة جوزيف نغونو، الرفيق الملعون لأسفار شارل أتانغانا الأوربية. وكانت قصة سارة تجري على دروب لم أكن أتخيّلها قطّ عندما أتيت إلى الباحة وخلفي قطيع من مراهقي حيّها. ها هي تكشف السياسات الصامتة للرئيس! ككل رجل ذي طبع قوي، كان غضب أتانغانا بلا حدود. لقد ترك مراراً سلاسل الإدارة الاستعمارية ليُرسل خصماً إلى سجن الأشغال الشاقة: هل لي أن أستغرب هذا الخرق الآخر للقانون؟

ـ إذن هل تنسبين إلى السلطان فعلاً انتقامياً؟

نظرت إليّ سارة كما لو أني لستُ أكبر سناً من شبّان نسيميونغ الذين يتشرّبون قصتها، أي كغبية؛ كما لو أني لا أعرف الرجال. مضغت تبغها، بهدوء، ثم سألتني بهدوء:

ـ ماذا تظنّين؟

أعرف أنها تستفزّني، ومع ذلك أنا مطمئنة. ومطمئنة أكثر عندما قفزت بعد أن كشفتُ لها اكتشافي في الماضي لاسم والدها في الأرشيف الأمريكي، واتّخذتْ ذلك التعبير المستغرِب الذي رأيتُها تتخذه عندما قلتُ لها إن اسمي برثا.

سألت:

ـ أبي؟ حقاً؟

ـ عليك أنتِ أن تخبريني.

والسبب: لقد بيّن لي هذا التفصيل الحدودَ المتعرّجة لصداقة كان قطعها المفاجئ مع أمها بلا شك هو النتيجة. في اليوم التالي، بدأت سارة تناديني "ابنتها أو "ابنتها الصغيرة" قائلةً:

ـ أنت ابنتي الصغيرة، ألا تعرفين ذلك؟

في الصميم، أشعر بالاعتزاز لتمكّني من أن أُظهر لنبعٍ مصدرَه، وأن أقول لها الظروف التي سبقت ولادتها، والتي حدثت على قارّة، أوربا، وفي بلد، ألمانيا، وفي حاضرة، برلين، حيث ما كان لسارة أن تضع قدميها، هي التي أصبحت المستمعة الفضولية لقصة تشكُّلها! أليست البداية نهاية؟ في هذه اللحظة، لدي ذكر وحيد لاسم يشكّل لغزاً في مصادري، وبضع ملاحظات سريعة في دفاتري. آه، لقد أُبعدت سارة عن قصة جوزيف نغونو ما يكفي لجعلها تنتظرها بشغفِ طفلٍ أمام ملحمة عجائبية. وأنا إذاً؟

- 2 -

الزمن المستعاد الذي لا يُنتَظر فيه الأقل

أي منجم من المعلومات تشكّله ملاحظات المستعمرين! وأية خدمة جلّى أسداها الاستعمارُ لعلم التاريخ الأفريقي! انتهت أرشيفات الثرثرة! كتب! كتابات! قصص! أحداث محسوسة! يجب أن أكتفي، باسم العلم، وإلا لصرختُ وانتشيتُ أمام تقارير الضبّط هذه، وهذه العلاقات الملتوية لعلماء الأعراق، وهذه التعميمات للمبشِّرين وهذه المحاضر للإداريين الذين كانوا يدفنون حياة السكان تحت أكداس من الورق!

لقد فرشت لي المكتبة الاستعمارية حياة جوزيف نغونو بتفصيلات لامتناهية. كما كانت لدي إمكانية استخدام صور فوتوغرافية وحتى أفلام، هذا ناهيك عن الإنترنت! هنا أنقذتني لُقاي في مكتبة الكونغرس والستآتارشيف. المستعمرة تجمّت في عقلنا بالأسود الأبيض. يكفي أن أمسح نظارتي وأبدأ التكنكولور لذهني حتى أراها تحيا من جديد أمامي! بقليل من الجهد أرضيتُ سارة التي تنتظرني، مفتوحة الأذنين.

قال لي شبّان نسيميونغ إن هذه الملاحظات غير مقبولة سياسياً "لكل كاميرونية جيدة". ولكن إذا أردتُ أن أعيد قطع شجرة نسب سارة المضطربة، وإذا أردتُ أن أقول لها اسم أبيها، يجب عليّ أن أجعل المصادر تتكلّم، المصادر كلّها! بفضل أفلام استعمارية، تمكّنتُ من رؤية جوزيف نغونو ماشياً في شوارع ياووندي عام 1911، ذاهباً من حي نيكوماكانا، الحي الذي توجد فيه ملكية أسرته، إلى أونغولا، مركز المدينة. رأيتُه تحت المطر حاملاً صندله بيده لكي "يحميه"؛ ورأيته حاملاً محفظته

عندما كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية على رأسه لكي يحمي نفسه من أشعة الشمس؛ ورأيته متأبّطاً لوح كتابته وحاثّا الخطا لي يصل في الوقت المناسب إلى مدرسة الإرسالية. ولأني رأيتُه بوضوح، وهو يؤدّي مهمته بمنتهى الإخلاص، يمكنني أن أؤكّد لسَارة أن أباها كان زهرة المستعمرة. التقيتُ نغونو بعد بضع سنوات، يعمل كمثقّف، يردّ على أسئلة ضابط ألماني بلطف، كما تعلّم. يضحك أحياناً، ويغضب أخرى.

ما لم أستطع أن أميّزه في هذا الأرشيف هو ما حلّ بنغونو عندما لا يكون مع البيض. من البديهي أنه كان يمضي معظم وقته مع مواطنيه. ومع ذلك يبدو أن والد سارة قد عاش جزءاً هاماً من حياته، الجزء الأهم بالنسبة لقصة ابنته في الظل وفي المدن البيضاء. لم أستطع معرفة أسباب حياته الطيّارة. بمعنى معين، كانت حياته انعكاساً لحياة شارل أتانغانا، على الرغم من أنها، بعكس حياة الرئيس، جرت في أعماق ألمانيا البائسة، وبين الأذرع النتنة، بينما كان أباطرةً وملوك يستقبلون الرئيس، كما حيّاه البابا. ألم يفقد أشرف الرجال رشده؟

قد يغيّر مزاجٌ مجرى حياةٍ تغييراً جذرياً. وكلما قرأت تقارير الشرطة ومقالات علماء الأجناس وبطاقات الأمنيات لمواطنين متروبوليتانيين، اتّضح لي أن قرار نغونو بمغادرة عمله في معهد الدراسات الاستعمارية لجامعة برلين حيث كان يدرّس، حدّد نقطة انطلاق رحلاته. وبالعكس، فإن شارل أتانغانا الذي كان يشغل منصبه بحماسة في المعهد التوأم في مدينة هامبورغ حيث عُيّن، نسخ حكايات بلاده وسلّم الكلمات الضرورية لتأليف قاموس إيووندي-ألماني، وتكلّم في الفونوغرافات لإعداد تمرينات صوتية مقبلة، وأعطى دروس محادثة باللغة الإيووندية دون توقّف، وقد جنى من ذلك ثماراً متنوّعة جداً. أما نغونو فبعد أن عمل لبضعة أشهر قرع باب مدير المعهد، ودخل عندما نودي، وحتى دون أن يجلس، كما هي العادة، أعلن بسرعة: "أنا مستقيل!"

بكل تأكيد، هذا المشهد غير موجود في أية وثيقة؛ ومع ذلك فهو صحيح صحةَ تقارير سيتنبوليتزاي، التي سارعت إلى تتبّع خطاه في برلين. لأول مرة يشعر بقسوة الحياة، وهو الذي لطالما حلم بالشموس التي كان المستعمرون قد رسموها في

سمائه. استقال نغونو قبل بداية الحرب، هذا مؤكّد. حتى ذلك الحين، كانت حياته نسخة شاحبة عن حياة صديقه كارل، هكذا كان الرئيس يُسمّى آنذاك. فبعد أن جذبتهما وعود بممالك وردية، دخلا إلى المدرسة التبشيرية واعتنقا الديانة المسيحية في الوقت نفسه. وبفضل بعض نتف التربية الأوربية، سرعان ما امتلكا المستقبل الذي كان المستعمرون قد اخترعوه من أجل ذكائهما المبكر.

في الواقع، بدت إمكاناتهما محدودة. فبعد سنتين فقط من انتهاء دراسة نغونو، أدرك أنه بلغ نهاية العمل الذي يمكن أن تقدّمه المستعمرة لساكن أصلي. يجب أن يوجد في الأرشيف، وأنا واثقة من هذا، تقرير يصف ضابطاً ألمانياً، لنقل الملازم أول ركتانوس، يزور أحياء كريبي أو دوالا أو ياووندي ويسأل باستغراب عمّن كنس الشوارع: اليد التي عملت هنا، لا بدّ أنها تحمل مستقبلاً عظيماً للمستعمرة! أو أيضاً نصاً عن ضابط آخر، وليكن كيلمان، الذي يأكل نقانقه الحمراء في طبق نظيف جداً بحيث أنه سأل عن الأيادي المحلية التي جلَتْه. ثم صرخ وهو يتلذّذ بمضغ نقانقه: "مستقبل هذا البلد سيكون بين هذه الأيدي. يا لها من دقّة!"

سنوات التراجع أعطتني فائدة، بكل تأكيد. أعلم أن المستقبل الذي ذكره هذا المستعمر لم يأت؛ وأن الضباط المستعمرين كانوا يملكون ملء الحرية بين المدارين، وينتشون أمام أيدي مرؤوسيهم الذي يغسلون لهم أطباقهم، ويكنسون لهم شوارعهم، ويحرصون على تلبية خدماتهم، وأنهم كان عاجزين عن أن يتوقّعوا للأفريقي مستقبله. مهما كانت نهاية المتنازّع عليه الذي كانوا يقرّبونه دون أن يدركوا، فإن جوزيف نغونو، مثله كمثل صديقه كارل أتانغانا، كان يبدو مصنوعاً من أجل النجاح. ولا يمكنه أن يكون غير ذلك: ألم يكن الصديقان زبدة المستعمرة؟

تقول الوثائق الإدارية: "انتبه! لقد توقّع الاستعمار تحركاً حِرفياً بالنسبة إلى السكان المحليين." نعم، إن تركه لعملٍ صبيٍّ لكي يصبح راهباً، وحتى من أجل منصب مترجم، يبقى ذلك ضمن منطق الأمور. أما أن يتحوّل من مترجم إلى محاضر في الإيووندو، وفضلاً عن ذلك، في الحاضرة، فهذا تطوّر لم يجرؤ أي مستعمر على أن يحلم به في عام 1913! لأن ذلك كان يفترض أن هذا المستعمَر كان يعلّم

إداريين جداً استعماريين جالسين في أنساق مرتّبة جيداً في صفوفهم، حيث يستمعون إلى مدرّس أسود! كان ذلك قلباً للنظام الاستعماري.

لأن مدرّساً أسود في ألمانيا كان يصحّح، بكل تأكيد، امتحانات طلابه البيض، كان يُجبر الأقل تحصيلاً من بينهم إلى رؤية أوراق إجاباتهم من جديد، لا حاجة للقول إن منصبه كان صعب المنال. لأن الطلاب المتواضعين للمدرس المقصود (والذين يقولون، بلا شك، عن أنفسهم إنهم أكثر ذكاءً، فالاستعمار يفرض ذلك) قد يضطرّون أحياناً إلى الرسوب في صفوفهم، وربما إلى نسيان أحلامهم الاستعمارية. وهؤلاء الطلاب يسمحون لأنفسهم بالمجيء إلى مكتب مدرّسهم ويرجونه إن يمنحهم امتحانات الاستدراك، أو أن "يضبط" علاماتهم، أي أن يزوّر تقييماتهم، "من أجل العمل".

أحيانا كان المحاضر في الإيووندو يراقب طلابه، ولاسيما الأكثر اقتناعاً "برسالتهم المُحضِّرة"، وتولد ضحكة في صدره، ضحكة وحشية لا يخنقها إلا بعناء. العقل؟ لقد اكتشف نغونو الشعر الأوربي فجأةً، وهذه العينات التي ترتقي أمامه درجات الامتثالية، تنغّصه، وهو الذي اكتشف في أبيات مواطنيهم الشعراء نشيد التفاهة.

لقد وجدتُ في شتاأرشيف، بلا مزاح، على هامش بروتوكول احترافي، كتبه الدكتور الشهير فيل بومان، وكان آنذاك مديراً للمعهد الاستعماري ومديراً لنغونو، ذكرَ كتاب كان السيد الشهير قد اكتشفه على طاولة محاضره: ريلكه! المنظّر في لغات البانتو، ولغة نغونو، فجّر ضحكة لعلعت في أرجاء ممرات الجامعة وقاعات درسها كلّها، الأمر المنطقي، فإذا ما حكمنا على ردة فعله على الذهنية الاستعمارية التي زوّدته بنظارة تسلّى من خلالها بفضيحة أن يقرأ نغونو ريلكه.

كتب الدكتور بومان فقرةً حول هذا الموضوع في تقريره السنوي حول نشاطات المعهد، ناسياً ذكر أيَّ كتابٍ لريلكه كان نغونو يقرأ. وهذا النسيان يعني الكثير حول الأذواق الشعرية للسيد الدكتور أو حول الصدمة التي سبّبها اكتشافه في المعهد (إفراط في القهقهات في معهد ألماني للبحث العلمي!). وهذا علّمني أيضاً لماذا أخذ محاضر الإيووندو يشعر فجأةً، بعد أشهر من وصوله إلى برلين، بضيق في

ثيابه كمربٍّ للمستعمرين، وبأنه غريب وسط زملائه. وهذا حقيقي: فقد بدأ ينفصل عن ظلّه، بصورة أفضل، ويفكّر بعيداً عنه.

رحّبت سارة بهذه الصورة عن والدها، وقالت إنها تعرف أنه كان حالماً. فلاحظتُ:

ـ لم تكوني قد وُلدتِ بعد.

لا يهم، في الصميم، إن تفاصيل كهذه لم تكن مهمة بالنسبة إليها. كان هذا النغونو الأبَ الذي تفضّله، وإذا دعت الحاجة، كانت ستخترعه بنفسها.

كرّرت:

ـ لقد كان شاعراً.

ظللتُ مبهورة بغياب ادّعائها أمام هذا الأب الذي أظهرتُه لها، وبصورة خاصة، لا شيء يسلّيني كهذه النظرة التي كان تُسكتني فجأةً: "أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟"

وكانت تقول أحياناً، قاطعةً قصتي حول والدها:

ـ إنه مجنون! مجنون تماماً، أليس كذلك؟

أو تقول:

ـ قولي لي الحقيقة.

- 3 -

ابتسامة من السلطان قد تغيّر وجه العالم

ولكني كنتُ أنتظر تتمة قصة سارة؛ والقصة التي ترويها صاخبة كقصة والدها، بلا شك - بلا شك. بعد عدة أيام من الأحداث التي هزّت نسيميونغ، وأودعت نجويا سرير غيبوبة بلا نهاية، وجد نيبو شقة السلطان مسكونةً بإثارة نادرة. خرجت نغوتان من الغرفة راكضة، مشعّثة الشعر وعيناها مليئتان بالدموع. رنّ صوتها في أرجاء ممرات مون بليزان، وكذلك في الباحة الواسعة التي تشنّجت مباشرة. نجويا فتح عينيه! وليس مجرد القراءات المواظِبة التي قامت بها ابنته التي منحته الجرأة على الحياة مرة أخرى. بل أحضرت نغوتان أحفادَه إلى عند رأسه، وطلبت إلى كل منهم أن يغنّي أغاني سعادة، ويلقي أبيات فرح.

هذا ما هزّ نجويا.

وعند نهاية القصيدة الأخيرة، حدث أمر غريب: سرعان ما ابتسم السلطان. شعر أن ضربات قلبه تتسارع في صدره. كانت تلك الابتسامة ما تزال على شفتيه حين دخل نيبو إلى الغرفة. وكانت نغوتان تبكي في الخارج، غير مصدّقة، أو من فرط سعادتها. في البداية حسبت عبسةَ والدها مشيةً مجنونة نحو أبواب الغياب الأبدي. آه، هل بقيت نغوتان على حافة السرير لترى العلائم غير العادية لانتصار رجلٍ على قدره! وهل تريد أن تنتزع من عين نجويا المدقّقة فرحها العابر؟

عملية استيقاظه الطويلة جعلت فرضيةَ المعجزة صعبة الابتلاع. لا يمنع أن الأب فوغت قد وصل إلى سرير السلطان وهو صاحٍ، وتصرّف بحيث يعلم "رعاياه المقبلون"، أي مون بليزان بأكمله، أن يد ربّه هي التي فعلت كل شيء.

سأل الحرفيين المتأثّرين:

ـ هل ابتسم؟

أجابته جوقة من الأصوات:

ـ نعم، ابتسم، ابتسم!

قال الأب فوغت ببساطة:

ـ الله، الله كبير!

طرح الأب فوغت السؤال أكثر من مرة، فكان الجواب متطابقاً: "نعم." بضعة أصوات نادرة، شكّلت استثناءً، ولم تتجاوب مع حماسته. أضاف الأب:

ـ في الإيمان، نحن دائماً أبناء الرب.

قال المسلمون منهم:

ـ آمين!

وقال الآخرون:

ـ آمن!

حين رسم الكاهن إشارة الصليب، لم يقلّده أحد، حتى لو كان صياد الوثنيين النشيط، فإنه يفهم أن غرفة شخص مبعوث من الموت ليست مكاناًً لاعتناق دين جديد. ولكنه ليس رجلاً شحيح الوسائل عندما لا تتطلّب المعجزة إلا قليلاً من المساعدة. وبدلاً من أن يفتّش في كتابه المقدّس عن آيات تسانده بسلطةٍ نهائية، تحول من جديد إلى طبيب. وما فعله الأب فوغت، الطبيب، بقي فريداً في ذاكرة مون بليزان. لقد فكّ درّاجته وطلب أن يؤتى له بكرسي. حتى نْجي ماما قفز.

ـ كرسي!

أجاب وهو يمشط لحيته بأصابعه ويبتسم:

ـ نعم أريد أن أصنع كرسياً للسلطان!

تدخل المعلم المهندس المعماري:

ـ أنا لا أفهم، هل تريد كرسياً لتصنع كرسياً؟

نظر الحرفيون كل منهم إلى الآخر بسخرية، وهم على حق، آه من البيض!

قال الكاهن وهو مليء بالحماسة:

ـ نعم، كرسي خاص.

وركّز على كلمة "خاص" بنبرته الأكثر إقناعاً.

كرّر العجوز مونليبير وهو يغمض عينيه كمن يريد أن يعاين بشكل أفضل خصوصية الكرسي:

ـ كرسي خاص. نعم.

وأوضح أكثر قائلاً:

ـ عرش، إذا أردتم، ولكن من أجل ذلك، أنا بحاجة إلى كرسي.

مونليبير هو معلّم الأواني والأدوات في القصر. واقتراح الكاهن العجيب أربك امتيازاته، ولكن منذ وصول الأب فوغت إلى مون بليزان وهو يسبح في بحر أهمية إنجازاته الطبية. لا أحد يرفض له ما سيكون عصياً على التخيّل بالنسبة إلى شخص آخر. يريد كرسياً؟ هذا كرسي! وفنّانو مون بليزان سيحكمون عليه من خلال عمله، وهذا ما طلبه الرجل على أية حال.

اشتغل الأب فوغت طوال فترة الظهيرة، أمام أنظار سكان المزرعة الذين تجمّعوا حوله. ثبّت الكرسي الذي أعطوه إياه على عجلة درّاجته، ثم نهض، هزّ ساقيه، ثم بحث بنظره عن المشكّكين الذين يعلم أنه غلبهم. ركب درّاجته وجعلها تسير وهو يدفع العجلات بيده. وعندما توقّف انغلقت ابتسامته العريضة بسبب عيني نغوتان المصدومتين، التي ظهرت فجأةً، ثم قالت بجفاء:

ـ أبي سيمشي.

سرعان ما انكمش الأب فوغت على خوذته المضاعفة كطبيب وككاهن، ثم قال:

ـ بكل تأكيد سوف يمشي، بفضل الرب سوف يمشي.

لم تستمع نغوتان إلى التتمة. فألوان فستانها الفرحة عبّرت عن اقتناعها، ثم غابت في غرف نجويا، فالتفت الأب فوغت إلى المجتمعين وقال:

ـ هذا الكرسي سيساعده على المشي.

وتوزّع نظره على الوجوه المحيطة به، وأخذت حركاتُه الموفّقة تبحث عن أرض مكتسبة قبل قدوم نغوتان، ثم أضاف:

ـ سيكون كرسياً متحرّكاً.

ما لم يحسبه الأب فوغت هو أن نغوتان كانت أصغر مشكلاته. في الواقع، إن مجموعة المواهب المجتمعة من حوله شعرت بالإهانة بسبب اعتداده الشديد بنفسه، والتي امتنعت حتى ذلك الحين من التصرّف احتراماً للسلطان. فماذا يظن هو؟ أن نجويا سيجلس على هذه الكرسي، حتى المتحرّك؟ وأن الفنانين والحدّادين والنجّارين الذين نحتت أيديهم، طوال حيواتهم، مقاعد للسلطان، سيقبلونه؟ هذه الأسئلة الألف أسكتت كل أولئك الذين تجمّعوا من حول الكاهن، ولكن إيمانه أعماه، فلم يُدرك ذلك، وسيموت عمله في صمت شعر كأنه باب مفتوح.

مونليبير الذي كان لحكمه قوة السلطة، أخذ يتفحّص الشيء الغريب. ذلك الكرسي كان أقل تزييناً من أتفه المقاعد التي بناها المهندس من قبل. ومع ذلك فهو يربكه ببساطته العملية.

كرّر الأب فوغت:

ـ هذا عرش متحرّك.

التقى نظر الكاهن بنظر نجي ماما، وكان المعلم المهندس المعماري يداعب عثوثنه بهدوء.

همس مونليبير ووجهه يُضاء بابتسامةٍ عريضة:

ـ عرش متحرّك، نعم، لا بأس، لا بأس.

-4-

أســـود في برلين

قطعت سارة قصّتَها لأنها خافت على والدها، وهي على حق. فقد استأثرت بها قصةُ نغونو. ليست البطالة في برلين عام 1913 ليست بالأمر اليسير، ناهيك عن كون العاطل عن العمل رجلٌ أسود. قالت لي العميدة إنه كان شاعراً مجيداً، وإلا كان سيفكّر ملياً قبل أن يستقيل! لكنها سرعان ما علمت أن جوزيف نغونو لم يكن يستمع إلا لدوافعه، بعكس الرئيس، سيد الحسابات اللامتناهية. عندما غادر المحاضرُ في اللغة الإيووندية المعهدَ لم يُدرك أنه أصبح القطعة الرئيسة من ملف سيتنبوليزاي الخاص؛ ولا أن ربّ عمله هو من قام بالاتصال الضروري لوضع الشرطة في ملاحقته. ذلك الملف، وكان وثيقة من خمس عشرة صفحة، ما يزال بالإمكان الاطّلاع عليه في شتاتأرشيف. إنه صرْح من صروح العمل الاستخباري، مزوّد بملاحظات إحصائية تتحدّث كثيراً عن مزاج أولئك الذين كان لوالد سارة عمل معهم.

ما إن أُغلقت أبواب المعهد خلف نغونو حتى وجد فجأةً عاصمةَ ألمانيا مدينة الحنين. مشي ساعة أو ساعتين على غير هدى، تائهاً في أفكار غامضة ويداه في جيبيه. في حي فيدينغ، دخل إلى مشرب فوجد عاملين ألمانيين يشربان كأساً. كانت المرة الأولى التي يدخل فيها إلى مشرب كهذا، ولكنه بحاجة إلى شيء قوي حقّاً. جلس إلى طاولة في إحدى الزوايا وأخذ ينتظر النادلة. لمس جيب سترته فأدرك أنه نسي كتاب ريلكه (مرة أخرى يُغفل الأرشيف ذكر اسم الكتاب، وخطأ مَن؟). لقد

بقي الكتاب على مكتبه. نهض ناوياً أن يذهب لإحضاره، لكنه توقّف عند الكونتوار حيث سمع رجالاً يروون بصخب قصص سكّير.

- Darf ich bitte um Bier ersuchen?

نعم، هذا ما قاله نغونو: "هل لي بطلب كأس بيرة من فضلك؟"

نظر إليه الساقي من رأسه حتى قدميه مستغرباً، ربما كان ذلك بسبب ملابسه؟ يجب القول إن ملابس نغونو كانت كملابس موظف بروسي في عصر ماضٍ. تنبّه المحاضر إلى أن الوجوه المحيطة به كلّها قد تجمّدت. بدا الأمر وكأن هؤلاء الرجال قد اكتشفوا فضيحة.

قال له رجل يقف بجانبه وهو يضع يده على كتفه بحركة أليفة:

ـ ماذا قلت يا رفيق؟

انبرى رجل بجانبه، وكان فاقداً سنّين من أسنانه، فردّ ضاحكاً:

ـ Eruchen?

فكرّر نغونو وهو يبدو أقل ثقة بلغته الألمانية:

ـ Darf ich bitte um Bier ersuchen?

ظن والد سارة أن العمال الضاحكين كانوا يسعون إلى مشاجرة، ولكنّ ضحكةً مجلجلة هزّت طاولات المشرب. آه، الجهل متاهة لا تُسبَر أغوارها! فهؤلاء الرجال الطيبون قدّروا طعم الكلمات التي قارنوها بلغتهم العامية "n'Bier"!

كيف تمكّنوا من تخيّل أن المحاضر قد تذكّر هذه الجملة منذ قراءته لـ Buddenbrooks، التي كانت قد انتهت قبل بداية قصائد ريلكه تماماً؟ وكيف عرف نغونو لحظةَ كان نائماً على سريره البرليني في غرفة الكولونييستراس، كان يقلّب صفحات مان ويتسلّى بردود شخصياته تماماً في اللحظة نفسها، في جبال فومبان الخضراء، كان مبشّر يُدعى غورينغ يقرأ هذه الصفحات نفسها للسلطان نجويا، مع الترجمة الفورية؟ سُرّ الرجل ذو السنّين الناقصتين بهذا الموظّف الأسود المثقّف، وقدّم له كأساً من البيرة، فلم يرفضها، ثم رجاه قائلاً:

ـ كرّر أيها الرفيق....er...

وكان من المستحيل أن يكمل دون أن ينفجر ضاحكاً: "Suchen?"

كانت لغةً ألمانية لا يسمعها هؤلاء الرجال أبداً في هذا الجانب الأحمر من المدينة. ربما هو موضوع استعماري ذلك الذي قاده إلى هذا المشرب المغبرّ! لقد أيقظ الأفريقي بداخلهم بطريركية لم يكونوا يظنّون أبداً أنها ستعمُر قلوبَهم كشيوعيين. قدّم الواحد تلو الآخر كأساً من البيرة لنغونو، ويا للغرابة، فهو لم يرفض أيّاً منها. هل لديه هذا القدر من الهموم ليُغرقها؟ هل ذكرى عمله تسبّب له العناء؟ أو لا، فقد كان ذلك ثقل النقص المفاجئ، نقص ليكور معيّن، أو غذاء معيّن، رائحة خاصة للأرض، نغونو يعلم أن هذا النقص لن يعوّض بزجاجات البيرة الألمانية، لأنه نقص شيءٍ ما لا يستطيع أن يسمّيه دون دموع. هل أصبح ثملاً كمحدّثيه؟ وإذا كان يضحك معهم، فلأن الضحك يمحو كآبته؛ ليته شرب الزجاجات كلّها التي قدّمها له أصدقاء ذلك المساء، والسبب بسيط: تلك هي الطريقة الأرخص للسكر.

قال الرجال:

ـ رفيق!

فرد:

ـ يافوه!

واختَتم سؤالٌ تقريرَ الشرطة في تلك الليلة: هل أصبح نغونو شيوعياً؟ لا يوجد دليل على أنه قرأ ماركس بالإقبال الذي قرأ به مان وريلكه. لنتجاوز إذن. حين أغلق المشربُ أبوابَه خلف المُحاضر، وجد في طريقه الألمَ الذي ظن أنه أغرقه. إنه ظلٌّ عابرٌ ذاك الذي اختفى كهرّ أسود. ونغونو ليس مؤهَّلاً لملاحقته. ومع ذلك فهو يعرف المخبأ البعيد لعذابه. نظر إلى النجوم، وابتسم لرقصها الليلي، ثم ألقى قصائد لريلكه لكي يمنح نفسه بعض الشجاعة. فرض عليه لسانُه أغنية من قريته، باللغة الإيووندية، فأخذ يصفرها ويغنّيها عبر شوارع برلين. إنها أغنية أطفال ملأت قلبه حرارةً. وعندما ماتت الأغنية في فمه، أخذ يكلّم المصابيح بلغة الإيووندو. وبتأثر من الكحول، ربما ردّت عليه المصابيح، وانحنت لكي تحيّيه تحيةً أفضل وتغطّيه بساتان نورها.

قالت:

ـ رفيق!

نغونو واثق من أنه ثمل. وواثقٌ جداً من لطف المصابيح البرلينية بحيث أنه، حين ناداه صوتٌ من خلف ظهره: "أيها الزنجيّ!" علم أنها ليست هي من تكلّمت، بل شخص مجهول.

أضاف الصوت:

ـ هيه! يا أيها الزنجي!

وأضاف صوت آخر:

ـ ألا تسمعنا؟

ما سمعه نغونو هو خطوات، خطوات مسرعة في ممر مظلم، فأخذ يركض. والخطوات تركض معه.

ـ 5 ـ

تعلّمُ الحب

في سنة 1913 نفسها، ولكن على بعد آلاف الكيلومترات من هناك. من المستحيل الهرب من ثدي الأم المرحِّب! نيبو الشاب تعلّم ذلك على حسابه عندما قفز من نافذة بيت الهوى، وركض عبر الغابة، وتأكّد من أن خطواته ستقوده حتماً إلى أمام بيت أمه في فومبان.

قالت العميدة:

ـ هذا ما حدث.

روت تلك القصة بطريقة جعلتني أقسم أنها عاشتها بنفسها. بدا الأمر كما لو أن حياة نيبو قد استحوذت عليها. كشفت عن مناجاة، وعيناها مثبّتتان على ماضٍ يعود إليها بدفق دم. لقد أصبحت نيبو، نعم، ويمكنني أن أسمع صوتَها وهو يتّخذ نبرة أخرى. مرة أخرى على مسافة ثمانين عاماً، يعود إليها ابن برثا في بركان جسدها. ولكنها كانت سارة أيضاً، الفتاة المختبئة بمظهر صبي لكي تجد هذه القصص للرجال والنساء البعيدين حلّها. تذكّرت أحداث تحوّلها وأصبحت نغونغور، الفتاة ذات الجسد الجائع. وصوتها تغيّر أيضاً، فغدا نباحاً، وصراخاً، لأنه يجب عليّ أن أعرف ما حدث في بيت الهوى، وبأدقّ التفاصيل.

سألتُها أيضاً وأيضاً:

ـ وكيف تعرفين هذا كلّه؟

اكتفت سارة بالابتسام، ثم أجابت ساخرة:

ـ وأنتِ، كيف عرفتِ ما رويتِه لي عن أبي؟

ـ الأرشيف! الأرشيف الألماني!

ردّت العميدة:

ـ جسدي أرشيف، فهو يتذكّر قصصاً لا أعرفها.

بمن أثق؟ هل أثق بذاكرة متقلّبة لامرأة عجوز، أم بالأرشيف الاستعماري؟ بالأكاذيب التي كتبتها شرطة آداب برلين، أم بالصورة الباهتة لدروس فومبان التي لم تطأها قدم سارة بكل تأكيد؟ هل يجب عليّ أن أركن لنبضات الحياة في الجوار، وأراقب طرق حي نسيميونغ المتعرّجة بحثاً عن حقيقة قصة حدثت في الأحياء الفرعية الأكثر ذهولاً للذاكرة؟ ثمة خيارات كنتُ أفضّل أن لا أقوم بها! بكل تأكيد!

الحياة تمتد من حولنا بجنون. وعقلي يبحث عن استراحة في هذه الدوّامة. بجانبنا مشربٌ يهزّ الجدران بموسيقاه. طفلٌ عمره سنتان يزحف في الغبار، أمام أنظار الكبار الذاهلة. يلتقط قطعة من التراب ويأكلها آلياً. وأنا مثله، أريد أن آكل التراب، وأدع قصة فومبان تخترق جسدي، وتدخل في أوردتي، وتصعد إلى منخريّ ككحول. سارة تمضغ جوز كولا بصمت، ونظرها يبحث عن انتباهي. أعطتني قطعة من الثمرة المرّة وسُرّت بوجهي المقنّع. أصدقائي في الحي يمضغون أيضاً قطع الكولا بمتعة طفلية، وهذا يذكّرني كم أصبح جسدي غريباً عن مدينة طفولتي هذه! وكم أصبح ماضينا غريباً عنا جميعاً!

لقصة سارة الطعم المر الحلو الذي لجوزة الكولا. قلتُ كنا في عام 1913، عندما غادر نيبو بيت الهوى وهو يعلم أن لعبة الاستغماية قد انتهت حتى وإن ادّعى لأمه أنه على حق. ففي النهاية، والده هو من سرق له صديقته. لقد فهم ابن برثا أن اللعبة انتهت حتى قبل الفصل الدامي الأخير. فيومَ قالت له نغونغور إنها تملك حق التصرّف بجسدها كما تريد، علم نيبو أنها ليست امرأة للزواج، وأنه سيدخل معها في جملة من المشكلات ـ على أية حال، هذا ما حذّرته منه أمه. لقد اطمأنّ حين أسرّت له أنها "تهب جسدها" له. والحق يُقال أنه قَبِل كل شيء لأنه يحبّها. ولأنها أضافت: "لأني أحبّك، لأني أحبّك حباً بلا نهاية، إلى ما لا نهاية."

لم يكن نيبو يملك المال ليشتري لنفسه امرأة، فهو عبدٌ على أية حال، ولكن نغونغور لم تكن تتكلّم عن هذا، لا: بل عن الحب، والحب بلا ثمن. لم يكن لدى

ابن برثا من خيار سوى أن يدَع صديقته تعطي الحبَّ الشكلَ الذي اختارته. آه، ليته سبر أغوار كلام نغونغور! وحين أبلغته أمّه أن "تلك الفتاة" ستتزوّج من والده، استغرب ذلك أشدّ الاستغراب. تذكّر كلام نغونغور وضرب ساقه وقال مستنكراً:

ـ يا للنساء! لماذا يا أمي؟ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لأنها الشيطان يا بني، ألم ترَه بعد؟

وطرح نيبو السؤال على نغونغور مباشرة:

ـ لماذا؟

فكرّرت:

ـ لماذا؟

ـ نعم، لماذا؟

ـ لأني أحبّك إلى ما لا نهاية، يا عزيزي، إلى ما لا نهاية.

ـ هذا كلام بلا معنى.

ـ أحبّك حباً جماً بحيث أريدك مرتين، عشر مرات، ألف مرة بجانبي.

لم يفهم نيبو هذه الرياضيات في الحب. بيد أن نغونغور أضافت:

ـ أحبّك حبّاً جمّاً بحيث أني أحبّ حتى ظلّك.

سألها:

ـ وهل هذا هو الحب أيضاً؟

هل ذلك الحب هو الذي دفعها إلى سرير والده؟ امتلأ نيبو غثياناً، وأخذت أذناه تردّدان نشيداً مجنوناً: الموت. الموت مضروباً باثنين، بعشرة، بألف، كان يردّد أغنية في أذنيه.

ومع ذلك، فإن ابن برثا عاد على أعقابه بعد قليل، وعاد في كلامه، وعلى جسده، يجذبه عطر الفتاة التي بات متعلّقاً بها. عاد ولم يدرِ ذلك إلا عندما استيقظ ووجد نغونغور عاريةً إلى جانبه. هل كان ذلك جنوناً؟ نعم، بكل تأكيد، لا يمكن أن يكون إلا الجنون هو الذي رماه بين فخذَي المرأة، الفتاة، في هذه الغرفة التي يعلم أنها لوالده. الجنون هو الذي جعله يعتقد بحلّ ممكن في سرير أبيه هذا.

درس نيبو في مدرسة نجويا، حيث كان والده معلّماً للكتابة. أب لا يجد لمشكلات الحياة إلا حلولاً عقلانية. لا تَطَيُّر لديه، لا! لقد عمل والد نيبو طوال خمس سنوات ككاتب عند السلطان. وكان بوسع الأب والابن أن يتناقشا فيما بينهما دون حاجة إلى قاضٍ. ومع ذلك، يا إلهي، أين يستطيع والد أن يتكلّم في الحب مع ابنه عندنا؟ بالنسبة إلى نيبو، كان ذلك بَديهياً، فما من مشرب، ولا من غرفة نوم، ولا من مكان كان سيمنحه الحق في أن يخاطب زوجة والده بشكل مختلف إلا بكلمات الأمومة. ومع ذلك، وهو نائم في سرير والده، كما كان، لا يمكن لأية كلمة إلا أن تكون متأخّرة. إنه يعلم أن لعناته وأمثاله تنتظران في إحدى الزوايا، ليس إلا من أجل أن تتمكّن من قتله.

كان نجويا قد ألغى عدة قوانين تبرّر قتل الصبي. وحين حدثت هذه القصة، كان السلطان ما يزال في النسخة الأولى من "كتاب الحب" Lewa Nuu Nguet حيث وصف المئة وسبعة عشر وضعاً التي في خلالها يبلغ الرجل والمرأة رعشات متعدّدة. إذن العقل السليم هو الذي نصح نيبو بالقفز من النافذة، حين سمع صوت والده عند استيقاظه. ركض وركض، حتى علم أن قدميه الخائنتين رمتاه في غابة بلا باب. وحين رأى تلألؤ أنوارٍ في نهاية الأشجار، لم يساوره الشك في أنها أنوار شوارع فومبان. ومع ذلك، سرعان ما وجد نفسه أمام بيت أمه.

لا ريب في أن برثا سمعت ابنها يناديها من الغابة. وحين وصل إلى أمام البيت فتحت يديها وصمتت. كان نيبو عارياً كلحظة ولادته. ونظرته أفقدتها يقينها. سؤال واحد تردّد في أذني الصبي: "هل هذا هو الحب؟" بم تجيبه؟ الحب هو الذي منع برثا من طرد ابنها المجنون. والحب هو الذي جعلها تتحقّق، وهي مذهولة، من أن أي شاهد لم يرَ نيبو يطرق بابها قبل أن تدخله إلى البيت. والحب هو الذي جعلها تكذب على رجال شرطة القصر الذين أتوا ليستعلموا عنها، وأن تدّعي أن ابنها ذهب في الليلة السابقة إلى بامندا. إنه الحب الذي يضرب صدرها في هذه اللحظة، ويجعلها تروي قصة نغونغور المجنونة لابنها الذي لا يصدّقها. الذي لا يصدّقها، أوه!

استمع نيبو إلى أمه وهي تحدّثه عن حبّ مجنون، حب أبيه، مع حركات مشوبة بدموع. وفي أغنية الأم، يتذكّر الابن رأس عشيقته ساقطاً عند قدمَي الكلب، ساقطاً وهو يردّد: "أحب"، "أحبّ"، أحبّ"!

رأى نيبو أن الحبّ هو الذي قتل حبيبته-ولا يمكن أن يكون غير الحب! إن نبضات الحب هي التي جعلت قلب نغونغور يخفق حتى بعد الموت، وجعلت جسدها يرقص على الأرض في تشنجّات حزينة.

أُخذ نيبو بفكرة أنه لم يُحبّ أمه كما تستحقّ، ولم يحبّ نغونغور كما كانت تريد. انفجر سُعاره في سؤال مزّق روحه: "ألم أحببكما بما يكفي؟"وحتى اليوم، وأنا أكتب كلام سارة، أزن كلماتي، لأني أتذكّر النار التي اندلعت في نظرة أم. وأسمع أصدقائي في نسيميونغ يتلفّظون بكلمات اشمئزاز. لم يتمكّن نيبو من إيقاف حدوث القصة التي تسبّب بها حبّه، تائهاً في الغابة التي حكمت عليه بأن يكون شاهداً عليها. بين ذراعي برثا، فتح أذنيه لكي يفهم فهماً أفضل عبارات قدَره الخاص، وعيناه تائهتان في عينَي أمه التي تروي له قصة حياته التي لا يفهمها.

غريبة هي دروب الحب! عندما استيقظت فومبان ذات يوم على صدمة خبر المنادي الذي يعلن أن أحداً لن يغيّر بعد الآن سكّان المدينة بطلبات موت، فابتسم أناس. وُجد الكلب تحت شجرة وقدماه تتأرجحان في الفراغ، وربطة عنقه قامت بالمهمة التي أعطاها إياها منذ ذلك الحين. أطلق السلطان شرطته في أعقاب الشخص حقّق أمنية المجنون الذي وُضعت حياته المنفية تحت حماية أحد مراسيمه: ولكن بما أنه لم يَعِد بأية جائزة لمن يجده، وبصورة خاصة لأن عقوبة الإعدام تنتظر مَن قدّم خدمة للمدينة بحسب الرأي العام، فإن أحداً لم يتقدّم.

سألتني سارة:

ـ هل كنتِ ستتقدّمين؟

أخرجني سؤالُها فجأة من جنون قصة نيبو وانتزعني من يدي برثا المرّتين.

ـ أنا؟

اختفت قصة نغونغور في وشوشات شاربي خمر الرافيا. لقد تحوّلت إلى تلك الحكمة التي تنصح الرجال بأن يحبّوا بالقطّارة، امرأةً بعد أخرى. بعضهم تنفّس

الصعداء بعد موت والد نيبو، ولكن أحداً لم يسأل عما تشعر به برثا. صحيح أن موت الكلب لم يُثر لديها شيئاً، لا شي، والسبب!

أكّدت سارة:

ـ ولا حتى الكراهية. بكل بساطة، لا شيء.

وبصقت مضغة كولا، وقالت:

ـ لبست مئزراً ملوّناً فوق النجوتشو، لباسها كأرملة.

ولما كانت تعيش ضمن ثقافة لا تمتلك أية كلمة لوصف معاناة أم فقدت ولدها الوحيد، أو أي ولد، ولكنها صنعت بعض الطقوس من أجل تسجيل موت زوج على جسد زوجته، فقد وجب على برثا أن تخفي شعورها بالفرح تحت زرقة الترمّل. حلقت شعرها ولبست نجوتشو إلزامياً، ولكنّ أية حركة من هذه الحركات الطقسية ليس لها من دلالة لديها.

أما نيبو فقد كابد مشاعر أخرى. وأدرك أنه نادم على شيءٍ ما عند والده دون أن يتمكّن من أن يقول ما هو بالضبط. ربما نوبات صرعه القاتلة؟ إغراء الكراهية؟ بعد شهر وثلاثة عشر يوماً من موت الكلب، قصد هير هابيش واشترى بالمال الذي كان قد وفّره توكسيدو سوداء وربطة عنق، وقفازين وقميصاً أبيض وحذاء من الجلد اللمّاع. أكّد له البائع السويسري، هو أيضاً، أن الناس الجنتلمان في برلين يلبسون هكذا عندما يكونون سعداء. رفض نيبو أن تحلق له أمُّه رأسَه كما يجب أن يفعل شخص يموت له قريب ـ والده. بل بالعكس، فقد طلب منها أن تصنع له خطّين جرياً على موضة أهل باموم، فتملّك أمَّه الذهول، وقالت:

ـ إذا زيّنتُ شعرك فسأحلقه كلّه.

سخرت برثا من هير هابيش ومن نصائحه الملائمة للموضة، ومن جنتلمانات أوربا جميعاً. كان ألمها المقياسَ الوحيد لأفعالها، ووجهاً آخر للحب. ولكي يغلق نيبو كل نقاش، عاد إلى البائع السويسري واشترى قبعة طويلة. وحين رأته أمه يرتدي ثياباً "كمجنون" ـ وكانت هذه كلمتها- لم تفكّر بلعن كل هيرات هابيشات الأرض، بل بلعن زوجها. كما فكّرت بنغونغور وبشيطنات "تلك الفتاة".

سألت ابنها:

ـ ماذا حلّ بك؟ ماذا تريد أن تثبت؟

ـ لا شيء يا ماما، لا شيء.

ـ لا تقل لا شيء، هل تظن أني لا أعرف ماذا يحدث؟

ـ حسنٌ وإذا عرفت...

ـ إن الشيطان هو الذي تملّك رأسك أنت أيضاً، ولم يذهب بعد، أنا واثقة من ذلك.

ككل أم، أخذت تنظر إلى ابنها وتتذكّر الرضيع الذي كان، وكيف كان يرفض أن يولد لأنه يخشى أن يتجاوزه حب أمه العظيم جداً. نيبو يخبّئ عنها أمراً ما، وهي تعرف ذلك. وكانت ردّة فعلها أن تضمّه بقوة، وأن تحبّه أكثر لكي يبصق، مثل الرضيع الذي كان، ما يخبّئه في خفايا نفسه.

-6-

إغـــراء الحـل النهـائي

إنه الواقع: لا أحد يستطيع أن يفرّ من قدره! إذا اختبأتَ تحت سريرك، فإنه سيرسل في أعقابك ثعباناً سامّاً! وإذا وقفت تحت شجرة، فسيصنع الصاعقة لكي يشويك حيّاً! وإذا احتميتَ تحت الماء، سيرسل إليك تمساحاً جائعاً! هذه الأفكار كلّها تجلد رأس نغونو حين وصل إلى الفروهلنغسغاس. فكّر بأهله، وبأجداده، وبطفولته التي أمضاها في المدرسة التبشيرية. تذكّر أصدقاءه، وبصورة خاص شارل أتانغانا. فكّر بالأطفال جميعاً الذين يلعبون في شوارع ياووندي، وفجأةً غزاه الأمل. لقد أصبحت مصابيح برلين أرواحاً تقود خطاه من المدينة البعيدة التي ولد فيها. يعرف أنه محمي، نعم، ويتذكر اليوم الذي وُضعت فيه مصابيح في ياووندي.

قيل آنذاك إنها أرواح الموتى ""مجهضين". فكّر نغونو بأبيه الذي كان يسخر من "حماقاته" كلّها. ثم فكّر بأمه التي تؤمن بذلك. رأى وجهها على أحد المصابيح، وهي تطلب منه أن يركض ويركض ويركض. رأى أخوته وأخواته يطلبون منه أن يركض. مصابيح، فكّر نغونو بمن يحبّونه، من رجال ونساء وأطفال، وكانوا يسكنون مزرعة أهله في ياووندي. جميعاً: أعمامه وعمّاته وأبناء أخوته يطلبون منه أن يركض من أجل حياته: "اركض يا نغونو، اركض!" وعلّموه أنه الأول في مجموعته الإتنية الذي سافر إلى بلاد البيض، "اركض يا نغونو، اركض!"

الأقل ذكاء بالنسبة لأسود هو حقاً أن يُقتل من شخص عنصري. ثمة أشياء لا تستحقّ العناء! ونغونو يعرف ذلك. إذن سمع أصوات عائلته، وبخاصة صوت أبيه:إنه يناديه بالإيووندو "جبان". ويسأله:

ـ ماذا تفعل، إيه؟ لا تقل لي إنك تهرب من الجرذان! أنت لا تهرب من هذه البعوضات، أليس كذلك؟

وينفجر والد ضاحكاً، ويقول:

ـ أليس البيض رجالاً، برأيك؟ هل أنت جبان إلى درجة أنك تهرب من رجال مثلك؟

وردّ محتجّاً:

ـ أنا لستُ جباناً!

لم يعد لئلا يجابه الظلال التي تلاحقه، والتي ترغمه على الركض في الليل. فجأةً، كبَحَ خطاه رفضُ عيشِ حياةِ جبنٍ. توقف وواجه محاصريه، بل ذهب إلى لقائهم، مصمّماً على أن يثبت لوالده أنه ليس جباناً، هو نغونو الابن: وأن شخصاً من الإيووندو لم يعش حياة جبن قطّ، وأنه لن يكون أول من يكذّب هذا المثل. تقرير الشرطة واضح: "الزنجي" هو أول من هاجم. ولا توجد وثائق أخرى حول هذه القضية، للأسف. إذن لم يبق لي من يقبل حقيقته: لم يكن نغونو الضحية.

"أنا لستُ جباناً"، تردّد صوته في عمق الليل. تكلّم بالإيووندو لأنه يكلّم والده، وأجداده وقبيلته. ومزّقت صرختُه أعماقَ برلين عام 1913، وكأنها إعلان حرب قبلية.

"أنا لستُ جباناً!" صرخ نغونو من جديد، ثم انقضّ على ملاحقيه. أسقط قوة رأسه كلّها على وجه الرجل الأول. فيما بعد تذكّر أن الرجل كان يُطلق شاربيه. في اللحظة نفسها، رآه يسقط كشجرة. التفاتُ نغونو المفاجئ وصرخة الحرب، و"نداؤه للحرب القبلية" وجنونه، هذا كلّه جعل محاصريه يتوقّفون. لم يتوقّعوا أن يتصرّف بهذه الوحشية. ولم يكن نغونو يعلم أن في رأسه يختبئ محاربٌ ينتظر اللحظة ليهشّم وجه العنصري الألماني.

قال له أحد الرجال وهو يُظهر يديه العاريتين:

ـ هل تريد اللعب بالقط والفئران؟

وقال آخر:

ـ فلنذهب! الأمر لا يستحقّ العناء.

وقال ثالث:

ـ لا، فلنبق!

وقال مَن هُشّم وجهه:

ـ لنحضّره!

سمع نغونو ثلاثي مصيبته، وتذكّر دروس والده: "خذ منهم واحداً، واحداً فقط، واجعله يندم على يوم ولادتهً." فصرخ المحاضر فيهم:

ـ يا لكم من جبناء! أنتم جبناء أمبرياليون!

خاطب الرجلُ ذو الشاربين الداميين رفيقيه قائلا:

ـ يصفنا بالجبناء، هل سمعتما؟

وضحك وهو يشير بإصبعه إلى نغونو.

ـ جبناء؟

ـ نحن؟

هجم أحدُ الرجال الثلاثة، وهو صغير القامة مع صلعة واسعة، على نغونو ودخل في بطنه. لم يجد تقرير الشرطة الكلمات المناسبة ليصف الفوضى التي تَلَتْ ذلك. لقد تلقّى نغونو على بطنه ورأسه وظهره رفسات ولكمات وكلمات، وتلقّى قطعاً من الأسفلت، وشتائم، ورأى الدم يسيل. تلقّى نغونو ألف ضربة، وقد هجرته المصابيح المهذّبة جداً، والقمر نفسه الذي أغمض عينه الشريرة عندما تركه المهاجمون مرمياً على أنه قد مات. امتلأت روحُه بالكلمات الأبوية، كلمات متناقضة، ملفوظة بالإيووندو وبالألمانية، وباللغتين في آنٍ واحد.

ـ إذن مائي أنتج فايغلينغ كهذا؟

صرخ نغونو بالألمانية:

ـ جبناء!

توقّف المشورَب مباشرةً، وسأله:

ـ جبان؟ أنا؟

وكان يمسك بفمه النازف. فقال الرجل الصغير الجسم، ذو الصلعة الفسيحة:

ـ اتركه بسلام يا أدولف، فما هو إلا "زنجي".

وأضاف الثالث:

ـ قرد!

وضع أدولف يديه أمامه كالملاكم، ومشى نحو نغونو الذي لم يعد يقوى على الوقوف.

ـ هل تشتمني أنا؟

في تلك اللحظة فكّر نغونو بكلمات والده: "امسك واحداً، واحداً فقط، واجعله يندم لأن أمه قد ولدته! اجعله يتمنّى أن تكون أمّه قحبة، ويندم والده على إنجابه."

ردّ نغونو على والده كتوسّل سحري، بلغته: لم يكف عن الطلب منه "بإنهاء هؤلاء النغول." توقّف مهاجموه حائرين. ولم يكف رجل الليل العجوز عن تشجيع ابنه: "دع ابن القحبة هذا يدخل في أسته!"

كان محاضر الإيووندو يرقص على إيقاع كلام والده الغاضب، بينما راحت أصابعه تشير إلى الوجوه الثلاثة، وقال:

ـ واحد لواحد! تقدّموا واحداً لواحد إن كنتم رجالاً!

نظر إليه الرجال ضاحكين، لا يصدّقون أعينهم، فكرّر نغونو:

ـ واحد لواحد!

تقدّم ثلاثة الرجال في نسق خلف المشورَب. لم يضحكوا طويلاً. فقد تناول نغونو حجراً ورماه عليهم، فأخطأه حجره صلعة الرجل القصير السمين، ولكن صرخة انطلقت، إنها صرخة حيوان، كلب، أو صرخة رجل أيضاً. الحجر انكسر على الإسفلت في البعيد، وتباعد الرجال، ثم قال أحدهم:

ـ إنه مجنون!

صرخ نغونو:

ـ أستكم! تقدّموا رجلاً لرجل وسأجعلكم تندمون!

ـ لنقتله!

كان المشورب يغطّي فمه الدامي وهو يتكلّم.

صرخ بهم محاضر الإيووندو ملء الليل:

ـ ماذا تنتظرون بيلوبو لوبو! أيها الغزاة، اقتلوني!

وأخذ يرقص رقصة الموت، هو يعرف ذلك:

ـ أنا الذي سأحضّركم!

آه، ليت الكلام يكفي! الرجل القصير السمين هو أول من نطحه، فقد أحاط به الرجال الثلاثة وهاجموه من كل الجهات. لم يتأثّر نغونو، وهل كان يجب عليه أن يتأثّر؟ العراك الذي تلا اختفى في أرشيف الشرطة الألمانية ضمن آلاف المعارك التي هزّت برلين قبل الحرب. دافع نغونو عن نفسه ببسالة، أوه! لقد حمى بطنه، لكنه ترك وجهه مكشوفاً. انتصب لكنه عرّض ظهره للخطر. عض أذن هذا ورفس ظنبوب ذاك، وسحق خصيتي أدولف، ولكن هذا لم ينفعه في شيء، إذ لم يقاوم طويلاً تلك العصابة، وسرعان ما تُرك على أنه ميت.

ومع ذلك صرخ المحاضر من جوف صمته:

ـ أستكم!

تلقّى نطحةً على رأسه، وكان أدولف مَن نطحه.

صرخ:

ـ شفايغ! اصمت!

فرد نغونو:

ـ فايغلينغ!

ـ شفاين!

نطح المشوربُ نغونو على عينه. لكنّ المحاضر رفض أن يصمت على الرغم من عجزه عن الرؤية:

ـ ابن الجرذ!

صرخ أحد الأصوات:

ـ لنذهب! اتركه هكذا ولنذهب!

أدولف لم يعد يستطيع التوقّف. ربما كانت خصيتاه المتألّمتان تطلبان الثأر. أو ربما هناك روح شرّيرة سيّلت ذكاءه وحمّرت عينيه وصوته، وقالت له إن قصة هذا القرد تحتاج إلى حلّ نهائي! ربما لم يُنادَ من قبل "ابن الجرذ" ولا "زنجي"! فلم يجد

غضبه من نهاية، وأصبح مصّاصاً للدماء، نوسفيراتو فقطع بأسنانه إصبعين من يد المحاضر ولفظهما في وجهه. الصرخة التي انطلقت من بين شفتي نغونو شقّت حجب الظلام، وطردت قطاً أسود، وأيقظت الشارع، وشغلّت صفارات الإنذار من بعيد.

صرخ أحد الأصوات في زاوية الشارع:

ـ الشرطة! بسرعة!

وجب عليهما أن يجرّا أدولف الذي صرخ وهو يبحث عن علبة ثقاب في جيبه:

ـ سأحرقه! سأحرقه!

ـ Mench, die Polizei!. لنهرب!

وحيداً، أوقف نغونو. على أية حال، كيف كان سيختبئ؟ وحتى لو هرب، ففي تلك السنوات كان سكان برلين السود يمكن وضعهم في مقصورة هاتف.الموظّف الألماني لم يتلقَّ تذكرة سفينة للعودة إلى الكاميرون، كما ينص القانون. بل بالعكس، أُطلق سراحه صباح اليوم التالي لإيقافه. وعلم فيما بعد أنه بفضل شخص يُدعى الدكتور مولت وكان يفضّل عدم ذكر اسمه، ودفع المخالفة المطلوبة لتحرير "ابن المستعمرة، الذي كان يتسكّع ليلاً وهو ثمل."

قال له ضابط الشرطة وهو يفتح باب زنزانته:

ـ كم أنت محظوظ!

لم يصدّق نغونو هذا الكلام. لكن الشرطي قال مازحاً:

— Weg Damit، اهرب قبل أن أغيّر رأيي. برلين رائعة، أليس كذلك؟

لم يُذكر اسم أدولف في تقريره. على أية حال، هذا الاسم ما كان سيوصل الشرطة إلى أي مكان. فأدولف ورودولف كانا اسمين شائعين جداً في تلك الفترة. والشاربان كان مقدَّرين جداً من الذكور الألمان لأنهم كانوا يعتقدون أنهما يجعلان السيدات عاجزات عن مقاومة إغرائهما. إذن من المستحيل أن أرى بوضوح في قصة سارة التي روت الحادث، وتحدّثن عن "أدولف مشورَب"، عن "آكل لحوم البشر الذي لم تكن لديه الشجاعة للعراك كرجل، بل سبّب لوالده عاراً في قلبه".

سألني آرونا، وأصدقاؤه شاركوه فضوله:

ـ هل هذا الرجل الذي.....أدولف؟

بم أجيبه؟ الأرشيف، وخاصة لأني أملك معلوماتي من ألمانيا يعطيني كثيراً من السلطة! هناك تفاصيل تغيّر القصة كلّها!أنا أحلم، أعترف بذلك، أن ضربة نغونو على وجه أدولف جعلت هذا الغضوب المشورب أبكما. نحن نعلم جميعاً أن هذه الحركة كانت ستنقذ البشرية من وحشية كان لمحاضر الإيووند الحظ بأن لا يعيشها. من سيلومني إذا ما سمحت لنفسي بهذا القول؟ أقبل، إن حماستي لا يمكنها أن تكون إلا أحلام مؤرّخة، أمام صمت المصادر المغبرّة للأرشيف الاستعماري. يجب تفضيل الحقيقة الصعبة، كما ينصح الحس السليم. أن أعود إذن بأسرع ما يمكن إلى غرفة الحقيقة، في مون بليزان، لأنه الآن حان دور العميدة أن تتكلّم، وما روته لي عاشته من بدايته حتى نهايته.

- 7 -

فـن أن يكـون المـرء سلطاناً

ياووندي عام 1931، تصرّفت نغوتان بحيث يستيقظ والدها كل يوم في سرير من الكلمات، لأن القصص التي يستمع إليها تمنحه القوة. لازم نجويا سريره في مفاجآت العالم، فتمتّع بصحة متجدّدة. ونغوتان أيضاً ترتدي ثيابها بالطريقة الأكثر أناقة. تقول: "لتنعش عينيها". عرضها للأزياء يجعل كل شخص من حولها يبتسم ويُحرج. وبات الناس يتساءلون عما ستلبسه في اليوم التالي. فخزانتها تحوي من موضة باموم إلى فولبيه، ومن فولبيه إلى باميليكيه، دون أن ننسى الموضات الألمانية والفرنسية والإنكليزية. إنها تلبس حتى من الماضي. نغوتان من الماضي، نعم، تماماً لكي تحيّر العالم!

كان يُظن أنها تتسلّح لكي تغوي الرجل الأكثر وسامة على وجه الأرض. وهي تعلم أن أباها يكره أكثر ما يكره العبوس، ويمتص بتلذّذٍ مانغا السعادة. هو رجلٌ يُحسن اختيار ملابسه لأنه يفضّل أن يقول: "الحياة أقصر من أن لا يكون للإنسان أسلوب". فكان مزاج نجويا هو هدية السلطان الحقيقية لبلاطه، وهو الذي يحذّر وجهاءه بأنه لا يرغب في رؤية وجوه مقنّعة. وحين تضع ابنته أصايص الأزهار في نافذة غرفته ترتسم على وجهه حركة من الشمس كل صباح. أوعزت نغوتان العناية بهذه الأزهار لأحد العبيد، وأوعزت إلى عبد ثان أن يذهب ويقطف أزهاراً طازجة كل يومين من حديقة حي مفولييه. وهكذا فإن غرفة والدها تزدان الآن بخضرة أبدية. وكانت تقول: "السعادة هي جوهر العالم-وهذه خلاصة فلسفتها- فهي تبقينا على قيد الحياة."

منعت نغوتان زوّاراً أوربيين من التقاط صور لوالدها وهو مريض. وكان نجويا سوبرستار المصورين الاستعماريين، وصوتُه سُجّل. ولكنها مقتنعة أنه من غير الوارد أن تكون مأساتُه متعة لأناس رموه في ذهوله الشديد. كانت تأتي بأطفال القصر إلى قرب سريره لكي يلقوا له قصائد، وقريباً الأحفاد، وقد استوحت ذلك من ابن نجي مولوه الذي ألقى قصيدة غريبة، قصيدة "واترلو" بلغة لم يفهمها أحد، وهي مفترضة أن تكون إنكليزية. ألقى الصبي قصيدته وهو يمضي حول سرير نجويا، منفوخ الصدر، ويداه ممدودتان أمامه، بخطوة عسكرية. وفي النهاية شدّ قبضته على ظهره، ودفع بطنه إلى الأمام، متّخذاً وضعاً جعل الحضور جميعاً ينفجرون ضاحكين.

وبعد مشهد الطفل، خُصّص لكل طفل-مدفوعاً غالباً بحماسة أهله- دقيقته عند رأس سرير السلطان. أرادت نغوتان أن يقولوا أجمل أبيات يعرفونها. وحذّرتهم من أن القبح قد يقتل جدّهم. وبعد ذلك انتقلت ابنة نجويا إلى أبناء العم، ثم إلى نجي، رؤساء عائلات باموم الأكثر شهرة. ثم أضافت الكَتَبة ثم الناسخين، والمصورين وخبراء المنمنمات وكتّاب سير القدّيسين، وأرباب الفخّار والسيراميك والنسّاجين، والحدّادين بكل تأكيد. كل بدوره، وفي النهاية، فإن مون بليزان بقضّه وقضيضه مشى أمام نجويا.

نعم، أتى الجميع.

لماذا؟ حسنٌ، لأن أحداً لا يريد أن يكون منسياً! كل شخصٍ ارتدى أفضل ملابسه وهو يريد، باختصار، أن يعطي السلطانَ انطباعاً جيداً عنه. الأغبادا، اللباس اللمّاع على الأسلوب النيجري يوروبا الذي عرضته امرأةٌ ذات يوم، هو الذي أعطى الانطباع الأكبر. أكثر من المنديل الذي تربطه المرأة بطريقة غير واثقة على رأسها، والذي يثير الأقاويل، كان تقليداً ضعيفاً لأسلوب فولبيه، ولكنه أكثر فنيةً. وكان هناك خاسرون أيضاً: فكيف ننسى الشعر المنسدل لامرأة آتية من دوالا، والذي تعدّه النساء النبيلات والثرثارات على أنه شعر مستعار؟ ونغوتان، ذات الشعر المضفور الذي يدع كل ناظر إليه فاغرَ الفم، حكمت ببساطة أن هذا "قبح". النسوة اللاتي وفدن إلى غرفة نجويا يرتدين أجمل ملابسهن، لا، بل سأستخدم كلمة

سارة نفسها: كنّ مامي نيانغا-و جداً، رائعات جداً بحيث أن من يراهنّ يظن أنهن يردن منافسة سيدة الاحتفال نفسها، نغوتان، لهزيمتها على أرضها.

مشاغل ابنة نجويا أهم بكثير من أن تلتفت إلى هذه التفاهات. بسرعة كبيرة يأخذ زوار سرير والدها بقص حكايات جيرانهم. لقد حوّلوا جلسات الحكايات الجميلة إلى قصص هزائم وتذمّرات. لهذا السبب استدعى نجي مونغو المغنّين وقارعي التام-تام والشعراء والمنادين. كانت تعتقد أن ذاكرتهم ذاخرة بشتّى أنواع قصص السلطنة. ولكن سرعان ما أدركت أن مصادرهم محدودة. أوه، نغوتان لا تركّز على موت الكلمة، فاستدعت رؤساء العائلات السبع التي كانت تشكّل ياووندي القديمة. وكانت ستدعو حتى الرؤساء الأهم في السلطنة لو لم يدعوا أنفسَهم، بطريقة ما، عندما علموا "الخبر الرهيب".

أتوا راكضين، أولئك الرؤساء؛ ووصلوا لاهثين. رووا للسلطان قصص عائلاتهم وحيواناتهم، وقصص الحياة والموت، وقصصاً مختلقة أحياناً، ولكن من اهتم بذلك؟ رووا قصصاً يعرفها السلطان من قبل، ولكن كيف لهؤلاء القاصّين المتحمّسين أن يعلموا ذلك؟ ثم إنه لا ضير في ذلك، لأنهم يضيفون عليها دائماً من بهاراتهم الخاصة. نغوتان تستقبلهم جميعاً طاوية الركبة وحانية الظهر، الامتنان هو الشيء الوحيد الذي يمكنها أن تقدّمه لهم بالمقابل.

سألتهم:

ـ هل تنعمون بالسلام؟

فردّوا الردَّ الواحد:

ـ السلام فقط؟

وكانوا يسوّون غندورتهم وقفطانهم، وهي الملابس المختارة لهذه المناسبة، يبدؤون الكلام.

ـ وهل ينعم أولادكم بالسلام؟

ـ السلام فقط؟

وهكذا بدأت قصة أولادهم.

ـ ونساؤكم؟

ـ السلام فقط؟

وتكلّموا عن نسائهم.

ـ وخدَمكم؟

ـ وحيواناتكم؟

كانت قصص الحيوانات هي الأكثر نجاحاً.ولقد حوّل هؤلاء الحكواتيون مون بليزان إلى بيت للكلام. وجعلوا بلاط السلطان موئلاً للعجائب. صار بيت نجويا المريض كمّاً من القصص الهزلية والجادّة، صار محلاً للمنافسة السردية التي تبدأ من بداية النهار حتى المساء. صار سلسلة من النكات، تبادل للبشر والحيوانات، وتجمّع للنباتات والأشياء، والأحلام والأكاذيب؛ منبع للأحاديث بعدة لغات، حتى ابنة السلطان لم تكن لتفكّر به. وأخذ بعض الرواة يضيفون مذاقاً غير متوقّع. وهم إذ يعرفون أن حواسّ نجويا مضطربة أخذوا يروون قصصهم بالمقلوب، متلاعبين بالواقع. فهُم يتسلّون. ونغوتان تراقب والدها: فتعابير وجهه بالنسبة إليها هي المعايير الوحيدة لنجاح الحكاية. وكانت شهيّة نجوبا هي مقياسهم.

ذات يوم، قالت نغوتان لنجي ماما: "أسرار العالم أدوية، لئلا تكون الحياة مجرّد هزيمة." وكان ذلك قبل وصول الراوي الأول. فردّ المعلّم: "أحياناً، يجب على الإنسان أن يواجه معاناته الخاصة، فالمعاناة تجعله قوياً." ثمة عجزة استعادوا استخدام سيقانهم بمجرّد أن سمعوا قصة رجل إصابته أكبر من إصابتهم. تلك الفكرة شحذت تفاؤل نغوتان، ولكنها ترى أن والدها يجب أن لا يسمع إلا قصص العظمة. ويجب على نجي ماما أن يعلم ذلك: فنجويا لديه ذاكرة واسعة كذاكرة الفيل في حقل من القرع. وفي خضمّ يأسها من رؤية والدها غارقاً في غيبوبته اللامتناهية، التفتت نغوتان إلى المهندس المعماري، وهي واثقة من أنه سيجد معها أبواباً للخلاص. فهو يعرف والدها معرفةً أفضل من أي شخص آخر. ولكن نجي مولوه لم يعرف بعد كيف حوّل المنفى نجي ماما، فالرجل لم يكن بسيطاً قطّ، يجب الاعتراف بذلك.

يعد أن قُرئ لنجويا فنُّ أن يكون الإنسان أباً عظيماً، ثم رواية بوليسية قدّمها له ضابط بريطاني (في أرشيف السلطان توجد نسخة من سر القطار الأزرق، ولكن لا يوجد أي دليل على أنها ذلك الكتاب)، التفتت نجي مونغو إلى الكتب الفكاهية.

وبعقلية تميل إلى البراغماتية، رأت أن والدها، بعد أن استعاد صحته (بعد معجزة الأب فوغت)، وابتسامته (بفضل قصائد أولاده وأحفاده)، دون الحديث عن قدرته على التفكير المنطقي (متع رواية بوليسية)، لم يبق إلا إضحاكه. لذا طلبت من المفوّض السامي أن يجد له كتاباً متخصّصاً، لكن مكتبة المستعمر بدت بلا مصادر، بل مليئة بالكتب الإدارية ودراسات حول تعليم السكّان الأصليين. خطر ببال نغوتان للحظة أن تستدعي صديقتها الفرنسية التي بقيت في فومبان، مدام دوغاست. وهي المعلّمة الوحيدة التي أعادت فتح إحدى مدارس السلطان في فومبان، بعد أن مُنعت المدارس الأخرى كلّها من الملازم أول برستا، الضابط الاستعماري المحلّي. فكّرت نغوتان أن تسأل دوغاست: "ماهي الرواية الأوربية الأكثر إمتاعاً؟"

وكانت نغوتان تستمع إلى مدام دوغاست حول موضوعات كثيرة، وهي الوحيدة، على أية حال، التي ما تزال تناديها باسمها المسيحي، على الرغم من أنها اعتنقت الإسلام: مارغاريتا. كما تنادي نغوتان صديقتها باسمها الأول: "إيدليت". هذه المرة، نجي مونغو لم تكن تجهل أنها تطرح سؤالاً كانت العقول الأكثر نفاذاً ستتحاشاه، سؤالاً ما يلبث أن يُغرق المجموعات العلمية في نقاشات لا تنتهي. وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن متأكّدة جداً من مزاج صديقتها. فنغوتان تعلم أن مدام دوغاست قارئة نهمة. وقد جمعت الفرنسية الكتب المكتوبة في مختبرات السلطان كلّها. وضمن شغف صديقتها بكل ما يحمل صبغة باموم، ستقترح عليها أن تروي للسلطان قصصاً عجائبية من ثقافتها الخاصة، بدلاً من فصول متناثرة من كتاب فكاهي. ستمتح مدام دوغاست من المكتبة الواسعة لحكايات باموم التي كوّنتها، ومن مدائح عائلة نجويا. كما لو أن نغوتان لم تستهلك المخزون بعد. دون أن نأخذ بالحسبان أن مدام داغاست قد اندفعت بكل تأكيد في غناء الشعراء والتقاليد الشفاهية، كما لو أن لدى السلطان هنا شيئاً ما ليتعلّمه.

لمّا رأت مدام دوغاست أن من الصعب جداً إيقاف المتحوّلين مؤخّراً إلى عظمة الحضارات الأفريقية عندما يبدؤون الكلام، اقترحت على نجويا قصصاً كان قد أملاها بنفسه على كتّابه. فقد وجدتها قصصاً رائعة، هي التي تعدّ

نفسها"متخصّصة في الباموم". لا تشكّ نغوتان أن والدها قد يتعرّض لنوبة قلبية إذا سمع قصته ترويها مستعِمرةٌ فرنسية، حتى لو أنها الأكثر مديحاً للسلطنة، وحتى لو أنها من امرأة لطيفة جداً. لذا قرّرت نغوتان أن تستغني عن نصائح مدام دوغاست.

عند ذلك تذكّرت كيف كتب نجويا مذكرات باموم، سآنغام. تذكّرت أولئك الناس جميعاً (وكانوا غريبي الأطوار أحيانا) الذين أتوا مقر إقامته في منفاه الأول، في بيت المنفى، في مانتوم، طوال العشرينيات. ولم تكن نغوتان إذ ذاك إلا طفلة، ولكنها تتذكّر هؤلاء الزوّار القادمين من مناطق بعيدة، ومن مدن لم تسمع عنها، فتدفعها أسماؤها الغريبة إلى لحظات من أحلام اليقظة. واغادوغو، داكار، يا لها من أسماء! وكذلك القاهرة، والخرطوم وتونبوكتو. أو ياووندي القريبة، التي أتى منها رجل جذّاب جداً، على الرغم من أنه معطّر جداً، وسرعان ما عرفت اسمه: شارل أتانغانا. لا تستطيع أن تنسى كيف كان هؤلاء يجلسون حول السلطان ويحدّثونه عن عظمة العالم ومآسيه. وأخيراً جمع كَتَبةُ القصر الشهادات في كتاب، زيّنه رئيس الخطّاطين ابراهيم بريشته الجميلة. تذكّرت نغوتان السعادة التي غزت وجه والدها حين حصل على هذا الكم الهائل من كلامهم كلّه، سآنغام. وتذكّرتْ أكثرَ ما تذكّرتْ كيف محا هذا الامتداد المثرِثر لهذه الأقدار المذابة ملامح قناع النحس. إن ذكرى تلك الأيام السعيدة هي التي دفعت نجي مونغو إلى تحويل غرف السلطان في مون بليزان إلى بيت للقصص.

-8-

مصادفات هنا، ومصادفات هناك

في 12 كانون الأول 1913، اعتدى شُذّاذُ الآفاق على شاب في برلين، لا ريب في أن الأجيال ستكسب حين تعرف أسماءهم. في اللحظة نفسها كان شابٌ آخر يمشي في شارع شعبي في فومبان بحثاً عن والده الذي أصبح أضحوكة المدينة. الشاب يحمل سكيناً بين أسنانه، وقلبه مفتوح على عاره. وفي اليوم نفسه، في الساعة نفسها، ولكن هذه المرة في ياووندي، عام 1931، كانت فتاة صغيرة تلبس ثياباً على هيئة صبي تراقب خفقان وعي سلطان معاق يستعيد قواه بسماع قصص الحياة الغريبة. وتكشف قصة السلطان أن قدَرَه ليس الأكثر مأساوية الذي يمكن أن يعرفه إنسان في المستعمرة، ومتجذِّر في إحدى السلالات الأكثر قوة في المحمية.

سؤال: ماذا تحوي هذه القصص من شيء مشترك، ما خلا تجمّعها بريشة مؤرِّخة قادمة من الولايات المتحدة؟ بقي أصدقائي في نسيميونغ صامتين. حتى آرونا أستطيع أن أراه صامتاً. ربما كان يفكّر: "القصة ليست رياضيات." حسنٌ، أضفتُ، استمعوا إذن إلى هذه القصص، إنها مشتتة: في 28 حزيران 1914، أخرج شاب بندقية من تحت ملابسه، صرخ شاتماً بلغته الأم، وأفرغ سلاحه في قلب فرانسوا فردينان الذي لم يفهم بطبيعة الحال ما قاله الرجل، ولكنه ينتمي إلى إحدى أقدم وأقوى العائلات في أوربا.

صرخ فرانسوا فردينان قبل أن يفارق الحياة:

– Scheisse!، اللعنة!

لا أكثر.

في اللحظة نفسها، في ليدز، في إنكلترا، كان عامل شاب يمارس الحب مع صديقته. فتح والدُ الفتاة الذي عاد من عمله في ذلك اليوم أبكر من المعتاد بابَ بيته وتشنّج أمام ما رأى، ثم صرخ:

ـ ابن القحبة!

فتّش في أشيائه وأخرج بندقية، بيد أن العامل وجد الوقتَ الكافي ليقفز من النافذة، تاركاً الأبَ خائباً والفتاةَ عارية وذليلة.

وكذلك في اللحظة نفسها في كازامانس في السنغال، عاد صياد في السابعة عشرة من عمره إلى بيته، بعد ليلة لم يصطد فيها شيئاً، فقال لوالده: "يوم ملعون!"

فانفجر الوالد ضاحكاً، وسأله: "ألأنك لم تصطد شيئاً؟"

قال آرونا مازحاً:

ـ والد الصياد ليس سمكة، وإلا لقلتُ....

قاطعتُ قائلةً:

ـ قولي لي، هل كان بوسع والد الصيّاد أن يملك رؤيةً للشبكة التي تربط العالم كلّه في الأصول المعلوماتية؟ عامل لديز الشاب وفرانسوا فردينان لم يكن أحدهما يعرف الآخر. ولم يكن بينهما من شيء مشترك، ما خلا إنسانيتهما. وهذه الإنسانية هي على أية حال نسبية كلّياً نظراً لعصرهما، فهل يمكن أن يُقارَن وريثُ حكم هابسبورغ بشاب إنكليزي عديم المستقبل يحبّل صديقته لكي يمتلك الحق في أن يجعلها زوجته؟ وإنسانية هذين لا علاقة لها أيضاً بإنسانية الصياد السنغالي الذي ما هو إلا مواطن أصلي.

فموت فرانسوا فردينان سبّب الحرب العالمية الثانية. وبعد عام تماماً على هذا الاغتيال الذي رمى العالم في هاوية، تطوّع هذا الشاب الإنكليزي ليهرب من قدره الذي كان يخنقه، خالقاً قدراً آخر أُعجب به العالم: قدر بطل. أما بالنسبة إلى الصياد الشاب، فقد جُنّد في قريته كرام، وعينه تلمع بوعد الحصول على أول راتب. مهما كان هذا الرجال مختلفين، فقد قُتلوا في مجزرة ما كانوا حتى ليفهموها...

قال والد الصياد لابنه الحزين: يلزم أكثر من سمكة للعن النهار!" لكن الصبي لم يفهم. لم يفهم شيئاً. فسأل: "ماذا أكثر من سمكة؟"

كذلك سأل آرونا:

ـ نعم، ماذا أكثر من سمكة، قولي لنا!

قلت:

ـ اسمع، كان الصياد يقدّر حكمة ابنه، وإنتاجه اللحظي للأمثال. ومع ذلك، فإن الصياد العجوز لم يقدّم أي رد على هذا السؤال. إذن أنا...

ـ 9 ـ

ومــاذا أيضــاً؟

سارة لا تريد أن تسمع كلاماً عن مصادفات. فمسألة الصيّاد الشاب جوهرية. في الواقع، كان ذلك اليوم ملعوناً، والرجل أعلمنا بذلك، ملعوناً ملايين المرات من ملايين الشبّان في العالم بأسره، ممن انتهت حياتهم بطلقة! ومع ذلك، لم يُغلق آرونا ولا أصدقائي في نسيميونغ آذانهم. سارة هي التي لا تحب الضوضاء المنحرفة للقصة... ففي ذهن المرأة العجوز، الحياة تاريخية ما يكفي ـ وكانت حياة نجويا تحوي الأمل النهائي للهزّات التي يمكن للعالم أن يتحمّلها. وكانت تعتمد على نغوتان من أجل البدء بنهار من المباركات.

تركتُ سارة تواصل حديثها. لا شيء يستطيع أن يخيّب أمل ابنة السلطان بهذا القدر إلا الحكواتي الذي أتى ذلك اليوم ليروي قصته، لأنه منذ اللحظة التي وضع فيها قدمه في غرفة صديقه، بدا من الواضح أن الرئيس الأعلى يريد أن يهدم قصر الإشاعات الذي بُني فيه..

أضافت سارة بنبرة مليئة بالسخرية:

ـ إنه نوع من الرجال الأنانيين حتى النهاية.

كان شارل أتانغانا يريد أن يفعل الأمور كما يراها صحيحةً، هذا كل ما في الأمر. ولكن كانت لديه مهارة إخفاء أناه المتعدّدة الأبعاد تحت فلسفة جيدة الصياغة. باختصار كان يستطيع أن يغلّف الخدعة بكلام معسول.

قال بعد أن سمع قصة إنجازات سابقيه على منصّة نغوتان:

ـ الصمت دواء ناجع أحياناً.

ثم أضاف:

ـ ولاسيما بالنسبة إلى مريض.

وافقته زوجته. جلس شارل أتانغانا قرب السرير وأمسك بيد صديقه. وهنا أيضاً، كان يرتدي ملابس متواضعة، على الرغم من أنها متميّزة. هل تذكّر الرئيس أن صديقه دخل في غيبوبته بعد إحدى زياراته اللامعة؟ أم أنه يشعر بأنه مذنب؟

كرر شارل أتانغانا:

ـ أنا بلا صوت، بلا صوت.

هذا كل ما قاله.

وأخيراً نهض وشغّل دواسة الحاكي الذي كان في غرفة نجويا. وعزفت الآلة موسيقا فالس وأغفلت بعض النوتات. ترنيم الأوركسترا غير المرئية ملأ المكان. وظلّ الرئيس واقفاً، يهزّ رأسه، مرافقاً الموسيقا بضرب من قدمه على الأرض، وبصوتٍ من شفتيه. كان يعرف هذا اللحن بشكل غامض. وقال إن المهم أن يحبّه صديقه. كان نجويا قد جلب معه هذا الحاكي من زياراته إلى بويا عام 1908. وهو هدية من الحاكم الألماني آنذاك إبرماير. زهرة حمراء كبير تتفتّح في الصالون، والجهاز يُطلق معجزة فشلّ العالم منذ أن شُغّل. كان السلطان قد رقص من قبل على صوت زهرة الروائع هذه في الحفل الذي أقامه الحاكم الألماني بمناسبة عيد ميلاد القيصر، ومنذ ذلك الحين بقي الحاكي في غرفته.

وأحياناً يشغّل الحاكي ويعزف مقطوعة، ولاسيّما إذا كان بمزاج خاص. أصبح جهاز الموسيقى جزءاً من حياته اليومية، مثله كمثل أشيائه الصغيرة، وهذه البسكويتات التي جلبها هير هابيش إلى فومبان عندما فتح متجره.

سأل شارل أتانغانا:

ـ هل تستطيع أن ترقص الفالس؟

نهض، جاهزاً لبدء الرقصة، ولكنه بحاجة إلى شريكة، فتوجّه إلى نغوتان لكن هذه اكتفت بالابتسام: فليس من المناسب أن تملأ غرفة أبيها المريض بفرح منفلت. لم يكن جنون الرئيس عذراً، وحتى زوجته رفضت. ومع ذلك، مشى شارل أتانغانا الذي لم ييئس بضع خطوات وذراعاه ممدودتان على شكل قوس أمامه كما لو أنه

يضم امرأةً متخيّلة، وأخذ يرقص. نعم، رقص مع سيجاره. نظرت إليه النسوة مستمتعات، وجامدات وغيورات من المرأة غير المرئية التي تُمتّع الرئيس أيما إمتاع. سحب المرأة غير المرئية إلى إيقاع الموسيقى المتسارع أكثر فأكثر، حتى غدا زوبعةً، وتحوّل إلى حفلٍ راقصٍ كبير. لم يكن الوحيد الذي يرقص، بل سترته أيضاً، وقبعته أيضاً، ومحفظته أيضاً التي راحت تطير كفراشة. ظلّه يرقص، وكذلك ضوء المصباح الذي أخذ يتحرّك مع الإيقاع.

الأولى، جوليانا نغونو رأت نجويا وتعجّبت بلغتها:

ـ إنه يرقص مع أصابعه!

تجمّد الرئيس: فالمريض، في سريره، يحرّك إصبعاً، يداً، ثم رأسه على إيقاع الموسيقى.

قال مستغرباً، وكاسراً ذهول العالم بطبعه الجامح:

ـ حسنٌ، حسنٌ، هو يحبّ هذا!

عند ذلك، أمسك شارل أتانغانا بيد تغوتان وجذبها إلى صدره. لم تحتج ابنة السلطان: وكيف لها أن تستطيع ذلك؟ وأخذت تتحرّك على صوت الموسيقى، وتحرّك ساقيها بحسب حركة فارسها. وبعد دورة، تركها الرئيس ليمسك بخصر زوجته. ربما كان يفكّر برقصات الفالس التي كان يرقصها طوال السنوات التي كان فيها محاضراً في الإيوونده. أو بالفالس التي يتكلّم عنها دائماً، تلك التي رقصتها عاهرة على الركبرباهن، شارع الرذيلة مع محتضر كان قد قرّبه ووعده بأنه سيعطيه ما يشاء إذا قدّمت له "الرقصة الأخيرة". أو بحفلات الرقص عند الإمبراطور الألماني؟ الرئيس يشعر بطاقة شيطانية كلما حمل نساء غير مرئيات إلى رقصته.

في الخارج أغصان الأشجار تتراقص، وتتساقط أوراقٌ مع صوت الحاكي السحري. ومن ممرات مون بليزان أخذت الموسيقى تنتشر في المدينة، وتنزل من هضاب نسيميونغ كعبير زهرة عجيبة. مصابيح ياووندي تتأرجح، ومن ينظر إليها جيداً يرَها تتدافع وتتعانق. عربات المدينة القليلة تتعرّج في سيرها في الشوارع. حتى الأطفال تأثّروا باندفاعة هذا اللحن الغريب. كلّ من في المدينة يرقصون سواءٌ أكانوا مستعمرين أو من السكان المحلّيين، بيضاً أو سوداً، كلاباً أو قططاً. حتى

الأسماك في نهر مفوندي تركت نفسها تتماوج مع المياه المتعرّجة. تتذكّر العميدة أنها شعرت بالإغواء، هي أيضاً، من القدرة السامية التي يمارسها الرئيس الأعلى على الناس والأشياء. وليست الوحيدة. كأطفالٍ أخذ معلّمو مون بليزان الفنّانون جميعاً ينظرون إلى رقصة الكون هذه فاغري الأفواه.

قالت لي سارة، وهي ما تزال منبهرة:

ـ لم أرَ شيئاً كهذا قطّ.

ذاك اليوم، أرى شارل أتانغانا كلَّ من في مون بليزان لماذا تسمّيه المدينةُ "الساحر". قيل إنه يستطيع أن يأمر المطر بالتوقّف، وقيل إن في قصره غرفة صفراء، من يدخل إليها يخرج منها بلا ظلّه، وإنه يحتفظ بمفاتيح هذه الغرفة في جيب سترته الأيمن معلّقةً بالسلسلة الذهبية التي تتدلّى منها باستمرار. وقيل أيضاً إن هذا السحر هو الذي جعل من الأوربيين الذين دخلوا إلى الكاميرون جميعاً أفضل أصدقائه: من ألمان وإنكليز وفرنسيين وحتى إسبان. وقيل إن عظمته تتجلّى في مزجه بين السحر الأفريقي والعلم الغربي الذي تعلّمه في أوربا.

وماذا لم يُقَل؟ على أية حال، لقد أيقظ الرئيسُ السلطان المريض برقصة. وحتى بعد أن سكن الكون، أبقى نجويا يده معلَّقة، وأخذ يرسم زخارف في الهواء.

صرخ نجي ماما:

ـ يريد لوحاً للكتابة! أعطوه لوحاً للكتابة! يريد لوحاً للكتابة!

ـ لوح للكتابة!

ـ لوح للكتابة!

سرعان ما أحضر كاتبٌ دفتراً ودواةً.

صرخ نجي ماما:

ـ أنا قلتُ لوحاً، أيها الغبي!

أوقف غضب المعمار الموسيقى، بيد أن نجويا يريدها أن تستمر. تكلّم، نعم، تكلّم بصوت لم يكن صوته المعهود.

همس:

ـ ارقصوا! ارقصوا!

ورأى نيبو دموعاً ترسم أخاديد على الأيام. إنه وجهٌ سعيد لم يره أحدٌ هنا من قبل. وفي الجوار ران صمتٌ مطبق.

أصرّت سارة، وهي ما تزال مبهورة بمعجزة تلك اليقظة البعيدة:

ـ كان يجب أن تريه. لقد كان...لقد كان...

وأخذت شفتا الأم العجوز تبحثان عن الكلمة الصحيحة، وهي تصفق بأصابعها لتدلّ على الثقوب في مفرداتها ـ أو تلك الموسيقى التي انطفأت منذ زمن طويل. حتى اليوم، نعم، حتى اليوم، ما تزال ساقا رجل عجوز في نسيميونغ تتحرّكان وفق إيقاع فالس سحري. الرجل ينهض وسط باحته، يمسك بخصر زوجته، أو خصر أول امرأة يطالها، ويرقص الاثنان. وأحياناً يرافقهما صوت أكورديون. وتلك الرقصة تُسمّى "البال" لأنه، وهذا مؤكّد، بعد سنوات عديدة ظلّت ياووندي ترقص ذلك البال الذي افتتحه شارل أتانغانا في ذلك المساء.

ـ 10 ـ

الحيــوانـات الباقيـة

بقي الحديث عن المدينة الراقصة زمناً طويلاً. نعم. قالت لي سارة:

ـ أياما وأياماً.

ثم أضافت أن فالس السلطان الرائع اجتذب سيلاً إضافياً من زوّار سريره. إذا كانت أفريقيا قد علمت بسقوط رجل عظيم، فإن الكون بأسره تظاهر بعد الرقصة الأسطورية. وفَدَ أناس من أماكن مجهولة ومدن لا تُعرف مواقعها، وقد سيطرت عليهم اندفاعة المعجزة البعيدة. ولم ينسَ الزوّار أن يرتدوا ملابس حفل راقص إمبراطوري. بدءاً من طاووس ظهر وأضاء ممرات البيت بذيله المشعّ، وحتى الحيوانات أُسروا بالقصة المجنونة، وتوافدوا جميعاً إلى مون بليزان.

وفي الليل، تطايرت فراشات حول سرير السلطان، وأخذت تروي له قصة تحوّلها من القبح إلى الجمال. رقصت فالس بال الأحلام حول المصباح- العاصفة، تدعمه سمفونية بعيدة لكلاب وقطط. القطط توقّع القمر بنشيد فرح وهي جالسة على سطح البيت تغنّي قصائد حبٍّ ويأس. واستيقظ بيت السلطان على تغريد عصفور يقول للسلطان بآيات متناوبة عن روائع يوم جديد.

مستعمرة من عصافير الشمال تنزل من أوربا، بلا مزاح، لتغنّي جمال الخريف في أذنَي نْجويا، ولتبثّه السعادةَ التي يعيشها في توهّج شمس أفريقيا الأبدي. اخترقت بطّاتٌ المدينة وحملت له قصة أمواتها الجماعية على طرق الحياة الجائعة. ووجب على عبيد أن يدفعوا إلى النار نملات تمشي في رتل باتجاه غرفة نجويا، آملةً أن تروي له كيف حوّلتْ بجهدٍ مشترك الغبارَ إلى جبل مذهَّب. ماذا

أقول عن ذاك الحيوان، وقد نسيت سارة اسمه، الذي أقسم أنه مشغول جداً من أجل الرقص. لا أحد "حتى سلطان باموم" أضاف، تألّم مثله. وغضب عندما قالت له نغوتان إن مأساة والدها هي مأساة سيزيف. سأل مستنكراً:

ـ ماذا؟ ومن هو سيزيف؟

أعلمته ابنة نجويا:

ـ إله يوناني.

ردّ الحيوان:

ـ أنا أدفع البراز بقدميّ، فهل سيزيفك ذاك يفعل مثلي؟

لم تُجب نغوتان. فقد فهمت الحيوان المسكين الذي كان سيملأ أياماً بقصّ قصصه الكئيبة لجحيمه الفريد لو لم تمنعه نغوتان. وفي يوم آخر، قتل عبيدٌ أفعى بوا كانت تنسلّل على طول جدران بيت القصص. وقد أتى ليقول للسلطان كيف ابتلع غزالاً. نعم، أكّدت سارة، العالم المسكون تدفّق إلى أبواب نجويا لكي يطلعه على عجائبه.

وبعد البوا، لم يجرؤ أحدٌ على تدوير دوّاسة الحاكي السحري. وبقيت سعادة السلطان في ذاكرة كل واحد. وكل واحد علم أن الكون لن يعود كما كان من قبل.

- 11 -

قهوة وغاتو برلينيان في ظهيرة حارّة

على الرغم من أن سارة اخترقت طقسنا وروت قصتين متواليتين، لم أقاطعها، فأنا في نهاية المطاف موجودة هنا للاستماع إليها. ومع ذلك، لديّ بعض الأخبار الطيبة. وهي مرتبطة بفرانسوا فردينان وبالمأساة التي تلت اغتياله. تصرّف الألمان كما لو أن قيصرهم هو مَن قُتل، ولم يكونوا الوحيدين. فمعظم الأمم الأوربية أعدّت إعلانات الحرب المكتوبة والموقّعة، والمُعدّة لتُرسل إلى أعدائها قبل زمن طويل من أن تدخل الرصاصة في صدر وريث هابسبورغ. ولو لم تُطلق تلك الرصاصة لوجدت تلك الأمم وسيلة أخرى.

وبالعكس، فقد كانت الحرب العالمية الأولى نعمة بالنسبة لوالد سارة. لا أحد يعرف بماذا كان يشعر في لحظات الجنون الجماعي تلك، ولا بماذا يفكّر. ولا مع مَن كان، ولا ما كان يفعله يوم اندلاع الحرب. هل كان يرقص في شوارع برلين مع الجمهور الغاضب؟ بل هل كان بين الجمهور؟اكتشفتُ إشارة وحيدة تذكر والدها في أرشيف جمعية الأنتروبولوجيا في برلين، مؤرَّخة في أيار 1914.

سألتني السيدة العجوز حائرة:

- عن أبي؟

- بل إنها وثيقة رسمية تحمل توقيعه.

كانت إذناً أُعطي للعلم بالتصرّف بجثته بعد وفاته. قدر مفضَّل لهؤلاء "الجنود المجهولين" الكثر الذين أنتجتهم الحرب المندلعة. ومع ذلك فإن هذه المعلومة صدمت العميدة. بالنسبة إليّ، أنا أشكّ أن المقصود التسوية التي وُقّعت مع

الدكتور مولت الشهير الذي أخرجه من السجن. للأسف لم أستطع إيجاد صورته في متحف الأنتروبولوجيا ضمن مجموعة الوجوه الأفريقية الذين قيست رؤوسهم وصُوّروا عراةً. ولكن بعض هذه الصور لم يُذكر عليها اسم صاحبها. أعترف أني سعيدة بهذا الغموض، لأني ما كنتُ لأجرؤ على أن أُري هذه الصور لسارة التي لا تريد أن يكون والدها ماكراً. ليتها تعلم ما فعله والدها لكي يبقى على قيد الحياة!

لقد بقي جوزيف نغونو حياً رغم آلام تلك السنوات القاسية، أستطيع أن أشهد بذلك، وهذا كافٍ. ويمكنني أن أطمئنها أيضاً: فبينما كان وحل خنادق المارن وفردان ومطرها يغذّي الذاكرة العالمية بتجارب وحشية، فإن الجبهة البيتية منحت والدها حقل حرية بلا حدود. ومن حسن حظه أن شذّاذ الآفاق من أمثال أدولف قد أخرجتهم الحرب من شوارع برلين، واختاروا بفرحٍ الحرب الكبرى التي رأوا أنها أشرف من المشاجرات مع الشيوعيين ومع السود.

ـ الحرب!

وصرخوا عبر المدينة محمولين بحماسة مُسكرة. وقذفوا قبعاتهم في الهواء، وعانقوا الفتيات.

ـ الحرب!

ـ الحمد لله.

ـ الحرب!

لقد حدّد أنفُهم قرداً آخر ليتبعوه. وانخرطوا في صفوف الجيش باندفاع شرس.

قالوا:

ـ إلى باريس!

ـ إلى باريس!

ـ إلى موسكو!

امتلأت كتب التاريخ بصراخاتهم المجنونة، وبدعواتهم إلى الانتقام. وهستيرياهم ملأت صفحات الأرشيف الأوربي حتى عام 1918. في هذا النزول الصاخب إلى جهنّم، أكرّر سؤالي: من أصبح آنئذ سيد شوارع برلين؟ لم يشعر نغونو قطّ أنه في جلد بطل، وهذا ما أعرفه من قبل. وأقدّر لو أن كثيراً من المدن، وكثيراً

من البيوت وكثيراً من الأسرّة لهؤلاء الأبطال الغائبين تمكّنت من الكلام، لشهدت على مروره البركاني. أتخيّل والد سارة مسافراً من شمال ألمانيا إلى جنوبها في الحرب وأمتعتُه عبارة عن حقيبة ظهر، ولا شيء آخر يقدّمه سوى حبّه، ولا أمل له إلا في قليل من الحرارة. أتخيّله نائماً تحت الجسور، إذا لزم الأمر، ولكنه يفضّل الأسرّة السرية لعشيقات ليلة واحدة. إنه يشعر أنه حر، حرّ وخالٍ من الهموم لأول مرة في حياته. ولا يخشى إلا مشاجرة الرعد التي تنتشر فوق رأسه على أية حال.

لم يكن مصيره هو الأسوأ، مقارنةً بمصائر أخرى. فقد كتب ساآربروكر رونديشاو على سبيل المثال: "الفرنسيون انتهوا، فهُم يجنّدون زنوجاً ليحاربوا بدلاً عنهم!" وبوسع نغونو أن يقول:

ـ الحمد لله! الحمد لله! فالألمان لا يجدونني أهلاً للموت من أجلهم!

في لايبزيغ تعرّف إلى لودفيغ مبيبي مبيسا وهو بارز العضلات كملاكم، يعمل عامل بار ويحلم بتشكيل فرقة مسرحية مكوّنة من السود فقط. وفيما بعد اتّخذ لودفيغ اسم لوي برودي الذي يناسب كثيراً أحلامه العظيمة. واقتصر عمله السينمائي للأسف على أدوار رؤساء قبليين مهووسين، يقعون في شباك العنصريين.

أصبح نغونو صديقه، وأسسا معا مسرح الشعب. وقد تميّز نغونو بصورة خاصة في دور "الأفريقي"، وهو دور يدرّ كثيراً. قدّره الألمان، والجبهة الأهلية كانت متعطّشة للتسلية. النساء والفتيات وحدهن، الذين كنّ يخشين كثيراً أن يرين أزواجهن وعشّاقهن يعودون منقطعين عن أحزابهم الأساسية، كن يتسلّين مع فرقة الممثلين السود المرتجلين.

تلك كانت المرة الأولى التي ينضمّ فيها نغونو إلى سودٍ آخرين في عمل جماعي. هل تغيّر قارئ مان وريلكه؟ وهل اكتسب ما يمكن تسميته "وعي العرق"؟ وحدها تتمة قصته ستجيب على ذلك. الأمر المؤكّد هو أن انتماءه للمسرح الشعبي زاد من تيهه. وفي الوقت نفسه، هذه هي الفرصة الأولى منذ أن غادر الجامعة لكي يكسب المال، وباختصار، في التخلّص من بشاشة أرباب العمل الذين كانوا مغرمين بدفع الشرطة إلى ملاحقته.

في عام 1917، تزوّج من ساكسونية، ولكني لم أجد أي أثر لأولاد من هذا الزواج. وذلك لحسن الحظ، لأنه يترتّب عليّ بكل تأكيد أن أخبر العميدة أن أخوتها أُسروا ووُضعوا في معسكرات اعتقال أو تبخّروا-endlosoung، حل نهائي. لكني سرّعتُ قصّة والدها الذي أخبرتنا شرطة الآداب في عام 1918أنه كان عضواً في رابطة الدفاع عن العرق الأسود، وقد أسسها مع "شخص يُدعي لويس برودي".

وقد صُنّفت هذه الجمعية التي تضم حفنة من الأعضاء بين المجموعات الراديكالية لجنود مفطومين عن الدم والفعل، ومرميين في البطالة بعد عودتهم من الجبهة، وطوال سنوات ما بعد الحرب، وفّروا لبرلين نصيبها من الاضطراب السياسي. تحليل مشكوك فيه، لأنه كيف يمكن تصوّر هؤلاء البضعة سود في برلين وهم يجتمعون في كهف ليدبّروا ثورة على الطراز البلشفي؟ ربما قرأ بعضٌ منهم ماركس، وسمع عن أحداث الثورة الروسية في أكتوبر 1917، وربما وُضعت صورة للينين على جدرانهم، ولكن، مع ذلك، يجب عدم المبالغة في كل شيء.

ومع ذلك، في ملاحظات هؤلاء الشباب الممتلئين غضباً، وأملاً أيضاً، التفيتُ بنغونو: ولأول مرة يعطي معنى لهذا الفراغ الذي جعله في الماضي يضحك ويبكي، ثم يدخل إلى أول بار في ذلك الحي لكي يشرب شيئاً ما قوياً. وبين أصدقائه الجدد هؤلاء كوّن الأفكار القليلة التي لعبت دوراًُ هاماً جداً في حياته بعد عودته إلى الكاميرون.

"اركض أيها الرجل الأسود، اركض!" لم يعد هذا صوت أبيه ولا صوت المصابيح التي تشجّعه، بل صوت فرح العيش لدى أصدقائه في المسرح الشعبي. ربما كانت تلك القرارات القوية للرابطة، وربما للشواهد الجريئة المقتطفة من الكتب، ومن ثم، بكل تأكيد، ستكون صدى هذه المشاجرات التي انفجرت في شوارع برلين في عام 1918 هي التي اجتاحته.

وجوزيف نغونو تمرّد كما في الماضي: "لن أركض بعد الآن!"

كآخرين كثر طوال تلك السنوات السوداء، خرج نغونو خرج من الحرب رجلاً. والسؤال الذي عاد في ملاحظات الشرطة جانَبَ الأمر الجوهري لأنه سأل: "هل أصبح ماركسياً؟" للأسف أن حرباً أخرى أتلفت الوثائق التي كانت ستعطي الإجابة.

قرأتُ أن والد سارة كان في برلين عندما أُعلنت الجمهورية فيها بتاريخ 9 تشرين الثاني 1918. وربما كان وسط ذلك الجمهور من الشبّان المتحمّسين الذين أخذوا يقذفون قبّعاتهم في الهواء ويعانقون الفتيات، كما في عام 1914، ويصرخون:

ـ تعيش الجمهوريةّ!

ـ والاشتراكية!

ـ والديمقراطية!

ـ الجمهورية الاشتراكية! الجمهورية الديمقراطية.

ربما مجّ نغونو الجمهور المتجمّع فعاد إلى أصدقائه: على سبيل المثال برودي الذي كان يحلم بعمل كنجم سينمائي "بعد الحرب"، وفي عام 1918، كان ينتظر التغيير بفارغ الصبر. وربما حسبا معاً حظهما من السعادة في هذه الألمانيا المقبلة، وتخيّلا الحياة الجديدة للسود في هذه الألمانيا التي لا تستطيع أن "تكون إلا أفضل"، قال برودي المتفائل. وشعر نغونو بالرضا لأن شوارع العاصمة خلت من شذّاذ الآفاق من أمثال أدولف. وكان هذا سيكون كافياً ليجعله سعيداً، نعم، كيف يمكن مناقضة ذلك؟

ربما وُجد والد سارة في بيت ماندنغا، المؤجّر، كما يسمّى هذا الرجل في أوساط الجالية السوداء في برلين، وهو الأقدم والأفضل إقامةً. روى المحاضر السابق قصة مشاجرته في الشارع، وقصة خصيتي المعتدي عليه المسحوقتين وشاربيه الدامين.

ـ لا أستطيع حتى أن أمدّ يدي للأكل دون أن أفكّر بذلك الغبي.

قاطعه أحد الأصوات:

ـ المشكلة الحقيقية هي أنك لم تعد تستطيع ن تسلّم على النساء كما تريد، قل لنا الحقيقة!

تدخّل ماندنغا قائلاً:

ـ من فعل بك ذلك...

ولم يكمل جملته بعد أن غزاه الغثيان.

فهمه الجميع ووافقه.

مهما يكن من أمر، في ذلك اليوم التاسع من تشرين الثاني، كان نغونو يصغي بكل تأكيد إلى ثرثرات أصدقائه، يأكل الغاتو ويشرب القهوة بينما أولاد المؤجِّر

يمرحون من حوله؛ وبينما يهدأ جنون الناس في الشوارع. وفي أحد أركان الصالون أخذ بعض مواطنيه يتناقشون بحرارة، فقال أحدهم:

ـ جمهورية؟

رد تيوفيلوس وونجا:

ـ ليس جمهورية واحدة بل جمهوريتان، جمهوريتان يا عزيزي.

ـ أنت تمزح!

ـ تحقّق!

ـ وفي اليوم نفسه؟

ـ في اليوم نفسه.

ـ أي بلد؟

ابتلع نغونو قطعة غاتو، ثم سأل مغتاظاً:

ـ وبعد؟

لقد أساء تقدير الطاقة السياسية عند المؤجِّر الذي صرخ:

ـ وبعد! هذا يجب أن يعني لنا شيئاً ما، أليس كذلك؟ هذه هي مشكلتنا نحن الأفارقة، لا شيء مما يحدث يعني لنا شيئاً! كيف سيكون لأفريقيا مستقبل إذا كان لا شيء يعنينا أبداً؟ إذا لم يكن لدينا أي إيمان بأفعالنا، فهل يمكن أن يحدث شيءٌ ما في قارّتنا؟ وإذا لم نفعل شيئاً نحن الأفارقة ماذا سيحدث في أفريقيا، اللهم إلا ما يقرّره الأوربيون؟

وانطلق نقاش لا ينتهي، كما هي الحال دائماً في بيت المنفى هذا، نقاش يتذابح فيه الشتات. وربما كانت هذه النقاشات تلقي العقول السوداء على أبواب ماندنغا. شعر نغونو أنه خالٍ من الحجج، وأحّس بالتعب. أو خاب أمله فجأة من تفاهة هذه الحروب الكلامية. على أية حال، قرّر أن يعود إلى الكاميرون. دون تام-تام، وبعيداً عن جماهير شوارع برلين المدفّأة جداً. هناك، أمام فنجان قهوة وقطعة غاتو، عند المؤجِّر ماندنغا الذي كان يتحدّث عن "فعل" وعن "فعل سياسي"، ولكنه بقي جالساً.

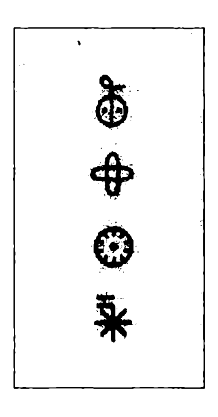
ببساطة هكذا.

- 12 -

زخارف الزمن الماضي

توقّفتُ عن رواية قصة جوزيف نغونو لأن سارة أخذت ترسم في الغبار. لم ألاحظ في السابق أنها اهتمّت بقصة والدها إلى هذا الحد. أخذت ترسم أشكالاً بأصابعها، شعور مبهم بفقدان الأمان. أهو، مرةً أخرى، فقدان أمل المؤرّخة تجاه الشاهد؟ وكانت تلك هي المشترك في أيامي. أو ربما لم تكن المرأة العجوز تريد أن تستمع إلى القصة التي أرويها؟

لسارة طريقتها الخاصة في مقاطعة قصتي، وأنا أعرف ذلك، نعم، أعرف أنها لن تتورّع عن أن تقول لي أي نوع من الآباء تفضّل. رأيتُ يدها المرتعشة وقرأتُ:



ما يعني: الآن أنا أرى والدي.

بقيتُ حذرةً. وذلك كما لو أن الأب الذي اكتشفتُه تحت كومة من الأوراق بعملية تحضير أرواح، جعلَت سارة من نفسها ابننه التي لم تَكُنْها قطّ. حاجتها كأم لحماية الطفل خلال ساعاته الأكثر ظلاماً تفجّر في بطنها زخرفات حبٍّ رسمتها على الأرض. ومثل كتابتها كمثل حديثها، تركتني صامتة. كتبت بأبجدية ليوا lewa النسخة الأولى تماماً من أبجدية نْجويا، تلك التي اخترعها السلطان بين عامي 1895 و1996، قبل أن يضع البيض أقدامهم على أرضه.

نظرتُ إلى سارة مستغربةً لأني احتجتُ إلى جهود كثيرة، إلى خمس سنوات، لكي أقرأ هذه الكتابة التصويرية التي لم يفهمها أي كاميروني بعد ذلك. وكان مَن ثقّفني في هذا الشأن صديقٌ أمريكي، بروفسور في نيويورك، فقد أجرى أبحاثاً حول منظومات الكتابة ما قبل الاستعمارية، "تلك التي ليست شفاهية"، كما قال لي.

وها نحن إذن، أنا نصف مثقّفة، أجلس في الغبار أمام أطلال مون بليزان، بينما العميدة تخربش على الأرض بأحرف كانت ستبقى قبلية لو لم يوجد صديقي الأمريكي! أضاءت السعادة وجهينا، وامتلكتُ اليقين بأننا بلغنا العقدة الشتونية للقصص المشتتة التي وحّدت بيني وبينها. سالت دموع على خدّينا ومدّت سارة يديها إليّ فأمسكتُ بهما؛ وكانت ترتعش. للحظةٍ كنا، نحن الاثنتين، الشخصين الأكثر شفافية، والأكثر سعادة في العالم.

تمتمت سارة:

ـ لقد بفي على قيد الحياة، على الرغم من كل شيء.

قلتُ وأنا أقصد نجويا:

ـ لقد بقي على قيد الحياة.

كانت سارة تفهمني، وروت لي كيف استعاد السلطان مهارة يديه وعلّمها الكتابة، موضحةً:

ـ خطوةً خطوة.

تخيّلتُ السلطان مستيقظاً من الموت، مستلقياً على سريره، وأحد الزوّار يجلس خلفه ويروي قصة ليمنعه من العودة إلى النوم. فتح نْجويا عينيه المستغربتين،

ودخل بنهم إلى عالم المعجزات هذا، قرّب أذنه ليتركه يسيل في جسده؛ وفتح فمه ليأكله بصورة أفضل. استعاد قواه شيئاً فشيئاً، وشيئاً فشيئاً استعاد قوة يديه لكي يكتب على اللوح الذي أحضره له نجي ماما، ما يريد أن يتذكّره، كما لو أنه لوحه هو ذاكرة فراشةٍ مختفية. كتب نْجويا، دون أن يعلم أن في ظهره خيال ينظر إلى كل حركة من أصابعه ويسجّلها في ذاكرته.

آه، الذاكرة أرشيف!

تنهّدت سارة وقالت:

ـ كم هي خسارة أنه لم يكتب حكايات طوال تلك الجلسات! كنتُ سأتعلّم أكثر.

تخيّلتُ نْجويا مجتهداً في تتبّع القصص الخارجة من أفواه المترجمين، فالمئتا لغة-وأكثر- التي غي بلادنا، تنفجر كنافورة تُصدر ما لانهاية من القصص. ألم يكن مشمئزاً، هو الذي خلط اللغات المحكية في مملكته: الشوباموم والفوفولد والهاووسا والبالي، ثم أضاف إليها بعض العناصر من الفرنسية والألمانية والإنكليزية ليخترع لغة الشوموم التي تُستخدم في قصره؟ وهو الذي كان يريد الحصول على لغة تضم لغات الأرض كلّها، لغة عالمية، كيف لم يخب أمله بهذه العودة إلى الوراء على الرغم من جهد حياته؟

تذكّرت سارة ذلك اليوم البعيد الذي أرسل فيه أهمّ معلّميه الفنّانين: نجي ماما وإبراهيم ونجي كبومي إلى عند المعلمة المتعدّدة اللغات فراولن ووهرمان"ليسرقوا كلمات البيض"، كما كان يقول. وقد وصف له مستشاروه السيدة وهي تلفظ الكلمات "شويمن" قوس قزح، أو "طحين" و"أوردونغ" "مهمة"، وماذا أيضاً؟ وقال نجي ماما تبدو وكأنها تمتلك "هذه الكلمات".

وكانت الصدمة بالنسبة إلى السيدة عندما عادوا بعد عدة أيام مصحوبين بنجويا مع القاموس "باميفرانكليزي" الأصلي ـ كما يقولون ـ حيث أعطى نجويا كلمات المعلّمة الاستعمارية المعنى الذي يريده!

سألت:

ـ "مهمة"؟

شرح نجويا مبتسماً:

ـ بالشوموم، هذا يعني:"رأى"

ـ و"طحين"؟

ـ هذا "فارينزي" ويعني أمضى الليل.

ـ و"avoir"

ـ أوار، ويعني مليء.

ـ و"كومّست دو"؟

ـ "شجرة"

بدت وهرمان تائهة، وتابع نجويا:

ـ "لينكس" تعني "أولاد".

لم تستطع أن تصدّق أذنيها. فقد زعزع السلطان الكون من حولها وأعاد ترتيبه على هواه. لقد أنشأ توافقات بين كلماتها وبين الكون كما يراه هو. إنه يتسلي، بمزاج طيب.

عندها ناولها رسالته التي أعطاها دلالة ما كانت وهرمان لتتخيّلها أبداً!

ويوم قرأ عليها نجويا صفحات من الكتاب المقدس الذي بدل كلماته مع كلمات القرآن لكي يقول ما يريده كدين؟ يا للفضيحة! عبّر وجه الراهبة بوضوح أن لعبة اللغة لها حدّ مسيحي بالنسبة إليها. بحثت عن مساندة نجي كبومي بنو، الجالس بجانب السلطان. لكن نجي كبومي بنو لم يكن لديه الوقت ليفتح فمه، إذ أعلن نجويا ببساطة:

ـ اسمه بالشوموم هو مونليبير.

ـ وهو يعني؟

هنا مونليبير هو الذي أجاب:

ـ أستاذ.

كان مونليبير العجوز فخوراً بهذا الاسم، وقد بدا ذلك على وجهه، وطلب من الجميع أن لا ينادوه إلا بهذا الاسم. التفتت فراولن فوهرمان نحو فنان آخر، النجّار نجي شوا، فقال نجويا:

ـ لابونت.

وحين نظرت إلى نجي ماما قال نجويا:

ـ هو، بقي ماما.

وخاب أمل السيدة لذلك فسألت:

ـ ماذا؟

نعم، ولماذا أوقف اللعبة؟ لكن فوهرمان لم تشك في هجوم نجي ماما. فسألت:

ـ وأنا؟ ماذا أصبح اسمي؟

فكّر نجويا، نعم. وكيف يُنسى استغراب العزيزة فوهرمان حين أجاب:

ـ فراولن ووهرمان، اسمك هو لاسيسفانيربريستسنا-فاسكوبوس.

ـ اسم طويل قليلاً، أليس كذلك؟

وفيما بعد اختصرته إلى "لاسيسفينير".

الحدث وقع عام 1911. هذا ما فعله نجويا عندما كان ما يزال شاباً نشيطاً. هل يجب عليه في غرفة منفاه أن يخلط جميع اللغات في المحمية ليصنع لغة كامفرنكليزية، هذه المرة؟ أو جميع لغات أفريقيا والعالم، تماماً من أجل فهم جنون الكون الذي صبّه الراوة عند قدميه؟ المهمة أخافته، لأنه بالإضافة إلى ذلك، كان مريضاً.

نيبو ونغونغور

ولكن يهمّني أن أجعل هذه الحقيقة صحيحةَ..

فنسان فان غوخ

رسالة إلي تيو، شباط 1890

-1-

الفنان المكتشَف

أتى زمنٌ على فومبان صار فيه الأمراء والرجال الأحرار، دون الحديث عن نبالة خانعة ـ المبانسيس، خدَم القصر-، لديهم الحق في القيام بما يحلو لهم على ظهر عبد. عندما مشى نيبو في ممر الفنّانين وهو يرتدي سترته الأوربية السوداء ومحفظة مغروسة في جيب الصدر، وقبعة عالية على رأسه، ـ ملابس اشتراها كلّها من عند هير هابيش ـ كان لديه شيءٌ ما فضائحي، وهو يعلم ذلك. ومع ذلك، لم يتحرك أي نبيل. وحدها الأعين الساخرة تتبعه على طريقه. ثم وضع عضو مجلس بلدي مُرسل من السلطان حداً لجشع الطبقة الحاكمة في باموم. ولكن هنا، المقصود هو شاب يثير الوشوشات عند مروره ويجمّد أيدي النبالة الجائعة. الإشاعة تلاحقه حتى مشغل حدّاد مظلم، يقع في نهاية الممر، دخل إليه، وقال بصوتٍ مصمّم:

ـ أريد أن أصبح فنّاناً!

وركّز على كلمة "فنان"

تفحّص المعلّمُ الحدّاد نيبو، ورآه يلبس زي والده نفسه، هذا المجنون الذي كان منذ عهد قريب يتسوّل موته في الشوارع. رفع نيبو غطاء رأسه، مليئاً بالاحترام، كما يجدر بشاب من باموم أن يفعل.

قال مونليبير مستفزاً:

ـ هل تريد أن تعميني يا بني؟

أظهرت ضحكتُه أسنانَه التي حمّرتها جوزة الكولا. وخلفه عشرات من الأطفال الذين يعملون في الذهب والبرونز، رفعوا نظراتهم المحروقة، وتهامسوا ساخرين. فقد بدا نيبو هابطاً من القمر.

في ذلك اليوم بالذات، كان مونليبير بحاجة إلى مياومين، فالطلبيات كثيرة. وفضلاً عن ذلك، لا يجدر بمعلّم ممر الفنانين أن يطرد شاباً يرغب في تعلّم مهنة.

قال المهندس العجوز:

ـ لكي تكون فناناً، يجب ألاّ تلبس لباساً مسيحياً...أخلِص لحقيقتك الخاصة.

حين خلع نيبو ملابسه أمام مونليبير، فهم العجوز الأساطير التي تسري حوله في المدينة. فابن برثا شاب وسيم، جيد التكوين، وبارز العضلات بشكل جميل، وواضح الرجولة مع لمسة أنثوية تعود إلى شعره الكثيف، وإلى وجهه الأمرد وإلى صدره الأملس. أوه، نعم، إنه وسيم. الرجل العجوز الذي تُحسن يداه خلق الجمال لا يُخطئ. فلنيبو جسمُ مصارعٍ ذكي، وصياد مليء بالخيال، وجندي روحي. القبعة العالية التي ما تزال مثبّتة على رأس جعلت المتمرّنين ينفجرون ضاحكين.

أمره العجوز:

ـ اخلع هذه القبعة اللعينة!

سمع نيبو أصواتاً آتية من الأفران:

ـ فلاح!....

ولكنّه سدّ أذنيه.

البنطال الأزرق والبوبو الواسع اللذان يرتديهما الفنان حوّلاه، ومع ذلك فإن الصبي ما يزال أفضل بملابسه من المعلّم الذي كان قد اختار ترك الحكماء بعزة نفس.

قبل أن يلتزم نيبو بالعمل في ممر الفنّانين، فكّر أن ينخرط في جيش نجويا، أو في شرطته. بل إنه تخيّل نفسه يواجه الجيش الألماني، نعم، أن يصبح عسكرياً. فالعسكر هم الوحيدون الذي بوسعهم المشي في شوارع فومبان دون أن يُنهبوا من

النبلاء. فقد رآهم نيبو يدخلون إلى فومبان خلف البيض، بلباس ملوّن، مع شاشيات حمراء على رؤوسهم، ويتنكّبون أسلحة مخيفة، ما جعلهم يثيرون غيرة المراهقين. عبيد كثر انضمّوا إلى صفوفهم يحدوهم أمل بالانتقام من النبلاء.

أمّه هي من جعلته يغيّر رأيه، لا أكثر. فقد هدّدت برثا بقطع أوردتها إذا ما انخرط ابنها مع هؤلاء "الذين يرتدون ثياب الخراء". وفهم نيبو أن العسكر يجب أن يذهبوا إلى حيث يأمرهم البيض، وأن يقتلوا أعداء هؤلاء. ولكنه تخلّى عن الفكرة أيضاً لأنه سمع اتهامات الاغتصاب التي تسري خلف هؤلاء الجنود، كالذباب الذي يتبع صبياً يقضي حاجة. العساكر ليسوا محبوبين في فومبان، ويُنظر إليهم باحتقار، ولاسيما من النساء اللواتي يسمّينهم: "بنات وردان". إنهم عبيد جميعاً، هم أيضاً، وداهوميون بشكل خاص. ونيبو يرى أن تاريخ والده يكفي لإثارة كثير من الأقاويل في حقّه. وقد اختبأ حين طلب القصر نحو مئة من المتطوّعين لمواكبة قافلة خبير الأراضي الألماني الذي ذهب باتجاه الشمال "لمقابلة الإمبراطور سوكوتو". اختبأ في الأدغال، ولم يخرج منها إلا بعد أسبوع من ذهاب البيض الذين يحملون أسواطاً مصنوعة من ذيل فرس النهر.

ممر الفنّانين قرارٌ خلّصه من الخوف من أن يُجنَّد. أمر خاص من غورينغ جعل فنّاني نجويا تحت الحماية وأراح المئة شخص تقريباً الذين يعملون في الورش من جشع الإدارة الاستعمارية. لكن نيبو لم يكن يعلم ذلك بعد. إنه عائد من الحقول حيث يداه لم تعتادا حتى ذلك الحين إلا على إنتاج الإنيام[1]. وسنحت له الفرصة بمقابلة رجال الفن الذين يحترمهم الجميع. كيف تسنّى له أن يفكّر أن بوسعه أن ينتج شيئاً آخر غير الإنيام؟ ولكنه، بكل تأكيد، لا يريد أن يُمضي حياته في زراعة الأرض. وفكرة العمل في إحدى مزارع الكاكاو أو الموز التي أوجدها الألمان في كل مكان تُرعبه. الأرض ثروة الباموم، بيد أن نيبو يحتقر الفلاحين.

إنه يستشعر ضرورة الثورة في قلبه وفي عقله. الحب هو الذي منحه فكرة الجبل السحري الذي أخذ يبحث عنه. وبعد أن مارس الحب مع أول امرأة أغواها

---

[1]. الإنيام نبات درني يشبه الجزر، يؤكل. (المترجم).

(في الواقع، المرأة هي التي أغوته)، أغمض عينيه ورأى الأشكال الغريبة ترتسم في الحلم. كانت كروامج هبطت من السماء. وبعد مضاجعته الثانية، أغمض عينيه وأحرف السماء أصبحت كتابة تصويرية، على شكل أسد. هذه الرؤية لسماء مليئة بالروامج استحوذت عليه طويلاً، لأن دلالة كلمات الكون كانت ما تزال تفرّ منه.

ولما كان يريد تماماً استكشاف مملكة هذه المفردات للحلم والتنزّه على دروب جسده المملوك، بدأ ينظر باتجاه سوق التوابل بإلحاح. أخذ ينتظر الفتيات ويلاحقهن ويغويهن. وقد اكتشف أن حلم الحب مختلف عن حلم النوم؛ فحلم الحب يستحوذ عليه دون أن يمنعه من أن يحلم الحلم نفسه مرةً ثانية. فقرّر: "أريد أن أحلم أحلامي حتى النهاية. أريد أن أحلم الحلم نفسه عدة مرات."

بكل تأكيد، كان ذلك قبل أن يلتقي بنغونغور، إذ لم يعد يحلم بأي شكل إلا بأشكالها. نغونغور لا تشبه أي حرف تصويري يألفه، بل بالعكس، فقد رتّبتها مباشرةً. إنها امرأة حرة لا علاقة لها بأي حكم مسبق لدى نيبو حول النساء النبيلات. على سبيل المثال لم يستطع أن يتخيّل سنّها قطّ. ومن فرط ارتباكه، صار يفقد عقله تماماً أمامها، يبحث عن الكلمات الأكثر عاديةً، وعقله ينفتح على الفراغ. يتلعثم، ووحدها أصابعه تنقذه، ولولاها لكان أبكم. الأشكال التي كان يرسمها لا تحوي أي تعقيد: فما هي إلا همس عاشق. نغونغور هي التي علّمته كيف يمارس الحب مع امرأة. أحياناً يشتاق إلى جسدها كثيراً، ويحلم بأصابعها وبراحة يدها وبلحمها الذي يسكنه. وهو، ككل عبد من فومبان ما يزال يمشي حافياً. قالت له نغونغور: "أريد أن يصبح جسدي ثيابك، ولا تعود تحتاج إلى ثياب."

حلّت حزام مئزره وألبسته: ألبسته بشفتيها، أولاً أصابع قدميه، ثم ركبتيه، وأخيراً بطنه وصدره، وأنفه وأذنيه وعينيه. وبعد ذلك عرّته بالطريقة نفسها، قطعةً قطعة.

قالت: "دورك الآن"، وحلّ نيبو المئزر الأحمر الملفوف حول صدرها. اكتشف صدرها العارم. وأراحها من قلاداتها كلّها، ومن أساورها ومن الحلي في أصابعها وأصابع قدميها وأذنيها. وأخذ يلعب بكل قطعة، وبجمالها، وعلى وجه الخصوص

الحلقة المعلّقة بسرّتها، لكن تلك الحلقة تركها في عمق بطنها. هكذا تريد نغونغور أن يحبّها، جزءاً جزءاً، مثل فنّان، كما تصرّ.

هي التي لفظت كلمة "فنّان" لأول مرة عنده. ووصفت له كل شيء يمكنه أن يصل إليه في نهاية الحب، الوعد بسعادة مستعرة. نعم، هي من قدّمت له جسداً كقطعة يمكن أن يخلطها ليحصل على عمل فني. أحسّ بأعصابه تتوفّز عندما يلمس أصابع قدميها، وعندما يتقدّم نحو ركبتيها، ونحو حوضها. ما كان ليصدّق أبداً أنه يحبّ أن ينظر إلى ما بين ساقيها، ولكنها طلبت منه ذلك، لأنها قالت إن الكتابة التصويرية التي يسعى إليها في أحلامه في السماء البعيدة مرسومة هنا.

قالت:

ـ لا تكتفِ بالحلم، بل أعِد رسمَه!

واقتربت أصابعه من المكان الذي نظر إليه، فقالت له:

ـ انتظر! ارسم على جسمي أولاً.

رسم نيبو وشماً غير مرئي حول سرّتها.

ـ وعلى أخمص قدميّ الآن.

رسم بشكل بدائي على ردفيها، وفخذيها، ثم لثم أخمص قدميها قبل أن يصعد من جديد إلى ركبتيها.

ثم قال صوت نغونغور:

ـ وعلى العانة.

ورسم عليها أشكالاً.

ـ وعلى شفتيّ.

ففعل.

أطاع نيبو إلى أن صار لا يشعر بساقيه، وحتى فقد عقله، وحتى انفتحت نغونغور وجذبته، ومن جوانب جسده كلّها. وحين ولج فيها أخذت تحرّك ردفيها بمرونة لكي يدخل في لحمها إلى عمق أكبر. ووصل إلى مسافة أبعد، وهي تحرّك ردفيها، وتمسك إليتيه بكلتا يديها لتدفعه إلى أعمق نقطة في جسدها. وبحث فيه عن الكتابة التصويرية التي رسمها على بطنها. بحث عن شكل تيهه. دخل إلى كل

مكانٍ في جسدها، وفي كل عصب من جلدها، وفي كل حجرة من أوردتها، وفي كل قطرة من دمها، وفي كل رائحة من عطرها. وفجأةً أحسّ بأظاغر نغونغور تنغرز في إليتيه، وبيديها تمسك بمؤخرته، وبرأسها ينحشر برقبته، وبأسنانها تعضّه، وأحسّ بقبضة تشتدّ حول ذكَره، تشتدّ مرةً، مرتين، ثلاثاً، أربعاً، خمس مرات. صوت نغونغور يكسر روحه، ولكن كانت صديقته تهمس كلمةً مكررة، بكاء يتصاعد من الغرف الأكثر اختفاء في هذا البيت الذي التقاها فيه، فعل مصرَّف بالزمن الحاضر: "أحبُّ".

لم يدع نغونغور تكمل التصريف. فقد قرع عدة مرات باب مخبئها. أكثر من فعلها الملفوظ بتلعثم، أكثر من كل شيء، آه! أحبّ أن يرى وجهها المشع وملامحها المتحوِّلة. الحب يسُهم في السعادة، والسعادة تحقيقٌ للحب الحقيقي. مارس الحب مع نغونغور مرةً بعد أخرى، ليرى وجهها. كان يحبّ أن يُبقيه بين يديه إلى الأبد، ويريد أن يعلّقه لحظةَ تعبيره الأكثر شدّةً. ولكن ذلك الوجه الملتهب، كان هارباً! طيّاراً كعطر. لقد بدا كخط مفاجئ، كشكل بلا شكل، كوجه بلا وجه، كسعادة محمومة. لم تترك نغونغور له وقتاً للتأمّل، بل بالعكس، أخذت تتنفّس تنفّساً عميقاً جداً وتنتزعه إلى الأعلى بحيث يحسب نفسه فهداً، أسداً، فيلاً. نفيره يبكي في البعيد، ثم تناثر ألف قطعةٍ على جسد المرأة التي أحبّها للتو. وجه نغونغور اختفى. ارتدت ملابسها، فقال: "أريد أن أصبح نحّاتاً!"

آه، كان نيبو يرتدي ثياباً فضائحية عندما ظهر في مشغل مونليبير لأنه يريد أن يتحرّر من الضياع الذي كان يشعر به بعد الحب، ذلك الضياع اللامتناهي منذ موت نغونغور. إن وجه صديقته الهارب هو ما يريد أن يعيد تركيبه بوساطة الفن ليخلّده.

ـ 2 ـ

لنتكلّم عن الشيطان إذاً

مغامرة نيبو قصةٌ كلاسيكية لشاب. قيل له إن نغونغور أرملة طروب ترتع في الرذيلة، وليس هذا كل شيء، بل هي مهووسة جنسياً يُضاف إلي ذلك أنها متعدّدة الأزواج. هل طلب رأي هؤلاء الثرثارين؟ بل سمع نيبو أكثر من هذا بكثير، سمع أقاويل سيئة، تُلقى خفية عند مروره كإسهال بطة. بطريقة لاشعورية أخذ يعير اهتماماً إلى الشائعات الجارحة. علم أن نغونغور فتنت قبله سبعة وعشرين شاباً في دشانغ، وفي بلاد الباميلكيه، دعتهم واحداً واحداً إلى بيت الهوى الذي بناه لها "تاجر غني" في أحد المروج.

هناك، ومن خلف ظهر عشيقها الغني، كانت تحبّ رجالها كما تفعل امرأة ساقطة. آه، لا، فنيبو لا يستطيع أن يصدّق هذا الكلمات المكدّسة الواحدة فوق الأخرى، في همسات، وصموت وضحكات. إنها ترنّ في النظرات والابتسامات التي تحرسه كلّما مشى في ممر الفنانين. رواة قصة حياة نيبو يسخرون لأنه ابن رجل أصبحت مغامرتُه السيئة أسطورة، ويقال، إنه أُغوي من امرأة ـ روح أرغمته على شراء ربطة عنق وطلب الموت في الشوارع ليس إلا لكي يلحق بها إلى مملكة أرواح المياه، مامي واتا. قال لنفسه: "قذارات عبيد، وكلام غيورين!"

لماذا يصدّق ابن برثا حماقات كهذه؟ هذه المرة يتكلّم القاص وكأن نغونغور "إحدى جاراته المباشرات"، وكما لو أنه هو نفسه رآها تتصرّف في بيت بروس الذي يُحيل إليه.

سأل ذاهلاً:

ـ هناك، ألم يكن الرجل يعلم أنها الشيطان؟

ذلك لأن كلمات أمه القذرة تلاحقه حتى إلى ما بين الحرفيين! يعرف نيبو أن الصبي الذي يتكلّم عن "الشيطان" إنما يقصد والده. هذا البذيء يسعى إلى الشجار بكل تأكيد، ومع ذلك، نظر ابن برثا إلى مكان آخر. غاص في فنّه. لم يعلم أحدٌ قطّ روايته للقصة. ولم يعلم أحدٌ أنه صنع الكروكيات الأولى للأشكال التي كان يركّبها بأناةٍ في مشغل موليبير على جسد المرأة السيئة التي ينتشي كلّ رجل أمامها. الأمر هكذا تماماً، فلا أحد يعلم أن نيبو يمر في ممر الفنانين بهدوء.

إذا كانت أكذوبة أمه قد أنقذت حياته، فإن فنّه سرعان ما حوّله من مياوم إلى متدرّب. تلك المداخن عرّته! إنها تعيد اختراع عشّاق نغونغور، وتضاعفهم بالآلاف. وتعطيهم كل مرة أسماء مختلفة. بيد أن صمت نيبو أمام الثرثارين منحهم حريةً لإعادة اختراع حياته.

همس صوت:

ـ دجو، دجو، زميل، زميل، ماذا تعرف؟ لقد ضاجعوها معاً.

ـ هل تقصد أحدهم بعد الآخر؟

ـ لا، دجو، معاً.

أضاف صوت آخر:

ـ كانوا عبيداً.

ـ عبيد؟

ـ نعم.

نُقضت الـ"نعم" آلياً:

ـ لا، كانوا رجالاً أحراراً.

ـ رجال أحرار؟

ـ وحدهم النبلاء يفعلون هذا، أقسم لكم.

من قال هذه الجملة هو شاب ذو نظرة متوعِّدة لجندي مستريح، قصير الساقين، خدّاه كبيران كرضيع. وكان رأسه أصفر بسبب غبار الورشة، وعيناه الشبيهتان بعيني دجاجة تثقبان وجه الزيتي، ويُدعى نغباتو.

توجّهت الأنظار كلّها نحوه، فرجع في كلامه:

ـ اسمعوا، اسمعوا، لستُ أنا من سيقول لكم مَن هم.

ومع ذلك تقاربت الوجوه، بينما الفتى الهمام الذي أقسم على الصمت يصارع العار الذي جلّله. دقيقة، دقيقة، دقيقة واحدة، واكتشف المشغل فمه الملتهب الذي أخذ يتلفّظ بدقة أسماء، بينما جبينه يتفصّد حبات عرق كبيرة. أصدر حركةً أخيرة فأقسم الفنّانون جميعاً على إبقاء أفواههم مغلقة.

قال المتآمر المهزوم تاركاً القطر الإضافية للسر البغيض الذي همس حتى الآن مقدمَتَه فقط. لقد كانوا نغوري جميعاً.

لم يجرّ أحدٌ النغوري هكذا قطّ، نبالة باموم الأميرية في الخراء. لكن ابن برثا لا يستطيع أن ينفي الإهانة، آه! صوت الشاب يملأ المشغل: "هذا الشخص لا بدّ أنه يعرف!"

توجّهت الأنظار كلّها نحو نيبو الذي غاص في عمله.

ـ والدك كان يعمل في القصر، إيه؟

ألحّ عليه الثرثار:

ـ دجو، لماذا لا تقول لنا؟ كان والدك أحدهم، أليس كذلك؟

ولم يكن هذا كل شيء.

ـ هل تعتقد أننا لا نعرف؟

وشدّد على الـ "نا"، ثم أضاف:

ـ أنت تحرف الحقيقة.

وأيضاً:

ـ والدك قتلها أليس كذلك؟

ثمة حقيقة لا يمكن أن تصمت. وقد اكتشفها نيبو. ولكنه ما يزال لا يتكلّم.

ـ المونتغو قتلوا والد، اعترف بذلك!

وتطوّر العرض الشعبي لعناصر جريمة غير كاملة في قصة تآمر للقصر! بعد الاستذكار الرابع لوالد نيبو انتفض هذا. أوردته انفتحت وقبضته انغلقت. كان يعتقد أن مشغلاً للفنّانين يمكن أن يكون مكاناً لنسيان متاعبه كرجل. ها هي صور

حبّه العنيف تعاوده، وتسيطر على يديه، وعلى جسمه، وتُدخِل في روحه منابع الغضب المتفجّرة.

لحسن الحظ، تدخّل أحد الأصوات:

ـ دعوه بسلام!

إن مشهداً كهذا لا يمكن أن يحدث إلا بغياب مونليبير. غالباً ما يكون المعلّم المهندس في القصر يستقبل طلبيات جدية ويسلّم القطع الفنية التي أنهاها، لكي يحافظ على النظام الذي تمنّاه نيبو في مشغله. نظر الشاب إلى زملائه وضم قبضته. عليه أن يسيطر على فمه، ويلجم جسمه. لأنه يعرف. لو أن زملاءه شتموا أمه لسكب حوض الذهب المحرق على رأس الأكثر ثرثرة من هؤلاء المعتوهين، وبخاصة رأس هذا النغباتو. قال:

ـ اشتم أمي قليلاً يا نغباتو وستتمنّى لو أنك وُلدتَ من شرج قحبة!

هل هؤلاء الفتيان الذين يدفعونه إلى أقصى حدود مستعدّون لسماع الحقيقة؟

"هل تريدون أن تعرفوا الحقيقة، يا أبناء الجرذان؟" وجَب عليه أن يسدّ أذنيه لهذا السؤال! فقد تعلّم نيبو أن الحقيقة ليست إلا رواية للواقع. قال: "أنا وأبي ضاجعنا الفتاة، أحدنا بعد الآخر." ضربت المفاجأةُ زملاءه، فأضاف: "نعم، ثم أنا مَن قتلتُ أبي، وليس المونتغو." ظنوا أنه مجنون. "هذه هي الحقيقة، أيها السفلة!"

لم يستطع نيبو أن يعلن المسؤولية عن جريمته! وهذا أفضل. تعلّم أن كل عمل فني هو المقبرة لحقيقةٍ لا تُطاق. تعلّم أن يدفن قصته في فنّه، ليترك الآخرين يزينونها ويعيدونها إليه بأشكال وصفات إرادتهم وخيالهم وذكائهم. مع الكلمات التي تحترم أخلاقهم فقط، ممتنعين حتى عن معرفة الحقيقة التي دفعته في البداية، هو الفنان. قبِل أن تُقال قصته بكلمات أول مارٍّ في فومبان. فهذا هو الحل الوحيد إذا أراد أن يهرب من الموت: القبول. إذن قبِل صورة رجل عارٍ يركض في الأدغال، ذكرها الحرفيون بسرعة، وأصبح تلك الشخصية المضحكة التي يرميها أحدهم للآخر في ظهره عندما يظهر في سخرياتهم. أخذ الحرفيون يضحكون إلى درجة أن أحدهم ضرب أصابعه بمطرقة.

ـ كان ذكَرُه ما يزال منتصباً وهو يركض.

نظر نيبو إلى الفتى الذي أعطى روايته. يميل إلى الطول، وله وجه مثلّث محدّد الزوايا. لم يكن يرتدي ملابس فنّان، فثيابه الوحيدة هي مجرّد بنطال قذر يُظهر أصوله النبيلة. وسلسلتان من القواقع تتدلّيان على صدره، ويضع أساور في يديه وقدميه، ويُدعى مولوام.

أضاف مولوام:

- في الواقع، وجَب عليه أن يمسك ذكَرَه بكلتا يديه لكي يتمكّن من الجري بشكل أفضل.

وأبدى الهدوءَ ذلك الذي يعرف عمّا يتكلّم مولوام! تركه نيبو يتابع، فاتخذ الفتى هيئة مسرحية، ممسكاً بذَكَرٍ وهمي بين يديه وقال: "هكذا."

وأراد نيبو أن يستزيد، فربّما كان هذيان هذا الصبي يزعجه، ولكنه يريد أن يعرف حدود خيالٍ مرذول، تماماً كما يريد هو، نيبو، أن يقيس وقع انتقاداته الأكثر لذعاً. أضاف مولوام ويداه مرفوعتان أمامه:

- ظلَ قضيبه منتصباً لمدة أسبوع.

- ألهذا السبب لم يستطع الخروج من الغابة؟

- نعم، لقد كان منتصباً إلى درجة أنه اضطرّ إلى تمسيده بنفسه، صدّقوني.

- أكاذيب!

- لمدة أسبوعين.

تدخّل صوتٌ مليء باليقين:

- دَعوني أقُل لكم: لقد مارس مع الحيوانات لكي يهمد.

- مع الظباء.

- ومع الطيور.

نيبو يضحك أحياناً من هذه الإشاعات الكاذبة بشكل مرعب، ولكنه لا يستطيع أن يصحّحها بروايته الخاصة عن موت والده. صورة الابن ملاحقاً أباه في أحياء فومبان وشوارعها وزواريبها وساحاتها المظلمة، ومحاصراً إياه في زاوية بيت ليعطيه الحب القاتل الذي كان يتسوّله عبر المدينة، بكل تأكيدٍ، لا تجعل هذا العالمَ ينفجر ضاحكاً.

سمع نيبو صوتاً من خلف يقول:

ـ دجو، زميل، نحن متعاطفون مع والدك.

ـ نحن متعاطفون.

الاستماع دون أن يتصرّف علّمه الكثير. علّمه أن يكظم غيظه. وعلّمه أن يُبقيه بعيداً عن جسده، وعن عينيه كمعدن حارق. علّمه أن يضربه بقوة بمطرقة، يضربه، يضربه، يضربه حتى يصبح مطواعاً، وحتى يتّخذ الشكل الذي يريد أن يكون له: مسطّحاً كسكّين، وبيضوياً كجسم طائر، ومثلّثاً كرأس أسد. وعلّمه أن يسخّن غضبه، وأن يمدّد غضبه وأن يصقل غضبه، وأن يبرده، نعم، يبرد غضبه، وأن يمسح غضبه كما يفعل مع المعادن التي يستخدمها في عمله. وصقل نيبو غضبه وهو ينفخ أصابعه المحمّاة، وينفخ قلبه ليمنعه من الانفجار، وينفخ على حروق روحه المتوهّجة. الفن ترياق ضد الجنون.

- 3 -

أعماق الصداقة

أوه، لم يكن نيبو يعرف عن أعماقِ أيةِ مهاوٍ بركانية يكلّمه مولوام ونغباتو! ومع ذلك، عندما دخل إلى عشرتهما فهما أنهما شريكاه. بل اقتربا كثيراً منه حتى أصبحا صديقيه! كان الفرن بحاجة إلى مادة أولية، وكالعادة، اختير مولوام ونغباتو لإحضارها من بلاد باميليديه المجاورة. كانا سيذهبان وحدهما كما يفعلان دائماً، أما الآن وحيث يوجد غرّ جديد في مشغل معلّمهما، فقد اكتشفت عيناهما الجهنّميتان فجأةً احتمالات جديدة للخبث. ارتسمت ابتسامتان على شفتيهما حين انحنيا على قدَمَي مونليبير، وسأل مولوام:

- ألا يستطيع نيبو أن يأتي معنا؟

بكل تأكيد كان المعلّم قد أعدّ مخطّطات جديدة للمتدرّب الجديد، ولكنه لمّا كان تائهاً في الغيوم التي تغطّي عينيه المغمضتين دائماً، لم يكتشف الخبث الكامن في نظرة مخاطبَيه، فسأل ببساطة:

- نيبو؟ نعم.

مولوام ونغباتو يعرفان جدياً الـ"نعم" غير الواثقة عند مونليبير، فقال مولوام مبدياً حجّته:

- يستطيع أن يتعرّف إلى الطريق.

وأكمل نغباتو:

- من يعلم؟ ففي المرة القادمة...

- كذلك يستطيع أن يتعرّف إلى السوق.

ـ ويتعرّف إلى الأسعار.

أمام هذا الزوج من الحجج المنطقية ينثني أفضل رجل مفكّر فيباموم. لم يكن لنيبو أن ينبس بكلمة، مادام جديداً. ومع ذلك فقد استشفّ شركاً في الأفق. واستلم الحرفيون حمارين لأن ثلاثة حمير قد تثير شهيّة قطّاع الطرق. ولمّا لم يكن للمتدرّب الجديد من دابّة، أخذ الفتيَان يُركبانه بالدور على الرغم من أن ابن برثا يفضّل المشي في البداية. مشى ساعات وساعات، وزميلاه راكبان أمامه، يضحكان من قلة ذكائه.

كانا ينصحانه بين الفينة والأخرى، ولاسيما عندما وصلوا إلى وادٍ:

ـ لا تكن عنيداً! هل ترى الجبل، هناك؟

كلماتهما البذيئة التي قالاها بالأمس ما تزال ترنّ في أذني نيبو. وصبْرُه هو طريقته في أن يبيّن لزميليه أنه ليس أولَ قادم، ولا جباناً يمكن أن يجعلا منه أضحوكة حتى الشبع. ولكن الدفاع عن كرامته بجَلْد نفسه لا يمكن أن يدوم. وكان الطريق إلى دشانغ يتطلّب عدة أيام من المشي. في الليلة الأولى، نام نيبو بعيداً عن صديقيه، على الرغم من تحذيراتهما: "الغابة مليئة بالحيوانات المفترسة!" وفي الليلة الثانية ظلّ رافضاً التحدّث إليهما: فليكملا الضحك لوحدهما على قصصهما الخاصة! وبعد اليوم الثاني، لم يستطع تجنّب علاقة الشراكة التي تفرضها رحلات كهذه، دون أن يَصبح مضحكاً.

كل شيء بدأ مع الجوع. فسرعان ما نفدت مؤونة المسافرين: فقد اكتشف مولوام ونيبو أن لنغباتو شهية فيل، ولحسن الحظ أن الفتى صيادٌ ماهر. في المساء غاب في الدغل وسرعان ما عاد وظبية على كتفه.

قال وهو يمدّد على الأرض فريسته التي ما تزال تتحرّك:

ـ هي ذي. يجب أن تكفينا.

وكفتهم! علم نيبو أن نغباتو ابن لأحد الصيادين المشهورين، ولكن منع حمل السلاح الذي فرضته الإدارة الألمانية على سكّان باموم جميعاً حوّله إلى فلاح. ومن بين أخوة نغباتو الأربعة هو الوحيد الذي فرّ من التجنيد لأنه وجد ملاذاً له في

مشغل مونليبير. وكذلك كانت قصة مولوام، مع بعض الفروق، فقد كان ابن جندي تحول إلى فلاح.

لماذا في هذه اللحظات من الاعتراف حيث الصياد والجندي المتحوّلان يظهران ألا يقبل نيبو أنه هو نفسه كان ابناً لكاتب، وفلاح فقط لأنه عبد؟ ابن برثا لا يريد أن يتذكّر والده! لقد اكتشف أشياء أخرى عن رفيقيه، حتى وإن حوّله صمته إلى مغرور في نظرهما. حين استيقظ في اليوم التالي لم يجدهما بجانبه، بل وجدهما بعد ساعة من المشي، مختبئين خلف دغل. امتلأ فمه بالشتائم، فقاطعه نغباتو:

ـ صصصصصصه!

ووضع مولوام إصبعه على شفتيه. تقدّم نيبو على رؤوس أصابع قدميه مصاباً بالدهشة، فوجد صديقيه ينظران إلى فتاة تغسل ملابسها في النهر. أمسكا بأعضائهما التناسلية لئلا تنفجر. ذُهل ابن برثا لرؤيتها، فقد كانت حلماً معلّقاً، والكمال الجامد لرؤيةٍ اعتقد أنه قهرها. لقد كان واثقاً منها: إنها نغونغور.

قال نغباتو:

ـ لا بد أنها بامومية.

صحّح مولوام كلامه:

ـ والوشم الذي على كتفيها؟ إنها من باميليكيه، بكل تأكيد. على أية حال، نحن في أرض باميلكيه.

قال نغباتو بحزم:

ـ باميليكيه أو لا، لا يهمّني ذلك، إنها لي.

رد مولوام:

ـ بل هي لي أنا!

ـ لماذا؟

حين نهض مولوام ليذهب إلى الفتاة، أمسكته يدٌ قوية من ساقه، وسحبته إلى خلف الدغل. لقد تلقّى إهانة. زمجر وهو يبصق العشب الذي كان في فمه:

ـ اتركني! اترك ساقي، أيها البائس.

منذ بضع سنوات، ومنذ أشهر خَلَتْ، كان نيبو أول من يغوي فتاة النهر. واليوم بدا تدخّله مفاجئاً:

ـ دعها بسلام!

آه، كان رفيقاه سيضحكان كثيراً لو عرفا سبب هذا التحوّل!

قال مولوام:

ـ أنتَ، إذا لم يكن لديك خصيتان....

ـ أهي امرأتك أم ماذا؟

وحين رفع الشابّان رأسيهما مصمّمين كانت الفتاة قد اختفت. بحث عنها مولوام ونغباتو في كل مكان على طول النهر، ثم عدلا، وعادا إلى نيبو، يوحّدهما غيظهما أكثر من أي وقت مضى. أعلنا:

ـ إنه تصرّفك الخاطئ.

ـ بل هو تصرّفكما!

وانفجر الثلاثة ضاحكين، لأن إصبع كل منهما كان موجّهاً نحو وجه الآخر. تكلّما عن الفتاة طويلاً، وبالتأكيد لم يقل لهما نيبو أنه رأى فجأةً في ميوعة شكلها وجهاً يعرفه. بل لم يكن لديه الوقت ليشرح أفكاره. وسرعان ما غادرت فتاة النهر ذاكرة صديقيه إذا استبدلاها بمومسين تدبّراهما في دشانغ "ليواسيا نفسيهما قليلاً". وكذلك حاول نيبو أن ينسى وجه فتاة الأنهار الهارب. لقد أعطاه الفن الصلصال الذي يحتاجه ليحوّل قبح الحياة إلى سماء رائعة. انكبّ على عمله برغبة أقوى في الانتقام، وانقطع عن الوجوه التي أتعسته. لقد تعلّم خفايا الفن القديم للنحّاتين على يدَي معلّمه، وقبِل أن ينظر إلى الذهب كمادة بسيطة لأحلام فنية. وكان ذلك لكي يدنو أكثر من بريق الشمس.

تعلّم نيبو كيف يملأ عيني ظبيةٍ ذهباً، وكيف يصقل أسنان أسد. وسرعان ما تعلّم كيف يقطّر وهمَ حقيقة تحت جلد فهد مذهّب. وعرف كيف يجعل ضبّاً يتعرّج في الغبار دون أن يتحرّك. وحتى الجيكو عرف كيف يجعلها تهزّ رأسها.أعاد خلق حيوانات ذاكرته جميعاً بمهارة. وعرف أن الاستغراب هو حقيقة الصمت، وقلّ ألمه حين ضاع مولوام ونغباتو في الأقاويل اللامتناهية وهما ينظران إلى أعماله.

كان يعرف، نعم، نيبو يعرف أن عليه أن يتعلّم كثيراً في مشغل مونليبير إذا ما أراد أن يمحو نهائياً القصة المخزية التي أتت به إلى هنا، وأن يشارك بيديه في صناعة رؤيته. الفن إضافة لحياة أصبحت غير صالحة للعيش. الفن من أجل تغيير الحياة. والفن يمكنه أن يصبح الحياة. يستطيع أن يصبح حياةً كاملة. لقد فهم هذا أخيراً.

قال له مولوام ذات يوم:

ـ إنك تأخذ كل شيء على محمل الجد تماماً.

ـ الفنّ هو حياتي.

امتداد الاحتمالات لامتناهٍ. كان بوسعه أن يضيف، لكنه اكتفى ببضع كلمات: "ألا ترى ذلك؟" لا، فصديقه لم يكن يرى بعد. وكيف بوسعه أن يفعل ذلك؟ بوجهه الضائع في الحديقة المذهّبة التي صنعتها يداه، وبين الحيوانات التي أعادت موهبةُ نيبو اختراعها. إنه في بحثٍ دؤوب عن أشكال جديدة، بينما يكتفي زملاؤه بالتكرار. يبحث عن وجوه غير معروفة ورؤى لا يرقى إليها الشك. يريد حيوانات حلم بها دون أن يراها من قبل. وتلك الحيوانات التي تخيّلها حتى في أحلامه فقط يريدها أيضاً. سرعان ما انتقل إلى الرموز لأنه فكّك ما يكفي من العناكب لكي يربطها بالطيور، وغاص ما يكفي في أعماق الثعابين لكي يكتشف بنيتها في الكلاب.

ذات يوم، نحت ثعباناً برأسين وسط ذهول من في المشغل جميعاً، ولاسيما رفاقه الأكثر ثرثرة. كان نيبو متقدّماً على زملائه كثيراً. وأضاف رؤاه إلى مجموع رموز باموم لدى مونليبير، وبعد ذلك بقليل شوهدت كلاب بخمس قوائم تخرج من مشغل المهندس العجوز، وخيول برأس بشري، وبشر مجنّحون، ونعم، نعم، وحيدات القرون. ولمّا كان نيبو لا يتبنّى الأشكال التي أبدعها، كان معلّمه يقدّمها للسلطان على أنها من اكتشافاته هو. ومع ذلك كان الحدّاد العجوز ينظر إلى متدرّبه الجديد نظرة إعجاب شديد.هو أكثر من أي شخص، يفهم النداء إلى الجديد الذي يحكّ أصابع نيبو. وطوال عمله كمعلّم فنان لم يصادف قطّ شاباً يعمل بهذا القدر من الدأب، ويتفوّق علة نفسه بقدر كبير من السهولة.

قال له ذات يوم:

ـ يبدو أن الشيطان قد امتلك يديك يا بني!

وكان ذلك قريباً جداً من الحقيقة.

- 4 -

محـادثـات المشغل

نيبو يحلم بقوة، ويرى فومبان بتفاصيل شوارعها. تذكّر بيت الهوى الذي أرقه في أثناء ثورة غضبه المنتقم. تذكّر غرفته وهو جالسٌ على الأرض بين ساقي صديقته. شعر بركبتيها على كتفيه وبتنفّسها على رقبته، ومئزرها الأحمر يغطّي نهديها. بدقة هائلة ضفرت شعره، لأن شعر نيبو أصبح غزيراً جداً. وقد قسمته إلى أجزاء صغيرة أخذت تمشّطها وتقلبها الواحد تلو الآخر بين أصابعها. وفي الوقت نفسه تغنّي له في أذنيه لحناً يقلّص من حركاته وينزع منه كل قوة. استيقظ مبلّلاً بالعرق. لم تكن نغونغور في أي مكان. لمس رأسه وارتجف. كان شعره مضفوراً، والمفاجأة المذهلة، أنه وجد حول خصره مئزراً أحمر. أثاره ذلك كثيراً بحيث اضطرّ إلى إنهاء انتصابه بيديه.

لماذا خجل فجأةً؟ هو الذي مشى طوال حياته عارياً عبر المدينة لم يتخيّل أن إظهار عريه ذات صباح سيجلّله بالعار. وهو الذي رأى عشرات المآزر النسائية تسقط عند قدميه ما كان ليظن أبداً أنه سيكون بحاجة مجنونة إلى يدي هذه المرأة التي تغطيها الملابس؛ وأنه بحاجة إلى يديها لتُحيي جسده؛ وأنه سيحتاج إلى سماع صوتها في جوف أذنه ليستيقظ للحياة. لقد شعر بالخجل لأنه أدرك فجأةً أنه يشعر بالألم. وقف مذهولاً أمام الاكتشاف المربك لنزوات رغبته، وبات عجزه يزعجه. ومع ذلك لم يستطع أن يصدّق أن نغونغور ضفرت شعره ليلاً لتختفي عند مطلع الفجر، لا. آه، لولا زملاؤه في المشغل الذين جعلوا حياته أكثر صعوبةً، لفكّر بأسرار ليلته زمناً أطول!

سأل مولوام نيبو عندما رآه يدخل من باب الفرن:

ـ هل ضفرتَ شعرك؟

ردّ ابن برثا ببرود:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير، سيد باميليكيه!

وقف نغباتو على موجة صديقه المستفِزّة نفسها؛ وحده حلم نيبو ترك النحّات مجرّداً من الطاقة. لو ظن أن الدغل يمكن أن يكون مقبرة للهروب، لكذّبته أحاديث زميليه التافهة.

قال مولوام:

ـ دجو، لا بدّ أنك عاشق، أهي فتاة النهر نفسها؟

ـ إنها من باميليكيه، أليس كذلك؟

ـ لا، بالأحرى من الباموم.

ـ متى الزواج يا دجو؟

ـ عودة إلى فتاة باموم الآن؟

ـ انتقام باموم.

وضحك نغباتو ومولوام معاً. ثم سأل مولوام، بعد أن هدأ فجأة:

ـ فتيات باموم يمارسن الحب بشكل جيد، أليس كذلك؟

فكّر نيبو وهو يهزّ رأسه: "ماذا يعرف هذان التافهان؟"

حتى لأمه لا يقول من ضفر له شعره، ناهيك عن أن برثا نفسها حذّرته من "التسريحات المجنونة"، ونصحته بألاّ يمارس حرياته الممنوعة مع أمَوات فومبان.

ردّ بكل بساطة:

ـ ولكن الفنانون؟ وأنا فنّان!

على العبيد أن يُبقوا رؤوسهم حليقة. ومع ذلك لم تكن هذه هي النقطة الأهم. السبب الذي من أجله لم تلحّ برثا عليه هو أن نيبو كان يقدّم نفسه لأمه طبعاً على أنه فنّان. وقد باركت الأم الرؤوم خياره. لأن مهنة الفنّان لا تُبقيه على مقربة من القصر فحسب، أي بقربها، بل إنها تنتزعه من الافتراس الاستعماري

أيضاً. أضاف نيبو إلى زيّه ثلاثة عقود من اللؤلؤ وأقراطاً. كانت تلك هي الأعمال الوحيدة التي تبرهن على موهبة أصابعه، طبعاً بالإضافة إلى لباسه الموحّد كفنّان. لم يحدّث معلّمَه عن حلمه الليلي، لكنه سأله عما هي طبيعة الحقيقة. فأجابه مونليبير وهو تائه في أفكار بعيدة:

ـ الحقيقة؟ الحقيقة تحتاج إلى أن تُخبَّأ، وإلا فإنها ستُعمينا.

ـ تُعمينا؟

ـ نعم، نعم. نحن كفراشات يا بني، والحقيقة مصباح.

وجب على نيبو أن يردّد هذه الكلمات. وبوصفه ابناً حقيقياً لأمه، لم ينظر قطّ إلى عيني معلّمه. لأول مرة يبدو له الرجل مسنّاً، مسنّاً جداً. كان مونليبير رجلاً عجوزاً سحقته أعباء التجارب المتعدّدة وسنوات العمل. ولاحظ نيبو أن معلّمه يغمض عينيه حين يتكلّم عن الفنون. هل كانت هذه عادة اكتسبها في مشغله الخانق دوماً بسبب الدخان؟ وبدا صوته هارباً من قبر، من مشغل غامض، من مصنع الحدّادين الدهري. كان وشوشةً، ولكن كانت كل كلمة من كلماته تحمل خاتماً فولاذياً. وكان النحّات يقبلها بامتنان. لو كان يملك دفتراً صغيراً لكتب هذه الجمل لكي يعيد قراءتها فيما بعد ويفكّر بها أكثر. إنه يريد أن يهضمها بجرعات صغيرة.

أضاف مونليبير:

ـ إذا دنت الفراشة من المصباح فإنه يحرق جناحيها، أليس كذلك؟

وكرّر نيبو:

ـ نعم، إنه يُحرق جناحيها.

ختم المعلّم:

ـ إذن يجب أن يكون المصباح مغطّى لكي يحمي الفراشات.

ـ لكي يحمي الفراشات.

ران صمت طويل، طويل جداً لم يحاول نيبو أن يقطعه. ثم أضاف مونليبير:

ـ ولكي يحرق المصباح يجب أم يكون محمياً من الريح.

وردّد نيبو:

ـ من الريح.

ـ نعم، نعم.إن غطاء الفن هو الذي يجعلنا نرى الحقيقة.

وران صمتٌ آخر.

ـ وهذا ما يجعل الحقيقة تسطع.

فجأةً، تذكر نيبو الجمل المختلفة جداً التي قالها مونلييبر يوم دخل إلى المشغل لأول مرة. لماذا؟ ألأن معلّمه تحدّث عن العمى في ذلك اليوم؟ فقد قال إن ملابس نيبو الأوربية ستعميه. ألا يناقض نفسه؟ لم يصرّ الشاب. إذن لم يُكتب شيءٌ من هذا؟

وأردف العجوز:

ـ لولا الغطاء لكانت الحقيقية هاربة.

كرّر الشاب:

ـ هاربة.

دون أن يُظهر بماذا يفكّر.

ـ نعم، نعم.

لأن الشاب فكّر بكل الأشياء التي عاشها. ولاسيما بفتاة الأنهار، وبجمالها الذي غاب عن نظره. فكّر بوجه نغونغور بعد الحب. ظلّ صامتاً للحظة، لأنه لا يستطيع أن يجد الكلمات ليقول بماذا لا يفكّر، ولأنه لا يريد أن يكذب أيضاً.

ـ إذن، أليس الفن سوى محاولة؟

ردّ مونلييبر:

ـ تجربة تماماً، لأن أي فن ليس كاملاً.

تلك هي الجملة التي انغرست في رأس نيبو، وثوَّرَتْه. كرّرها أكثر من مرة: "ما من فن كامل."

كانت هذه بداية فكرة أكثر تطويراً، وقد أضاف المعلّم: "لأن الفن تعبير عن إنسانيتنا الجريحة." لكن نيبو لم يعد لديه أذنان لسماع حِكَم معلّمه العجوز. تشتّت ذهنه بأفكاره الخاصة، وفي فوضى دماغه فرضت فكرةٌ أخرى نفسها في معركة مميتة انتزعته من فلسفة مونلييبر.

ـ لكي ترى بشكل أفضل، يجب أن تُغمض عينيك!

نعم، هذا ما قاله المعلّم، وكرّر نيبو: "أُغمض عينيّ!"

ـ لأن الفن انعكاسٌ لأحلامك الأكثر حميمية.

وكرّر نيبو:

ـ أحلام! أحلام حميمة!

ـ نعم.

"أحلامك"، هذه الكلمة لاحقته طويلاً، وكرّرها مراراً، وقاس وزن إمكانياتها، وعاد إلى عقله، ثمة حقيقة أرعبته حقاً: لم يكن متّفقاً مع معلّمه. قال:

ـ أنا أريد الكمال، الرؤية الكاملة.

ثم أضاف:

ـ أريد أن أفتح عينيّ لكي أرى.

ثم:

ـ أريد أن أعيد خلق ما أراه في أحلامي.

وأخيراً:

ـ أريد أن تصبح أحلامي حقيقية.

مصطلحات مبدئه الجمالي انثالت من روحه بآلية عصية على السيطرة. تلك الليلة غطّى نفسه بمئزر صديقته قبل أن يذهب إلى السرير. وحلم بها مرةً أخرى. كانت رائحة جسدها أقوى، وكان حلمة أقوى من السابق. حلم نيبو الحلم نفسه مراراً. أحياناً ينقطع حلمه ثم يُستأنَف في اليوم التالي. لم يتملّكه حلمه إلا أكثر. وبطريقة واعية. خرج من متاهة روحه مبلّلاً بالعرق، ومليئاً بالأسئلة لمعلّمه. بيد أن قدرته على الكلام بصراحة مع مونليبير العجوز حول امتلاكاته الليلية قلَّتْ شيئاً فشيئاً.

كيف إذن؟ لقد رأى نغونغور عن قرب لم تسمح له به من قبل. لم يرَ وجهها فحسب، بل أنفها ومنخريها. وتكونت لديه رؤية متناثرة عن صديقته، لأنه سرعان ما رأى يدها تتقطّع أمامه قطعة قطعة، من الأظافر إلى الراحة، ومن الراحة إلى المعصم، ومن المرفق إلى الكتف، ومن الكتف إلى النهد. رأى نهدها يرتفع إلى

المفصل بين الذراع والصدر. فكّر بتعبير مونليبير::الإنسانية الجريحة". للعجوز حجة قوية. عندها أدرك نيبو أنه لم يرَ نغونغور حقيقةً. ألا تُعمي المشاعر أمام بريق الحقيقة؟ أدرك أن صديقته لطالما فرّت منه، وإذ أغمض عينيه ليلاً، حلَمُ بها بقوة أكبر.

فكّر عند استيقاظه أن من حظّه أنه لم يتناقش مع معلّمه حول عري نغونغوز. ومع ذلك هو مقتنع أن هنا يكمن سرّ الحقيقة التي يسعى إليها كفنّان، وهذا يفصله فصلاً حقيقياً عن مونليبير. وذات يوم، رأى نيبو صورة لنغونغور بين الذور التي علّقها هير هابيش أمام محلّ المفاجآت الذي يملكه، ففكّر بأحلامه. لم يتصرّف كأولئك الأطفال الذين ينبهرون عند رؤية وجه أصدقاء، ولا كأولئك النسوة اللائي يشعرن بالوجل لدى اكتشافهن لأناس ماتوا منذ ومن طويل. ولم يتصرّف نيبو كفنّان يسعى إلى الأصالة. لم يشكر أسلافه لأنهم منحوه فكرة التصوير الفوتوغرافي في أحلامه قبل زمن طويل من رؤيته لصورة، أي قبل الرجل الأبيض. لقد حلّ له التصوير الفوتوغرافي بطريقة عملية مشكلات نظرية واجهها حتى ذلك الحين.

قصد نيبو هير هابيش لكي يردّ له الملابس التي اشتراها ولم يعد يلبسها. إنه يودّ أن يبادلها بشيء أنفع. أمام جاذبية الصور عرف ما يريد بالضبط. ومع ذلك فقد رفض التاجر السويسري أن يردّ ملابس نيبو الذي مع الأسف، لم يمنحه راتبُ متدرّب مبلغاً كبيراً. لم يبق للفنّان سوى أن ينحني أمام عرض الوجوه المتشنّجة. تملّكه الخجل أمام صورة نغونغور، ونظر حوله وقد حسب نفسه مكتَشَفاً من العصابة. لأن الصورة تقرّب وجه صديقته كما لو أن عاشقاً واحداً يمكنه أن يراه. الأشكال التي لم يميّزها نيبو إلا في الحلم هي جعلتها عمومية. الفارق الوحيد هو أن هذه الصورة بلونين: الأبيض والأسود. وهو لم يرَ صديقته بطريقة ثنائية الألوان.

عندما ذهب كانت ابتسامةٌ على شفتيه. فما رآه انحفر في روحه إلى الأبد. ابتسم لأنه إذا قبل طوعاً أن التقنية الفوتوغرافية لامعة، فقد فهم أنها محدودة رغم ذلك. إنها لا تبلغ الكثافة المفصّلة لأحلامه، ولكنها تزوّده بالجملة التي قالها لمونليبير العجوز. لذا لم يخب حين عاد إلى مشغله. هو يعلم أن عليه هو أن يعيد تركيب وجه صديقته بيديه، كما يراه في أحلامه. الأشكال الهاربة لجمالها، الجمال

المتغيّر لامرأة يقول عنها الناس الذين لم يروها إنها قبيحة، هذا ما يريد أن يلتقطه بفنّه، ما يسمّيه وجه سعادته أو وجه هنائه.

قرّر: "أريد أن ألتقط هذا الهناء".

ثمة قصص يجب أن تُقال فقط من أجل القصة نفسها: فقط من أجل القصة. وهذه واحدة منها.

- 5 -

عـــودة إلـى نغـوتـان وبـرثا

وبعد، لنقلب الصفحة! لننتقل إلى قصة نيبو الصبي، قالت العميدة، وهي تقصد: قصة سارة الطفلة، أي إلى قصتها هي. أوف؟ في عام 1931، كان مون بليزان حافلاً بقصص متاهية جداً، حتى مختلفة تماماً عن التي حدثت في فومبان، أو على أية حال في ألمانيا المحاربة. العالم ما يزال مفهوماً إذا ما نُظر إليه من ياووندي، والهموم الجماعية ما تزال صغيرة.

أصرّ صوت نغوتان:

ـ أزهار، أزهار وليس أوراق سلام، ليس أوراق سلام، أيها الأغبياء!

الصمت يتلو دائماً فرقعات صوتها. أليست على حق؟ وجب على ابنة السلطان أن تصحب عبدين إلى الدغل لتُريهما ما تريد، دون أية نتيجة. وفي اليوم التالي لم يقلّ رنين صوتها في الممرّات التي ملأتها في الليلة السابقة:

ـ قلتُ: ليس أوراق سلام! ألا تملكان آذاناً؟

وبعد يومين قالت:

ـ الأزهار لا تجذب الثعابين!

وكذلك لعلع صوت نغوتان:

ـ ألا تصدّقونني؟ الأزهار...لا تجذب...الثعابين!

لنغوتان الحق كلّه في فقدان صبرها! فقد رأتها سارة مرةً تقرّع عبداً تافهاً كان قد سقى في الليلة السابقة بماء ساخن الأزهار التي يحبّها نجويا كثيراً، ثم تركها تموت، نعم، تموت.

صرخت به نغوتان:

- ماذا فعلت؟ شاي؟

ثم أضافت:

- أليس لديك رأس؟

ولكن من هو الذي ما يزال يحتفظ برأسه في مون بليزان؟ ذات مرة، سمعت سارة فرقعة ضحكة في الباحة الكبيرة، وحين خرجت رأت إحدى نساء السلطان ترتدي ملابسها على الطريقة الأوربية، إنها تريد أن تخنق زوجها المريض بالضحك!

وأضافت:

- أو بالبكاء.

من نافل القول أن هذه المشاهد عند رأس المريض كانت تستهل حياة الجميع! فبيت القصص مكتظّ كفايةً ما يجعل أي شخص يُعني في معرفة سكّانه الحقيقيين، ومريحٌ كفاية بحيث أن كل واحد يشعر أنه في حيّه. ولكنه غريباً كفايةً بحيث أن فتاة مثل سارة فقدت فيه اتجاه طريقها، الذي على أية حال، قصةً بعد قصة وجب أن يوصلها إلى جسم نيبو، دون جعل برثا النافدة الصبر تنتظر. تلك الصورة المتخيَّلة أو المقولة أو المكرّرة أو المنسية، هذه العُقَد وهذه المهاوي كلها كانت آسرةً حتى لو أن الممرات التي يُقال فيها كل شي متشابهة تماماً.

كنتُ أستطيع أن أتخيّل، ومن لا يستطيع ذلك على أية حال؟، أن قصة برثا منحازة جداً بالنسبة لأذن طفلة، نعم. لاسيّما أن الأم الحانية، عندما تروي مثلاً قصة ولادة ابنها ذي التوجّه الفني، كانت مملوكةً بتفاصيل قصتها بحيث أن المستمعين صاروا زائدين. هي تريد بالتأكيد أن تكون الآذان حاضرة لتحدّثها عن تيه وعي نيبو الفنان؛ وما لم تكن تريده هو رقابة طفلة في التاسعة. إذن روت قصة نيبو كما لتجلد نفسها مرةً جديدة، كما لتتذكّر جسدها بالعذاب الذي عاشته من قبل؛ ولتنجو من رعب حياة ماضية. إن رواية قصة نيبو يعادل ألم الولادة.

برثا ليست بحاجة إلى مستمعين! فالتعاطف فضيلة الأم؛ وهي ليس لديها أي تعاطف، ولاسيما عندما يتعلّق الأمر بنيبو. كانت ترفع يدها لتضرب الصبي عندما يعود متأخّراً من غرفة السلطان. من يصدّق أن بداية قصة هذه المرأة ستكون

نهاية عنفها؟ لزمن طويل لم تعد ترسل "ابنها" ليجلب السوط من الدار لمعاقبته. ومع ذلك فقد استأنفت طرقها القديمة حين قال لها نيبو ذات مساء إنه لا يرى الوقت يمر. برثا سمعت أفضل اعتذارات من طفل! وأخذت تصرخ:

ـ هل تريد أن تخدعني؟

ما إن يندلع غضبها حتى يأخذ وقتاً طويلاً لينطفئ. قالت محمرّة العينين:

ـ أنت مثله. ما أنت إلا مثله.

كانت تتحدّث عن نيبو الآخر بكل تأكيد، عن الشاب العاشق حتى الجنون، عن الفنان، عن المتدرّب، وتركّز على ال"هـ"، بينما كان عذابُها يضيء نظرتَها.

قالت:

ـ أناني، أكبر أناني في العالم!

كنارٍ حارقة، تنشّط غضبها بكلماتها، مع الرؤية المتعدّدة لهجرانات نيبو، وأضافت:

ـ فرد، لا كيان!

وأضافت العميدة: قولي إذاً لبرثا أن قصتها تغتصب روح فتاة! قولي لها، بالنسبة إلى سارة، إن الاستماع إلى القصص التي تُقال عند رأس السلطان الصاحي، أفضل من الاشتباه في تحوّلات وجوهِ ميتةٍ، وتعالي أخبريني إن استطعتِ تهدئتها!، آه، لكل قصة حدود.

وأضافت برثا:

ـ أنتَ لستَ أفضل منه، أبداً!

هذه المرة الصبي الذي تمسك به بين يديها لم يدَع السوط المصنوع من البامبو يرتفع فوق رأسه.

هدّدت برثا:

ـ إذا تحرّكتَ.... سأقطع خصيتيك!

ونيبو ليس له خصيتان.

كرّرت الأم الجافية:

ـ قلتُ إذا تحرّكت...، نيبو، عد إلى هنا!

ولم يعد الصبي.

ـ نيبوشادنيززار، عد إلى هنا!

هرب نيبو بعيداً، فهو يعرف أبعاد غضب الأم القاسية التي ملأ صوتها أرجاء الفناء، وهي تصرخ:

ـ يا إلهي، لماذا خلقتَ جرذاً كهذا؟

سارعت عدة أصوات لتهدئتها:

ـ الأطفال هكذا!

ـ انسي هذا!

ـ أطفالي...

يرثا لا تريد أن تسمع قصصاً لا تتكلّم عن ابنها، نيبو، قصصاً لا تعنى بأمومتها. لا زيادة! إنها تصرخ من ألمها بأعلى صوتها:

ـ لكنّي أريد أن أعلّمه احترام ما تقوله أمّه!

وافقتها الأصوات جميعاً.

ـ نعم، بيّني له!

ـ اضربيه!

ـ يحتاج إلى هذا.

ـ أتريدين سوطاً؟

ـ هذا يعلّمه الاستماع.

ـ نيبو، أين السوط؟

ـ يجب على الأبناء أن يحترموا أهاليهم.

ـ من أخذ سوطي، آه؟

ـ عليكِ أن تعلّميه أن يحبّك.

ـ علّميه الحب!

ـ أين سوطي؟

ـ أنا واثق من أن المتدرّب لديك أخذه.

ـ هذا سوط، قلت.

ـ الأطفال هم هكذا.

ـ كانوا يريدون أن يخبّئوا سوطي.

ـ قلتُ لكِ أني وجدتُ سوطي.

وقال أحد الأصوات:

ـ هذه الياووندية، هذه الياووندية جعلت أبناءنا مجانين.

كان رجلاً أصلع، واسع اللحية هو من تكلّم، الرجل الذي بحث عن سوطه بطريقة متوعِّدة. إنه نجي شوا، النجّار الذي تُرعب لحيتُه الأطفال دائماً. وهو معروف بعنفه الغاضب. لا أحد يناديه أبداً باسمه بلغة الشوموم، لابونت، لأنه يتصرّف دائماً كرجل جلف. يجلد متدرّبيه كثيراً بحيث أنهم يبولون في بناطيلهم، لأتفه الأخطاء في الهندسة.

ذاك اليوم، حين عاد نيبو إلى برثا، محمرّ الأذنين من الشد والعينين من البكاء، عرفت الأم الحانية من ضربه. سرعان ما وجدت نفسها أمام باب ورشة نجي شوا حيث أشار الصبي إلى مسكن معذّبه. وجدت نفسها، نعم، أمام بيت الرجل الذي لا يجرؤ أحد على النظر إليه مواجهةً، صرخت:

ـ نجي شوا، من طلب منك أن تضرب ابني؟

أجابها صمتٌ.

ـ لماذا لا تضربني، أنا أيضاً؟

صمت.

فقالت أمام صمت المطبِق:

ـ مجرم! قاتل!

ومشت عبر الباحات الساكنة، ثم قالت لوجوه المتدرّبين الذين ينظرون إليها مرعوبين جداً من النجّار وهم أعجز من أن يعبّروا له عن موافقتهم:

ـ إنه الحظ العاثر أم ماذا؟ إنه لا يستطيع أن يعلّم نساءه، فيعمد إلى تأديب ابني!

كانت غرفة نجويا مليئة بالقصص العجيبة. دروب ملتوية عبر حيوات غير متوقّعة، جنة من المفاجآت للأطفال! آثر الزوار جميعاً أن يطيلوا مكوثهم. ما عدا

برثا؛ نعم، ما عدا برثا. ومع ذلك، في أحد الأيام دخل ابنها إلى غرفة الحاكم ورآه واقفاً، واقفاً بكل بساطة، وليس راقداً في سريره، قالت سارة. الطفلة البكماء آنذاك، كانت ستصرخ، نعم، وترمي كل ما تمسكه بيديها. أشار لها السلطان أن تصمت، فهو يريد أن يفاجئ مجموعته. وكان يحب أن يأخذ محيطه على حين غرّة. ولعب نيبو اللعبة، وحمل نفايات السلطان إلى الخارج، متمّماً وهو يرتعش المهمة التي أتت به إلى هنا.

ثمة أسرار ثقيلة جداً على جسد صبي: في الخارج، سعل، والنفايات التي ينقلها انسكبت على قدميه، مغطّيةً بالبراز العبيد الممدَّدين أمام باب نجويا. نهضوا مرعوبين، ولم يُسكتوا غضبهم إلا بعد أن زمجر صوت نغوتان فجأةً. وبدءاً من صرخات صبي خبيث، إن صوت ابنة السلطان هو الذي ملأ الممر:

ـ هل مشى؟

لقد رأت هي أيضاً، ولكنها ما تزال ترفض أن تصدّق أن نجويا هو الذي نهض لكي يقف بالنافذة. كلّمت العبيد، فاضطربوا وارتبكوا.

ـ هل مشى؟

سألوا بدورهم:

ـ هل مشى؟

وحدها ابتسامة نجويا أجابت الجميع. وأرادت نغوتان أن تستزيد:

ـ هل مشى حقاً؟

وسارعت إلى فتح نافذة الغرفة، ويدها على شفتيها أطلقت صرخة فرح نساء باموم:

ـ وويديديدي!

وعندما علمت الحقيقة، ركضت في الممرات وضاع صوتها في الفناء الكبير، وصوتها مأخوذ باهتزاز رؤيةٍ تنتظرها منذ أسابيع، بل منذ أشهر.

ـ ألاريني مشى!

ثم تحوّل صوتها إلى عديد من صرخات الفرح:

ـ لقد مشى!

ـ فران نجويا يمشي!

ـ السلطان يمشي!

صدى هاذا الصوت المنطلق من غرفة نجويا لم يوقظ مون بليزان فحسب، بل نسيميونغ وياووندي بأسرها.

مئات الأشخاص الذي يملؤون أبواب السلطان، كل أولئك الذين انتظروا بفارغ الصبر إشارة تدل على حياة سيّدهم المريض، بدؤوا يرقصوا على صرخة نغوتان. بعضهم ركضوا إلى داخل بيوتهم، وبعضهم خرجوا منها، وكلّهم انضمّوا إلى غناء الكون:

ـ وديديديديدي!

لم تكن الصرخةُ التي تملّكت في ذلك اليوم مون بليزان في دوّامة استعراضه صرخةَ نغوتان فقط، بل صرخة بلد بأسره، وصرخة قارّة بأسرها:

ـ إنه يمشي!

ـ إنه يمشي!

إنها صرخة حادة اخترقت عروق المدينة المندهشة وتدحرجت حصًى حية على منحدر الهضاب آسرةً حتى أسماك النهر:

ـ وودي... وودي.... وودي... وودیدیدیدي!

- 6 -

جــرأة متـدرّب أمـام معلّمـه

عندما كان نجويا في فومبان، ما كان ليضع قدمه في قصره دون أن يراه عامراً بالحياة. عشرات عازفي الفلوت، ومثلهم من ضاربي الطبول والمدّاحين يحوّلون كل خطوة من خطواته إلى مشية أسطورية. ترمبيتات كاكاكي تتداخل، وآلات الأوبوا ألاشيتا، وأجراس تدخل في المنافسة، توقّع مشيته. وعلى الرغم من هذا الضجيج كلّه، أخذ يمشي في شوارع مدينته على إيقاعه. وكان يذهب أحياناً إلى سوق البهارات، وسط آلاف العطور، تتصاعد وديديديديدي من جمهوره النسائي، ليستعلم عن ثمن زيت النخيل والفلفل والشيلي والزنجبيل والأوراق المرة، كما لو أنه امرأة. يقف أمام بسطة ويطرح أسئلة على بائعات الملح وعن تجارتهن، وعن أحوال أسرهن أيضاً. ويدخل إلى باحات البيوت ويدَع الأطفال يأتون ليقولوا أسماءهم وأحلامهم المستقبلية، إذ يسألهم:

ـ ماذا تحب أن تصبح؟

ردت طفلة:

ـ معلّم.

وقال صبي:

ـ نسّاج مثل أبي.

ـ فاخوري.

ـ خطّاط.

ـ شرطي في القصر.

وبعض الأطفال يصمتون خجلاً. وأحياناً يعلن أحدهم أنه يريد أن يصبح سلطاناً، ما يثير ضحك الجميع، حتى نجويا يضحك ويقول لهم:

ـ يجب أن تتخيّلوا مستقبلكم بحيث يكون ممكناً. لا تدَعوا أحداً آخر يفكّر بدلاً عنكم أبداً!

فيصمت الأطفال أمام هذه الحكمة. ثم يسألهم:

ـ ماذا قلت؟

فيكرّرون كما في المدرسة:

ـ لا تدَعوا أحداً آخر يفكّر بدلاً عنكم أبداً!

فيبتسم السلطان ويضيف:

ـ الأحلام سلة كنوز لا تفنى.

وثم:

ـ لا تريدون أن يسرقها منك أحد اللصوص، أليس كذلك؟

ـ لا، ألاريني!

ـ ولا مستقبلكم، أليس كذلك؟

ـ نعم، ألاريني!

فيسأل أحد الأطفال الذي تُظهر عيناه التهديد الذي يتحدّث عنه السلطان:

ـ لماذا؟

ـ لأن مستقبلكم هديتكم لنا جميعاً، يا بني.

كما يذكّر السلطان الأطفال بأن بوسعهم أن يحلموا بالعالم من جديد، ويعيدوا صنع مستقبلهم كل يوم.

ثقل أفكاره يسحقهم! ومع ذلك لم يقاوم أحدٌ منهم سحر كلامه:

ـ إذا لم تحلموا وأنتم أطفال، فماذا ستفعلون عندما تصبحون كباراً؟

ممر الفنّانين أحد المقاصد المفضّلة لدى السلطان. فنْجويا يحبّ الفنّانين في أثناء عملهم! يصبح شخصاً آخر في المشغل، يعطي نصائح للحدّادين والخزّافين؛ يحدّثهم كما لو أنه واحد منهم؛ وكان واحداً منهم. يراقب حركة أيديهم وسرعة

حركة أرجلهم مع الآلة. ويعطيهم اقتراحات حول اختيار المواد والألوان، وحول طريقة صفّها ومزجها.

لطالما شكّلت تلك الزيارات مصدر فخر لمونليبير، سيّد المكان. فيصعد الشارع الرئيس وينزله وهو أكثر خفّة من المدّاحين الذين يحيطون بالسلطان، ويرقصون في ظلّه وأمام خطواته، وكلٌّ منهم يُلبس حركاته الصفات المتنوّعة: ويزيّن السماء بروعتها.

في إحدى تلك الزيارات قام نيبو بما لا يجب أن يقوم به: فقد خرج من بين الجمهور وارتمى على أقدام السلطان، وقال:

ـ أريد أن أعمل في القصر، ألاريني!

وحدها طيبة نجويا حَمته من التمزيق بسواطير الشرطة، لأن حركته المفاجئة خرقت البروتوكول. وطلب السلطان من حرّاسه أن يُنزلوا أسلحتهم.

فقال نيبو متلعثماً:

ـ أريد أن أعمل من أجلكم.

كان ابن برثا يتكلّم من خلال الغبار الذي انبطح عليه، فلم يكن كلامه مسموعاً. وحين ساعده حارسان على النهوض، وهما يمسكان بيديه، كان شعره المضفور معفَّراً بتراب فومبان الأحمر، وبدا بمظهر عرّاف. كان نيبو يعلم أن حركته لا سابق لها في المدينة، ولكنه يعلم أيضاً أن حركةً غير عادية يمكنها، وحدها، أن تحرّره من مشاغل ممر الفنّانين، ومن معلّمه بصورة خاصة. علم فيما بعد أن حرّاس القصر لم يقتلوه بفضل شعره المضفور. فقد حسبوه بائع أعشاب طبية وتوقّعوا أن يعطي رؤاه حول المستقبل.

قال مونليبير متوسّلاً وهو يحرّك يديه أمام الحرّاس المتوعّدين:

ـ ما هذا إلا مجنون، إنه متدرّب عندي!

القضية أصبحت أكبر من كلماته! ونيبو لم يُمضِ إلا سنتين في مشغل المعلّم ويريد أن يكمل طريقه. لم يكن هذا الخيار عادياً، ولكنه فرض نفسه. ولكنه فرض نفسه. في مشغل مونليبير تعلّم الصبي التقنيات الممكنة كلّها، وقلّ لديه ذلّ إخفاء ما يولد في أحلامه لاسيما أن السلطان قد افتتح مشغل قصره الجديد! وكان هذا

المشروع مهمّا بالنسبة إلى كل فنّان وإلى كل حرفي طَموح وكان السلطان نفسه أو معلّمو العمل قد اختاروا مَن يعملون فيه. ومولوام ونغباتو اللذان لم تكن ثرثراتهما ضارةً هذه المرة، واللذان لا يكنّان الآن إلا الإعجاب بيدَي نيبو، وجدا أسماء تفضيل فصيحة كفايةً لإثبات أن القصر الجديد سيكون مكان تفتّح موهبته.

مما لا شك فيه أن كل ما صُنع في مشاغل مونليبير مخصّص قبل كل شيء للقصر، ولكنّ هذين الصبيّين أفهما نيبو أن ذلك مختلف عن العمل مباشرةً في القصر. إنها مناسبةٌ للتعبير عن النفس كلّياً، حلم كل فنّان حقيقي، لأن مشغلاً فسيحاً جداً هو المكان المثالي للتجرّؤ على القيام بالتجارب الأكثر جرأةً. ويرى نيبو أن هذا يعني أيضاً التحرّر من ناصحَيه اللذين يعرف جيداً جداً وجهيهما الكالحين. ومع ذلك، الحقيقة هي أن فعل نيبو عجَّل به الغثيانُ الذي أصابه يوم رأى ثعبانه ذا الرأسين معلّقاً على باب القصر. ففكّر بخيبة: "لم يخبرني مونليبير عن ذلك!"

لم يطالب بالأبوة الكاملة لهذا العمل الذي لم يكن ممكن التحقيق لولا نظريات معلّمه، حتى وإن اضطرّ إلى دفع هذه النظريات إلى أقصى حدودها بخياله وحده. كانت تلك القطعة تلمع، نعم، بكلّ ما تعلّمه في مشغل مونليبير. بطريقةٍ معينة، كان عملاً بوسع المعلّم العجوز أن يقدّمه على أنه عمله، حتى وإن لم يمسسه بيديه. إنه انعكاس لأفكاره حول الفن، حتى وإن نُظر إليها انطلاقاً من منظور لم يستكشفه حقّاً. فالطريقة المتعقّلة تسيطر أكثر فأكثر على يدَي نيبو، وقادته إلى صنع منحوتة كهذه.

همس:

ـ إنه لي!

انتابه شعور غريب، شعور يراه مهيناً. ومع ذلك، حتى عندما عاد إلى البيت لم يستطع أن يمتنع عن القول لأمه التي روى لها الحدث، وأرادت أن تلطّف ثورته الفنية:

ـ إنه لي!

بعد هذه الواقعة، توقّف نيبو عن التكلّم في علم الجمال مع معلّمه. واكتفى بمراقبة مونليبير وهو يعمل، ويبتسم للعينين المغمضتين دائماً وللـ"نعم" التي تملأ

لغة العجوز. كان ابن برثا يعلم أن هذا المعلّم لا يستطيع أن يرى الواقع إلا من زاوية مكبّرة. ومع ذلك، لا أحد يعارض معلّمه؛ بل يتركه. المسألة هي أن العبد لا يملك هذه الحرية. فالدخول إلى هذا المشغل يعني قبول سلطة سيّد المكان. هو وحده يستطيع أن يحرّر متدرّبيه، أو شخص يملك سلطة مساوية لسلطته أو أعلى منها. كان ظرف الصبي يمنعه من إيجاد محرِّر كهذا في فومبان. فكان الحل الوحيد أن يرمي نفسه على قدمي السلطان كما أوحى له مولوام ونغباتو. يعلم نيبو أنه بذلك يخترق ألف حدود تابو، وكان محظوظاً. فذلك اليوم، بدلاً من معاقبته، قبِل نجويا رجاءه وعهد إلى نجي ماما إدارة مواهبه.

التقى بفنّانين آخرين في القصر، وهم الأفضل في البلاد بأسرها، بل وفي العالم: من الفولبيه والباميليكيه، والألمان أيضاً ممن شاركوا في بناء القصر! دُهش نيبو من السهولة التي بها بلغ هؤلاء الرجال قمماً لم يحلم بها قطّ، وأقاموا علاقات حيث لم يرَ أية علاقة. وكان ينمو لديه انطباعٌ أحياناً بأنه عاد طفلاً يلعب بالصلصال دون أن يعلم أن كل ذرّة تراب يمكن أن تولّد رجلاً.

وهكذا اكتشف عظمة، لا، بل عبقرية نجي ماما وأخيه الشاب إبراهيم، المعاونين الأكثر قرباً من السلطان. ويقال إنهما ينامان كلّ إلى أحد جانبي الحاكم، وإنهما "توأميَ روحه". وتقول بعض الألسن أن نجويا يفضّل أن يتقلّب في نومه إلى جهة نجي ماما. وهذا الرجلان هم الوحيدان اللذان رافقا السلطان إلى بويا في عام 1908، حين ذهب ليشرح رمزية الماندو يينو للألمان الذي تأثّر جداً بهذا العرش الأصيل للسلطان. ومهمتهما مراقبة أدوات البيض وتفحّص ما إذا كان بالإمكان استخدام بعض أفكارهم في الوصول إلى تصميم أعلى وأكمل لفن باموم. وحالف الحظُّ نيبو بأن أصبح متدرّباً عند نجي ماما، وسرعان ما تعلّم أنه لا يستطيع أن يُخفي أياً من أفكاره عن معلّمه الجديد.

ـ أعرف أنكَ أنتَ من صنعه.

نجي ماما هو من قال هذا عندما مرّا ذات يوم أمام الباب الكبير للقصر المزيّن بالثعبان ذي الرأسين. وكرّر:

ـ أعرف أنك أنت!

لم يُجب نيبو بطبيعة الحال، فأضاف نجي ماما وهو يداعب عثنونه ومُميلاً وجهه كعادته دائماً حين يفكّر:

ـ عمل رائع! إنه تحفة حقيقية!

رفض نيبو تبنّي عمله، كما يجب أن يفعل، وانطلق في مديح لمونليبير. ابتسم نجي ماما. لم يكن رجلاً كثير الكلام، ولكنّ كل جملة من جُمله من الذهب الذي يستخدمه الشاب في ممر الفنّانين.

أضاف المعلّم:

ـ لا تهتم! فمونليبير يعلم أنه ينتمي إلى المدرسة القديمة. وهو فخور بك.

لماذا التهب خدّا نيبو فجأةً؟ بيد أن نجي ماما طمأنه:

ـ هل تعلم أن الفنّانين الذين في سنّك المقبولين في القصر ليسوا كثُراً؟ وقلّة هم الشبّان الذين يأخذون الفن على محمل الجد مثلك!

لحسن الحظ أن إرادة الاعتراف التي شنّجت فجأةً بطنَ نيبو انحسرت أمام عادة نجي ماما التعليمية بأن يكرّر كلامه.

ـ بعض الشبّان فقط.

كان نيبو يمشي مقوّس الظهر. وكانت كلمات معلّمه بوزن فيل. وقال له نجي ماما أيضاً أنه لكي يصبح فنّاناً، فنّاناً حقيقياً، عليه أن يضحّي بشيءٍ ما. وأضاف:

ـ شيء ما تحبّه حقّاً، تلك هي حقيقة فنّك.

- 7 -

قصــــر الأحلام الممكنة كلّــها

بناء القصر الجديد مثير للإعجاب. وليست هذه الورشة هي الأولى التي شَرَع فيها فنّانو نجويا، ولكنها الورشة التي تتطلّب مواهبهم كلّها. وعلى الرغم من أنه مشروع عادي بمصاعبه وآلامه وأفراحه، فإنه يبقى المشروع الأكبر في باموم، أو بحسب كلمات السلطان نفسه: "في أفريقيا بأسرها"! أراد نجويا أن يكون قصره قصر الأحلام كلّها، تجمّعاً لأفضل أحلامٍ حَلُم بها أفضلُ معلّمي عصره.

وقعت حوادث، بطبيعة الحال، فعندما يسقط عامل عن الجدار الذي يبنيه، حتى وإن لم يمت، يتربّع الوجوم على الوجوه، ويُقال: "إحدى الأرواح دفعته"!

الرجل في ذاكرته، لم يفعل شيئاً سيئاً، ولم يرَ شيئاً إلى جانبه. ونيبو تذكّر كلام نجي ماما، عندما قال له فنّان إن موقعاً بهذه العظمة يتطلّب "تضحية كبيرة" ليبلغ الكمال، سقط من جديد.

تساءل ابن برثا بهلع: "هل جميع الفنّانين الذي اشتغلوا هنا ضحّوا بشيءٍ ما يحبّونه؟"

ومع ذلك، لم يكن يرى الورشة مكاناً كئيباً. فبالنسبة إليه، إن أشكال القصر المنتزعة من التراب تجسّد رؤية. ما يزال يعمل بدأب أكثر ليقدّم واقع أحلامه. وقد بيّن له معلّمه أن الفن أخلاق، وهذا كافٍ. وجه نغوغور السعيد فرض نفسه عليه كمبدأ موجِّه لأفعاله، وقبله بكل امتنان. لقد فهم أخيراً أن الطريق الواصل بين الأحلام والموت هو طريق القدر، ولكنه فهم أيضاً أن الفن انتصار المصير. كان يريد أن يكون فنّه ترميماً للحياة، ووصية حقيقية للحب.

ظهر الموت في باحات فومبان بطريقة غير متوقّعة. فذات يوم، عبر مراسلو القصر الساحات ليُعلنوا أن البيض يتحاربون. لم يفكّر نيبو ولا أحدٌ آخر أن العالم بأسره يتحارب. على أية حال، السلطنة تعيش في وئام تام مع جيرانها الباميليكيه والفولبيه، وفكّر: "لندَعْهم يتقاتلون، فالحرب ليست حربنا."

وهو الوحيد الذي فكّر هكذا. فمن يصدّق أن حرباً بين البيض، تنشب في جوار السلطنة يمكنها أن تُبقي باموم غير مبالية؟ وكان نجويا قد أعطى مئات الرجال لدعم صفوف الجنود الألمان، ويُحكى عن تجنيد مشابه في المستعمرات الإنكليزية، وبصورة خاصة في المستعمرات الفرنسية حيث الجنود الأفارقة المسمَّون قنّاصة والمشهورون بأنهم لا يخطئون أهدافهم أبداً. لم يكن ذلك للتأثير على رماة السلطان، بل بالعكس تماماً. نيبو يرى أن هذه الثرثرات الحربية ليست إلا شكلاً من الإشاعة. وما من أحد في فومبان يتصوّر أن حرباً بين البيض تتحوّل إلى معارك تدور بين جيوش من رجال سود. ومع ذلك، فقد ساعد أهلُ باموم جميعاً الألمانَ على حفر الخنادق حول عاصمة المملكة، وعلى إغلاق المداخل بأكياس الرمل، وابتسم أهل باموم جميعاً حين شرح لهم الضابط الألماني أن هذا "من أجل حمايتنا". "نحن"؟

ذات ظهيرة، شوهد العسكر الذين لطالما تصرّفوا بعدم احترام تجاه فومبان يركضون للاختباء في البيوت، ويصرخون وهم يتعرّون ليهربوا عراة:

ـ لقد وصلوا! لقد وصلوا!

ـ لقد وصلوا!

واختبأ الجميع أيضاً، ولكن أحداً لم يتساءل من "هم". كان الأمر الأصعب بكل تأكيد هو إخفاء هير هابيش، والمبشّرين غورينغ ورفاقه البيض. ولكن ذلك كان مضحكاً أيضاً، فللمرة الأولى يرى الباموم البائع هابيش، الذي لم يكن حتى ذلك الحين يتنفّس إلا الغطرسة، وهو يرتعد خوفاً كطفل. وحتى فراولين فوهرمان المعتادة على إعطاء الأوامر كرجل كانت ترتجف من خوف لم تكن تذيقه إلا لفتيات المدرسة الألمانية. فكّر نيبو: "العالم ينهار".

في ذلك اليوم لم يأتـ"وا". ولكن أحداً لم ينسَ الذعر الذي سبّبـ"و"ه. دامت حملة الكاميرون سنةً قبل أن تصل الحرب إلى فومبان فعلاً. أُمر نيبو أن يحمل

الطعام إلى الألمان المختبئين، فكان ذلك اكتشافاً بالنسبة إليه، فقد رأى البائعَ السويسري هير هابيش مسكوناً بيأس لا يعرفه لديه وهو جالس وسط بضائعه التي أصبحت ركاماً فجأةً لأنها تعيق الهروب.

ليكن، قال نيبو وهو مارٌّ، وهكذا حصل على صورة نغونغور التي ما كان ليملك الوسائل لشرائها. آه، للحرب فضائل! فطبَقٌ من ذُرة مع صلصة الفستق يكفي هذه المرة. ونقل هير هابيش بضاعته إلى سقيفة نجي ماما، تماماً قبل أن يُدرك أنـ"هم" لن يأتوا أخيراً. لم يغيّر هير هابيش قراره، لم يعد يُمضي لياليه في أي مكان إلا بين بضائعه التي كانت تُغري فومبان بأسرها. هناك، وسط المرايا والسترات والأحذية وزجاجات الويسكي، أوقفه الجنود الإنكليز أخيراً. لم يحتجّ، بل قال ببساطة:

ـ ستحتاجون إليّ أيضاً.

فردّ الجنود البريطانيون:

ـ لا تكن واثقاً إلى هذا الحد، أيها الصديق العزيز.

وقال للمدينة بأسرها:

ـ لا تخافوا، سأعود.

أخبرت فراولين فوهرمان الجنود أنها ليست ألمانية، بل سويسرية، إذن هي حيادية، لكن أحد الجنود كذّبها:

ـ أعتذر يا حبّي، فليس من حيادية في أفريقيا.

فيما بعد، غيّرت روايتها وقالت إنها بلجيكية، بيد أن الضابط الإنكليزي الذي عرضت عليه شجرة نَسَبها المعقّدة جداً، لم يستمع إليها، وسألها ساخراً:

ـ هل هناك من ألمان آخرين في المدينة؟

أزيز الرشاشات هو الذي أعلن دخول الإنكليز إلى فومبان، وكان ذلك في كانون الأول 1915. تصرّف نجويا كما تصرّف عندما قرع الألمان أبواب مدينته في عام 1902، وحين دخل الملازم هارتلر، نعم، إليها في عام 1903. لقد ذهب للقائه عند المدخل الرئيس مع حكومته بأكملها، والجنود وأطباق البَيض. لم يكن جنوده يحملون السلاح، ونصح السلطان سكّان فومبان بعدم إبداء أية مظاهر عداوة "للقادمين الجدد، لأنها ليست حربنا"، كما قال.

ومع ذلك، كان للإنكليز فكرة مختلفة جداً حول دخولهم إلى مدينة محتلّة. فقد رأوا أن ملء السماء بالنيران والأدخنة وأزيز البنادق، وأن هدم جدران القصر الذي كان قيد الإنشاء، بدلاً من قبول مسالمة حاكم المدينة، ستُقيم سلطتهم في وعي كل فرد، وتطرد ذكرى الألمان. وعندما سمع أهل المدينة أصواتاً لم يسمعوها من قبل تاكتاكتاكتاكتاكتاكتاك، سارعوا إلى الاختباء مروّعين الدجاج والكلاب. لم يُردَ أيٌّ جندي. ولكن جُرح شخصان فقط. وسقطت امرأة وهي تركض بعد أن دفعتها مجموعة من المذعورين، وارتطم إصبع قدم طفل بالحصى. آه، لقد نسيت، فقد قُتل كلبٌ أيضاً لأن جدار القصر الذي هدمته قنبلة يدوية إنكليزية انهار عليه وسحقه.

دخل الجنود الإنكليز إلى فومبان خلف آلاتهم الجهنّمية، وسط الأوعية المصنوعة من القرع المجفّف المقلوبة، والكراسي المكسّرة. وكانوا سوداً، وبعضهم هنود. وملابسهم مختلفة عن الزي العسكري. ويقود صفوفهم خمسة ضبّاط بريطانيين. أنفق رجال نجويا ساعات لإقناع أهالي فومبان بالخروج من مخابئهم لتحية الوافدين الجدد. وكلّ منهم رتّب فناء بيته، ونفض الغبار عن ثيابه وهدّأ من روع الأطفال الباكين. الكلب المسحوق لم يُعثَر عليه تحت الأنقاض إلا فيما بعد. ولم يكن إلا ضحية صغيرة. يجب القول إن أهالي فومبان لم يكونوا على علم بعد بالوحشية التي تحوّل البشر إلى غبار وتقوم بعمليات إبادة في خنادق فرنسا وبلجيكا وبعض أجزاء الإمبراطورية العثمانية.

اعتقل الإنكليز الألمان المختبئين وصادروا أسلحتهم، وشربوا صناديق هير هابيش من البيرة والنبيذ والويسكي احتفالاً بانتصارهم. وكسروا البَيض الذي أهداهم إياه نجويا، وطلبوا أفضل طعام عند الباموم لجنودهم. ككل الناس، رأى نيبو هير هابيش يغادر سقيفة نجي ماما ويداه فوق رأسه، وبندقية مصوّبة إلى ظهره، وله مظهر مجنون وهو معفَّر كلّياً بالتراب. ثم انضمّ إليه المبشّر غورينغ وزوجته وابنه وفراولين فوهرمان. إنهم يثيرون الشفقة. لم تحدث أية معركة في فومبان. الفوضى التي عمّت بلاد الباموم في ذلك اليوم، وبعثرت الدجاج وسحقت الكلاب وأبكت الأطفال، ستُذكر في كتب التاريخ تحت اسم الحرب العالمية الأولى.

- 8 -

فترة ما بعد الحرب في المستعمرة

- هل ستتركينني أنهي كلامي، يا بنيّتي؟

هكذا فرضت سارة كلامها. وشبّان نسيميونغ شهود عليّ: فمن المستحيل عليّ أن أوقفَ تدفّقها، وأقولَ لها ما وجدتُه في الأرشيف بخصوص والدها. الحقيقة هي أني سعيدة بأن أشرب من نهر ذاكرتها الأبدية. لم أفقد شيئاً بسكوتي لبعض الوقت. لقد خرجت سارة منهكة من ماضيها. ومن الصعب أن تستمع إليّ لحظة استراحة! ففي النهاية، لقد قرّبتني بحوثي من ولادتها بشكل مأساوي.

من بين جميع الأشياء التي أسف عليها جوزيف نغونو لدى عودته إلى الكاميرون بعد حرب 1914-1918-أريد أن أبلغه للعميدة-هو أن ضياع كتب شعره كان الأكثر كارثية. كانت تريده شاعراً، أليس كذلك؟ لقد قرّر أن "يعود إلى بلاده" كما قال دون أن يتوقّع أنها صارت مختلفة عن البلاد التي غادرها من قبل. فقد قُسّمت المستعمرة بين القوى المنتصرة في الحرب، الإنكليز والفرنسيين، ومدينته ياووندي، هي الآن تحت الاحتلال الفرنسي. ليس هذا هو الأهم بالنسبة إليه، أوه! بل الأهم هو أن يعود إلى مسقط رأسه، ففي ذهنه أن الأعلام الجديدة لن تغيّر رائحة الأرض بعد المطر. يبقى تراب البلاد أحمر، وتبقى لُزوجته أبدية. لونه العنيد سمح لنغونو بأن ينظر إلى حياته البرلينية عن بعد وبرخاوة. فبالنسبة إليه، المستعمرون يمرّون، بينما الكاميرون يبقى.

لم يخطر ببال المُحاضر في الإيووندو أن سنواته العديدة في الخارج، وفي ألمانيا بصورة خاصة، ستجعله مشبوهاً في نظر الفرنسيين. لقد أدرك متأخّراً جداً أنه لم يفتح روحه لامتداد العالم إلا من أجل العودة إلى بلدٍ ما يزال سجين الذهنيات الاستعمارية؛ وأنه لم يترك شوارع برلين، ويهرب من تهديدات أدولف وشذّاذ الآفاق

الآخرين إلا لكي يدخل في معتقَل. كيف تسنّى له الظنّ بأنه لن يغادر منزل المؤجّر إلا لكي يواجه مرةً أخرى استجواب الشرطة؟ آه، عندما عاد جوزيف نغونو استُقبل مباشرةً بنثر الحياة الألمانية الذي كان قد نسيه. "ملعونة هي الحياة في المستعمرة"، غالباً ما ردّد ذلك فيما بعد، ولم يكن هذا إلا انعكاساً لتجاربه لدى عودته.

لم يعد نغونو من السكّان الأصليين، وهنا تكمن المشكلة الرئيسة، ولاسيما بالنسبة إلى الإداريين المستعمرين الذي كانوا ما يزالون يرونه هكذا. كم مرة وجب عليه أن يسحق رغبته في الصراخ في وجه أحدهم، لا، في شتمه، لا، في لعنه بكل بساطة: "إلانغ! قفاك!"

أو أن يتصارع معه كما في برلين؟ كما حصل مع أدولف؟

وكم مرة رغب في أن ينتزع شارب ضابط مستعمِر فرنسي؟ آه، هنا وهنا، نغونو اكتفى بالتذمّر وهو يطلق شتيمته المثيرة للغثيان: "إلانغ نوزوت! قفاك نتنة!"

أو: "بيلوبو لوبو، غزاة!"

ما فاجأني هو أنه عاد إلى الكاميرون بدون زوجته. ولم أجد أية وثيقة تثبت منع هذه الأخيرة من الدخول إلى المحمية. ولن أفاجأ بذلك على أية حال، فالمستعمر يفعل كل شيء. بدأ المحاضر السابق علاقة عرفية مع امرأة أخرى تُدعى سالا. ومنذ عودته إلى الكاميرون، منحته هذه المرأة بنتاً هي سارة، ومن ثم صبياً هو كارل. ونغونو الذي كان شارداً حين قام الكاهن الكاثوليكي بتسجيل اسم ابنته في سجلات الكنيسة سارة بدلاً من سالا، فكّر بسنوات سعادته لحظة سمّى ابنه، وبصورة خاصة، باسم صديقه الأفضل شارل أتانغانا. وقرّر أن يكتب اسم ابنه بحرف "C" على الطريقة الإنكليزية، وليس "K" على الطريقة الألمانية. التقى الصديقان فيما بعد، في آب 1923، وروى كلّ منهما للآخر تجاربه المختلفة. وتذكّرا باستمتاع رحلتهما إلى ألمانيا. "آه، لقد كنا شباباً!" على سفينة من شركة فويرمان. وتذكّرا كل ما فعلاه، ولاسيما تجاربهما مع "النساء البيضاوات".

قال شارل أتانغانا مبتسماً:

ـ لقد تغيّرتُ!

وكان جوزيف نغونو ما يزال يراه زير نساء، فقال له وهو يسحب علبة سجائر من جيبه:

ـ حقاً؟ احكِ لي!

ضرب العلبة بظاهر يده وأخرج سيجارتين قدّم إحداهما لصديقه. ومع ذلك، فإنه هو، نغونو، من كان لديه أشياء ليرويها، لأن الرئيس لاحظ أنه فقَدَ إصبعين من يده. كعادته دائماً، وبكل تؤدة روى تفاصيل معركته في برلين، وأيقظ ذاكرة أدولف الذي وصف بدقة شاربه المدمّى.

واعترف شارل أتانغانا:

ـ وأنا أيضاً لدي قصص صعبة.

روى كيف فقد زوجته الأولى ماري بيلوا، في حادث سيارة بعد أسبوع فقط من عودتهما من إسبانيا. "أول حادث سيارة على الإطلاق في ياووندي، هل تتخيّل؟" واعترف أن ذلك الحادث قد غيّره. فقال:

ـ لقد قرّرتُ أن أصبح رجلاً وحيد الزوجة.

صمت طويلاً كأنما ليجعل منطقه أكثر شفافية. ثم أردف:

ـ والآن، قرّرتُ أن أتجنّب الحظ العاثر.

ألم تكن حياة جوزيف نغونو سلسلة من المصائب؟ فضّل والد سارة السكوت، وقبول صديقه، بل و"نسي" أن يقول له إنه تزوّج في هذا الوقت، وإنه تزوّج من "امرأة بيضاء". ونسي أيضاً أشياء أخرى كثيرة، وتبادلا عبارات باللغة الألمانية ليضحكا. في ذلك اليوم انفجرت نسيميونغ بأسرها ضاحكة لصداقتهما المستعادة، ولسعادةِ ثقةٍ خارجةٍ سليمةً من خنادق التاريخ الغاضبة. التقيا عدة مرات أخرى، وذات مرة غادر شارل أتانغانا حي صديقه وهو مدلَّهٌ حتى الجنون بأخت صديقه هذا. سرت الإشاعة بأنه كان إذ ذاك ثملاً تماماً، ولكن ما الفرق؟ لقد التقى بأصغر أخوات جوزيف سناً، جوليانا، التي رآها آخر مرة وهي "فتاة صغيرة بلا ردفين"، كانت صبياً تقريباً، تلعب بالبالون تحت المطر. واليوم أصبحت "امرأة جميلة صالحة للزواج".

ملأ الفرح شارل أتانغانا لأنه قرّر أن يصحب في ذلك اليوم نفسِه "عزيزته جوليانا" إلى كنيسة الأب فوغت لتحديد موعد "أمام الرب". لم يستطع جوزيف نغونو إلا أن يغتبط بتزويج أخته من أعزّ أصدقائه، وقبِل أن يكون شاهداً على زواجهما.

-9-

روح السلطان كتاب مفتوح، مكتوب بأبجدية غامضة

حدثت أمور قليلة جداً في مون بليزان. بيد أن وصول إبراهيم، شقيق نجي ماما، غيّر اهتمام نجويا. فهذا الرجل، وإن لم يكن من النبالة الأميرية، السوداء، ترك، بحسب أقواله هو، للدهماء حصتها من الغباء، باختصار، هو رجل يعلن أرستقراطيته بإمالة قبّعته وبعينيه الهرّيتين، نفخ في أوردة نغوتان قوة جديدة. ويقال إنها كانت ترتدي ثيابها بطرق معيّنة فقط لكي تثير غمزاته. وقد أسرّت لي العميدة أنها استعادت مشيتها الراقصة التي كانت في أوج ألَقها قديماً في فومبان. وإذا كانت لم تجد حتى ذلك الحين شريكاً يقيس نفسه بها، فمع إبراهيم شعرت فجأةً أنها امتلكت الرجل الذي أيقظ إحساسُه بالثياب غرورَها أكثر من أي شخص آخر. وفضلاً عن ذلك فإن المعلّم الخطّاط كان حبيب صباها. وأحياناً كان الاثنان يدخلان إلى غرفة نجويا، وكأنما أخرجا مسرحاً، ويقول كلٌّ منهما:

ـ أواأوه!

وسَرَت الشائعات بطبيعة الحال، لأن نغوتان تزوّجت من وزير عند والدها، بقي في فومبان. أما بالنسبة إلى نجويا، فقد كان لديه همومٌ أخرى. أخذ يتحرّك خطوةً خطوة ضمن نطاق عزلته مسنوداً من إبراهيم أو نجي ماما أو أي شخص آخر. الكرسي المتحرّك الذي صنعه الأب فوغت أحدث فارقاً في الطول، نعم. ولم يتحمّس أحد لاستخدامه العملي إلا نغوتان. كان يكفي السلطان أن ينهض من سريره! فتدفعه في ممرات مون بليزان. حتى المعلّمون أخذوا ينظرون إلى هذا الكرسي منهكين. استنفد مونلبيير معرفتَه كلَّها كحدّاد؛ واستدعى نجي شوا عقولَ

منشرته جميعاً؛ حتى نجي ماما انضمّ إلى جوقة الفنّانين! ومع ذلك فإن المقعد الذي صنعه هؤلاء الثلاثة بدا خطِراً على شخص يتعلّم المشي من جديد. البساطة المريحة لكرسي الكاهن تغلّبت على فخامة ردّهم للماندو يينو، العرش الخرافي.

لم يكن الرجال الثلاثة معتادين على الهزيمة، وسالت دموع من عيني مونليبير حين اختار نجويا في النهاية العرشَ المتحرّك الذي غطّى على بامومِ وعبقريتها، بحسب رأي المعلّم. إنها ساعة انتصار بالنسبة إلى الأب فوغت الذي أخذ يتحدّث عن مشيئة الله، وكرّر زياراته إلى القصر.

قال الأب فوغت:

ـ نعمة الله بلا حدود، لأنه الحب.

وصار يأتي إلى مون بليزان لا ليستعلم عن صحة المريض فحسب، بل على الأخص لأن الاثنين بدأا حديثاً حول الإيمان والخلاص من الخطايا يريد الكاهن أن ينهيه. كان سيُقال له إن حججه ليست إلا إعادة صياغة بائسة للطريحات والنقيضات والجميعات لاعتناق المسيحية ـ التي كان المبشّر غوريغ قد تبادلها مع نجويا فيما مضى-، وما كان كاتوليكياً ليستمع إليها. اشتعلت آمال الأب فوغت بجعل نجويا يعتنق المسيحية، لأن السلطان لم يعد ذلك الثلاثيني الذي لعب الشطرنج مع غورينغ، وجعله يقرأ له ويعيد مقاطع من العهد القديم بلغته. كما لم يعد، وكان الأب فوغت متأكّداً من ذلك، ذلك النجويا الذي جعل كتّابه في فومبان يكتبون مقاطع كاملة من الكتاب المقدّس، وهو يكتب من خلف ظهر المبشّر كتاب إيمانه الخاص.

ومع ذلك، كنا في عام 1932. فإن هذا النجويا، كما يعتقد الأب فوغت، رأى الموت بأم عينه، ولا أحد، ولو كان سلطاناً، يستطيع الخروج سالماً من هذا اللقاء. كان يكفي تمريره على طول ممرات بيته السلطاني، وعبر ساحات مون بليزان، وقريباً سيذرف الوثني دموع دينه الجديد. وكان المبشّر قد كتب من قبل التعميم رقم 113 الذي أعلن فيه "مستقبله الظافر"، ما دام واثقاً. وانتهى نصّه الطموح بكلمة "معجزة". "معجزة أيقظت هضاب نسيمونغ!"

وهاهم هكذا، السلطان جالس على كرسيّه المتحرّك، وخلفه يسير الأخَوان نجي ماما وإبراهيم كروحين. وها هما، نجويا والأب فوغت، قد كسبا مرةً أخرى معركة النور ضد الظلمات، والتي تترجمها لغةُ الاستعمار إلى صراع بين الحضارة والوحشية. كانت نغوتان تحضر حديثهما أحياناً (ومن غيرهما يمكنه أن يحكّم معركة كهذه)، حتى وإن لم يكن هذا إلا لتُجنّب والدَها جهوداً ضائعة في إبداء الحجج. آه، أليس من الحظ السعيد، أن يكون نيبو ملتصقاً بسلطانه حتى في هذه اللحظات الأكثر حميمية في حياته؟ وكذلك أليس من الحظ السعيد أن يكون هو من يروّح عن وجهَ السلطان في ساعات الجهد هذه؟ وهو من يحمل مظلةً ليقيه من الشمس؟

مرةً واحد نظر إليه المبشّر نظرة ريبة. ولم يقل أحدٌ لنجويا إن ذكاء ظلّه هو الذي أنقذه من الموت. عينا ينبو الصامتتان تدفعان قصته الخاصة إلى أعماق لا يغشاها أي حاكم. هل كان الأمر سيختلف لو أنه تكلّم؟ ظل السلطان ليس بحاجة إلى صوت. لا، المرؤوس لا يتكلّم، ولن يسمعه أحد على أية حال. حين اقترح الكاهن ذات يوم على السلطان أن يخرج من غرفته ليأخذ جرعة من الهواء النقي، تدخّل نجي ماما، فقد فهم خطة الأب فوغت، فقال:

ـ لا يمكن أن يُرى السلطان عارياً، فهذا ممنوع!

وكيف إذن؟ السلطان المريض عارٍ؟ الأمر بسيط، فسلطة نجويا ترتكز على الاستثناءات. إنها منعزلة ضمن حواجز خاصة شبيهة جداً بحواجز نبات العلّيق الذي يحيط بحي النساء في فومبان، حيث كانت تسكن نساؤه. حتى رؤيته وهو يشرب كانت ممنوعة. وحقّ النظر إلى شقته الحميمة وغرفته وسريره، ولاسيما إذا كان مريضاً وضعيفاً، يتطلّب بعض المزايا، وبالتالي فقدان أخرى. والأب فوغت يعلم أنه قُبل بالمصادفة في مكان لا يحقّ له أن يكون فيه، ولكنه رفض أن يُعارَض رأيه. فهو يعرف أن بياض بشرته يهدم كل الاستثناءات التي شدّها هذا السلطان حول جسمه طوال أربعمائة عام من السلطة. الاستعمار يرفعه على أحصنة يستخدمها عند الحاجة، وقناعته بأن ربّه يُريه الطريق تفرض هذه الغطرسة.

لم يكن نجويا في نظر الأب فوغت إلا رجلاً آخر، خاطئاً آخر. وفي النهاية، ألم يكن هو، الأب فوغت مرتدياً ملابس الطبيب، من أنقذه من الموت الذي كان

سيلاقيه لولاه؟ وكيف يمكن نسيان أن عرش السلطان الجديد ليس في الواقع إلا درّاجة تخدمه في نشر الإيمان وبذر المعجزات في أنحاء ياووندي؟ وحدها نغوتان كانت تقطع أحياناً عظاته المجنونة بحجة أن والدها تعب ولم يعد يستمع إليه. ويستجيب لها الأب فوغت، لأنه يرى أن أيَّ رجل لا يستطيع أن يخالف المرأة (حتى لو كان كاهناً أبيض). ولكن نغوتان نفسها لا تستطيع أن تقيس الأعماق الغريبة للتعب الذي أنهك جسد والدها. فلم يكن نجويا تعِباً فحسب، وتلك هي الحقيقة: بل كانت عقدة الذنب تنهشه.

لنفسّر ذلك: هناك كوابيس تطارد نجويا، وفي هذه الكوابيس كان يرى تكراراً نغوسو دين، سكرتير مانغا بيل ورسوله الذي كان قد سلّمه للألمان في بداية الحرب، والذي أُعدم مع معلّمه بتهمة التآمر. وهذا ما حدث: حين علم رودولف مانغا بيل، وهو الرئيس الأعلى للدوالا، والمحامي الذي تلقّى تأهيله في ألمانيا، أن الحرب قد بدأت، كتب مذكرة طويلة إلى الزعماء الكاميرونيين جميعاً لخّص فيها حججه بجملة: "الألمان سيخسرون الحرب." ولم تكن تلك مذكّرته الأولى، ولكنها كانت الأولى التي لم يوجّهها إلى الألمان. فقد كان مانغا بيل في صراع مع السلطات الألمانية منذ زمن طويل. وقد أمضى أشهُرَ ما قبل الحرب في كتابة عرائض إلى الرايخستاغ، وإلى البرلمان الألماني، وإلى النوّاب الألمان، بل وأرسل سكرتيره نغوسو دين إلى برلين ليكسب في العاصمة آذاناً مرحّبة لعدالة قضيته. لكنّ مشاريعه لم تلقَ النتائج المرجوّة، بل إن أبطال الديمقراطية في البرلمان الألماني، الاشتراكيين الديمقراطيين، رفضوا دعاواه. إذن كانت الحرب بالنسبة إلى مانغا بيل حظاً جديداً، ففي عام 1914 اتّجه نحو داخل الكاميرون وأرسل رُسلاً، هادفاً هذه المرة إلى إقامة تحالف للقوى الكاميرونية لطرد الألمان من "بلادنا". آه، يا له من تحالف! باختصار شديد، إنه لم يرَ النور، وكان نجويا أول دافنيه.

تعرّف السلطان إلى علامة سقوطه يومَ رأى في باحته أصدقاءه الألمان وهم مقيّدون تحت رحمة الإنكليز. في ذلك اليوم فكّر بنغوسو دين الذي كان قد تمرّد على خططه، ولم يأخذ بالحسبان أنه، هو نجويا، قد تحالف مع مشروع مهزوم. وأدرك في الوقت نفسه أنه أصبح خائناً لقضية ما تزال غائمة بطبيعة الحال، كان

مبعوث مانغا بيل قد سمّاها "بلادنا"، "الكاميرون" أيضاً. منذ ذلك الحين لم يكفّ نجويا عن لوم نفسه على قصر نظره المروّع! قال لنفسه هل كان يجب عليه أن يستمع بانتباهٍ أكثر لأخبار الصحف التي قُرئت له؟ وهل كان عليه بكل تأكيد أن يستشفّ هزيمة الألمان بالوضوح نفسه الذي أقنع مانغا ابن بيل؟ ولكنه لم يكن يقرأ إلا الصحف الألمانية، وفي الواقع، إحدى هذه الصحف، وهي دويتش كولونيالبلات، كتبت في عنوانها العريض الذي قرأه له غورينغ: "الهزيمة ليست كلمةً ألمانية".

بالتمني كل شيء ممكن. وأن يتبنّى عبارات حربية إلى هذا الحد، أمر منطقي بطريقةٍ معينة، لأن أربعمائة سنة من تاريخ الباموم أثبتت له أن الهزيمة ليست كلمة في قاموس الشوموم أيضاً. أية غريزة سوّلت له أن "القيصر الذي لا يُقهر" وشعبه معه، ضاعوا في وهمٍ أقرب إلى الجنون؟ كان عليه أن يأخذ بجديةٍ كاملة توقّعات نغوسو دين الذي كان في ألمانيا، وكان عليه أن يستمع إلى التحليل الجيوستراتيجي الذي قدّمه معلّمه مانغا بيل الذي سكن في ألمانيا هو الآخر- ولن يكون هنا! كذلك كان يجب عليه أن ينظر إلى خارطة باموم التي رسمها بنفسه، وكان سيدرك أن على الألمان، لكي يحافظوا على المستعمرة، أن يحاربوا الإنكليز في الغرب، والفرنسيين في الشرق والجنوب. كان سيفهم أنهم بحاجة إلى معجزة لكي ليكسبوا الحرب في هذه الجبهات جميعاً. وحين ينظر نجويا إلى خارطة الباموم كان سيتوقّع هو أيضاً ما سيحدث في ألمانيا! كان معمياً بصداقته مع الألمان، هذا هو الواقع. فأسماء نغوسو دين ومانغا بيل وسامبا مارتان بول هي التي كانت على شفتيه عندما انهار في غرفته. عاودته في كابوس هائج. وبيّن له التاريخ أنهم على حق، فقد خسر الألمان الحرب على الجبهات كافّة.

- 10 -

الصدى الحاد للأسماء وللأفعال

غريب هو صدى الكلمات! حتى الهمسات تكفي لإيقاظ رضيع نائم. فحين كان نيبو يعود ليلاً إلى غرفة الأم الحنون، كان يسمع أصواتاً هي أحياناً تكرار لقصص؛ ولكن أحياناً أخرى، كان يسمع أصوات حياة الأشخاص الواقعيين. وليس ذلك تبادل حكايات بين أشخاص، بل حوارات حقيقية لأشخاص يعرفهم. لم تكن همسات لوجوه اختفت، بل لعشّاق التقوا في المنفى. يسمع صرير الأبواب التي تُفتح بعد مروره. ويسمع وقع خطوات سريعة خلف ظهره. أحياناً هي امرأة تنفجر ضاحكة في الظلام. وأحياناً يميّز أصوات عشّاق. هو يعلم أن هذا الضجيج لا يتصاعد من أحلامه، ويعرف أنها أصوات ممنوعة على آذان الأطفال، فيسرّع خطواته.

ذات يوم، توقّف بعد أن سمع ضحكة في نهاية ممر. تفحّصه، وحين كان سيلتفت، رأى قفطاناً، وميز شكلَي الخطّاط إبراهيم ونغوتان. رآهما يختفيان تحت ضوء القمر. وعلم منذ تلك اللحظة أن ليس عليه أن يتكلّم عن هذا السر. حاول أن يُقنع نفسه أن هذا مجرّد حلم، الحلم اللامتناهي الذي لم يكفّ عن عيشه منذ أن دخل إلى مون بليزان، ومنذ أن اختفى وجهه الصبياني في كثيرٍ من الغرف، وفي بحر من الكلمات وفي شكوك وجوه رجال ونساء منفيين، ومرميين هنا على هضاب المنفى. ومع ذلك، فإن هذا الصبي لا يمكنه أن يكذب على نفسه هذا المساء: فقال لنفسه: "مزيد من القصص".

هذه المرة، نغوتان، نجي مونغو نفسها هي من كانت بطلتها. كان نيبو يعرف الزلزال الذي قد يسبّبه صدى هذا الحب المحرّم في المنفى، إذا ما ظهر للأفواه العديدة الثرثارة للنبلاء التافهين. ويعرف أي رعد ستسبّب هذه في غرف نجويا. نعم، غريب هو صدى الكلمات، ولاسيما في مون بليزان، أسرّت لي العميدة. ثم أضافت: اسمعي، حتى المحظيتين اللتين كان يمارس معهما الحب ليلة انهياره لم تفهما مَن كان ينادي عندما لفظ اسم "مانغا"؛ وكيف يمكنهما ذلك؟ فمانغا هو أيضاً اسم المدينة التي عارَضَ فيها نجويا أولَ خصومه في معركة من أكثر المعارك دمويةً، وقد خرج منها منتصراً. كان ذلك في عام 1894، قبل وصول أوائل البيض إلى السلطنة. وقد كسب نجويا تلك المعركة بفضل تحالف مع الفولبيه في الشمال الذين علّموه فن الفروسية. لم يؤمّن تحالفُه مع الفولبيه سلطتَه فحسب، بل فتح عصراً جديداً للباموم، لأنه في مقابل نجدتهم، أعطى نجويا الفولبيه الإذن بإدخال الإسلام إلى أراضيهم كلّها! وعندما رأى نجويا نسخة من القرآن وقع في غرام صمت الكتب الثرثار؛ وحين رأى الأحرف العربية تتلوّى على الأوراق وافته فكرة اختراع خطّه الجديد. باختصار، لقد بدأ مجد نجويا بدايةً حقيقية في مانغا.

غريب هو صدى الأماكن!

حقاً!

ألم يكن بوسع زوجتَي نجويا معرفة أن مانغا تعني اسمَ انحطاطه أيضاً؟ آه، لقد كانت ماتا وبينا صغيرتين جداً على هذه الأمور، وأعشقَ لرجلهما من أن تشعرا بشيء غير الغيرة! هما حقاً، ومنحنيتان عليه، كان عليهما أن تعرفا أن تلك الكلمة "مانغا" هي بالنسبة لنجويا "افتح يا سمسم" بقدر ما هي لعنة. وكانت شعبية، تناولتها مدائح السلطان كلّها، ولكنه كان يخفيها في أعماق نفسه المخزية. كانت بريق النهار وظلام الليل. يا ماتا ويا بينا! لماذا لم تريا مهاوي هذا الوحش الذي يفترس رجلكما؟ لأن جسد نجويا لم يُهاجَم من قوى الرغبة، بل من شياطين التاريخ التي اختبأت في عروقه، هو دافن الكاميرون. فقد صرخ:

ـ نغوسو! سامبا! مانغا!

وظنّت المرأتان أنه تائه في ردهات الجنس عندما تشنّج جسمه، وتجمّدت عيناه، وعندما انغرست يده في لحم صدره.

ـ مانغا! سامبا! نغوسو!

أيقظ صوت بينا الساحة الكبرى، وهي التي كانت تظن أن زوجها ينادي ثلاثاً من نسائه الأخريات للانضمام إليه على سريره. وإذا كان هناك من حاجة لهؤلاء الثلاث لإخراج السلطان من ضيقه، فهي لا تستطيع فعل شيء! فنجويا يملك من النساء بحيث أنه من المستحيل، مع الإرادة الطيبة، معرفة أسمائهن جميعاً.

ـ سامبا! مانغا! نغوسو!

وكرّرت ماتا نداء زوجها:

ـ مانغا! نغوسو! سامبا!

نجويا يطلق المزيد من الصراخ. بدا وكأن فرسان الماضي الثلاثة هؤلاء استيقظوا فجأةً وزاروا شقته ليطالبوه بحياتهم التي خانها، وليذكّروه بهذا البلد، الكاميرون، الذي لم يُلَبِّ نداءه، وواضعاً في فناء بيته نساءه ليعاقبنه بشكل أفضل على ضعف بصره الفضائحي.

نعم، ولكن مَن بوسعه أن يعرف أن معاهدة الحاكم مع الموت هي في الواقع تجارة غريبة مع شعور بالذنب ينهش روحه كدودة متوحّشة؟ ومن بوسعه أن يقول لزوجاته المتفجّعات في بيته إن ألمه الحقيقي له وجه خزيه الأكثر حميميةً، ويريد أن يبقى مختبئاً في الأعماق السحيقة من سريره؟ آه، ليت ماتا، وليت بينا استطاعتا أن تعرفا!

غريب هو صدى الأسماء!

حقاً!

يوم الانهيار، دخل نيبو إلى غرفة السلطان، وكان ما يزال يلفظ هذه الكلمات الغريبة، ويصارع الشياطين. ركض العبيد في كل ناحية، وكانوا جميعاً مقتنعين أن الساعة قد دقّت بابَ أشهر أحفاد نشاري يين. فما الذي رمى الصبي على ساحات نسيميونغ؟ غريب هو صدى الأسماء! هذا الصبي الذي أخذ يركض في الغابة، ثم

قصد كنيسة الأب فوغت، كان في رأسه صورة تحرّره. وإذ أنقذ نفسَه، فقد أنقذ السلطان من قصة ندمٍ كبيرة، وحوّل عذابات فتاة إلى مفتاحٍ لخلاص حاكم معذَّب.

وقع نجويا في دوّامة، حتى أكثر أطبّائه خبرةً لم يستطيعوا انتشاله منها؛ وهزّه ديناميت لم يجد له الكتاب الطبي المرجع في السلطنة نغي فو نكو لاب أيَّ جواب ناجع. شعر بتفككٍ في جسمه، ومزّقته نملات ماضيه الأكثر احتجاباً. وتاريخه في أكل لحوم البشر يفترسه حبّاً ـ وهو منتزع من أرض بلا اسم ـ وملقى على أموات مخجلين وجدوا كفَنَهم في روحه. وكذلك في الكرسي المتحرّك الذي صنعه له الأب فوغت، يعلم نجويا أن هناك انتقامات عنيدة. لقد نجا منها بأعجوبة!، وسيكون وحيداً في مصارعتها. هذه المرة، هل سيصبح جسده أضعف من أن يقاوم؟ نعم، نجويا يريد أن ينجو من ماضيه.

لقد فهم من التعاليم المسيحية لدى المبشّر غورينغ، ثم من الأب فوغت، أن التوبة هي الطريق الوحيد إلى الخلاص. ومع ذلك ـ وكيف يُنسى هذا؟ ـفإن اعتراف نجويا لغورينغ هو الذي حذّر القوات الألمانية، وأطلعهم على المؤامرة الوطنية التي تُحاك، لأن الكاهن أخبر الحاكم بالأسماء الثلاثة التي أعطاه إياها السلطان في سر صداقتهما: سامبا ومانغا ونغوسو.

غريب، غريب هو صدى الأفعال!

سأل نجويا بجهد حوّل وجهه إلى قناع:

ـ وهل يستطيع إلهك أن يغفر ما لا يتصوّره الأحياء؟

أدنى الأب فوغت أذنه، مع أنه كان قد سمع السؤال. داعب لحيته، ثم ابتسم، كما ليهَبَ نفسه حكمةً لم تصنعها سنواته في المدارَين. إنه أمام رجل لا يُنال اعتناقه للمسيحية بسحر السكاكر! إنه رجل شرُّه سرّ! وكان من الواضح أن هذا السلطان يسعى إلى الخلاص من وضع صعب. ولكن من أية مآسي؟ لم يكن نجويا يريد أن ينجو من ماضيه فحسب، بل أيضاً يريد أن يُسامَح على مستقبل يتخذ أشكالاً غير متوقّعة بشكل مطّرد، من مدينة منفاه ياووندي التي كانت عاصمة الكاميرون في عام 1921.

تاريخ الناس يسكن جسمه. يكفيه أن يضع قدمه في باحته ليراه ينتعش، ليرى مئات من الأشخاص يعيشون فجأةً ويرقصون ويغنّون ويصرخون وينتشون. ألم يكونوا هذه الآلاف من الأصوات التي اجتمعت في ثلاثة أسماء شيطانية، وبشكل حاد لتكسر جسمه؟ هم الذين يملؤون بيته، ولطالما ملؤوا بلاطه، وكانوا قضاةً على أفعاله. يعلمون جميعاً لماذا يتألّم نجويا؛ نعم، فهو مقتنع بذلك. هؤلاء الرواة المتهالكون، وهؤلاء القصّاصون لعوالم مجنونة كانوا جنته وجحيمه. لذا فإن قصصهم هي التي نسجت بساط خلاصه أكثر من الطب. ولكن كل هؤلاء الذين يعزفون باليه أمواتٍ في أحيائه، ألا يعرفون الحقيقة؟ قصة مانغا ونغوسو وسامبا؟ ألم يكن رواة المستحيل يعرفون تاريخ الكاميرون؟ بماذا عليه أن يعترف؟ سأل السلطان من جديد وهو يقذف كل كلمة بعد عناء:

ـ وهل يسامح إلهك الأحياء على ما لا يستطيع الأحياء نسيانه؟

فكّر الأب فوغت لحظة قبل أن يجيب.

- 11 -

هل الفرنسيون مختلفون جداً عن الألمان؟

لنعد إلى فومبان، قبل أربع عشرة سنة، أي سنة 1916، لأن شكّ نجويا معقود فيها. والسبب؟ بعد تسعة أشهر من الاحتلال، غادر الإنكليز عاصمة السلطنة في عرض عسكري أيقظ العالم. فقد عُقد اتفاق سرّي مع الفرنسيين الذين أقنعوهم بمغادرة مدينة كانوا في السابق قد روّعوها برشّاشاتهم. وقبل مغادرة فومبان، قدّم الضابط الإنكليزي لنجويا الشاحنة الحمراء التي أتى بها إلى هذه المدينة بعد عدة أسابيع فقط من وصوله. ومرّت الأمور بسرعة كبيرة! أرى الجنديُّ الأبيض المليء بالفخر عربتَه للسلطان، وقال له إنها "مثال" على عظمة الملك جورج، "نموذج للشجاعة التكنولوجية البريطانية".

بالطبع كانت تلك الشاحنة قديمة جداً، ولكنها أبدت كفاءتها على الهضاب الوعرة والساحات الوحشية. لا ريب في أن نجويا فرح كثيراً لامتلاك سيارة. بخلاف كتب فولبيه التي كان قد تصفّحها في الماضي بإعجاب، والقرآن الذي قرّر أن يسارع إلى تقليده، فإن السيارة أيقظت في نفسه الرغبة البسيطة في الاستهلاك. لم يكن بحاجة إلى معلّميه المهندسين: لا مونليبير الحدّاد، ولا نجي ماما المعمار، ولا إبراهيم الخطّاط. بل كان يكفيه أن يجلس على مقعد سيارته ويحرّك قدمه ويده كما بيّن له الإنكليزي. وفي غمرة حماسة السلطان نسي أن يتساءل حول فورة الكرم هذه الصادرة عن رجل استمتع في إذلاله كثيراً فيما مضى. آه، كان يجب على نجويا أن يتساءل ما إذا كانت هذه السيارة هي ثمن الخيانة الفرانكو-إنكليزية!

ولكن لنمضِ، لنمضِ.

ولكن لكي يُبدي السلطان إرادته الطيبة استقبل القوات الفرنسية بخطاب أكّد فيه على تعاونه، وبحركة حسن نية قدّم للفرنسيين طبقاً من البيض الطازج أيضاً. أنشد الجنود الذين رفعوا العلم الثلاثي الألوان "المارسييز" وقد نسوا أن الجماهير التي تنظر إليهم انتهى بها الأمر بأن ضاعت بين كل هذه الأعلام والأناشيد المختلفة. لم يكن السلطان مرتدياً ثياب الاحتفال، ما فسّره كثيرون على أنه علامة لاستيائه. الأمور تغيّرت طفيفاً في البداية، باستثناء أن جنود الفرنسيين (وقد أتوا جميعاً من الكونغو) لم يكونوا يصلّون على أغطية مثل جنود الإنكليز. إذ لم يكونوا مسلمين. وهناك نقطة أخرى هامة: فالقائد الفرنسي لم يحتل البناء الذي أقام فيه الألمان والإنكليز قياداتهم العامة من قبل. ولم يدرك أحدٌ دلالة هذا، فربما كان الباموم معميين بالوجوه المتشابهة جداً التي تستعرض في ساحتهم. ومع ذلك فإن طقوس المستعمرين متباينة جداً بعضها عن بعض.! آه، لم يفكّر نجويا ولا الباموم بالاختلاف بين الفرنسيين والإنكليز والألمان!

عمى بعضهم لا علاقة له بمشاهد الاحتلال. فقد كان نيبو، على سبيل المثال، مسكوناً بتجاربه في ورشات القصر الجديد الذي لم يمسّه في شيء الجنود وبزّاتهم وأناشيدهم وأعلامهم. لقد كرّس نفسه للبحث عن الكمال. وكيف ذلك؟ ذات يوم، لفتَ انتباهَه خيالُ صبية تمرّ في الشارع وهو ينظر من نافذة غرفته. إنها أَمَةً، أي عارية. لكن وجهها وجهُ نغونغور. أغمض عينيه ثم فتحهما ثانيةً للتأكّد. ابن برثا أقسم: إنها إعادة بناء، بحسب أحلامه جميعاً، للمرأة التي أحبّها حقّاً.

صاح مهلّلاً:

ـ إنها نغونغور! إنها هي!

تفحّصها من جديد لأنه لم يكن يصدّق عينيه حقاً. آه، لقد رأى رأس الفتاة وعنقها وكتفيها ويديها اللتين ارتفعتا نحو رأسها لتسندا سلة من البندورة. لا، غير ممكن! عندها تفحّص ساقيها وقدميها. رأى جسمها في حالة الحركة فأسره ذلك. رأى كيف تضرب قدماها الأرض في مشية منسجمة، وكيف يرقص بطنها تبعاً لحركة جسمها الخفيفة. إنها مثل نغونغور تماماً! لقد رأى صديقته آلاف المرات في أحلامه: لكنه لم يرَ رؤيةً لها كاملة كهذه قطّ. إنه لا يحلم.

وحين مرّت المرأة من أمامه ناداها: نغونغور، فلم ترد. صفر لها: ولم تلتفت. ولم ينزعج من ذلك، بل بالعكس. فكر:

ـ فخورة كعادتها!

تأمّلها من رأسها حتى قدميها، ووقعت عيناه على كتفيها، وانحدرتا لتقيسا حجم مؤخرتها. لاحظ نيبو أن إليتيها تتحرّكان بطريقة متناظرة، بحسب توازن خطواتها المنتظمة. واستغرب أن ظهر نغوغوره ينادي قياس سكين في لحمها، لأنه مع السكين رسم خطاً عبر جلدها قسمها إلى قسمين متساويين، كثمرة باباي ناضجة، من الأعلى إلى الأسفل. انقسمت وانتشرت إلى فلقتين دون أن تكبح حركاتها. الومض الخاطف للحمها الملتهب ساعد النحّات على إعادة تركيبٍ سريع لأشكالها المتناثرة. ذلك أن نيبو أعاد صنع معادلاتها عن ظهر قلب، بسرعة، وهو يضرب صدغه. يريد أن يتأكّد من أنها هي، دون أن ينسف الإيقاع المفاجئ لظهورها، ودون أن يجمّد، وبالتالي يحلّ، الجمال الذي ظهرت به أمامه.

كان موزَّعاً بين فرحه بلقاء حبيبته والرعب من محوها بتغطيتها. فكّر للحظة بفتاة النهر، غاسلة دشانغ، وفكّر كم هو الجمال هرّاب أحياناً. لم يكن يريد استئناف العمل في نغونغوره. ركض إلى غرفته، وسحب شرشفه وربطه حول جسمه. رمى زاوية على كتفه الأيسر كما تفعل امرأة من الفولبيه، وربط مئزر صديقته الأحمر على رأسه، ثم خرج ولحق بالمرأة، بعد أن قال لأمه:

ـ سأعود بعد قليل.

سألته برثا من آخر الفناء:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لن أذهب بعيداً. سأعود حالاً.

ـ 12 ـ

رياضياتُ جسد امرأة

من حسن حظ نيبو أن أمه لم تلحّ عليه. ومع ذلك، فقد أدرك بعد فوات الأوان أنه نسي دفتره.

زمجر قائلاً:

ـ أف! إني أنساه دائماً في اللحظات الصعبة.

فكّر للحظةٍ أن يعود إلى البيت لإحضاره، لكن فكرة ملاقاة أمه وهو بلباسه هذا جعله يكمل طريقه. كان سعيداً لتمكّنه من مشاهدة نغونغوره على راحته دون أن يزعجه العسكر المستعمرون. كان يريد أن يلتقطها في أثناء الحركة. حركة يدَي صديقته شغلت باله لحظةً، ثم حركة قدميها، ثم كتفيها. ظهر له توازنُ مجمل جسدها في تركيب شقّ شفتيه عن صرخة نشوة. ومع ذلك، لم يصرخ. بل بالعكس، فقد غاصت عيناه في خطوات المرأة ولحست آثارها على الغبار. رآها تضع قدماً على الأرض، ثم ثانية، وهي تتعرّج.

عندها فكّر بالحيوانات. في البداية فكّر بحصان، ثم بمعزة، وفكّر بهرّ بطبيعة الحال، وكذلك بعصفور وهو طائر. وذلك أن مؤخرة المرأة لها انسجام مؤخرة الحيوانات التي رآها تخبّ، أو تطير، ولمرونة خطواتها الدينامية الشهوانية لحمامة على الأرض. كما تذكّر نيبو الزحف المتعرّج لزاحفة، ورأى كم كانت خطوات عزيزته نغونغور على الأرض الحمراء قريبة من انزلاق جيكو.

لم يلاحظ نيبو قطّ حيوانات تطير أو تمشي، ولم يفكّر فيها أيضاً. ولكي يركّز على شكل المرأة أبطأ من مشيته في عقله، كما يفعل موسيقي مع أغنية جديدة، لكي

يحفظ حفظاً أفضل العلامات التي سمعها للتو، وصمم على دراسة حركة الحيوانات فيما بعد. كانت نغونغور تمشي، وكان لكل خطوة من خطواتها صوت نغمة شجية ولون دودة لامعة.

تاه النحّات في أفكاره حول المقارنة بين الحيوانات والبشر، أصوات وخطوات، جسد وموسيقى، حين أدرك فجأةً أن المرأة قد توقّفت. حيّت امرأة أخرى، وتبيّن له أن جسمها في الثبات له هالة مشابهة لهالته في الحركة. مكثت معلّقةً في نصف مشية، لا تتحرك، وفي الوقت نفسه تبدأ حركة المشي. المشي مسجَّلٌ في جسمها الثابت، كجمع من الأوضاع على تمثال أصلي. والنتيجة مدهشة. فلديه هنا الوحدة التي لطالما بحث عنها، رقم الهناء.

صرخ وهو يضع يده على فمه لخنق صوته:

ـ هذه هي، هذه هي الصيغة!

رأى المرأة واقفة وهي تمشي، وفي الوقت نفسه قُدّم له تمثال في الوقوف. أخذت أصابعه تحكّه، فهو يريد أن يجمّد نغونغوره، وينحتها ويعيد خلقها، في النقطة المحدّدة التي تقف فيها، لأن جسمها ووضعيتها كاملان، إنه واثق من هذا.

وبصق في راحة يده قائلاً:

ـ هذا هو، الجسم الكامل، جسم أَمَة!

تكلّم بصوت مرتفع. فالتفتت نغونغور. أراد أن يختبئ لأنه يخشى أن يُكتشف فجأةً. وكذلك لم يكن يريد أن ينسف الوضعية المتوقّفة لجسم المرأة. لحسن الحظ، أنه يرتدي ثياب امرأة، ولم تلاحظ وجوده. بل بالعكس، لديه الوقت الكافي ليلاحظ بمزيد من التفصيل كم تتغيّر أشكالها حين تلتفت. أربكه تصالُبُ نظرتيهما، حتى وإن لم يكن لديه الوقت لتسجيله في عقله. جرى كل شيء بسرعة كبيرة بحيث أنه لم يلحّ على هذه الرياضيات الجديدة للجسد.

سرعان ما انفصلت نغونغور عن صديقتها، فتبعها نيبو. عبرا شجرة الحُميرة المزروعة في وسط فومبان، وصعدا ونزلا الأدراج في الممرات، وعبرا بيوتاً، ومقر الضابط الفرنسي برستا، وانعطفا عند زوايا الشوارع ووصلا إلى حي النساء. عبرا سوق الحديد الذي أوقف الرجال العمل فيه ليمتلكوا بنظراتهم، هم أيضاً، المرأة

التي تمر. اجتاز القصر القديم وتجمّعه من النبلاء العاطلين عن العمل. بعضهم يحلقون شعور جيرانهم؛ وآخرون يدوزنون آلاتهم الموسيقية أو يلعبون بالنيجيكا. والجميع ينتظرون خروج السلطان.

لم تتكلّم نغونغور مع أية امرأة من النساء النبيلات اللاتي يروّحن بمذبّات من القش أو ينسجن أو يثرثرن. لمح نيبو ظلالاً داخل القصر، لكنه سرعان ما عاد إلى موديله. حيّاها أحد الرجال فردّت التحية حانيةً ظهرها. ثم سرّعت من خطواتها. وراحت رشاقة جسمها ترسم أشكالاً متطابقة مع كل نقلة قدم.

أضاف نيبو هذه الرؤية الكاملة لجسمها إلى الأشكال التي حصل عليها في أحلامه. ارتسم كلُّ شيء بوضوح شديد في ذهنه بحيث أنه لو جلس في تلك اللحظة، فقد كان سيعيد إنتاجه على لوح كما يفعل نجي ماما بالأبنية التي يبنيها: من الذاكرة. كان سيثبّت زوايا قدمها وكتفيها وسيؤرجح بيديه بدقة سلة البندورة التي على رأسها. واستنتج ابن برثا أن الجسم ليس إلا جمعاً لامتناهياً من المثلثات.

أضاءت وجهَه ابتسامة مردّها إلى الجمال الحسابي لما يراه؛ لأن ما يراه مقدَّم له بلا تنازل من ناحيته، وبصورة منهجية؛ ولأن ما يراه إنما يراه في الكمال المباشر لحالته. ذلك كما لو أنه كان يميّز بين كل عضلة من عضلات المرأة التي تمشي، وكل عظم من عظامها، وكل عصب من أعصابها ويمكنه أن يحسب طول خطوتها، ثم خطوة، ثم خطوة أيضاً. لم يتمكّن من إطفاء شكواه التي فرّت من بين شفته.

إنها قصيدة جمال.

بدأ وهو يصلح وضع مئزره:

ـ أيتها المرأة، أنتِ معلّمي!

ـ 13 ـ

الظهـور الذكري في انفجار ضحكة

ـ نجابدونكي!

لم يستطع نيبو أن يقول ما إذا كان قد جاب فومبان مرةً أو مرتين أو ثلاثاً أو عشرين مرة. فمشية المرأة كانت تفرض طريقه، وأشكال جسدها سلبت لبَّه، لبَّه كلّه. وصل إلى سوق البهارات دون أن يتنبّه لذلك، لو لم توقظه مجموعة من العطور المفاجئة. وجد نفسه وسط هضاب من البيلي-بيلي والملح والزنجبيل والبصل والكاري والبندورة، وفي سلسلة لامتناهية من الألوان. ولم يتوقف إلا لأن امرأةً تعصب رأسها بمنديل أصفر نادت نغونغور باسم آخر.

لقد نادتها نجابدونكي، نعم، نجابدونكي، باسم أم السلطان المتوفّاة. في تلك اللحظة عبرت نار متأجّجة بطن النحّات وأطلقت دخاناً شيطانياً عبر رئتيه، وخنقت حلقه وأشعلت منخريه. فتح فمه آلياً، وسارع إلى إغلاقه بيديه.

أطفأ نفَسَه في نوبةِ تنفّسٍ عميق. أدرك فجأة ما حدث، كما لو أنه خارج من نفق طويل أو من لعنة كهفية.

كرّرت المرأة التي استوقفت الأَمَة:

ـ نجابدونكي!

وفي الوقت نفسه أشارت إليه بإصبعها وأضافت:"هذا الرجل يلاحقك!" بقي نيبو جامداً بهاتين الكلمتين: "هذا الرجل". في تلك اللحظة نزلت النارُ المتأجّجة في منخريه إلى حلقه، وسرَت في صدره، وتفرّعت في بطنه، واستأنفت سيرها بقوةٍ، ففتحتْ فمَه وفكّتْ عقدةَ يديه الحائرتين.

- آآآآآآآآآآآآآ!

تحرّر بعطسة عضلية هزّت كل بسطات التوابل من حوله.

- تشووووم!

الشرشف الذي كان قد عقده حول كتفيه ليُشبه امرأةً من الفولبيه سقط عند قدميه. انحنى ليلتقطه، بيد أن المرأة التي يلاحقها لم تدَع له مجالاً ليغطّي جسمه، فسألته وهي تنظر مباشرة إلى عينيه:

- ماذا تريد؟ ماذا تريد أيها الجرذ المتوثّب؟

توعّدت أنفَ نيبو بسبابتها وهي تتكلّم، وقد أبقَتْ سلّتَها متوازنةً على رأسها. وانضمّت إليها امرأة أخرى حليقة الرأس تاركةً بسطة توابلها، وخاطبت النحّات بنبرة تصالحية:

- لماذا لا تتركها بسلام، آه؟

- وديديديديديدي، هذا رجل يريد أن يصبح امرأة!

كيف سيتنبّه نيبو إلى العيون التي تراقبه وهو غارق في أفكاره؟ إذن بذلٍّ اكتشف عيونَ السوق جميعاً. إنها عيون نساء، وكلّهن إماء، جالسات خلف بضائعهن. لم يتوقّف نيبو في سوق البهارات قطّ، ودفعة واحد أدهشه العري الآسر لجمهوره. أفاق من معادلاته عن امرأة في الحركة، ووجد نفسه في تجمّع معادٍ. إنه رجلٌ، هو الرجل الوحيد الموجود، وليس لديه سوى رغبة واحدة: أن يغطّي جسمه العاري.

النساء لم يتركنه. بل قالت إحداهن مازحة:

- هل تعتقد أنها ذاهبة إلى عشيق؟

تمرّد جسم نيبو على رغباته، وأخذ سعالُه يعرّيه أكثر فأكثر. والنساء ينازعنه بالتعليقات. وكلما عطس ضحكن وضربن كفّاً بكف.

- الله هو الذي يعطيك العقاب الذي تستحقّه!

بيد أن نيّات نيبو ليست واضحة تجاههن.

- هل تعتقد أنها تخونك؟

- أنتَ لا تثق بها، أليس كذلك؟

ـ يا للرجال!

وفجّرت هذه المرأةُ المستغرِبةُ ضحكةً غريبة، غطّت فمها براحتيها وقصعت ظهرها، كديك يرقص حول دجاجة.

ـ هي هي هيييييي!

وردّت يداها معاً

ـ وووووووووو-ووو!

التفتت المرأة ذات الضحكة الأوركسترالية نحو نيبو، وكلّمته في وجهه كما لو أن الكورال الضاحك من رفيقاتها يعطيها صوتاً ما كانت لتملكه لوحدها:

ـ أنتَ لا تثق بزوجتك، أليس كذلك؟

وأحدثت ضحكتُها تأثيراً موحَّداً. حتى تلك التي تكلّمت مع النحّات بصوت مسالم، عبّرت عن احتقارها له، هي الأخرى هذه المرة.

قالت لبعض المارّات اللواتي توقّفن من باب الفضول، وأرادت أن تُشهِدهنّ على الغباء الذكوري:

ـ انظري إلى هذا الرجل، إنه غيور إلى درجة أنه لم يعد يستطيع الكلام!

ـ غيور جداً!

ـ ومُثار جداً إلى درجة أنه لا يستطيع أن يترك زوجته تذهب، أليس هذا صحيح؟

ثقل القرعة المليئة بالبهارات المتعدّدة الألوان، والتي تضعها على رأسها، حوّلتها إلى عطارة متنقّلة. كانت تتكلّم وتنفخ ضاحكةً، فقلدتها النساء الأخريات جميعاً. ثم تابعت بعضهن طريقهن ساحبات أطفالهن معهن، ومصدومات من لغة السوق الفاحشة. وأخريات واصلن إذلال نيبو بكلماتهن النابية.

ـ إنه زوج نموذجي، كما ترين!

ـ زوجي مثله.

ـ الرجال جميعاً هكذا!

ـ الرجال جميعا!

ـ الله!

ـ ليس في رؤوسهم إلا شيء واحد.

صرخت النسوة جميعاً:

ـ النساء!

فصاحت المرأة حليقة الرأس:

ـ لا، أعضاؤهم الذكورية!

وانفجر سوق البهارات في ضحكة واحدة. بعض النسوة أمسكن بأكتاف جاراتهن، وأخريات فتحن وجوههن للشمس، وضربن سيقانهن وركبهن، أو صفقن بأيديهن. والمرأة التي يلاحقها نيبو ضحكت أيضاً. وكيف؟ بضحكتها سلّمته للعصابة، وفي الوقت نفسه كشفت عن وجه مفزع. بإصبعها الشرّير أشارت إلى رأس نيبو الذي يلفّه بمئزر نغونغور. واختنقت من الضحك، فأيّدتها امرأةٌ ونعتت نيبو بـ "المجنون":

ـ يا له من مجنون! يلبس لباس امرأة ليلاحق زوجته! يا له من مجنون!

ـ هل رأيتنّ في حياتكن شيئاً كهذا؟

ـ ماذا؟

ـ رجل بلباس امرأة.

وقالت المرأة الحليقة لنجابدونكي:

ـ انسيه، إنه ككل الرجال.

استغرب نيبو وعطس:

ـ أتشوم ـ إيه!

أهملت النسوة مقاطعاته الصوتية التي كانت تمنعه من ارتداء مئزره، وضاعفن من حججهن:

ـ إنهم متشابهون جميعاً!

ـ جميعاً!

ـ وهو ليس مختلفاً.

ـ هو أيضاً، ليس لديه إلا إصبع صغير.

ـ إصبع وحيد.

لم يشعر نيبو قطّ بهذا الانكشاف. عاد إلى البيت بلا مئزر، مسرّعاً خطاه. ومع ذلك حاول أن يسترجع صورة المرأة التي أسرها، على صيغة امرأة في التوقّف، أصابها في العماء. أراد أن ينحت امرأة أحلامه في أشكال هذه المرأة التي رآها. لا يهم أن تكون مومساً، فقد أراد أن ينحت نغونغور في خطوطها. لقد حلم للتو بنغونغور وعيناه مفتوحتان، ولا يريد أن يشكّك في واقعية ما قاسه. لقد تحرّر من أحلامه، ويستطيع أن يُبدع أخيراً. رؤية هذه المرأة في الشارع شجّعته، وضحكاتُ نساء السوق نفخت في يديه السعار الذي يحتاج إليه. الحلم اللامتناهي للواقع ملأ روحه بأناةٍ لم يخْبَرها حتى ذلك الحين. وهكذا أصبح معلّمَ نفسِه، معلّمَ أحلامِه. لم يكتب نيبو أفكارَه في دفتر. إنه سيفعل ذلك فقط على التمثال الذي سينحته قريباً.

- 14 -

سجـــلّ الألـم

إذا كانت الحياة مليئة بالمصادفات، من الأكثر غرابةً إلى الأكثر عاديةً، فإنها مليئة بالفرص الضائعة أيضاً. فبينما كان نيبو يلاحق المرأة الأَمَة في شوارع فومبان، كان نجويا يجتاز شوارع مدينته مع معلّميه ومساعديه لكي يُنشئ طبوغرافيتها. وقد دُفع نجويا إلى هذا العمل بسبب الغطرسة المتزايدة للإدارة الاستعمارية الفرنسية. فقد فوجئ بوصول السلطة الجديدة التي دخلت إلى سلطنته دون أن يُعلَم مسبقاً ما سبب ذهاب الإنكليز. بعض التفاصيل المفاجئة أربكته، وخاصة التوقيع الذي ذيّل ردّ الفرنسيين على ترحيبه، والذي أفهمه أن موقع دشانغ في بلاد باميليكيه الذي هزمه الباومو في الماضي يتّخذ منذ ذلك الحين أهميةً أكبر من فومبان، العريقة منذ أربعمائة سنة.

قال إبراهيم ساخطاً بين الوجهاء:

ـ إذا فضّل الفرنسيون الدغل، فليذهبوا إليه إذاً، إلى دشانغ!

ومع ذلك، لم يستطع إبراهيم الامتناع عن رؤية المهم، والبديهي: أجزاء من بلاد الجد نشاري يين، وقطع أرض مات من أجلها آلاف الباموم طوال عدة قرون، تسقط في أيدي الفرنسيين دون أن يعطيهم السلطان أي إذن. وهو، نجويا، الذي كان قد أعطى بعض الأرض للألمان، واستقبلهم في مدينته وعلى أرضه. والإنكليز فرضوا أنفسهم برشّاشاتهم. والفرنسيون؟

قال نجي ماما غاضباً:

ـ مَن يحسبون أنفسهم؟

أجاب السلطان:

ـ لقد آن الأوان لنتعرّف إلى أرضنا ونقيس بلادنا.

مع فريق من نحو عشرة أشخاص أخذ يعبر أحياء فومبان ويلتقي بالمالكين. احتشد رؤساء العائلات الكبرى، وحتى العبيد الأكثر احتراماً دخلوا في هذا المشروع. قال لهم:

ـ الأرض لكم، وليست لأحد آخر. ولكن أنتم من تعرفون بشكل أفضل حدود أراضيكم.

بطبيعة الحال، بدأ نجويا بحدائق القصر الجديد، وتابع عبر شجرة الحُميرة في وسط فومبان. استفاد سكان المدينة من نزوله في بيوتهم ليعبّروا عن شكاواهم، وليقصّوا له قصصهم. وكان لديهم الكثير ليقولوه له، نعم، كان لديهم الكثير ليُفصحوا عنه له! اتهامات ضد رؤساء العائلات، النجي، وضد النبلاء عموماً، المبانزي. وشكاوى من بعضهم ضد الأحرار، ضد البشر بشكل عام، ضد الأعمال الشاقة، وضد عمل النساء النبيلات، دون الحديث عن احتجاجاتهم ضد الضرائب الجديدة.

قال نجويا للنساء النبيلات:

ـ عليكنّ أن تعملن إذا أردتنّ أن تدفعن الضرائب.

قال أحد الرجال وهو تائه بين الاحترام والغضب:

ـ ليته لا يوجد إلا الرسوم، ألاريني، ليته لا يوجد إلا الرسوم!

انتظره نجويا حتى يُنهي كلامه، لكن جاره قاطعه:

ـ علينا أن ندفع للعبيد، اليوم.

ـ مثل فلاحينا.

قال السلطان:

ـ إذا كنتم لا تستطيعون أن تدفعوا لهم، فلن يعملوا معكم.

سأل أحد الرجال بقلق:

ـ مفون باموم، رئيس الباموم، هل يحقّ للنساء أن يتركن أزواجهن الآن؟

ـ لديهن دائماً هذا الحق، ولكن من واجبكم أن تُرضوا نساءكم.

وضحك السلطان. فاسترخى الجميع من حوله. ثم أضاف السلطان:

ـ عليكم أن تصبحوا عشّاق نسائكم.

وركّز على الـ "م"، وهو ينظر إلى الرجال في أعينهم.

غادر قصره ليرسم خارطة لبلاده، وأصوات التراب تحفظ خطواته مثل الطين بعد المطر. بدا وكأن كل شيء يهرب من بين يديه؛ كما لو أن آلاف الشكاوى التي تملأ أذنيه تحكي له عن التآكل البطيء، ولكن الأكيد، للتربة. وكلّما جمع ومرافقيه معلومات كلما امتلأت أذناه بالشكاوى عن الأرض الضائعة. ألم الأرض نداء عميق إلى العمل لم يكن يريد أن يسمعه في الواقع، لأنه لا يريد أن يواجه السلطات الفرنسية.

نجي ماما الذي عهد إليه نجويا بمهمة جمع الأرقام التي حُصل عليها، وتقديم رسم تقريبي لخارطة فومبان، ليس بوسعه أن يغلق أذنيه عن الكلام حول الأرض. لا بدّ أن روحه كفنّان مملوكة من اللوحة التي سجّل عليها النتائج، الواحدة تلو الأخرى، اللاتي أملاها عليه معاونوه: شوارع المدينة التي رسمها على ورقة واسعة لا يمكنها أن تسكت إلى ما لا نهاية. قال:

ـ الخارطة تتكلّم، والبلد يتكلّم.

تخيّل نجي ماما وجهَ نجويا طافحاً بالبشر أمام هذا المنظر النهائي لعاصمة بلاده. أوه، لقد فعل المعلّم المعمار كل شيء ليُرضي الفنّان بداخله. بيد أنه عجز فقط عن إيقاف الشائعات المؤلمة لسكان باموم. لا أحد سوى سلطانه يمكن أن يعرف أن هذه الخارطة هي حركة يائسة من يد تريد أن تمسك حفنة من تراب تحت سيل. أغنية التربة تُظهر فراغاً خطيراً ينحفر في الأعماق. تسارع نبض المهندس المعماري عندما لاحظ وسط الخارطة موقع المقر الفرنسي وكتب تحته بأحرف لاتينية: "الملازم أول برستا". توقّف وقرأ الاسم مراراً وتنفّس بصعوبة. راوده إحساس بأن هذا الاسم لا مكان له على الخارطة، على خارطة نجويا. محاه، وبقي يتأمّل عمله محرَّراً وهو تائه في أفكاره.

- 15 -

المـــرأة مدينـة تجهل نفسها

نيبو يقف منذ بعض الوقت أمام باب مشغل معلّمه. يريد أن يُخبر نجي ماما أنه وجد أخيراً الصيغة التي كان يبحث عنها، وأنه حلّ المعادلة التي شغلت باله طويلاً. يريد أن يقول له إنه اكتشف سر المرأة في الحركة بجمع مثلثاتِ امرأةٍ، وجهُها هو وجه نغونغور. رأى الحزن في عيني العجوز وقرّر أن يعود فيما بعد. وفي تلك اللحظة عاوده عطاسه الغبي.

قال نجي ماما حين لمح متدرّبه يقف ببابه:

ـ تعال، ادخل!. ادخل يا بني.

كان نيبو سيجد عذراً سريعاً، وكان سيكون حلاً أفضل. ومع ذلك فقد واصل العطاس.

سأله المعلّم وهو يربت على كتفه:

ـ هل أنت مزكوم؟

بدا وجه نجي ماما تعباً، والنحّات هو السبب. ذكر نيبو المناخ المتقلّب، الانتقال من الفصل الجاف إلى الفصل الممطر، وعبق الأرض الحمراء، وماذا أيضاً؟ ومع ذلك فقد قبِل اقتراح معلّمه الذي نصحه بشرب الشاي مع الليمون. وأصرّ عليه:

ـ اطلب من أمّك أن تصنعه لك، فالمنقوع يسلّك الحلق بسرعة.

حاول نيبو أن يغيّر الحديث دون أن يفهم أن معلّمه مسرور بالتسلية التي وفّرها له.

قال نيبو بعد أن مسح أنفه بقطعة قماش أعطاه إياها معلّمه:

ـ خارطة جميلة!

ما من كلمة أذكى من كلمة "جميلة" خطرت بباله. فقال له نجي ماما:

ـ لقد أُنجزت تقريباً.

معاً قارنا بين الطرق ومواقع البيوت، وزاوية التقاطع. أضاف نجي ماما أسماء أخرى. ثمة نقاط تحدّد القصرَ من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى تُعطي حُميرةُ مركز المدينة الخارطةَ محور توجيه، وتنفخ فيها حياةً غير متوقّعة. ممر الفنّان مرسوم بشكل جيد، كما تعرّف نيبو إلى سوق البهارات. وتابعت يدُه تقدّمها آلياً باحثةً عن منزل أمّه، وقال:

ـ هنا أعيش.

ـ أعرف أنك تعيش هناك.

جواب المعلّم أقرب إلى البتر. ولفظ نجي ماما كلمة "هناك" مع ابتسامة ساخرة على شفتيه، ولم يكتب شيئاً حيث وضع نيبو إصبعه. لم يجرؤ الشاب على سؤال المعلّم لماذا. فقد كان سؤاله سيبدو غبياً. فهل هو من الأهمية بحيث يُذكر اسمه على خارطة تاريخية لفومبان؟ وهل حياة أمه تستحق هذا العناء؟ لا أحد يحفظ عناصر بهذه التفاهة ليكتب التاريخ. كان نيبو يعرف ذلك فحزن له. لكنه كرّر:

ـ خارطة جميلة!

صمت نجي ماما طويلاً، كان يفكّر ويده تداعب عثنونه، ولم يجرؤ نيبو على قطع صمته. لكن المعلّم أضاف:

ـ في الواقع، لقد رأيتك في الطريق في أحد الأيام.

ردّ نيبو بطريقة عفوية على هذه الملاحظة غير المتوقّعة:

ـ كيف عرفت؟

فرّت الكلمات من بين شفتيه. فقال نجي ماما بهدوء وهو يبتسم بسخرية:

ـ أيها الشاب، أنا أيضاً مررتُ بسنّك.

قال ابن برثا متلعثماً، ورأسه مائل إلى كتفه:

ـ أعتذر، نجي، أعتذر حقاً!

من جديد سمع ضحكة سوق التوابل ترنّ في أذنيه. تذكّر تنكّره وعاش ذلّه من جديد. هو نفسه لم يكن يعلم ما إذا كان يعتذر لأنه شكّك في معرفة معلّمه، أو لأنه اجتاز شوارع فوميان وزواريبها وهو متنكّر بثياب امرأة. سؤال واحد يهزّ روحه: هل يعرف كل شيء حقاً؟ أرعبه هذا السؤال إذ بدا وكأن نجي ماما يستطيع أن يقرأ ما بنفسه. لم يكذب على معلّميه قطّ، كذلك لا يستطيع أن يصمت، فقال وهو يزين كلماته:

ـ نعم، كنتُ ألاحق فتاةً.

هزّ نجي ماما رأسه بانتباه. فروى نيبو له قصة نغونغور وأوصل إليه نتائج ملاحظاته. بدا المعلم متأثّراً بالألق الذي يضيء وجه الشاب، وابتسم لخجله. أكّد لتلميذه أن سعيه مشروع، ولم يقاطعه حين قال إنه فعل هذا "من أجل الفن، من أجل الفن فقط."

ومع ذلك فقد نبّهه نجي ماما:

ـ إنك تمشي على أرض جديدة. جديدة كلّياً.

بحيرة فكّر نيبو أن ما فعله مع ملهمته، فعله السلطان مع مدينته. في الواقع، لم يرَ نيبو من فارق بين قراره المحموم لمعادلات جسم امرأة عبر المدينة، ولوغاريتمه للحمٍ في الحركة، وخارطة خطوط طول أحياء فومبان وخطوط عرضها. لقد آمن أن معلّمه سيفهمه أكثر من أي شخص آخر.

ـ لدي معطياتها كلّها. كل معطياتها.

ابتسم نجي ماما، فأضاف نيبو وهو يلمس صدغه علامة رضى عن نفسه:

ـ لدي مثلثات تكوينها في رأسي.

ـ من الجنون أن تتبع فتاة عبر المدينة كلّها. هذا جنون حقاً.

لم يقل: "وارتداء زي امرأة". ولكن ذلك تماماً كما لو أن نيبو يريد أن يشرح له أن حقيقة الفن تكمن في عري الفنّان. وأن ما قام به ليس أكثر جنوناً من التيه في شوارع مدينة لأخذ أرقام لاستخدامها في رسم خارطة. وأنه يستطيع أن يرى بروحه المرأةَ الأَمَة بتفاصيل تساوي التفاصيل التي تحويها تلك الخارطة المبسوطة أمام عيني معلّمه. وأن لديه خطوط عرض تلك المرأة وخطوط طولها، بقدر ما يعرف

عدد نبضات قلبها. وأنه عرف نِسَبَ عظامها وقياس أقسام لحمها كلّها. وأخيراً كان يريد أن يقول لمعلّمه أنه بكل تأكيد لا يدّعي أنه يقارن بين خارطة نجويا مع رؤيته وأحلامه لامرأة. لكنه صمت. كان يريد أن يُفهم نجي ماما أن رؤيته لنغونور شفّافة كسجلّ عقاري. ومع ذلك لم يرفع صوته لأنه لا يملك الحق في ذلك، ولاسيما أن أفكاره مهينة. الخارطة التي أمامه وحيدة، ولم تُنجز بهذا الشكل من قبل. هل هي فومبان؟ إن هذه الخارطة هي تنفيذ لحلم حاكم، هي رؤية نجويا لأرض أجداده. هو يعرف هذا، ولكن نغونغور وحدها تسكن روحه. قال:

ـ أراها الآن مثل....

نعم، نيبو يريد أن يقول: "مثل هذه الخارطة". استمع إليه نجي ماما منتظراً نهاية جملته. لكن النحّات توقّف عند صفة هذا الخط الرفيع الذي يفصل بين العبقرية والوقاحة، ولفظ العكس قابلاً: "مثل الحقيقة".

لم يقاطعه المعلّم، فأضاف ابن برثا بعد أن مسح أنفه مرة جديدة:

ـ لأن الحقيقة ملموسة، أليس كذلك؟

لم يردّ نجي ماما على سؤاله الذي لم يكن في الحقيقة سؤالاً. نيبو يعرف أن معلّمه يفهمه حتى وإن لم يقاطعه ليحافظ على تدفّق أفكاره. فنجي ماما رجل قليل الكلام، ولكنه قاضٍ أبوي دائماً. لكنّ نيبو لم يكن ليفهم لماذا تسكن وجهَه كآبةٌ ما.

قال له المهندس المعماري وهو يربت على كتفه مرةً أخرى:

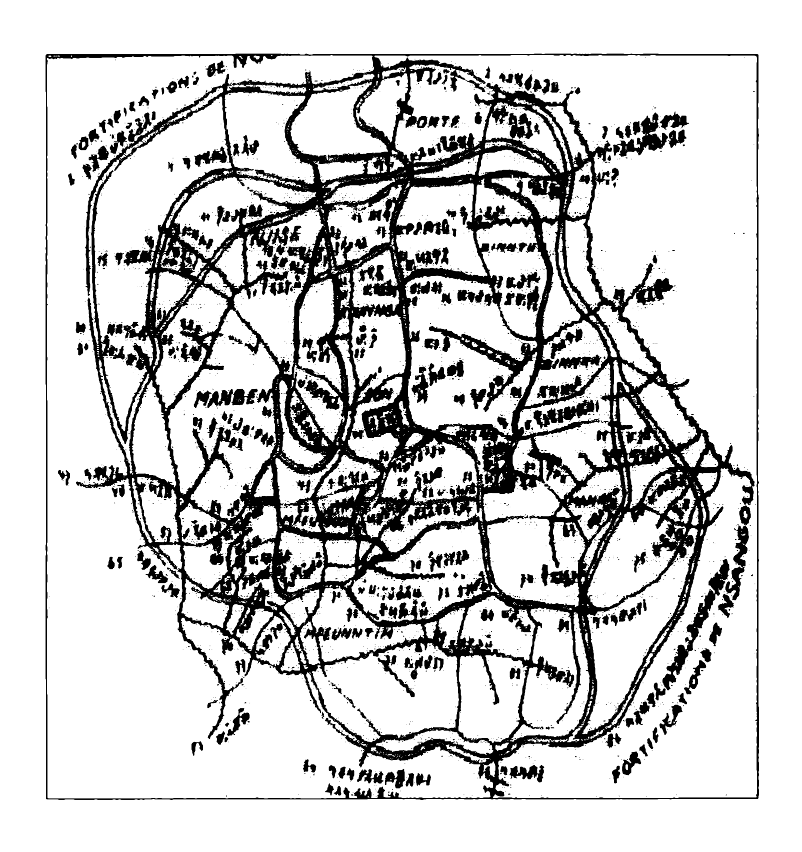
ـ ما تزال شابّاً، والفن يملأ دمك.

تبادلا نظرتين فغضّ نيبو بصره. خارطة المدينة مبسوطة أمامهما، وعليها كان على نيبو أن يرسم الطرق كلّها التي سلكها خلف المرأة الأَمَة. نيبو لا يعلم أن معلّمه أيضاً لم يحدد المكان الذي تم تخطيط عبودية باموم انطلاقاً منه. الشوارع تشبه عروقاً متعرّجة، وخارطة المدينة تشبه قلباً ينبض. غادر نيبو معلّمه وسط سوء الفهم الذي ساد مقابلتهما. سار متراجعاً في البداية، ولم يلتفت إلا بعد مسافة بعيدة. وفجأةً رنّ صوت المهندس المعماري في الممر:

ـ لا تنسَ الشاي بالليمون، ولا تنس أن تطلبه من أمّك.

رآه نيبو يحرّك يده باتجاه الباب، فصرخ وهو يحرّك يده أيضاً:

ـ نعم، يا معلّم، لن أنسى، طبعاً.



خارطة فومبان التي رسمها نجي ماما عام 1920 والمقر الفرنسي غير موجود عليها.

- 16 -

خطأ الضابط الفرنسي

المبشّر غورينغ هو من ألغى عري العبيد من شوارع باموم. وكان ذلك عام 1911. كان يريد أن يحمي الابن الذي ولدته له زوجته في فومبان، وسمّاه نجويا غورينغ تيمّناً باسم السلطان. بدأ "نانسا نجويا"، أي نجويا الأبيض كما يسمّيه الناس، يرى أشياء ويطرح أسئلة. وقد فعل الأب كل ما يمكن لأب أن يفعله، لو كان بيده تغيير الواقع بحسب مزاجه. وقلّة قليلة من الناس يتذكّرون هذا. والذي أثار اهتمام الأغلبية هو أمر الملازم أول برستا في عام1920 الذي منع ارتداء أية ملابس لا تغطّي الشخص من ركبتيه "حتى الثديين (ضمناً)". وقد روى لي الناس أن الملازم أول برستا قد اتّخذ هذا القرار لأنه لم يكن يستطيع التركيز، فيضيع بصره على نهود النساء اللاتي كنّ يقدمن رقصاً في الشوارع، ويتسوّقن، وأحياناً يقفن في صف أمام مكتبه، وأحياناً يدخلن حتى سريره. نعم، فقد قيل لي إن رؤية نساء عاريات كانت تملأ ذهن الملازم بصورٍ متمايزة جداً للجنس بحيث تملأ محاضر ضبوطه بالحماقات.

كان مقرّه سيُقام خارج المدينة كمقرّات الألمان والإنكليز، بحيث ينظر إلى الحياة في فومبان بعين عصبية. آه، كيف لا يُطرح هذا السؤال؟ هل كانت لديه فكرة أخرى عن النساء السوداوات وعن العبودية بشكل عام؟ هل يكفي تفصيل لتغيير مجرى التاريخ؟ يدّعي بعض الناس أن مدام دوغاست، على الرغم من دماثتها، هي وراء قرار الملازم الذي وافقته على أن الأمر جوهري، ما خلا ما يخص مدارس نجويا والفرض الشامل للمدرسة الفرنسية. على أية حال، كانت النساء وسط المعركة التي نشبت بعد وقت قصير في فومبان.

حين حذّرت برثا ابنَها من مخاطر الحب، لم تكن تعلم أن السلطنة بأسرها ستغوص في دوّامات ما أصبح في مكان آخر قضيةَ (مؤخرةٍ) بكل بساطة. فهل هذا هو الحب حقّاً؟ لقد استيقظت برثا ذات يوم على طرق هراوات عنيف على بابها. وحين خرجت وجدت أربعة قنّاصين يوجّهون بنادقهم إلى أنفها. وصاح أحدهم:

ـ أين ابنك؟

كانت عيونهم محمّرة من الغضب، فاعتراها الرعب وغمغمت:

ـ ماذا؟

ـ ابنك!

الجنود مستعجلون جداً بحيث لم يعطوها أي تفسير. وركض اثنان منهم إلى داخل البيت وخرجا وهما يدفعان نيبو أمام سلاحيهما. كانت عينا الشاب تائهتين. وانهار على الغبار. جرّه الجنود من يديه وقدميه وشعره. حاول أن يدفعهم، لكن قوة أربعة رجال غلبته.

كانت برثا مستعدة لتقديم عظامها ولحمها وروحها وحياتها، أوه، هي مستعدة لتعطي كل شيء، إلا ابنها! هذا ما لا يعرفه الجنود. هم لا يعرفون أي نوع من النساء هي، كما لا يستطيعون أن يسبروا عنف حبّها. فالحب هو الذي جعلها تلقي بنفسها أمام بنادقهم، وجعلها تحمي ابنها بجسمها. والحب هو الذي جعلها تركض إلى الملازم أول برستا، وتقف تحت حصانه المخيف، وتحدّثه بلغة تقريبية ظنّت أنها اللغة الفرنسية، ولكنها بالأحرى مزيج من الألمانية والإنكليزية والفرنسية، وبكل الكلمات الأوربية التي سمعتها في فومبان، لغة حسبها الضابط أنها لغة الباموم. كان جالساً على حصانه يربت على لحيته التي عمرها أربعة أيام، ويشاهد مشهد الاعتقال بصمت، مرتدياً بزّته العسكرية المتّسخة وقميصه مفتوح على صدره، وشعره الأبيض يتطاير. كان حضوره الهادئ يسعّر عنفَ الجنود الذين أبعدوا برثا لكي يقيّدوا ابنها بشكل أفضل.

أليس الاستعمار شيئاً جيداً؟ فكّر برستا، وهو يمضغ عُصيةً ويبصق قِطَعَها. قولي لي، أليس شيئاً جيداً؟

ها هو إذن، هو الرجل الذي يشعر، وهو في سنّه هذه، بسعادة لأنه لم ينتهِ كجندي بطل مجهول، يُعطى ميدالية وهو ميت، ومسموم في خنادق المارن وفردان؛ ها هو قد بقي حياً بعد أسوأ المجازر لأنه اختار العمل في المستعمرات؛ وها هو وقد أصبح الصوت الأهم في هذه السلطنة التي عمرها أكثر من أربعمائة سنة؛ نعم، نعم، ها هو إذن، برستا، الملازم أول برستا، الضابط الذي تباطأت ترقيته بسبب قائد تافه لم يفهم أسلوبه السريع في الحكم، فأرسله إلى مؤخرة البلاد كما لو أنه يريد أن ينفيه، رجل يتصرّف بحرية كاملة للورد في المدارَين! ها هو إذن، هذا الرجل الذي قارب التقاعد وهو ما يزال ملازما أولاً، والذي يحمل في خصيتيه فضائلَ أوربا العجوز، وفي قلبه نبضات نابليون منفياً؛ وهو الذي يمشي في طول بلاد خاضعة ليحرّر شعبها ويهبها متع دستور وقانون مدني!

فمن أجل كتابة قوانين، حتى قوانين ديمقراطية، لا بد لبلدات مئوية من أن تكون لاغية. يجب على أحدٍ ما أن يأخذ هذه القوانين بين يديه ويكسرها لصالح الجميع، ففي النهاية "لا يمكن صنع العجة دون كسر البيض". كان هذا شعار برستا الذي لم يكن يعني مهمته كصانع عجة على طريقة غورينغ الخبيثة، على سبيل المثال. فلو استطاع الألماني عبر صداقته لنجويا أن يقنع هذا الأخير باللاإنسانية، نعم، وبقسوة كثير من طرق المُعاقَبة من خالق فومبان، ومن الجد نشاري يين؛ ولو أن الإنكليز مروا عبر مدينة السلطان كما لو أن أعمال هذا الأخير لا تعنيهم، وفي النهاية قدّموا له سيارة، فإن برستا كان مقتنعاً بأن رئيساً هو ضروري في هذا المكان من أجل حب التقدّم والديمقراطية. كانت ثمة حاجة لرجل قانون قادر على فرض الاحترام، وإلا فإن القانون الذي يفرضه لا يساوي الورق الذي يُكتب عليه.

لنأخذ العبودية مثلاً: ألم يأمر هو، الملازم أول برستا، أنه "بدءاً من اليوم، 15 كانون الأول 1920، لن يعمل أحدٌ بلا أجر"؟ هل أطاعه الباموم فورا؟ لا، لنأخذ أمور الزواج، ألم يصدر قانوناً بأن تعدّد الزوجات ممنوع من الآن فصاعداً في السلطنة بأكملها؟ ألم يعلن، وكان لهذا قوة القانون، أنه "لكي يعطي مثالاً، بدأ بالستمائة وإحدى وثمانين زوجة للسلطان اللواتي، وأضاف في عرضه، يملكن الحق

من الآن فصاعداً أن ينمن مع أي رجل يشأن إذا لم يدْعُهن زوجهن"؟ ألم ينفصل السلطان عن زوجاته الكثيرات؟ آه، لنفهم نفاد صبر الملازم، ففي النهاية، أليس الاستعمار أمراً جيداً؟

هو، كلود برستا، الملازم أول في الجيش الفرنسي، والمدير المقيم في فومبان، الجالس تحت ناموسية مقرّه، يمكن أن يضمّن إعلانه لحقوق باموم الحرية والأخوة والمساواة وكل ما يريده أيضاً، وأن ينسخه بأحرف مضيئة بوساطة الخطّاطين، وأن يعلّقه في كل مكان في المدينة، بما في ذلك على أبواب القصر؛ ويستطيع بحركة واحدة أن يمزّق كتاب قوانين باموم، الـ Lewa Sun Sun pa Funfun manten ne Mfen Njweya Ka let mi a yet mun nera, mbu a pu na! بكل تأكيد، برستا نفسه، إذا ما خدعته صديقته، فإنه سيدوس على القوانين التقدمية التي أصدرها بنفسه! ويستطيع هكذا أن يأتي مع قنّاصيه الكونغوليين ليعتقل ابن القحبة الذي ضاجع صغيرته، لأن هذا بالضبط ما يفعله هنا.

المرأة المقصودة هي الأَمَة التي لاحقها نيبو ذات يوم لأسباب جمالية. لقد عادت على خطا النحّات، على طول الطريق الذي لاحقها عليه؛ وبحثت عنه في فومبان كلّها. ووجدت بيته، وبدلاً من أن تناديه، ضربت نافذته ثلاث مرات وراحت تنتظر. انتظرت ثم ضربت من جديد، وحين فتح لها ابن برثا، لاقى وجهها وتذكّر جنونه الذي أصبح عمره سنتين، وضحكات سوق البهارات، وابتسامة معلّمه الخبيثة. هزّ رأسه غير مصدّق، وسألها:

ـ ماذا تريدين؟

لم تُجب الفتاة، بل ابتسمت وغضّت بصرها، فلم يلحّ عليها.

هي ترتدي ملابس الآن. هل أصبحت مسيحية؟ فكّر، ثم هزّ رأسه مرةً أخرى.

الديانة المسيحية منتشرة جداً في أوساط العبيد والنساء. وإذا اتّجه النبلاء والرجال الأحرار في فومبان نحو الإسلام الذي يعطيهم حق الحصول أو الاحتفاظ بعدة زوجات، فإن المسيحية هي ديانة العبيد الذين لا يملكون الوسائل حتى لتأمين العرس. بالطبع هناك استثناءات، وهنا يمكن ذكر موزي يبياب، هذا الابن

لأسرة كبيرة أقنعه المبشّر غورينغ وفراولين فوهرمان بالانضمام إلى كنيستهما، والصلاة بين العبيد، وحتى الزواج بواحدة منهن...

لكن لنعد إلى نيبو، لأن هذا الشاب لم يكن معتاداً على رؤية نساء يُسقطن مئزرهن أمامه. لقد هدّأ الزمن كثيراً من توتّراته، إن لم يكن كلّها، وجعلته مواهبه غامضاً. فلماذا لم يوصد درفتَي نافذته في وجه نجابدونكي؟ ألأنه، ككل رجل، لا اعتراض لديه على مغامرة صغيرة؟ من سيقول إنه لم يرَ بزوغ تعقيدات خلف ظهر هذه المرأة الجسورة جداً، من؟ ومع ذلك، اللحم لعنة، كما تقول برثا. له عودات خفّاقة، لاسيما إلى عند شاب يحسب منذ زمن طويل في مشغله في القصر مقاييس النساء دون أن تلمسه واحدة منهن. ولا حاجة للميتافيزيقا هنا. الأمر بسيط: نيبو بحاجة إلى الجنس.

- 17 -

زهـــو الجسـد

البيان الذي أخرج نجابدونكي من العبودية، ووجّهها مباشرةً إلى سرير الملازم أول برستا، صدر بعد سنة من ملاحقة نيبو لها عبر المدينة. وسرت أقاويل، لكن ابن برثا كان مغلقاً أمام إشاعات فومبان، كما نعلم. كانت نجابدونكي في السابق مملوكةً من أم نجويا التي أعطتها اسمها. ونشأتها في الأوساط التي تنتعش فيها السلطة تفسّر غطرستها. ولم ينس نيبو أنها نعتته في السابق بـ"الجرذ المتوثّب". وكلماتها البذيئة ذكّرت النحّات بالمفردات التي كانت أمه تطلقها على والده، وأيقظت في نفسه لغة صديقيه مولوام ونغباتو. لماذا يرتع المهمّشون اجتماعياً في الوحل دائماً؟ برأي نيبو، إن نجابدونكي ترتدي ملابس أوربية من أجل برستا، بكل بساطة. ومع ذلك سألها:

ـ ألستِ امرأة الرجل الأبيض؟

رأى نيبو عيني المرأة تشّعان بالتحدّي:

ـ وماذا في الأمر؟

ـ هذا بالضبط ما أسألك عنه.

اشتمّ رائحة فخ. نجابدونكي تعرف ذلك، وقالت له ما يجعله بكل تأكيد يحزن كرجلٍ رأسه مسيَّر من ذكَره المتصلّب. فقالت حين سألها نيبو لماذا أتت تطرق نافذته:

ـ إنه لا يستطيع القيام، لا يستطيع...

وكما، وحدها امرأةٌ مهجورة تستطيع فعل ذلك، فقد أبدت أكثر الوجوه ذلاً. ما الأدهى من أن تبحث في شوارع فومبان عن رجل يستطيع؟ أوه، أليس هذا مُخزٍ؟ لم يكفِها أنها وُلدت أَمَةً، فهل تريد أن تصبح مومساً؟ وفي النهاية، أليست امرأة هي الأخرى؟ وفوق هذا كلّه: امرأة من الباموم؟ وهو، أليس رجلاً من الباموم؟ لقد اعترفت نجابدونكي أن الملازم أول يعطيها أشياء، أشياء كثيرة، ويشتري لها الفساتين الأكثر غرابةً. سألته:

ـ كيف ترى الفستان الذي ألبسه؟

وفتحت يديها واستدارت ويداها ممدودتان لكي يرى نيبو الفستان الرائع والملوّن الذي ترتديه. ثم أضافت:

ـ إنه من فرنسا، من باريس.

وسألته:

ـ هل تعلم ماذا يسميه الفرنسيون؟

نيبو لا يعلم.

ـ يسمّى تصميم الأزياء.

قالت "haute couture" بالفرنسية وضحكت، ثم سرعان ما أظلمت عيناها، وقالت بصوت منكسر إنها لا تعاني من نقص الأشياء، بل من نقص الأفعال، ثم أضافت:

ـ ماذا أفعل بهذه الملابس العديمة الفائدة؟

وأردفت أنها لا تعاني من نقص في الملابس، بل ينقصها رجل، وركّزت على كلمة "رجل". ومن الواجب رؤيتها كيف تنظر إلى نيبو وهي تقول "رجل". بدت بهذه الكلمة وكأنها تنسف النافذة التي تؤطّر وجه النحّات ثم تحرّر رجلاً يختبئ خلف الجدار. ولم يكن هذا كل شيء، لأنها أضافت بعد ذلك بتكشيرة مازحة أنها بحاجة إلى "دجو مجنون مثلك". ثم تذكّرت بصوت عال كيف لاحقها نيبو عبر شوارع فومبان "في ذلك اليوم". وتذكّرت كيف نظر إلى كل جزء من جسدها، وأنه أسره بتفاصيل سجّلتها في أحلامها.

ـ هذا جنون، أليس كذلك؟

لم يُجب نيبو. فأضافت نجابدونكي:

ـ ألم تقل لي إنك تغيّرت؟

أحسّت أن ملابسها أصبحت شفّافة في روح هذا الشاب مثل جسدها في ذلك اليوم، فسألته:

ـ هل تعتقد أني نسيت؟

بكل تأكيد اتّخذت موقفه في ذلك اليوم على أنه علامة حب، ثم وضعت يديها على ردفيها وسألته أيضاً:

ـ هل تعتقد أني لا أعرف؟

نعم، لقد سمعت حديثاً عن التمثال الذي ينحته نيبو في القصر، ومن لم يسمع به في المدينة؟ ولكنها تعلم، هي نجابدونكي، أن لذلك التمثال أشكال جسمها. وأضافت وهي ما تزال مبتسمة أنها أتت إلى عند الفنّان ـ وركّزت على "الفنان" ـ لتستجيب لنداء يمنع الحياء هذا الأخيرَ من صياغته، وقد تفجّر في الشكل الصامت لفنّه.

وسألته فجأةً:

ـ أنتَ تحبّني، أليس كذلك؟

ـ ماذا؟

أيقظ تصريف فعل "أحبّ" نبيو كالماء البارد الذي يُلقى على مُسرْنَم. وأضافت نجابدونكي واثقة من نفسها:

ـ أنتَ تحبّني، أعرف ذلك.

ـ ماذا؟

ـ ولكن لا تريد أن يعلم الناس، أليس كذلك؟

ـ ماذا؟

ـ قل لي الحقيقة.

ـ الحقيقة؟

قالت إنها طرقت نافذته لأن فومبان ستُصدَم إذا ما رأتها على بابه. لم يكن برستا رجل عنف، بل هو العنف متجسِّداً. باختصار، لقد كان الرجل. هذا ما يعرفه

الناس. هل هذه أحلام المدارَين المعتوهة، الكوابيس التي تُملأ بأفاعٍ سامة، وبتماسيح مخيفة، وبجرذان مفترسة، وبسحليات وببعوض؛ أم إنه فرط الكحول تحت الشمس، والرعب من الغبش، هو ما ينتج تنتج هذه الطباع الاستعمارية؟ الناس يتساءلون، وما من أحد يستطيع أن يجيب. وثمة اعتقاد يذهب إلى أن مردّ ذلك هو نقص الجنس. وحدها مضاجعة جميلةٍ تهدّئ رجلاً غضوباً، كما يُقال.

ولإبعاد سوء التفاهم، سأضيف سريعاً ما يلي: لم يقدّم نجويا فتاة للملازم أول عند وصوله إلى فومبان لهذه الأسباب، بل لأن العادة تُرغمه على ذلك، يا للعادة الشهيرة! والفتاة المقصودة، نجابدونكي لم تدخل إلى غرفة الملازم أول إلا لتكتشف أن السعار المعروف عند رجل القانون له أصله، في الواقع، في طبقة عجزه.

ـ الحقيقة هي أنكَ أنت تستطيع أن تفعل.

تلك هي طريقتها في قلب موقف مخجل لكي يسمعه النحّات جيداً.

نيبو يصغي إليها. هي ليست بحاجة إلى امتداح جمالها، فهو يراه. وحتى لو أنه نسي ذلك، فإن يديه ستُريانه طريق جسمها كامرأة، لأنهما، نعم، ما تزالان تمتلكان مقاييس جلدها! فعندما رأى هذا الجسم، الذي فكّكه وأعاد تركيبه في أحلامه، مستباحاً أمامه، غضب. وسوّلت له نفسه أن يقتلع هذه الفتاة من الشارع، ويجرّدها من ملابسها غير اللائقة! كم مرة ستطرق نافذة الفنّان بعد ذلك؟ وخلال كم من الوقت؟

خلال شهر؟ شهرين؟

ثمة شيء مؤكَّد، حتى وإن أغفله نيبو ـ بلا مزاح ـ لن يكون النحّاتُ أولَ فنّانٍ في التاريخ ينام مع موديله. فلماذا كل هذه الجلبة التي تلَت؟ لقصته طعمٌ لا يمكن لأحد أن يمنعه عن نساء سوق البهارات اللواتي سرعان ما عرفن الرجل الذي يرتدي ثياب امرأة. لها رائحة تلك الحكايات التي يُجنّ بها النبلاء العاطلون، وفضلاً عن ذلك، فهم يعرفون نجابدونكي. لتلك الشائعة الرائحة الواخزة التي للأقاويل النادرة، ولها طعم السمك المشوي على الفحم مع البندورة. وسرعان ما عرفت المدينة بأسرها قصة المرأة التي طرقت نافذة النحّات، وعرفت همسات الشاب الذي كان خلفها. وأخذ الناس يبتسمون. لم يسمح أحدٌ لنفسه أن يروي القصة

المضحكة لصديقته الطارقة للرجل المَخون، هذا لا! صديقات عديدات فضّلن المجيء إلى أم الصبي ليحدّثنها بحذر. وهكذا علمت برثا بمغامرات ابنها السرّية. وعظته وحدّثته عن الحب وهي ترتجف. قالت له: أوه، الباموم يثرثرون كثيراً! فهل يريد أن يستعجل موته؟ هذه المرة أطاعها نيبو، فكيف يمكن أن يصدَّق هذا؟

ليس هناك امرأة أسعد منها! فقط، ليت هذه القضية تسكت! بطن نجابدونكي أنعش الأفواه المخيطة وتَتَابع على ألسنة القصّاصين اللاهثين. أخذ يثرثر في الأماكن التي صمتَ فيها الجميع، وفي قلب سوق البهارات الذي صمت مرةً، اكتشف القصة التي قرّرت كل امرأةٍ أن توصلها إلى أذنَي الملازم أول برستا. لقد نفخ بطن نجابدونكي؛ لقد انتفخ؛ انتفخ؛ متحدّياً حتى رياضيات نيبو. لقد انتفخ كثيراً بحيث وجب على نساء المدينة إخفاء الأم المُقبِلة. ففي مطبخ إحداهن وضعت نجابدونكي صغيرها الأسود كالظلام، والذي له وجه النحّات، طفلٌ أولى علائم حياته صرخة.

يمكن أن يكون لذلِّ رجلٍ أبعادُ مطبخٍ خانق. يمكن أن يكون له مساحة باحة. أما ذل الملازم أول برستا، فله مساحة سلطنة، أضخم من شجرة إيروكو في فسحة. وهو مضاعَف بشجرة الحُميرة المئوية الواقعة في وسط فومبان، لأنه ارتفع إلى قوة ذات المستعمِر. أصبح ذله أسطورة، فهو الذي أسكت سوقاً كاملةً من النساء، لكنه جعل رضيعاً ينفجر ضاحكاً. تردّدت ضحكة الرضيع في ممرات فومبان وشوارعها وزواريبها وبيوتها وغرف نومها، عبر المدينة القديمة، وأيقظت صانع العجّة من كابوسه الأسوأ. وملأه برغبة مسعورة بـ"قتل ابن القحبة الذي فعل بي هذا".

أو لا "بـ "قتل القحبة التي ضحكت على لحيتي".

لا، إذا ما فكّرنا في الأمر، الانتحار أفضل، لأن هؤلاء الناس المجرّدين من الشرف لا يستحقّون رصاصة.

قتل الطفل؟

قتل الصبي والأم وتحويل ضحكات الرضيع إلى صمتٍ، وحده يستطيع أن يعيد السلام إلى الشوارع والعالم: نساء فومبان لا يجهلن غضب برستا. أرعبتهن ضحكةُ الكون العصيّة على السيطرة، مجّدن الأمَّ وابنَها في البعيد. نجابدونكي تركت خلفها

شكّاً، بل سؤالا: " إلى أين ذهبت؟" وكذلك تركت اتهاماً غير حذر بالاغتصاب الذي اعتقدت أن بوسعها التبرّؤ منه بشكل كامل، والذي مع ذلك رمى جنود الرجل أمام باب أم نيبو، وقد ساعدهم في بحثهم الحاقد مُخبرٌ صامت وخبيث. موزي ييياب الذي تذكّر بوضوح شعر العشيق الطويل والمضفور. هكذا فإن الملازم أول برستا وصل إلى باحة بيت برثا وغضبه العظيم يفيض عن جسمه، وجنوده القساة يمشون أمامه.

ـ 18 ـ

ضحك الرضيع، إلخ...

حتى لو كانت الشهادات حول ذلك العصر بخيلة بأصوات النساء، فإن أية نسخة من هذه القضية ستكون أصح من الندبة التي تركتها على عنق برثا؟ استخدم محضرُ الضبط الذي كتبه المقدّم ملرتان، رئيس برستا، وكان مقيماً آنذاك في دشانغ، تعبيراً مخفّفاً للدلالة على ما فعله الملازم أول. فقد تحدّث عن "خطأ مهني". إننا لا نجد إلا في مذكرات نْجويا في كتابه سآنغام سرداً للأحداث كما تمّت بالفعل، حتى وإن كان مارتان، مارتان نفسه، الذي ترجم كتاب نجويا إلى اللغة الفرنسية. كتب في ملاحظة: "صفحتان انتُزعتا بكل تأكيد لأنهما تذكران أشخاصاً ما يزالون أحياء حتى الآن ويشغلون منصباً معيناً في البلاد." كتب هذه الأسطر عام 1949، في عز الاستعمار الفرنسي لفومبان، وتركنا نتحرّق لمعرفة مَن انتزع هاتين الصفحتين المهمّتين لقصتنا من كتاب نجويا، وبصورة خاصة ما يريد هذا الشخص أن يُخفيه.

الأمر واضح: يحاول المحضر الآنف الذكر أن يخفي الحقيقة المُخزية، لأنه لا يأخذ في العمق إلا رواية الملازم أول، ويضخّمها ويصنع منها نظرية للاستعمار. وتقول رواية برستا إن الفتاة التي أُوقَف شريكها، سُلّمت إليه عند وصوله إلى فومبان من نجويا، وكانت مخبِرةً لديه. وقد حاولت أن تسمّمه برأسِ سمكةٍ جافة مستخدمةً سمّاً حصلت عليه من فنّان يعمل في القصر يُدعى نيبو-اليد السيئة للسلطان ـ والذي كان شعره المضفور يدل بوضوح على "امتلاكه لأسرار النباتات، بحسب العادات المحلية". وما إن أكل برستا من الوجبة المسمومة التي قدّمتها له

نجابدونكي، حتى أحسّ بشفتيه تلتهبان. فتح فمه ومد لسانه، واحمرّت عيناه، ثم ضاق نفسه وتسارعت ضربات قلبه. ولم يتمكّن من تحاشي انفجار جسمه إلا عندما خطر بباله أن يشرب أطناناً من الماء.

سألني أصدقائي في نسيميونغ الذين تعرّفوا هنا إلى وصف كامل لتأثير وجبة مُبَهَّرة ومُفَلفَلة:

ـ هل أكلتِ طعاماً من الباموم من قبل؟

وهم على حق.

بيد أن الملازم أول برستا لم يذقها: هذا لا يمكن أن يكون إلا سماً. كيف ذلك؟ تقول القصة إن العبيد الذين استجوبهم أكّدوا أن الطبّاخة المُسمِّمة تصرّفت بموجب أمر من السلطان. ولا يذكر مارتان ما إذا كان هؤلاء العبيد قد جُهزوا على يد موزي يبياب الذي كانت لديه طموحاته الخاصة. في الواقع، المرأة التي اتّهمها برستا هي أَمَةَ أم "المستبد" التي ما تزال تحمل اسمها. أيَّ خطأ اقترف بتشغيلها في بيته، ذلك البرستا المسكين؟ نعم، أي "خطأ مهني" بقبول هذه المرأة التي "دسّها السلطانُ في خدمته"!

وأضاف التقرير: كان السلطان يريد قتل برستا لأنه تأثّر بمعاناة الطبقات الخاضعة، وأراد أن يفعل شيئاً ما من أجل "دمقرطة السلطنة". لقد فتح أذنيه للشعب البسيط، وقلبه لمعذّبي الأرض، وعمل من أجل تحرير العبيد ونساء باموم جميعاً"، "أليس الاستعمار شيئاً جميلاً؟" سأل الملازم أول. ألا يتيح الفرصةَ لأواخر الأمس بأن يصبحوا أوائل الغد؟"

فور اعتقاله للرجل، ربطه إلى شجرة حُميرة، وهذا الفعل ليس ممنوعاً، وهو لم يقُم به إلا لانتزاع الحقيقة منه، تماماً كما يريد أن ينتزعها من المدينة التي تصمت معه؛ لكي يدلّه هؤلاء الناس على مكان وجود المسمّمة، وفي نهاية المطاف، على اسم الرجل الذي يختبئ في الواقع خلف هذه المكيدة: نجويا. ثم أكّد: "لا يستطيع رجلٌ واحد أن يمنع التقدم والديمقراطية."

تحمّل نيبو الحكم وهو يصرف بأسنانه. لا، لم يتكلّم، ولم يبكِ، ولم يطلب معونة من أية سلطة. ولماذا يذكر اسم نجويا؟ خلص محضر ضبط مارتان إلى القول:

"الساكن الأصلي طفل، لا يفهم إلا لغة واحدة". لم يكن الملازم أول برستا يريد، في أعماق أفريقيا هذه، أن ينتزع دموعاً من هذا الشاب، بل أن يُري كل شخص عدالة فرنسا اللامتناهية، لئلا ينساها أحد، وأن يتذكّرها كل شخص دائماً.

"لا شيء شخصي"، أوضحت ملاحظة بقلم بيك في أسفل الصفحة.

من كتبها؟ برستا؟ مارتان؟ كيف يمكن معرفة ذلك؟ مادام الملازم أول برستا لم يُعاقَب لأن "على فرنسا أن لا تفقد ماء وجهها"، كما كتب مارتان في الخاتمة. غادر برستا فومبان بعد عامين من هذه الحادثة، بعد أن بلغ سن التقاعد، ونواياه حسنة، ولم يكن قلبه إلا متأثّراً جداً بمصير الطبقات الأضعف".

حين وصل الجنود إلى مركز المدينة مع سجينهم، أحاطت به فومبان بأسرها. الشيوخ والنساء والرجال والأطفال والحيوانات، الجميع كانوا هناك. وليس برثا فقط، بل نساء سوق البهارات جميعاً استُنفرن؛ وكل من حضر شعر بالهلع! بنادق القنّاصين تبعد أيدي المدينة الضائعة، بينما أخذت أيديهم العصبية توثِق النحّات إلى جذع شجرة الحُميرة. وما أمرهم به الملازم أول برستا نفّذوه بكل دقّة.

ـ مرة!

ـ مرتين!

ـ ثلاث!

ـ أربع!

ـ خمس!

ـ ست!

ـ سبع!

ـ ثمان!

من الذي عدّ؟ سوق البهارات. من عدّ؟ السقائف. من عدّ؟ البيوت. المطابخ. مئات الأشخاص الذبن تجمّعوا في باحة الإذلال الجماعي. قلب باموم الذي تبنّى قصة الصبي. وبطون النساء جميعاً اللاتي اعتقدن أن بوسعهن أن يخبئنه فيه. وشجرة الحميرة التي أصبح نسغُها دمَ الشاب. من عدّ؟ شعر النحّات المسترسل منذ سبع سنوات والذي كبر وكبر وانضفر مع شجرة بؤسه، شعره الذي ارتفع ليثبّت

أغصان هذه الشجرة، ويعانق السماء ليخنق عذابه بصورة أفضل. يُقال إن نيبو تلقّى من الضربات بقدر عدد أغصان الشجرة، ومع ذلك من عدّ؟

ـ تسع!

ـ عشر!

نعم، من عدّ؟ لحم رجل، لحم ابن، ولكن على الأخص لحم أم، لحم جميع الأمهات اللاتي شعرت كل واحدة منهن أن ذيل فرس النهر يدخل إلى بطنها، وبحركة قاسية يربط نفيريها. من عدّ؟ هؤلاء الرجال، نعم، الذين شعروا أن دمهم وسائلهم المنوي قد جفّا. الخصر الضعيف لهؤلاء الناس جميعاً، وبصورة خاصة برتا التي ارتمت على ابنها وتلقّت ضربةً، ضربتين، ثلاثاً، أربعاً على عنقها؟ من تلقّى ضربات سوط عنيف جداً بحيث أنه دخل في لحمه وعضّ عظمَه قبل أن ينزل فجأةً؟ من عدّ؟ المعلّم العجوز مونليبير وعيناه وسّعهما الرعب لأنه لم يرَ في حياته ما يحدث هنا، ارتمى أمام الجنود، وغطّى الأم وابنها بجسمه، وعرّض وجهه للجلادين، وبدأ سلسة من الأمثال وتوسّل إليهم بأن يتوقّفوا، لا شيء إلا أنه تلقّى هو الآخر نصيبه من السياط؟ هذا الشعب بأسره الذي يرجو الجلادين التوقّف، والكف عما يفعلون قبل فوات الأوان، والكف باسم الله! وباسم العرق الأسود!

قالت برتا:

ـ إنه ابني، لا تقتلوه!

كان جسمها مضرّجاً بالدم. وقال مونليبير:

ـ ابني!

لم يستمع الجنود إلى بكائهم. الموافقة الصامتة من ملازمهم الأول، أو على الأقل حمحمة حصانه من خلف ظهورهم تُملي حركاتهم وتزيد من نشاط أيديهم الماهرة. فهم يعلمون أن الملازم أول سيحكم عليهم بتلقّي الضربات التي لم يوجّهوها. وهم يعلمون أن بوسعهم أن يعدّوا أنفسَهم سعداءَ لكونهم من بين الذين يمنحون الألم في هذا البلد الذي هم أنفسُهم غرباء فيه. وهذا ما يُسمّى الوقوف في الجهة الصحيحة. حين ارتمى مونليبير أمام أيديهم النشيطة وأمسك

بالسوط الذي يضربون به ظهر نيبو كأداة حدّاد، وجّهوا إليه السياط الأخيرة التي كانت مخصّصة لنيبو. سأله أحد الجنود:

ـ مَن تحسب نفسك، أيها العجوز؟

ـ مَن؟

ـ دودة!

ـ قرد!

وقال الجندي الرابع للمعلّم الفنان:

ـ أنت لا شيء.

وكرّر زميله في الفصيل:

ـ نعم، ما أنت إلا حمار!

كلمة "حمار" كانت ستصفه هو لو أنه لم يكن يرتدي بزّةً عسكريةً، ويحمل بندقية قناصة، ولم يحمل سوطاً بيده. إنه يرتجف حتى عظامه لأنه جلَدَ رجلاً عجوزاً، ولكنه يعلم أن قوانين هذه البلدان جميعاً تزول أمام بزّته الثلاثية الألوان. على أية حال، لقد كفّ عن الإيمان بسلطة الأمثال منذ اليوم الذي أعطته فيه السلطات الفرنسية بندقية! هل مونليبير هو الذي أنقذ نيبو من الموت؟ أم أن جنود الانتقام هؤلاء قد تعبوا من إيلامه؟ من المؤكّد أن هذه القصة قد رويت روايةً مختلفة فيما بعد. لقد دفع النحّات العجوز ثمن شجاعته غالياً، وحين كتب خَلَفُ الملازم أول برستا قائمةَ المرحَّلين من السلطنة بعد أربعة أعوام من هذه الحادثة، في عام 1924، كان اسمه عليها.

ـ أليس لديك أم؟

السؤال الذي طرحه مونليبير طغى على الألم الذي أصاب رقبة برتا.

ـ أي نوع من البشر أنتم؟

غلَت تساؤلاته في عروق برستا، الواعي للخطر الذي يعيشه، وحده وسط مدينة مكتظّة إلى هذا الحد، وسط سلطنة سُلّم إليها تقريباً، وسط الحركات الكلامية ولغات الجسد التي لا يفهمها. أسئلة العجوز ترنّ في مزاج الجمهور المحيط الذي ظلّ صامتاً، ولكنه كان يضبط نفسه.

ـ أي نوع من الرجال أنتم؟

أليس من المستغرب أن يُهرع نغباتو ومولوام، الصديقان اللذان تعرّف إليهما نيبو في مشغل العجوز، إلى مساعدة معلّمهما على فكّ وثاق النحّات المسكين عن شجرة الحميرة؟ لم يجرؤ أحدٌ آخر على فكّ ما ربطه ضابط استعماري. إذ لا يمكن ترك رجل مضروب حتى اللاوعي متروكاً للموت وسط المدينة. ما الذي أوقف أيدي أهل باموم، الماهرة جداً عادةً؟ ثمة من يتذكّرون أن والد هذا الصبي كان قد شُنق على شجرة عذاباته هذه قبل سنوات من قدوم الفرنسيين، وحتى الإنكليز، أي إبّان الاستعمار الألماني. ويتحدّث هؤلاء عن قدَر يُغلق دائرة أرزائه. ومن حسن حظ رفيقَي نيبو أن ذاكرتيهما ليست عميقة. فالحاضر فقط، الحاضر العمائي هو الذي أملى منطق فعليهما، إذ قالا:

ـ إنه دجونا، -وهما يقصدان: إنه أخونا!

برثا تبتهل إلى السماء؛ ومونليبير يمسك بجسد ابنها. بصق العجوز، بصق ولعن الأرض. وصل نجويا بعد فوات الأوان، وقد أخبرته الشائعة التي سرت كصدى حاد في وسط المدينة، وعلم بالأحداث من مراسليه. هُرع إلى مكان الجريمة مصحوباً بحاشيته المصدومة، بمن فيهم نجي ماما وإبراهيم. في الواقع، البلاط كلّه تبعه. وحين وصل إلى جذع الحُميرة كان برستا ورجاله قد غادروا المكان. عينا الحاكم المرعوبتان لاقتا عيني الأم الجريحتين وهي تحمل ابنها بيديها، ابنها الغائب عن الوعي والمضرَّج بدمائه، وتهدهده كطفل رضيع. امتلأت أذنا نجويا بصخب السكّان الذين تضاعفوا مع استغراباتهم غير المفيدة أمام هذه الكارثة. ليست هذه المرةَ الأخيرة التي يخرج فيها السلطان إلى شوارع مدينته ولا ينحني له الناس جميعاً في حركة تبجيل، ويبدأ المدّاحون يلهجون بأناشيدهم؛ ولا تُضاء السماء بأمنيات الحكم المئوي. المأساة التي حدثت في ذلك اليوم في فومبان حوّلته إلى مواطن عادي في سلطنته. الناس جميعاً عرفوا أنه هو، نجويا، مَن يقصده الملازم أول برستا.

الجـــزء الثالـث

نجويا وموزي

لأن ذاك يستطيع النهوض، وهذا يستطيع السقوط..

دانتي، الكوميديا الإلهية

الفردوس، النشيد الثالث عشر

-1-

في الأحياء الفرعية، ثرثارو التاريخ

بينما كانت سارة تروي قصتها حول مشهد السوط، رأيت سنّها لأول مرة. عيناها شاحبتان، ويداها ورجلاها ترتعش، وصار صوتها غير مسموع، صار همساً. بدت وكأن حلقها أكلته القصة، قصتها هي. أم لأنها تكلّمت طويلاً جداً دون أن يقاطعها أحد فبدأت تفقد صوتَها؟ آه، بدت وكأنها تلقّت كل ضربة من ضربات نيبو على جلدها! كانت، نعم، كانت كما لو أن سوط القنّاصين الكونغوليين دخل إلى ساقيها، وسار في عروقها وأوقف ضربات قلبها بصرخة مخنوقة، كما لو أن ماضيها المنسي عاش من جديد وأخذ يقطّع لحمها بضربات رعب. فحين عاشت حياة هذا الصبي الذي قبلت أن تصبحه، أعطتها برثا ثدييها الممتلئين لترضعهما، أحيت الجحيم الذي كانه وجودُ الأم الحنون في فومبان.

النفاذ إلى قدَر الفنّان له ثمنه. فجسد نيبو المقطّع ترك سارة بلا صوت، مختنقة من عذابات شخص آخر. لقد فهمت أخيراً القلبَ النازف لأمٍ ملتاعة. فهي لو كانت أماً كانت ستتألّم ألماً مماثلاً لألم ابنها. هي نفسها كانت ستتمنى أن تلده من جديد، فقط لكي تغيّر من مصيره، ولتخلق له حياة أخرى، أفضل، لأن الحياة في المستعمرة حياة ملعونة، كما نعلم. ومع ذلك فقد سلكت سارة طريقاً آخر. لقد قبلت أن تكون نيبو، لكي تبتسم الأم أمامها وتعيش من جديد.

قالت لي سارة وشفتاها ما تزالان ترتعشان من التأثر تحت وطأة صرختها الصامتة، وعينيها الحمراوين من الألم:

ـ إنها لم تضربني قطّ. لم تضربني قطّ.

فقلتُ لها:

ـ الآن فهمت السبب، خلال كم من الزمن بقيتِ ابنها؟

أخذت بعض الوقت حتى أجابت:

ـ الزمن الطويل الذي استغرقه جزّ شعري.

أمسكتُ بيدها، راحتها مبلّلة بالعرق، وهي ما تزال ترتجف. ثم سألتُها:

ـ هل تريدين أن تصفّفي لي شعري؟

لم يفاجئها سؤالي، حتى وإن جحظت عيناها كما لو أني أمزح. ومع ذلك فإن كل تسلية كان مرحَّباً بها من أجل مساعدتها على استعادة الحياة بعد تلك القصة المحزنة.

قالت:

ـ انتبهي، أنا لست مزينة.

ـ أعرف.

صارحتني بابتسامة، هذه المرة.

ـ ما أنا إلا امرأة عفا عليها الزمان. مجرد امرأة عجوز.

ـ لقد سرّحت شعري، وصبغتُه، وقصّرتُه، ووضعت ميش، وكل ما يمكن أن يُباع. واليوم أستطيع أن أقول لكِ إني أصبحتُ هاوية للموضة القديمة.

انفجرت سارة ضاحكة وتمخّطت بطرف منديلها، ثم أضافت:

ـ ولكن كيف أعرف ذلك؟

جلستُ بين ساقيها، وتركتُ لها رأسي.

أحسستُ بيديها الدافئتين تمرّان على كل شعرة من شعري. لم تسألني كيف أريد أن أضفره. في الواقع لم أدَعْ لها رأسي فحسب لتزيّنه، بل تركتُ لها روحي أيضاً لتعيد تشكيلها. ومع ذلك اقترحتُ عليها:

ـ أريده مضفوراً.

ردّت باللغة الفرنسية:

— A vos ordres Madame! (طوع أمرك يا سيدتي!)

واقترحتُ عليها أيضاً مازحة:

ـ ولماذا ليس موديل 1932؟

ردّت بجدية:

ـ OK، موديل 1932.

ـ سهل التذكّر، أليس كذلك؟

ـ لننتظر ونرَ!

في أثناء حديث سارة، لم يكفّ الجمهور المحيط بنا عن الازدياد. أصدقائي في نسيميونغ الذين لا يحلمون إلا بنيويورك، والذين أثقل السأم أيامَهم، بدوا مهتمّين بالقصة الغائرة في عمق حيهم الفرعي، وبالفتاة المرتدية ثياب صبي، وبالفتاة المختبئة في المرأة العجوز، وبالصبي الذي أمسكته من يده نساءُ سوق البهارات. قاموا بزيارات عديدة إلى الأرشيف الوطني بدلاً عني، وصوّروا النصوص التي كنتُ بحاجة إليها لأرى فيها بوضوح سردَ سارة. تصرّفوا بانتباه تركني متأثّرة. حتى عصافير المقاهي الإلكترونية تركوا أبحاثهم في husband.com وانضمّوا إلى بحثنا عن القصص. وأصبح غوغل موقعهم المفضّل. مرات عديدة عادوا غاضبين ليقولوا لي إن مخطوطاً مهمّاً مكتوباً بأحرف الليوا أو دفتر شروط رئيساً، أو تعميماً هاماً أو محضر ضبط ضرورياً، تُركت في مصنّف مغبرّ، أكلت نصفه الجرذان، أو غرق في مياه التفاهة. وأقل ما يفهمه أصدقائي هو لماذا تشكّل أطلال مون بليزان جزءاً من الأنقاض. وإذ كشفت سارة بيتَ القصص المدفون تحت نسيميونغ طبقةً طبقة، فقد حوّلت حيواتهم العرجاء إلى إمكانيات غير محدودة. وإذ خُدعوا من المستقبل، علموا أن الماضي سرقهم أيضاً، واتّهموا بلا تحفّظ "إذن الدولة لا تستطيع فعل شيء!"

أرونا هو من طرح السؤال. فقد أصبح بصورة طبيعية جداً قائد المجموعة، الأكثر اندفاعاً والأكثر حيوية دائماً، نسخة مزوّرة جداً عن غانغستر برونكس بالنسبة لشاب بذكائه. قلتُ له إن الدولة الكاميرونية نفسها تُبنى على أرض الإهمال، وعدم الكفاءة وكثيرٍ من العوامل الأخرى (الفساد والمحسوبية، والدكتاتورية وكل ما تستطيع أن تخترعه جمهورية موز لدعم مستقبلها) هي وريث الخيانة التاريخية التي خلقت كابوس نجويا العنيف: تعاون الرؤساء الذي رفض السلطان

الانضمام إليه في عام 1914، والذي أفشى سرّه لصديقه المبشِّر غورينغ، مسبّباً موت بيل مانغا بيل ومارتان سامبا ونغوسو دين.

قلتُ لآرونا هل كانت الجذور القومية المُجهَضة للدولة الكاميرونية تلاحق السلطان وتسبّب له الكوابيس التي هي مصدر عذاباته؟

ـ كانت له رؤية أخرى لبلادنا.

سأل آرونا:

ـ أية رؤية؟

فسّرت: ربما كان نجويا يريد أن يجعل من سلطنته دولة ضمن دولة، لأن تاريخ باموم، كان خاصاً جداً، وحدث بأكمله ضد تيّار ما نسمّيه اليوم "الوعي القومي الكاميروني". سأل صوت أجش ومحرّض:

ـ إذن ألم يكن نجويا عميلاً؟

كلمة "عميل" عبرت الجمهور المكهرب كرصاصة حمراء، وكان آروتل ينتظر، كما قيل. فسأل الجميع بكل جرأة:

ـ أليست المقاومة شكلاً من أشكال العمالة؟

ـ أنت تمزح.

سأل الجميعَ:

ـ المقاومة تعني قبول بشائر معركة؟

ـ أكمل!

ـ ما يعني أن يكون المرء مُبتلعاً...

ـ ممّ؟

ـ من المعركة التي ليست معركتك.

ـ وبعد؟

ـ أن تُجنّد في معركة لم تبدأها.

ـ ما وجهة نظرك؟

ـ لا أحد يستطيع أن يكسب حرباً كهذه يا أخي، هذه هي حجّتي.

ـ ماذا تقصد؟

أنهى آرونا كلامه قائلاً:

ـ يكسب من يضع القواعد. وما الآخرون إلا عملاء.

يبدو أنه فهم منطق حياة نجويا الفوضوية، فبالنسبة إليه، كان السلطان سابقاً كاميرونياً قبل وجود الكاميرون. لاقى وجه أصدقائه السَئِم الذي لا يقبض أحدٌ على أسباب قوية كفايةً لإسكاته.

كنتُ أشعر بقومية صامتة تغلي من حولي كنبضات قوة ثانوية. أوه، لم أدافع عن آرونا! فكيف تسنّى لي ذلك؟ لم يدع أحداً يتكلّم. ومع ذلك، كنتُ أودّ أن أسأله: ألم يكن مون بليزان، على طريقته، تحقيقاً لوعيٍ جديد، مادامت الأصوات التي كانت تتكلّم فيه تأتيه من أصقاع العالم كافة لصنع ذواكر السلطان؟ وهل كان قدر نجويا أن يُقتلع من أرض باموم ليلِد بلداً آخر، كاميروناً آخر، وانطلاقاً من عاصمة هذا البلد نفسه الذي نفاه؟ قلتُ لأصدقائي الأعزاء في نسيميونغ أن صديقهم يملك حجة قوية، ففي النهاية لم يكن نجويا يريد أن يُبتَلَع من المقولات الكبرى- عرق أو أمة أو قارة أو الحرب العالمية الأولى! آرونا وأنا أُمطِرنا بألف سؤال، إذ سألني أحد الأصوات:

ـ عمَّ تتحدّثان. ألم يكن نجويا كاميرونياً، هو الآخر؟

ـ أفريقياً؟

ـ رجلاً أسود....؟

ـ نعم، أم لا؟

ـ إذن لم يكن يستطيع....

ـ إذن كيف تجرّأ....

خنقتني هذه الواجبات كلّها التي جعلت من شخصٍ أسودَ حقيقياً، وأفريقياً حقيقياً، وكاميرونياً صالحاً! كنتُ سأطلب من زملائي: ماذا كان سيحصل إذا لم يُرد نجويا شيئاً من هذا التلميع السيئ؟ ولكني لم أشأ أيضاً أن أهينهم، فهم يعيشون كثيراً من البديهيات، عندما كان السلطان برأيي استماعاً وشكّاً وبحثاً.

أجبتُ:

ـ الكتب تقول لي إنه كان من الباموم، هذا كل شيء.

وأضفتُ أن نجويا كان يعرف هذا كلّه من شجرة النسب التي نقلتها إليه أصوات شعبه العديدة؛ وفي القصص التي كتبها بنفسه على شكل كتاب ساآنغام، لكي يعرف كل شخص ولئلا ينسى أحدٌ. ربما كان سيقول لقوميّ الارتجاليين "بلدكم، وليس بلدي". سألتُهم: اسمعوا، ماذا تريديون؟ لقد أعطى الرجل ابنته الأولى التي كانت مسلمة اسماً مسيحياً مارغاريتا، وما هو إلا اسم زوجة غورينغ، الذي كان يناديه "أخي"! هل كان الإنكليز سيبقون على أرضه التي احتلّوها عام 1915، والسلطنة ستكون مُدارةً مع نيجيريا؟ هل كان هذا سيعني له شيئاً ما؟ بعض الشبّان يرون أن هذا خَلَقَ فارقاً بيّناً لأن المقصود مصالحه الخاصة. ولم يقفوا عند هذا الحد: فقالوا لي: هكذا، ما كان نجويا ليموت باكراً جداً لو أن الكاميرون كان مُداراً من الإنكليز! اعتصمتُ بالصمت. لقد اكتشف مخاطبيّ المتحمّسون في الأرشيف أن القوات الألمانية لم تُطرد من ياووندي، كما من فومبان، من الفرنسيين، بل من الإنكليز الذين أسروا أونغولا في الأول من كانون الثاني 1916. سألوني، ألا يجب علينا، نحن الكاميرونيين، أن نهتمّ بهذه التفاصيل؟

وسأل أحد الشبّان:

ـ أي عقد وقّعه الإنكليز مع الفرنسيين من خلف ظهورنا جميعاً لترك الجيش الفرنسي يحتل أرضاً لم يغزُها؟

لم أستطع أن أجيبه. كما سألني آرونا الذي غيّر معسكره بشكل مثير للاستغراب لينضمّ إلى أصدقائه:

ـ ما الذي دفع الأمم الغربية إلى وضع ياووندي والكاميرون بأسره تحت الانتداب السيئ؟

وشدّد على "الانتداب السيئ" وهو ينظر إلى أصحابه، فأدركتُ أنه يريد دائماً أن يقف في الجهة التي تهبّ منها الريح. وكلّماته وحّدت المجموعة في سخط متطابق.

وسأل صوت ساخط:

ـ لماذا لم تطلب منا عصبة الأمم مع مَن نريد أن نذهب؟

فسألتُه:

ـ من هو أفضل؟

لم يستطع أن يرد. في الواقع لم يدَع له آرونا وقتاً للرد، إذ قال:

ـ لماذا لم تسألنا الأمم مستعمرة مَن كنّا نريد أن نكون؟

وأضاف:

ـ وما إذا كنا لا نريد تغييراً كلياً في النظام، كالألمان بعد الحرب؟

وسأل صوت آخر:

ـ ولماذا لم تدْعُ الكاميرونيين في الشتات، أناس من أمثال ماندنغا، للتفكير باقتراحاتهم؟

ألف سؤال! أصدقائي في نسيميونغ نظروا إليّ، وإلى سارة، منتظرين أجوبة. من يحكِ قصةٍ يصبح مسؤولاً عنها. اكتشفتُ هذا في ذلك اليوم. قلتُ لهم ما أعلنه نجويا نفسه حول موضوع الجنود الإنكليز الذين دخلوا إلى المدينة المدمَّرة: "حربهم ليست حربنا."

وانتفض آرونا قائلاً:

ـ ألم أقل هذا؟

وافقته سارة:

ـ نعم يا بني، ولكنك غيّرتَ معسكرك.

انفجرتُ ضاحكةً رغماً عني. فقال محبطاً وملتفتاً إلى أصحابه:

ـ أنا دائماً إلى جانب الكاميرون.

شرحت العجوز قائلة:

ـ كان موقف السلطان واضحاً. لقد وجب على نجويا دائماً أن يكون مَن يمسك زمام قصته. قصته من أعماق فومبان إلى قصر الحاكم الألماني إبرماير، إلى الاحتلال الإنكليزي، إلى سنوات العقد الأنكلوفرنسي السوداء، حتى منفاه في مون بليزان في ياووندي، حدّدت شكل الكاميرون. لم يسافر بالفعل، بضع كيلومترات فقط، بيد أن مثلّث خطواته توسّع ليصبح بلاداً كاملة! الكون أتى إلى غرفته، مع صراعاته وجنونه، ومن تلك الزاوية كان ينظر إلى الحياة، محاولاً أن يعطيها معنى، وأن يعطيها دلالتها الخاصة، في الكتب العديدة التي كتبها.

سأل آرونا:

ـ هل كان أنانياً، قبلياً؟

أجابت سارة:

ـ كان رجلاً حرّاً.

ـ حرّاً؟

ـ كان روحاً حرةً في جسد أسود.

لم يفهم شبّان نسيميونغ ما معنى أن يكون المرء حرّاً عندما يعيش في قفص. عندما يعيش المؤرخ في مستعمرة، وعندما يرد على أوامر الفرنسيين؛ وعندما يعيش في عالم يهرب منه.

قالت العجوز:

ـ نعم، حر في اتخاذ القرارات السيئة، ولكنها مسؤولية كفاية ليدفع ثمن خياراته.

سأل آرونا:

ـ هل كان يريد أن يملك العالم دون أن يُملك منه؟

ـ عن العالم...

ـ... دون أن يُترك القول له؟

كان شباب نسيميونغ مولعين بقصة سارة، ونقاشاتهم اللامتناهية هي التي دفعت العميدة إلى إكمال قصتها، منزعجة من أنهم لا يفهمونها إلا قليلاً.

- 2 -

مطر ياووندي ليس له أصدقاء

تشرين الأول هو الشهر الأكثر أمطاراً في ياووندي. لكن المطر في تلك المدينة له عادات غريبة جداً، إذ يمكنه أن يهطل طوال أسبوع كامل، يومياً، بين الساعة الواحدة والرابعة بعد الظهر. إنه يهطل بدقة ساعة سويسرية، لكنه لا ينسى الحيوية القاسية التي يمنحه إياها قرب المدينة من خط الاستواء، ويضاف إليه ريحٌ سيئة فيلوي الأشجار ويهدم المنازل وينتزع الأسطح ويملأ نهر مفوندي. وعندما يهطل المطر يصبح الماء سيد المدينة، ويلتجئ سكّان الوديان إلى الهضاب. والموظّفون المستعمرون والضبّاط والأطباء والتجّار والصنّاع والحذّاؤون والعاطلون عن العمل والمومسات وطلاب الديانة المسيحية والراهبات، كلّهم يتوقّفون عن العمل، لأن المدينة تهتزّ روحها من هدير الماء الذي ينهمر من السماء توب توب توب ويغوص في شرايين التربة اللزجة. بعضهم ينتظر تحت الشرفات وقمصانهم مبلّلة وبناطيلهم مشمّرة حتى ربلات سيقانهم، وصنادلهم بأيديهم. يتكلّمون مع جيرانهم الغرباء، وكلّهم يشتمون الآلهة. الكلاب ترتعش موقظة الرجال والنساء المرعوبين. الديوك والدجاجات تقف على ساق واحدة ورؤوسها غائصة في أجسامها. وحدها البطّات تتبختر تحت المطر! تنفخ صدورها كما لو أنها تعرض ميداليات شرف، وتأكل الماء بنقرات غاضبة.

عَصْفُ الريح يغطّي الأصوات، لأنها تمرّ عبر النوافذ، وتفتحها بضربات قوية وتغلقها بوقاحة. تصفق الأبواب التي تريدها، وتبعثر أوراق الأشجار على الأرض وتجتاز العقول المذهولة. المطر يهطل عبر الأسطح المصنوعة من القش، والماء يبلّل

العشّاق في أسرّتهم. ولكن المطر يملأ أيضاً ثمار القرع المجفّف والمجوّف التي يضعها السكّان في دورهم لتمتلئ ماءً للشرب. بعض الأطفالُ يفتحون أفواههم للسماء لتسقط حبّات المطر في حلوقهم مباشرة. وبعضهم الآخر يفتحون أيديهم كإناء سرعان ما يملؤه ماء السماء. وكذلك هناك من يتعرّون بكل بساطة، ويركضون ويقفزون ويرقصون ويلعبون عراةً تحت المطر الذي يغنّي. وأحياناً نرى رجلاً يمشي تحت المطر ورأسه مغطّى بورقة موز كبيرة، وخطّ ماء يسيل على ظهره ويرسم طريقه في البرك التي يدوسها. وأحياناً نرى امرأةً تناضل لتتحكّم بمظلّتها المتعدّدة الألوان والتي تنتزعها منها الريح. المرأة لا تمشي، بل ترقص تحت العاصفة. ترقص مثل مامي واتا، والرجال في ملاذ، مأسورين بحركات جسمها المثيرة، يضحكون ويتكلّمون بصوت عالٍ فيما بينهم، تحت الشرفة التي تحميهم، لا يستطيعون فعل شيء سوى الكلام.

وتخاطبهم المرأة:

ـ أغبياء! إلامَ تنظرون؟

فيجيبها رجل بلا حياء:

ـ إلى إليتيك، مامي نيانغا، إلى إليتيك!

ـ إلى الأوهوهو.

ـ إلى الكوكورو يا ندولو.

ـ إلى النياما، النياما-أو

كلمات صوتيه لا تعبّر عن شيء، هكذا هم الرجال دائماً، بعيونهم الجائعة وألسنتهم الثرثارة، عندما لا يكون لديهم ما يقولونه. يضحكون ويتكلّمون لأن المطر جعل المرأة التي تمشي شفّافةً. لكن مطر تلك المدينة يمكن أن يكون قاسياً أيضاً. فمن نسي يوم اقتلع سطح أحد البيوت المصنوع من التوتياء وأخذ يؤرجحه عبر الأحياء؟ كلّهم ركضوا واختبؤوا كدجاجات عندما ترى نسراً، ما خلا أحد الأطفال، إذ لم يكن لديه ما يكفي من الوعي ليستشعر الخطر في الشوارع التي خَلَت فجأةً، وتابع الجري خلف بالونه. لوح التوتياء قطع رأسه وسط صرخات الناس العاجزة، وتدحرج رأسه مع البالون الذي كان قد أمتعه كثيراً. لا يمكن لمطر

ياووندي أن يكون ما هو عليه دون أن يوقظ رائحة الأرض، لا، عطر آسر، رائحة خلابة. تدخل إلى الأنف، وتغطّي الثياب وتسكر الروح وتملأ الهواء، بينما ماؤه يحوّل الطرقات إلى مساحات موحلة، والأحياء الفرعية إلى مستنقعات. عندما يهطل المطر فكأنه يوقظ إيسنغان، الروح الحارسة التي تسكن هضاب المدينة السبع، ويأمرها أن تمشي إلى أونغولا، مركز المدينة، لكي تنضمّ فيه إلى قوى الظلم وترمي في الوديان رعد غضبها المنتقم والظالم.

في أحد هذه الأيام الممطرة بشكل خاص، تعرّف نجويا إلى نيبو. وكان مون بليزان يغصّ بالزوار يومذاك، بأناس لا يريدون أن يتبلّلوا، فركضوا ليحتموا بسقف السلطان. رجال ونساء أتوا من بعيد ليرووا قصصهم للحاكم، ووجدوا أنفسهم عالقين هناك. عيون هؤلاء الناس جميعاً انفتحت لترقب جنون السماء. وتمسّكوا بالنوافذ والأبواب وأخذوا يشتمون المطر الذي غطّى بوحوله ثيابهم الفخمة، وأربك خططهم كلّها. يغزون الشرفات ووجوههم شاحبة، لكن عيونهم مليئة بوشوشات أرواح السماء المعاقِبة، وهم مذهولون فقط من اختيار غير مفهوم لرجل ركض طويلاً تحت العاصفة، ولم يلتجئ تحت أحد الأسقف إلا ليدرك أنه تبلّل بشكل كامل، ثم تابع ماراتونه. هؤلاء الناس ملؤوا كل المساحات المغطّاة، بينما الماء المنهمر من الأسطح يصنع تام ـ تام مستمراً في كهوف أرواحهم، تام ـ تام لا يهزّ الكون إلا لإرغامه على التجمّد. هذه المرة، ليس سقوط السلطان هو الذي أصاب بالذهول المحيطَ وأمره بأن لا يعيش بعد الآن. الناس جميعاً قبلوا الاحتمال الوحيد الذي تركه المطر لسكان العاصمة: الانتظار، ثم الانتظار. فعندما يهطل المطر يصبح الماءُ سلطانَ ياووندي؛ ويصبح الرئيس الأعلى للعاصمة، بل وأكثر: نعم، يصبح المفوّض السامي للبلاد!

كان نجويا واقفاً منذ زمن طويل قبل أن يصل نيبو. تأخُّرُ الصبي أسكت خدم الحاكم. وقصة برثا اللامتناهية أبقته مشدوداً، يجب قول ذلك. لقد ركض تحت المطر متقافزاً في البرك ومتسحّباً عبر الممرات المكتظّة. بيد أن هذا الجهد لم يكفِ لتدارك الزمن الضائع، لأن الأم الرؤوم لم تتركه إلا بعد أن قالت جملتها الأخيرة. خاتمتها الأخيرة لقصة النحّات والملازم أول العنيف برستا. فحين دخل نيبو إلى شقة

نجويا من الباب الخلفي لأن لديه نية سيئة، التقى الوجهَ المقنّع للعبيد الذين لم تقدّم لهم حياةٌ كاملة من العبودية فضيحة ظلّ يصل متأخّراً. آه، يا للأولاد!

سرعان ما اعترضه صوت متوعِّد:

ـ أنت متأخّر.

إنه نجي ماما، وقد احمرّت عيناه غضباً. ثم كرّر:

ـ أنت متأخّر!

خفض نيبو بصره كما يجب أن يفعل، وضم يديه أمام جسمه. تحوّل غضب نجي ماما إلى غضب نجي شوا الذي شجّع المعلّم المعمار على "أن يلقّن درساً لهذا العنيد".

ـ أرِه.

كان المعلّم المعمار سيجلد نيبو، وكان الجميع هنا سيوافقون على ذلك، فثمة خطأ واضح، خطأ يستوجب العقاب. منذ زمن طُرد عبدٌ من القصر لأنه تأخّر، بيد أن نيبو لم يكن يعلم ذلك. وكان ذلك الضمانة الوحيدة للسلطان ليعيش بأمان. من يعلم أي نوع من الضربات كان يمكن أن يحضّرها متأخّرٌ خلال زمن تأخّره؟ أوه، بالتأكيد تلك الفترة مرّت منذ زمن طويل، حتى بالنسبة إلى نجي ماما، ليس المطر، بل المدينة نفسها، ياووندي، أو لا: الفرنسيون الذين حلّوا القوانين التي اعتاد عليها الباموم، ورموا الجميع في الفوضى. في ذلك اليوم، صادف نيبو مرةً أخرى في طريقه سوط نجي شوا، وخنق إرادته في مناداة الأم الحنون. فهو يعلم أنه لن يفرّ من هذا العقاب. وما أمسك ذراع النجّار هذه المرة، هو صوت أتى من الداخل، صوت كهفي، اجتاز عمق الممرات المظلمة وعلّق أوامر المعلّمين بأمر صريح: "اتركا الصبي بسلام! لا تلمساه!"

إنه صوت نجويا الذي ظهر وهو يسيّر كرسيّه المتحرك. كان يرتدي ثياباً خفيفة، وأكثر من أي وقت مضى، بدا جسمه كجسم مصارع مهزوم، وأخذت عيناه تتحرّكان بغضب، فهذه أول مرة يرى فيها نيبو. وما رآه كان مثيراً للشفقة. فالصبي يرتجف كما لو أنه طفل تعرّض لمطر مداري تركه يرتعد. إنه الخوف الذي ذوّب جلده وعظمه، الخوف من السوط.

سأل نجويا:

ـ ماذا يحدث؟

ما يزال صوته يرتعش بسبب مرضه، وكان نيبو سيجيب لكنه لم يستطع الكلام. والمعلّمان صمتا، خجِلَين.

أضاف نجويا:

ـ لا تخف يا بني!

آه، نيبو كان سيتكلّم هنا أنه كان سيوقظ تاريخ فومبان في مجموعة من الأعذار الملفوظة بتلعثم؛ كان سيحكي للسلطان قصة الأم المعذّبة، وقصة الأم المجلودة بالسياط، وقصة الأم التي تتمنّى أن يولد ابنُها من جديد، مصمّمة على أن تمنحه حياة أفضل من حياة العذاب التي عاشها. كان سيذكر مأساة نيبو، الابن، الشاب، الفنان، الذي أحسَّ بالسياط تدخل إلى جسمه، دون أن يصرخ ودون أن ينادي السلطان إلى نجدته، ولا الكون على أية حال، لأن الألم أكل صوته.

قال نجويا:

ـ تعال، وقل لي ما حدث!

نيبو يعلم أن الكلمات لن تكفي لتعبّر أن معاناة البلد كلّه التي ابتلعها، والتي حلقت شعره، علامة حداد بلا نهاية. أخذت عيناه تبحثان عن الكلمات التي تستطيع التعبير عن الشساعة، الشساعة البغيضة والصامتة لعالم متألّم سمّرتْ مأساتُه السلطانَ في غرفته.

تدخّل نجي ماما قائلاً:

ـ نيبو أبكم.

همس كلماته في أذنَي نجويا، وقالت لي الأم العجوز إنها رأت عيني نجويا تتسعان وتعلّقان رقصهما. ذاك اليوم أدركت أن إحداهما كانت حولاء.

سأل بعد صمت طويل:

ـ نيبو؟

المواجهة مع صبي الظل هذا تركته متلعثماً.

ردّ نجي ماما:

ـ نعم، ألاريني، الصبي أبكم.

فتح نجويا فمه ليتكلّم لكنه حبس كلماته وسكت. أخذ يتصارع، نعم، يتصارع مع مفردات ذاكرته التي تهرب من لسانه. صمْتُ نيبو الخائف عمّق الهاوية التي وجد نجويا نفسه أسيراً فيها. وبدا الأمر كما لو أن الرجال الذين قابلوه حتى الآن لم ينظروا قطّ أمامهم إلى حقيقة انهياره الطويل. كما لو أنهم يدركون، جميعاً، للمرة الأولى أن سلطانهم سقط حقّاً. وسرعان ما استردّ نجويا قواه، وتنفّس بعمق، واستدار وسيّر كرسيه إلى غرفته. سارع نجي ماما ونجي شوا والحضور جميعاً إلى اللحاق به. بقي الصبي في مكانه لحظة، متأثّراً بسبب المشهد الذي سبّبه، وبسبب إعاقة رجل عظيم جعله معروفاً بوساطة اسمه فقط. ضربة في ظهره أيقظته وذكّرته أن إيقاع نهار سلطانٍ ليس محدّداً بتأخّر ظل.

أمر صوت نجي ماما:

ـ إلى العمل! إلى العمل!

- 3 -

حدود الشعور المعادي للفرنسيين

حصل مون بليزان على حصته من الماء. فقد هطل المطر طوال أسبوع على أحياء السكّان الأصليين. بعض البيوت تهدّمت، وفاض نهر مفوندي. أما أحياء البيض فقد بقيت جافة، وحتى سطعت عليها الشمس. وحدهما الريح ورائحة الأرض تذكران كل شخص بهذا الفصل الطوفاني الذي كان أكثر دلالة بالنسبة إلى نجي ماما.

قال لأخيه حين وصل إلى ياووندي:

ـ اعلم أنه حتى المطر يساند الفرنسيين. حتى المطر ظالم هنا!

لم يعتد المعلّم المعمار على العيش في ياووندي. فثمة أناس لا يستطيعون العيش في المنفى؛ ومهندس نجويا من هؤلاء. إنه يتألّم، ولولا السلطان لكان سيحزم أمتعته ويجمع أسرته ويعود إلى بيته في فومبان. وهو يرى أن ألم نجويا نتيجة منطقية لإقامته على أرض غريبة. اتهم الزمن، والأرض أيضاً، ثم الريح، دون ذكر سماء العاصمة. ناسياً الكوابيس التي تعمر ليالي سيده، فهو يرى أن المفوّض السامي يمسك الحلقات خلف الغيوم، وفي جذر الأرض، ومن قصره في أونغولا يتحكّم بالمطر وبالطقس الجميل. زيارة القائد النادرة جداً، وإهماله للسلطان الذي طردته مراسيمه الخسيسة من باموم، كانت كافية لإدانته بنظر نجي ماما. في الواقع، الجميع أدانوه لسبب بسيط جداً: لأنه فرنسي.

وأضاف المعلّم المعمار لأخيه:

ـ كانوا يريدون أن يقتلوا السلطان يومَ دخل إلى مون بليزان بالذات.

كان نجي ماما حاسماً، وأضاء الغضب عينيه. هزّ إبراهيم رأسه قائلاً:

ـ ألا تبالغ هذه المرة، يا نجي؟

يعلم إبراهيم أن مشاعر نجي ماما المعادية للفرنسيين أقدم من نفيه، وأن تذمّره من طقس ياووندي ليس إلا تنويعاً حديثاً. ويعرف أيضاً أن أخاه يحترم فرنسا التي قيل له إنها منبت العديد من الفنّانين، وإن كان يحمل كثيراً من الغلّ تجاه الفرنسيين.

همس نجي ماما وعيناه مفتوحتان على قرار مرتعش:

ـ لنفعل شيئاً ما، فعلينا أن نفعل شيئاً ما!

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أعرف...

وتاه وجه نجي ماما في يأس لا يعرفه لديه، وكرّر عدة مرّات: لا أعرف، لا أعرف...

قاطعه أخوه الشاب:

ـ أن نصغي لما يطلبه الطبيب، هذا ما يجب أن نفعله.

ـ أنت تمزح؟

بدا وكأن اقتراح إبراهيم قد أعاد إشعال النار في عينيه حيث لم يكن يوجد إلا رماد. وأضاف إبراهيم وهو يمسك بيدي أخيه:

ـ نجي، تريد أن يبقى السلطان على قيد الحياة، أليس كذلك؟

ـ ماذا تقصد؟

أجاب إبراهيم متوسّلاً:

ـ حسنٌ، استمع إلى الرجل الأبيض.

ـ هل تريد أن تقتله؟ كان قد سأل ذات يوم الأب فوغت نجي ماما بعد أن نفد صبره أمام عدائية المهندس المعماري.

كان ذلك في أثناء قصة الكرسي المتحرّك الذي اعترض عليه نجي ماما حتى النهاية. وفهم الأب فوغت أن المسألة ليست مسألة كرسي فقط، بل إن كلماته جاوزت الحدود. وفكرة أن يكون نجي ماما قاتلَ سلطانه فكرةٌ مضحكة! عندما لم

يستطع أن يكظم غيظه من المعلّم. ولاسيما أن الأب فوغت فرنسي! وردّ الأب: "ألزاسي، أنا ألزاسي يا عزيزي."

لم يفعل ذلك سوى زيادة ارتباك نجي ماما، إذ شعر بالرضا لأنه وجد في هذا الكاهن الكثير الحماس العدوَ الذي يبحث عنه. وقد تساءل نجي ماما، كما فعل الجميع، حول مسألة أن هذا الأب الفرنسي يتكلّم أحياناً اللغة الألمانية، اللغة الأوربية التي يفهمها السلطان بسهولة أكثر، ولكن في نهاية المطاف، لم يرَ في ذلك إلا حيلة لكي ينال تحوّل نجويا دينياً. وكان الألزاسي قد شرح له من قبل التفرّعات المتفجّرة للقومية، ولكن نجي ماما لم يُصغ إليه في ذلك اليوم.

على أية حال، كان في مون بليزان هدفاً ممتازاً لكل الفنّانين الذين يكرهونه. عندما أدرك نجي ماما أنه لن يقنع إبراهيم أيضاً، اتّجه نحو نغوتان، ولكن عليه أن يقبل مرة أخرى المتعة التي تجدها، هي أيضاً، في دفع والدها في كرسي الأب فوغت عبر ممرات مون بليزان، باختصار، تذكّر ظهورات نجي مونغو أمام الموضات الغربية ـ وأمام إبراهيم.

ذات يوم، قال لإبراهيم ولنغوتان، وكان جادّاً:

ـ أنتما تتكلّمان الآن مثلهم.

إن وشوشات هذين الاثنين الليلية هي التي منحته الذريعة التي يحتاج إليها ليعبّر عن اشمئزازه علناً. أوه، ما من قصة تبقى خفيّةً طويلاً في مون بليزان! وسرعان ما يرويها راوٍ، ويرشّ عليها الملح والبهار من خياله! وهكذا علم نجي ماما بحب أخيه لابنة نجويا.

سأل العاشقين:

ـ هل تريدان أن تقتلاه؟

ألفى نجي ماما نفسه في موقع قوة فجأةً، وعليه القيام بالهجوم المضاد، وحججه نهائية. فهو يعلم أن السلطان سيموت إذا ما علم بطيش ابنته.

سأل نغوتان:

ـ هل تريدين أن يُصاب والدك بنوبة قلبية؟

لا مكان في قلب المعلّم المعمار لفهم عزلة تلك المرأة. كما ليس لديه صبر على سعي المرأة إلى السعادة، فهو يرى أن المرأة طفل، ويجب على نغوتان أن تحمل طفولتها بكرامة أكثر لأنها نجي مونغو! إذن بقيت نسخة المرأة في هذه القضية صامتة، ونجي ماما هو من أسكتها. هدّأ إبراهيم من غلواء أخيه الأكبر وأبعد نار غضبه المهووسة عن جدران مون بليزان. بيد أن الخطّاط لا يستطيع أن يقدّم الحجج بكثير من الاندفاع بسبب زاوية المذنب التي وجد نفسه فيها. وهكذا فإن ابنة نجويا تتحمّل وحدها عذابات هوًى ليست وحدها المسؤولة عنه. حذّر إبراهيم أخاه قائلاً:

ـ ستهدم كل شيء إذا ما أخبرتَ السلطان. فهل هذا ضروري؟

لو أن نغوتان فكّرت بالعودة إلى باموم، على أية حال إن الظهور غير المتوقَّع لحبّها أعطاها الاندفاع الذي كانت بحاجة إليه. إذن إبراهيم هو مَن حرّرها من الحلقة المفرغة التي سجنها فيها انهيار نْجويا. وحده هذا الرجل كان له أجنحة كبيرة ما يكفي لوصول إليها في الأعالي حيث خبّأت قلبَها المتألّم. دفعها وسقطت كعصفور والقول إن نجي ماما لا يعيش إلا مع رحيلها، فإن الحياة في مون بليزان هي التي تطرّقت إلى همومها الأخيرة.

-4-

كل الدروب تؤدّي إلى فومبان

عندما وصلت نغوتان إلى فومبان، وجدت فيها مهمة عاجلة ما يكفي ليجعلها تقلب الصفحة بسرعة. فكيف ذلك؟ حين وصف لها إبراهيم المكان، قلّل من شأن البركان الذي يكويه بالنسبة إلى صحة السلطان، فهذا ما كان يحدث: في الماضي، كان نجويا قد شجّع العبيد على الدخول إلى المدرسة الألمانية التي أصبحت اليوم فرنسية، باختصار، أخرجهم من مدرسته التي كانت شعبية جداً، لكنه لم يكن يستطيع أن يثقّف الجميع دفعة واحدة. وكل واحد كان يريد أن يتعلّم الأحرف التصويرية التي اخترعها، ولمّا كان نجويا رجلاً منهجياً، فضّل أن يعلّم النبلاء أولاً. واختار أن يبدأ من الأعلى إلى الأسفل. ولمّا كان حلمه أن تقوم الطبقة الحاكمة، بعد أن تُثقَّف، بنشر معرفةٍ كان يوجّهها بشتى الطرق وعلى حدّ سواء إلى الأحرار كما إلى العبيد كما على أسرى الحرب الكثيري العدد في السلطنة.

لم يعارض الألمان خططه، ولكن بعد أن منع الفرنسيون مدرسته، وجد النبلاء أنفسهم في وضع متناقض. فبعد أن أصبح المنهج الذي اتّبعوه في مدرسة نجويا منهجاً عاجزاً، فإن المعرفة التي راكموها طوال سنوات الدراسة من الرياضيات والرسم والحقوق والطب والزراعة وفي مجالات أخرى أصبحت بلا فائدة. وبين عشية وضحاها تحوّلت زبدةُ زبدةِ أفضل مدارس فومبان إلى مجموعة من الأميين. وهُرعوا إلى المدرسة الفرنسية ليتبيّن لهم أن المقاعد الأولى محجوزة من العبيد وأسرى الحرب. فخلق هذا أوضاعاً غير عادية، لأن أقدم طلاب الصفوف الإعدادية

هم دائماً من العائلات النبيلة. وفوق هذا كلّه فإنهم يُعاقَبون عندما لا يعملون بجدّ، لأن المدرسة الفرنسية إجبارية للجميع!

موقفٌ أكثر من مُخزٍ، وسرعان ما صار مزرياً، لأن الطلاب النبلاء حصلوا طبعاً على علامات سيئة، طبعا عندما اجتهدوا. فهؤلاء الشبّان الذين عملوا أحياناً، طوال سنوات، كناسخين عند السلطان، ويتقنون أبجديات نجويا المختلفة كالأكاوكو والنيي نيي والمبيما، وحتى أحيانا أبجدية الليوا التي اخترعها السلطان، حصلوا على أسوأ العلامات في الإنشاء الفرنسي لأنه فُرض عليهم بالأبجدية اللاتينية التي تعلّموها للتو! كم من أبناء العبيد انفجر ضاحكاً عندما رأوا كيف لا يفهم أحد أبناء النبلاء الجالسين في آخر الصف شيئاً من العمليات الحسابية الرئيسة المعلَّمة باللغة الفرنسية ولا يرتّب الأمور، ناهيك عن الإملاء الفرنسي الذي يكتبه أحد هؤلاء الأميين الجدد، إذ إن عدد أخطائه يبلغ ضعف عدد الكلمات التي يحتويها نص الإملاء! وعندما ينفجر ابن أحد الباميليكيه الأسرى ضاحكاً في وجه أحد أعضاء المجتمع السري بانزي الذي عجز عن تصريف فعل "être" في زمن الماضي المركّب، فإن الغضب المكبوت طويلاً لصفّ معتاد على الإدارة ينفجر. صفعة قوية على خد الصبي غير المحترم أيقظت غضب أم هذا الأخير الذي جعله تعليم مدام دوغاست يدفن رائحة التحرّر. وقد أنتجت سنوات التعليم الفرنسي ثماراً غير متوقّعة عند الباموم.

هذا هو الموقف الذي وجدته نغوتان في فومبان. جمعت قواها مع قوى مدام دوغاست، وقامت المرأتان بجولة على قرى السلطنة، وأبلغتا النبلاء المتكبّرين بضرورة الاستماع إليهما إذا كانوا لا يريدون أن يخسروا معارك المستقبل. نعم، ويجب إقناع هؤلاء الرجال أيضاً بأن قصة الملازم أول لن تتكرّر بعد خمس عشرة سنة! هل يمكنهم نسيان برستا؟

قالت لهم نجي مونغو:

ـ لقد تغيّرت ساحة المعركة.

ولكنها لم تقنعهم إلا عندما أضافت: "هذه الحرب هي حربنا."

ونصحتهم مدام دوغاست بعدم ترك بناتهم في البيت بينما يرسلون صبيانهم إلى المدرسة "إذا أردتم أن لا يصبحن إماءً غداً."

ومع ذلك تبيّن لنغوتان أن قناعات نجي ماما المعادية للفرنسيين قد أنبتت جذوراً عميقة جداً لا يمكن أن تُزيلها خُطَبُها، ولا إخراجُها صداقتها مع تلك التي تدعوها بلطف "إيدليت". وعلمت أيضاً أن إشاعة اغتيال السلطان في ياووندي على يد الفرنسيين مشتلٌ واسع يأخذ كل شخص منه ما يريد من بذور الشر.

سألها بعضهم، ولحسن الحظ أن مدام دوغاست ليست مثلهم:

ـ الفرنسيون يدبّرون لاغتياله في ياووندي، أليس كذلك؟

كانت نغوتان ستسألهم كيف هي مدام دوغاست؛ ولكنهم لم يدَعوا ابنة السلطان تروي لهم قصة مون بليزان! وأقاويلهم اليومية صنعت حقيقة نسيميونغ، ولا يحق لفم نجي مونغو إلا أن يؤكّد ما يعتقدون معرفته.

ـ لقد أمرضوه أولاً، أليس كذلك؟

ـ وأفقدوه قوة يديه.

ـ وقوة الكلام.

ـ وقدميه، إيه؟

ـ وأصبح معاقاً.

ـ ثم أعطوه كرسياً بعجلات.

ـ لئلا يمشي بعد ذلك.

ـ ليجلس كميت.

ـ ليعيش كميت.

ـ ليموت.

شعب فومبان كلّه يحمل هذه القناعة التي لم تنطفئ منذ ذلك الحين، وخيال لا تستطيع معه الأخبار الطازجة من ياووندي التي تحملها نغوتان في حقيبتها أن تبدو إلا أكاذيب.

ـ ولكنه سيبقى.

ـ نعم، سيبقى.

النبلاء حبسوا أنفاسهم غضباً، وقالوا: الأمور لا تحدث بشكل مختلف في فومبان. فهم أيضاً رأوا كيف تفعل الإدارة الفرنسية كل شيء، كل شيء، من أجل تقويض الأسرة التي حكمت فومبان طوال أربعمائة سنة. ورأوا، بلا كذب، الفرنسيين يبنون سلطتهم ضد الوظائف التي لطالما شغلها النبلاء في القصر. ورأوا الفرنسيين يخلقون مواقع سلطة يسلّمونها إلى العبيد الذين لا يعدمون الحجج لإضعاف النخبة الحاكمة. فوجدوا أنفسهم قضاة لا تفضي أحكامهم إلى أية نتيجة، وحقوقهم في تسجيل الولادات والزيجات والأموات أُلغيت، تانغو الذين رأوا أفراد جمعيتهم السرّية جميعاً يُرسلون إلى المنفى، أساتذة خط أكاوكو مطرودين من القصر حيث توجد المكتبة، وأصبحوا أمّيين، شرطة قصر خالٍ من كل حياة، والأسوأ، هم ممنوعون من حمل سلاح، مغنّون لمدائح تعيش عصراً لا شيء فيه يستحق المديح، وعلماء أنساب أسرةٍ يعلمون أن سلطتها قد عُلّقت! هؤلاء النبلاء جميعاً الذين تملأ شكواهم اللامتناهية أيام نغوتان ولياليها مجروحون، نعم، مجروحون جميعاً. ينظرون إلى السماء ولا يرون فيها إلا الطيور الجارحة؛ فلا أحد يحميهم هنا! السلطان غائب:

ـ يريدون قتله، قولي لنا الحقيقة.

يجلسون في باحة قصر الأحلام كلّها الذي توقّف العمل فيه، ولا شيء مما يجري في المدينة يكذّب حكمهم القاسي، وهم الذين رأوا كيف انتُزعت القرارات الأكثر أهمية من أيديهم ومن أيدي الأسر العريقة؛ وهم الذين رأوا عبيدهم يصبحون أسياد باموم. فلأنهم لا يريدون أن يطيعوا يوماً أوامر أسراهم، أخذوا يجتمعون في باحة القصر ويمضون وقتهم بالأقاويل، وبعرق الرافيا وبلعبة النجيكا. ماذا بوسعهم أن يفعلوا غير ذلك؟ حتى أذنا السلطان أُقفلتا دون نصائحهم! وكما لو أن هذا ليس كل شيء، فأحد الرجال رفع نظره الملتهب وقال:

ـ يريدون من الآن فصاعداً أن يكون السلطان منتخَباً.

وانفجر النبلاء من حوله:

ـ منتخَب!

هذه شائعة نشرها الرجال الذين يعمل الفرنسيون معهم، وصفّق لها العبيد بكلّ تأكيد. ما هي إلا شائعة، ولكن هكذا اعتاد الفرنسيون أن ينشروا قراراتهم بين صفوف الشعب لاختبار ردّة فعل الناس، قبل أن يوقّعوا مراسيمهم ويرسلوا شرطتهم لاعتقال مَن لا يمتثلون لها.

موزي يبياب هو من ينقل في أغلب الأحيان الشائعات الفرنسية. وطوال فترة نفي السلطان فرض صوته على أنه صوت المعذَّبين، وتمكّن من عزل فومبويوم بوسائل خسيسة جعلت ممثل السلطان غير مقبول شعبياً. إنه رجل متعدّد الوجوه، ينتقل بخفة من ارتداء غندورة، زي الفولبيه، إلى ثياب من ثلاث قطع أوربية التصميم مع قبعة عالية ونظّارة أنفية. استطاع موزي يبياب أن يفرض نفسه على كل القرارات الأكثر أهمية في السلطنة، ولا يخجل من أن يُنادى باسمه الأول موسى. لا أحد يستطيع أن يفسّر أسباب غطرسته، حتى لو أنه لم يقصّر في إلقاء خُطبٍ في كنيسة فومبان الإنجيلية (وهي إرث من البعثة التبشيرية الألمانية) حيث كان العضو الأكثر تأثيراً بوصفه أحد المسيحيين الأوائل، حول المستجدّات التي أدخلتها قوانين موسى الثورية إلى بني إسرائيل. وهو إذ يشغل مركز الكاهن غورينغ الذي لم يسارع الفرنسيون إلى استبداله، ألقى عدة مواعظ حول خروج اليهود من جحيم مصر، وحاضر حول تحرير العبيد من سلاسل فرعون.

وقد ساعده كثيراً في مشروعه حول إزالة السلطان أن كتّاب السلطان وناسخيه ترجموا قصصاً وأسفاراً عديدة من العهد القديم، لأنه يستطيع أن يُغني مواعظه اللاهبة ذاكراً آيات كتبها رجال نجويا نفسه بلغةٍ يفهمها الجميع. ولئن استخدم موسى في الكنيسة إيمانه لإقناع العبيد بأنه رجُلُهم، فإن موقعه في الخارج كمترجم ساعده على إمالة ميزان السلطة لصالحه. إن ولادته النبيلة واسم عائلته قد أهّلاه لأن يكون مستشاراً للسلطان، وهذا ما لن ينساه أبداً. لا ريب في أن نجي مولوه، ولي عهد نجويا غشي المدارس الفرنسية والألمانية، ولكنه رفض أن يطأطئ رأسه فذهب إلى المنفى مع والده. ولكي تكتمل المسألة، فقد اعتنق الإسلام. إن ظروفاً كهذه تركت ساحة فومبان خالية لأول قادم- لأول وصولي!

أمطرت نغوتان موزي يبياب بالأسئلة:

ـ أوه، هل فقد الفرنسيون عقولهم نهائياً؟

موزي لم يغيّر نبرة صوته لكي يجيبه.

ـ هل تعلم أنهم ينتخبون رئيسهم أيضاً؟

هدوء وجهه أثار أعصاب ابنة نجويا:

ـ نحن لسنا فرنسيين.

ـ ثم ماذا؟

يا نغوتان: هل ذهبت إلى إحدى المدارس الفرنسية التي تكاثرت في باموم (وبطبيعة الحال، ليس إلى تلك التي تعلّم فيها صديقتها مدام دوغاست)، وقرأت ما يتعلّمه الأطفال فيها، حتى تعرف أن للسلطنة من الآن فصاعداً شجرة نسب لا تجد جذورها في شجاعة المحارب نشاري ين، ولا في نبع ريفوم؛ وستعلم أن الأطفال يتعلّمون فيها أن أجدادهم من بلاد الغال، وتظهر شواربهم على صفحات من مامدو وبينيتا من منهاجهم! ستعلم أن الكتب التي يحفظون جزءاً منها عن ظهر قلب ويلقونها وهم مبتسمون لم تعد تأخذ بالحسبان وصاية والدها على المستقبل.

قالت لموزي يبياب:

ـ السلطان ليس رئيساً.

ـ الأمور تتغيّر.

ـ وهل ينتخب الإنكليز ملكهم؟

فهمت نغوتان أن معركة فومبان ستكون صعبة. ومع ذلك لم تتوقّع هذا الكم من الخسّة. لقد سمعت بالانتخابات في نيجيريا، حيث قيل لها، أوحي ليوروبا أن ينتخبوا ملكهم ألاكي.

ردّ موزي:

ـ الفرنسيون ليسوا الإنكليز.

ـ آه، قل لي إذن!

ـ مسيرة الديمقراطية لا يمكن أن تتوقّف.

ـ ماذا تقصد بهذا؟

ـ نحن لسنا في نيجيريا.

ـ صدّقني، فرنسا نفسها ليست إلا مقاطعة من العالم.

ولكن هل كان ييياب يرغب في الاستماع إليها فقط؟ بروحه الحاسبة يرى نفسه مرشَّحاً في انتخاب سيجعله في مواجهة رئيس أسرة السلطان، فيما بعد، بعد وفاة نجويا. إن انتخاباً كهذا هو حلمه. تنازل سلطان الباموم بعيد عن سلطاته ولكنه لا يعتقد أنه مستحيل. حتى القيصر الألماني الذي شارباه على شكل W، وكان في الماضي قد زيّن جدران نجويا بصورة كبيرة، اضطرّ إلى التنازل في عام 1918 تحت ضغط الأحداث. ونهاية حكمه هزّت الألمان الذين، هم أيضاً لم يتوقّعوا ذلك. وموزي يعرف ذلك. فهو يرى أن دروب التغيير غريبة. أحياناً تأتي الديمقراطية مع فوّهات الرشاشات والمدافع وشظايا القنابل اليدوية. وتأتي أحياناً مع احتلال عسكري، نعم. ومع ذلك يبقى أن يتوّج انتخابٌ، ولا شيء غير انتخاب، يقدّس وسائله العنيفة. وكان يقول دائماً: إذا تمكّن المستقبل من إيقاظ وحوش، فهو يستطيع أن يُفضي إلى الجنة أيضاً.

اعترضت نغوتان مرة أخرى:

ـ جنة من أفراد العصابات!

لكن موزي ييياب لم يُصغِ إليها، فهو مقتنع بأنها تحمل "عقلية ما قبل الحرب"، ويقصد ما قبل الحرب العالمية الأولى. لم تفهم بعد أنه من أجل كسب انتخاب في فومبان المحتلة، ليس موقعها على رقعة شجرة النسب، ولا التصاقها بالأرض التي تحت قدميها هما اللذان يؤخذان بالحسبان، بل عدد الأصوات التي في مصلحتها في صندوق الاقتراع، وبالطبع مع تأييد الإدارة الاستعمارية الفرنسية. ولكي يصبح أحدٌ قائداً في باموم ما بعد عام 1916، عليه أن يْكون، بأي ثمن، صديقَ الفرنسيين. وهذا الفرض يستبعد نجوبا وورثته الشرعيين، في حين أن الكنيسة المسيحية والدفاع عن قضية العبودية، تعطي موزي ييياب، مساندة شعبية تمنحه السلطة في أية ديمقراطية، وهو يعلم ذلك. في الواقع، هو ليس بحاجة إلى الاستماع إلى ابنة السلطان لأن التاريخ يسير بعكسها. فإذا ما نُظّم انتخاب وأُقيمت حملات مُدارة بطريقة ديمقراطية، فإن تصويت العبيد الذي سيكسبه سيتجاوز بكثير تصويت

النبلاء مباني والرجال الأحرار الذي سيذهب بكل تأكيد إلى السلطان. باختصار، يرى موزي يبياب نفسَه منتخَباً كسلطان جديد.

قال وابتسامة عريضة على وجهه وهو يمضغ جوزة كولا ويبصقها:

ـ العالم يتغيّر. العالم يتغيّر بسرعة فائقة.

ـ وبعض الناس يريدون أن ينهار، إيه؟

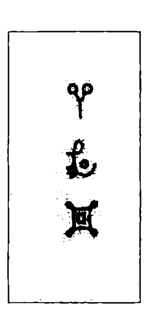
آه، كم تُحسن إدارة السخرية!

-5-

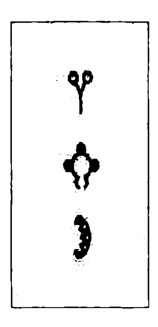
مصنع الكاتب

في تلك الأثناء كان نجويا يصارع جسده في مون بليزان. يصارع لينتزع نفسه من طبقات ذاكرته وأفعاله. إبراهيم يمسك بيده ويعلّمه الكتابة مرة أخرى. وكان الأب فوغت قد وصف عدداً من التمرينات، على السلطان أن يمارسها ليقوّي عضلاته، وركّز على أهمية الرسم. لم يستطع الكاهن أن يُقنع نجويا بالانتساب إلى عبادة ربّه الأبيض؛ ولكنه أعطاه الحجة الضرورية ليوقظ الفنّان الذي نام بداخله منذ أن أصابه المرض. وهكذا، صار السلطان يجلس ساعات في سريره أو على مقعده، ومساعداه المخلصان إلى جانبيه، ولوحٌ بين يديه، والحبر يسيل من قطعة الخشب التي تمنحه هيئة الكاتب وهي بين أصابعه.

هل نسي نجي ماما وأخوه أن نجويا يتماثل إلى الشفاء من مرض الصرع الخطير؟ على أية حال هل يستطيعان ذلك يوماً؟ وظنّا أن السلطان قد تشنّج بانتظار إلهامٍ ماثل ليصوغ النسخة السابعة من الخط الذي هو، في الصميم، عمله الأكثر أهمية. وما ترك المعلّمَين بلا صوت هو أن الحاكم، عندما بدأ الكتابة فعلاً، غاص في طفولة ذكائه، واستعاد نسخة أقدم من كتابته، باختصار، استخدم حروفاً تصويرية كَفَّ عن استخدامها منذ زمن طويل. قد تكون الذاكرة لعنة حقيقية، وهي وصية حياة أيضاً. غرق الرجلان في الصمت حين سحب نجويا يده على لوحه وكتب بأبجدية الليوا:



إنه اسمه. ونظر أحدهما إلى الآخر، حين بذل السلطان جهداً مشابهاً ونكص إلى اسم جدّه نشاري يين:



كما لو أن السلطان، وعبر جسد الكلمات، استحضر أرواح أرضه وطلب منها أن تساعده على ترميم سلطته المتآكلة. لو قال له إبراهيم إن الأجداد صمتوا أمام مأساة السلطنة، لأزالت هذه الحقيقة التاريخية جهود سيّده. فثمة حقائق يجب أن لا تُقال، ومع ذلك، يريد نجويا أن يبقى رئيسُ خطّاطيه إلى جانبه. يريد إبراهيم مرشداً لحلّ ألغاز ألمه. إنه يريد بفضل نعومة أصابعه إعادة تركيب قوة جسمه كلّها. فإبراهيم هو من أشرف في الماضي على تأليف ساآنغام في مانتوم؛ وهو من قاد عمل الكَتَبة والناسخين والخطّاطين والرسامين والمنمنِمين. من غيره كان سيشغل هذا المكان إلى جانب نجويا في هذه اللحظات التي شرع فيها آلاف الحكواتيين من جديد يملؤون بطنه بالقصص؟ وحين تحرّكت أصابعه لرسم الأحرف،

من يستطيع أن يوجّهها أفضل منه؟ وحين تعاوده ذاكرته للأشياء الشاقّة، من يستطيع أن يساعده مساعدة أفضل على الترويح عن نفسه برسم زخارف؟ من غيره؟ وإذا أعاد الخطُّ تسجيل الحياة على الأرض بلطخات حبر عشوائية، فإن نجويا يُدير معركته ضد الأرواح التي هدمت جسده قبل كل شيء على سطح لوح، بوساطة أحرف تصويرية يريدها خصبة.

اختبأ في كلماته تعدّدُ الكون، وبصورة خاصة الذاكرة المحسوسة لأحداث الحياة. كلمة بعد أخرى، وصورة بعد أخرى، وقصة بعد أخرى، يعرّض نفسَه للامتلاء الجيبي للحياة التي يكتبها من جديد. نعم، من جديد، يرى العالم وهو يستعيد شكله أمامه؛ القصر الجديد الذي بناه ولم يتسنَّ له أن يعيش فيه، يراه ينبني من جديد على شكل تراكم، لا قرميد، بل من كلمات، على هضاب نسيميونغ. يرى بيت القصص الذي سُجن في ممراته يرتبط مع قصر الأحلام كلّها ويحدّثه عن حرّيته. عندما يكتب نجويا يصبح حراً وسيّداً! من غرفته في مون بليزان هو حرّ في إدارة الحرب ضد قوى الخزي التي نشرت عفَنها عبر فومبان. إنه ليس بحاجة لسماع صوت موزي ييياب الخائن.

نجويا يصارع من أجل بقائه وهو يحمل لوحه بين يديه، وقناعته هي أنه سيكسب المعركة إذا ما أعاد كتابة تاريخ فوميان: هاكم من جديد كتاب تاريخ الملوك القادمين من ريفوم. كانت سنة 1932، وكان شهر آذار، اليوم السابع عشر، يوم اليقظة. وفقاً لحساب جميع الكتب التي راجعتُها، لم يبق له في الحياة إلا خمسة عشر شهراً وأسبوعان وأربعة وعشرون يوماً واثنتا عشرة ساعة، ويمكنني أن أقول: إن خادمه الأكثر إخلاصاً نجي ماما هو الذي زيّت جثمانه وواراه ثرى فومبان الذي اشتاق إليه أيما اشتياق. لقد دفنه إلى جانب أمه نجابدونكي التي كانت تنتظره جالسةً. ولكن بطبيعة الحال، لم يكن المعلم المعمار يعرف ذلك بعد.

- 6 -

بيـان مـوزي ييياب

كثيرون من أهل فوميان هم الذين ما يزالون يعتقدون أن معارك نجويا بدأت عام 1920، في عهد الملازم أول برستا ونجابدونكي. ما تزال العلامة العميقة التي تركها هذا الحدث في نفس كل فرد في المدينة حارقةً كالندبة التي كانت على رقبة برثا. قرّر النقيب ريبير الذي خَلَفَ في عام 1922 الملازم أول السريع الغضب أن يترك النار تنطفئ من تلقاء نفسها تحت قضية برستا. وتمنّى هو أيضاً أن يختفي بذل في صمت الصفحات، هو الذي يتذكّر منه الناس قبل كل شيء الملابس السبعة ذات التفصيلة الواحدة واللون الواحد، البيج، التي جعلت الناس جميعاً يعتقدون أنه لا يغيّر ملابسه أبداً. في الواقع، كان ريبير سيُبنى بسرعة من ذواكر الباموم لو لم يكن له قضيته الخاصة مع السلطان التي أحبطت كل من انتظروا من خليفة برستا أساليب أكثر مصالحة، أو "أكثر تحضّراً" برأي نجي ماما.

ومع ذلك، فعندما وصل ريبير إلى فومبان أمسك المصنّف المغبّر الذي وجده على طاولته، وقرأ المحاضر التي يحويها في ليلة واحدة، فهو مستعجل لفتح فصول جديدة. وقد ركّز اهتمامه على الأسماء التي كُتبت بأحرف كبيرة في النص، ولكن ما أهمية ذلك! وكان أحدَها اسم مونليبير. وسرعان ما تذكّر ريبير اسمَ هذا الرجل، ففي إحدى جولاته في المدينة، بدا له "مونليبير"الأكثر شعبيةً بين الفنّانين. شرح له موزي ييياب أن "مونليبير" يعني بلغة الشوموم "أستاذ"، وأوضح وفي الوقت نفسه أن مونليبير النص هو بالأحرى نجي كبوميه بيمو، رئيس ممر الفنّانين. وأضاف موزي، دون أن يطلب منه ريبير، أن الشاب الذي جُلد قبل سنتين كان يعمل مع

هذا المونليبير لحظة وقوع الحادث مع الملازم أول برستا، فهزّ القائد الفرنسي الجديد رأسه.

ربما استنتج في تلك اللحظة أن نيبو لا بدّ أن يكون قد تعلّم من ذلك الرجل أن يحلم أحلاماً خطرة. كما ذكر موزي يبياب الثرثار جداً في ذلك اليوم اسمَ نجي ماما الذي لم يتذكّره النقيب إلا لأنه سهل الحفظ في مجموعة أسماء الباموم الكثيرة التي تبدأ بـ نجي، والتي تربكه كثيراً. لم يفكّر ريبير كثيراً بما قاله له مترجمه، ولكن هل يحتاج إلى تفكير؟ ولمّا كان ديكارتياً كما يدّعي المستعمرون الفرنسيون جميعاً، فقد رأى في الأمر تسلسلاً منطقياً بين علة ومعلول، واستخلص منها النتائج الضرورية، وإن كانت ما تزال غير معلنة. إن الخط الأحمر الذي يربط بين نيبو والسلطان واضح تماماً، وكان قد رُسم من قبل في محضر الضبط الذي وجده على الطاولة. في الواقع، برستا ركّز فيه على تفاصيل تسميمه على يد الخادمة نجابدونكي. فقد ذكر بأحرف كبيرة اسم من أعطى السم لهذه الأخيرة (نيبو)، واسم من حاكوا مؤامرة السم ضدّه (مونليبير ونجي ماما) وبكل تأكيد اسم الذي يحرّك الخيوط السامة من قصره (نجويا). لم ينسَ أن يحذّر زميله، من أجل الانتهاء، ضد رؤوس السمكة. بالنسبة إلى النقيب ريبير، لم يعد يلزم المزيد من الحجج ليقتنع أن العجّة كلّها قد قُليت هنا بالمقادير نفسها، ولكن وقع عزمه على حرمان مونليبير من مركزه في ممر الفنّانين. هل سيمضي إلى أبعد من هذا؟ من البديهي أن نجي ماما خارج متناول يده ما دام يعمل حالياً في القصر؛ ومن غير المفيد القول إن ورشة قصر الأحلام كلّها أصبحت هكذا هدفاً للضابط.

كان القرار الثاني لريبير، وهو مفاجئ جداً، ترقية موزي يبياب. فقد وظّف موزي كمترجم لأن اسمه ظهر مراراً في تقرير سلَفِه، وبطريقةٍ تقريظية في كل مرة. لقد روى له موزي يبياب قصة السمكة وقصة السم، قصة القصر والسلطان، والأحلام والعشّاق، قصة الضربة على الإلية أمام الملأ وقصة العشيقة ـ باللغة الفرنسية وبأسلوب حي لا يقاربه أبداً نثر برستا المتعثّر. اعتراه الإعجاب ولم يكفّ عن القول فيما بعد "إن شخصاً اسود يتمكّن من التكلّم بلغتنا بشكل جيد جداً"، فعهد إلى المترجم مسؤولية ممر الفنّانين. وتلك هي أول ترقية لموزي في مراتب

الإدارة الفرنسية، وقد حدثت بعد توظيفه مباشرةً. وقد سهّلتها بكل تأكيد الشهادة المادحة كلّها كشهادات برستا، وكذلك كرسالة توصية من مدام دوغاست التي قدّمته على أنه رجل ثقة، فقد ذهب إلى دوالا عام 1913 على نفقته الخاصة لاستقبالنا". ولم تُغفل مدام دوغاست أن تضيف أيضاً: "إنه رجلنا" وشدّدت على الـ "رجل".

لم يُدْعَ نيبو قطّ إلى مقر القائد الفرنسي. ربما استنتج ريبير أن النحّات شكّل ملاحظةً صغيرة جداً في أسفل صفحات كتاب اتهاماته. وحده نجي ماما اضطرّ إلى الرد على بعض "الأسئلة الروتينية". ثم خرج المعلّم من مكتب الضابط الفرنسي متغيّراً تماماً، ومقتنعاً بتلك الفكرة المعروفة من قبل، ولكنه هذه المرة لم يعبّر عنها إلا همساً: "يريدون أن يقتلوا السلطان."

بكل تأكيد لم يصدّقه أحد. كرّر جملته مرة بعد مرّة، كرّرها كثيراً بحيث أنها انحلّت في نهاية المطاف في الصمت الذي به أخذ كل شخص يراقب أفعال النقيب ريبير منذ تلك اللحظة.

"لم يطرح عليّ أسئلة إلا عن السلطان." هذا ما قاله نجي ماما لمن أتوا لسؤاله عن الحقيقة.

خلافة مونلييبر طرحت مشكلة. ربما استطاع موزي يبياب أن يترجم كل ما قاله الفرنسيون بلغات فومبان المتعدّدة؛ ولكنه لن يُحترم أبداً من الفنّانين والحرفيين، هذا دون الكلام عن المتدرّبين. لم يكن من معدنهم. وتسليمه ممر الفنّانين يعادل وضع إدارة الجيش بين يدي شخصٍ مدّاحة! علم موزي أن عليه أن يفرض سلطته على عالم غريب عنه، ومعادٍ له بكل تأكيد؛ ومع ذلك لم يرفض ترقيته. بل سارع إلى استعارة بعض الكتب من المدرسة الفرنسية، وتثقّف سريعاً حول مبادئ الفن الغربي. وبعد ذلك دعا الفنّانين جميعاً إلى اجتماع وصفه بأنه "هام جداً". ذلك اليوم ارتدى أجمل غندوراته، وإلى جانبه القائد الفرنسي. وأعلن أن قِصر النظر التاريخي هو ما يعيق إمكانيات الفن البامومي. وأعلن:

ـ أيها الأصدقاء الأعزاء، لقد صار الفن حرّاً من الآن فصاعداً. وها قد بدأ عهد جديد من الفن البامومي.

وافقه النقيب ريبير، فأضاف المترجم سائلاً وسط صمت عام:

ـ هل فكّرتم من قبل أن تصبحوا معلّمي أنفسكم؟ كيف يمكنكم أن تعلنوا أنفسكم فنّانين بينما أنتم تُخضعون قوة إبداعكم لسلطة؟ الزمان تغيّر، يا أخوتي، وللفن مهمة أن يعكس هذه التغيّرات! في الواقع، إنما في الفن يُعبَّر عن فوضى عصرنا الصاخبة تعبيراً أفضل.

موزي يبياب يعلم أن هذه الكلمات تذهب مباشرة إلى قلوب الفنّانين.

ـ أنتم عيون رأسنا وحرّاس خيالنا، وضمير شعبنا. بين أيدكم يوجد جذر مستقبلنا. وبين أيديكم حقيقة ظرفنا، لأنكم ترون ما لا نراه، وتسمعون ما يخفى علينا. بين أيديكم القوة الاستثنائية لإعطاء اسم لعصرنا! حتى السلطان لا يستطيع ذلك!

لو أن الجميع يصغي بانتباه إلى كلمة "سلطان" لقفز كل واحد منهم، واستمع جيداً. مولوام ونغباتو يحملان بين أيديهما مثلاً أدواتهما ويشعران أن قوة جديدة أُعطيت لهما، وهما ليسا استثناء بين هذا الجمع. وخلفهما المعلّم المُقال مونليبير يعلّق على كلمات الرئيس الجديد لممر الفنّانين بملاحظات لاذعة. وهذه المرة لم يغلق عينيه، لا. وفي زاوية يقلّده وهو يبرطم.

تابع موزي يبياب:

ـ على الفنّان أن يمثّل التغيّرات التي يجتازها عصرنا، وبذلك، يجب أن يختار معسكره في معارك التاريخ.

سأله مونليبير:

ـ أها! وفي أي معسكر تجد نفسك إذاً؟

ـ أنتم كفنانين لا يحق لكم أن تكونوا حياديين! أنتم مرميّون في نهر نشي وعليكم أن تسبحوا إذا أردتم أن لا تغرقوا! من المؤكّد أنكم لم تعيشوا قطّ في برجٍ مجنون، ولكن عليكم أن تتحرّروا من سلطة معلّم واحد، حتى لو كان السلطان!

هذه المرة، ولّدت كلمة "سلطان" موجةً من النار بين جماعة الفنّانين، فجرأةٌ علنية بهذا الشكل لم تُعَش قطّ في باموم. فردّ مونليبير:

ـ وها أنتَ إذاً!

تنحنح موزي يبياب، وشرع في جملة هدّامة أخرى، بيد أن أحد الأصوات قاطعه:

ـ هل يعني كلامك أن فنّنا من الآن فصاعداً يجب أن يخدم النقيب الأبيض؟

الازدراء الذي لفظ به الصوت كلمةَ "النقيب الأبيض" لم يخفَ على أحد، وتُبع السؤال بجلبة، بعض جملها كان سينقلها ريبير، لو أنه يفهم لغة الشوموم، على أنها شتيمة للإدارة الفرنسية. طلب ترجمةً لهذه الأحاديث، ولكن مترجمه يمتلك أيضاً فن إعطاء ترجمات منحازة بحسب الحاجة، إذ أوحي له أن يقول:

ـ لا يعتقدون أن الفن حرّ في أوربا.

وهنا ريبير هو من ضحك.

ـ قل لهم إن أوربا قد صنعت فنّانين عظماء! وحدّثهم عن عظمة الفنّانين الفرنسيين الذي قرّروا أن لا يستمعوا إلا إلى إلهامهم. حدّثهم عن غوغان ودولاكروا...

حتى إن عطّر موزي يبياب فكرته بذكر غوغان ودولاكروا، فقد واصل خطبته حول حرية الفن. وراحت حركاته تزداد كنوع من تأكيد فكرته، كما لو أنه يصارع مصارعاً خفيّاً وخطراً. وقال:

ـ أفضل الفنّانين هم الذين تحرّروا من سلطة سيدهم ولم يخضعوا إلا لقوانين الجمال، لأن الجمال لا يمكن أن يُحكَم.

قاطعه مولوام بدوره:

ـ هل يعني هذا أن بوسعنا أن نبدع أعمالاً فنية ضد السلطان؟

قال مونليبير من خلف الشاب:

ـ أجب إذاً، قل لنا الحقيقة، يا جرذ النخيل!

كان موزي يعلم أن الأرض التي دُعي إليها خطرة، ولكنه يعرف أن له الحرية في عدم الرد على الأسئلة الوقحة ولاسيما تلك التي تصدر عن متدرّب الرجل الذي حلّ محلّه. ومع ذلك، لم يكن مولوام قد أنهى سؤاله فتولّى نيبو المهمة: "أو ضد الرجل الأبيض؟"

هذا الاستجواب القائم من صوتين خلق تشويشاً دفع موزي إلى الانتقال إلى نتائج خطابه. وحدث اضطراب كبير، وعَلَت الوشوشات وتعدّدت. ولأول مرة تسيطر حمّى غريبة على ممر الفنّانين. حتى سيده الفرنسي أخذ ينظر، مستغرباً هذه الضوضاء الملتهبة، فسأل:

ـ ماذا يقولون؟

تردّد موزي يبياب، فأردف النقيب:

ـ هلاّ ترجمتَ ما يقولون!

الجلبة سادت الجلسة، وماذا بوسع موزي أن يقول في الواقع؟ لقد سبّب ثورة أعصاب الجميع، ليس لأنه طلب من الفنّانين أن ينتجوا فنَّهم بحسب قواعده الجديدة فحسب، بل بالأحرى لأنه ذكّر أن القصر قد أصبح في هذه الآونة فقيراً جداً، وعاجزاً عن شراء أعمال ورشاتهم. لطالما رعى نجويا الفنّانين، وعلى أية حال هو من بنى ممراً لهم. وكان قد بُني في الماضي لأن طلبه للأعمال الفنية ازداد كثيراً، وطلب مشاركة كثير من الأيادي، بحيث أن الفنّانين الذين حُشدوا اضطرّوا إلى السكن خارج القصر. وكان السلطان بحاجة إلى تزيين القصور المخصّصة لنسائه حول فومبان، وكذلك إلى هدايا كثيرة إلى مخاطبيه الذين يزدادون باطّراد. كما أنه باع ما لا يستطيع أن يهديه في الأسواق التي افتتحها على جميع الأراضي المجاورة تقريباً. ما كان لهذا النشاط الفني أن يتمّ إلا بسبب استقرار سلطته. لكن وصول الألمان ومن بعدهم الإنكليز والآن الفرنسيين، والاستثناءات التي فرضوها على تجارته، كل ذلك قلّص قلّصت الطلب فيما يخصّ الإنتاج الفني.

كانت الطلبية الأهم التي قدّمها نجويا، من يصدّق؟ هدية يتوقّع أن يقدّمها للحاكم الألماني إبرماير، عام 1908، وكانت صناعة ماندو يينو جديد، بعد أن صادر الألمان العرش القديم. فمن من بين هؤلاء الفنانين لا يرى أن سلطة القصر في انحطاط؟ لقد انتهت السنوات التي كانت فيها أرض باموم تحفظ أفضل ثمارها لتلبية حاجات القصر بوفرة! لقد تراجعت مصادر دخل نجويا تراجعاً مأساوياً بعد قدوم المستعمرين الألمان الذين حدّوا من سلطاته، وتجارته وعمل رعاياه. لقد صادروا أفضل أراضي السلطنة من أجل مزارع موزهم ونخيلهم وكاكاوهم وبنّهم،

ولم يبقوا إلا على هامش صغير منها لإرضاء نجويا. واليوم، وبأمر من ريبير، لم يعد السلطان يعيش إلا من راتب سنوي يبلغ ثمانية عشرة ألف فرنك. وحتى إن كان ما يزال الوحيد الذي يملك سيارة في فومبان، وحتى إن كانت بعض الأشياء الأخرى تبقي له هيبته مصونة في المستعمرة، ففي واقع الأمور، لم يعد لنجويا من الوسائل ما يكفي ليكون المسيطر الوحيد على ممر الفنّانين. بكل وضوح، حين ألقى موزي يبياب خطابه الملتهب حول فن الباموم، (وقد سمّى نجي ماما هذا الخطاب بياناً من أجل عهر فن باموم)، فقد دفع الاستعمار قصر سلطان الباموم إلى الإفلاس.

أوه، إن موقع نجويا بوصفه سيداً للفنّانين قد استُبدل أحياناً بموضة النبلاء الذين أبقوا جيداً الصاغة والنحّاتين نشيطين. ولأن الموضة ناظم جاحد للفنون، فإن الأقنعة والتزيينات في الممر فقدت شعبيتها عندما افتتح هير هابيش محلاً في فومبان. نساء فومبان جميعاً لا يرغبن إلا في سلاسله الذهبية، والساعات السويسرية سلكت طريقها إلى معاصمهن، مُتكتكةً قلوبَهن وأرواحَهن. قليلات منهن فقط بقين وفيّات لفن المعلّمين صاغة الممر. وبخطاب موزي يبياب، لم يُعطِ إلا ضربة عصا أخيرة على مؤخرة منحنية من قبل، كما يمكن القول. وسنتذكّر نساء بلاط نجويا الأنيقات جميعاً وهن يستمتعن في تصفّح كاتلوج كيل لمحل هابيش من أجل طلب طلبيات كن في الماضي يحجزنها بلا أدنى شك عند معلّمي ممر الفنّانين. هل تستمتع كثيرات من هؤلاء النسوة النبيلات حقاً بموت فن باموم؟ أما نغوتان، فقد اعترفت أن هذا الموت ينذر على طريقته بموت أبيها.

والفنانون ليسوا بحاجة لشرح الموقف، فهم يعيشونه عبر تغيرات الطلبيات التي يتلقّونها. فقد صاروا ينسفون أكثر فأكثر المنحوتات التي لن يشتريها أحد، ليصنعوا منها منحوتات أخرى على نمط تلك التي تُباع عن هير هابيش. في الواقع، عندما ألقى موزي يبياب خطابه تعلّم معلّمو ممر الفنّانين الخضوع لطلبات الأسياد الجدد الذين من أجلهم يعتّقون صناعياً منحوتاتهم "لكي يعطوها مظهر الأصالة"، وهم مضطرّون لفعل ذلك، فتلك مسألة بقاء. ومونليبير من القلائل، بل هو الوحيد الذي قاوم ثورة المال الخبيثة.

ـ هل هذا يعني أن علينا أن ننحت عاهرات بدلاً من نساء نبيلات؟

الأسئلة ليست برسم الإسكات.

ـ وهل علينا أن ننحت بالطين بدلاً من الذهب؟

هذه النقاشات كلها سبقت بكل تأكيد لحظة أعطى إبراهيم، بأسلوبه الخفيف، الورشات الإذن باتّباع الموضة السياحية، ما جعل الورشات كلها تعمل، وطرد نهائياً الفنّان من نفس كل شخص. موزي يبياب يعرف جيداً الظرف الأكثر فأكثر احتضاراً لهذه الورشات. لذا لم يكن بوسعه إلا الابتسام لأسئلة مولوام ونغباتو التي استشفّ أنها موحاة من مونليبير. هو يعلم أن أصوات الرفض هذه هي محاولة أخيرة لمجموعة محبَطة ومهزومة من أجل إنقاذ كرامتها بالانتحار في اللهيب شبه المنطفئ. العجوز محكوم ومعه فنّه. هل المترجم مستعجل جداً ليرى فناً جديداً يولد؟ هل فضّل أن يسرّع الحدث بنفسه؟ ولو طُلب من مبرّراته فكان سيقسم على حبّه لفن باموم، على الرغم من أن كثيرين يرون أن طموحه السياسي هو دافعه. الحقيقة هي بكل تأكيد عند منتصف الطريق:

ـ ماذا يقولون؟ سأل ريبير.

فأجاب موزي يبياب:

ـ إنهم يناقشون ما قلته لهم.

ولم يلحّ الأبيض.

- 7 -

كيف يمكن أن يكون الإنسان أسود وفاشياً؟

كيف نسيتُ ما وجده آرونا وأصدقاؤه في الأرشيف؟ سنة أحداث فومبان، 1924، وفي الشهر نفسه، أيلول، ويومَ ألقى موزي خطابه، 18، مع بضع ساعات من الاختلاف، حدثت مواجهة في ياووندي بين صديقين حميمين. تلك المعركة هي أول ذكرى حقيقية تحتفظ بها سارة عن أبيها. وبدت العجوز حاسمة: الصداقة بين شارل أتانغانا، السياسي، وجوزيف نغونو، الشاعر، ما كان بوسعها أن تستمر على قمم الفرح. كان الرجلان أكثر اختلافاً من أن يتعانقا طوال الوقت. والندم الوحيد في هذه القضية أن ينسحق طبع أحدهما على الآخر في أثناء احتفالات الزواج، وبصورة خاصة أن هذا تمّ في عرس أتانغانا وجوليانا نغونو.

بدأت القضية في بيت الزوجين الشابين اللذين كرّمهما جوزيف نغونو بلغتهما، بعد أن وعظهما الأب فوغت وبارك زواجهما. بدأت القضية، نعم، والعروسان ما يزالان بلباس الاحتفال، الرئيس في التكسودو الجميل، ويعتمر قبعة اسطوانية سوداء، وفي يده اليسرى سيجار كوبي، وجوزيف أيضاً في تكسودو مستعار، أسود أيضاً، ويده المعاقة في جيب بنطاله. وجوليانا واقفة ترتدي فستاناً أبيض، تحرّك يديها المقفّزتين، وتطلب من الشخصين الهدوء، الهدوء، بحق الرب، وأن يتناولا كأساً من النبيذ، أو البيرة أو أي شيء آخر، بدلاً من أن يجرحا نفسيهما بكلمات سيئة جارحة.

فماذا حدث؟

انفجر صوت شارل أتانغانا فجأةً: "تبدو يا صديقي وكأنك أصبحتَ أحد أولئك الفاشيين!" ونصب أنفه وجسمه بحسب حركة شتيمته الهادئة، التي قطعت كلام كلّ منهما، وانتظر بأناةٍ رد نغونو، وهو يسحب من سيجاره.

فكّر نغونو: "فاشي!"

وسرعان ما تذكّر أدولف المشورَب، فرنّ صدى الصوت العنيف لهذا الأفّاق في أذنيه مرةً أخرى. تذكّر يده التي لا يعود بوسعه أن يمدّها للسلام دون خجل، لأن فيها إصبعين مبتورين. وتذكّر مفوضية الشرطة في برلين حيث أمضى عدة ساعات لم يسأله الشرطي خلالها إلا سؤالاً واحداً: "هل أنتَ ماركسي؟"

أوه، هؤلاء الشرطيون الأغبياء لا يعرفون إلا هذا السؤال الغبي! ولماذا ماركسي؟ تساءل. وهو الآن فاشي!

وإليكم الأحداث: قال جوزيف نغونو إن الوقت قد حان "في بلادنا لينظّم السودُ أنفسَهم ويمشوا إلى أونغولا، مركز المدينة، ويطالبوا بقيام جمهورية الكاميرون". وأضاف أن الوقت قد حان، حان تماماً، ليدرك الكاميرونيون أن أيام الاستعمار في بلادهم قد توقّفت مع نهاية الإدارة الألمانية، وإنهم صاروا أحراراً منذ ذلك التاريخ "أحراراً كلياً"، أحراراً مثل الألمان على سبيل المثال، الذين لم ينتظروا الإذن من أحد في نهاية الحرب عام 1918 ليعلنوا أنهم جمهوريون مضاعفون، ودفنوا بالفعل الحكم المطلق الذي سيطر عليهم حتى ذلك الحين وأودى بهم إلى الجحيم الذي استطاعوا الفرار منه. الكاميرونيون هم أيضاً أحرار، قال نغونو، أحرار في أن يصوّتوا لمن يريدون أن يكون قائدهم، ويختاروا الرئيس أو المستشار أو السلطان أو مَن يريدون، وحتى "أحرار في انتخاب الشيطان إذا أردنا ذلك، لأننا أحرار في أن نرتكب أخطاء ونحن مسؤولون بما يكفي لندفع ثمنها."

ردّ عليه أتانغانا، بالفرنسية هذه المرة:

ـ صديقي العزيز، نحن هنا لسنا في ألمانيا!

لم يفهم نغونو الصلة، فأضاف شارل:

ـ نحن جمهورية! ألا تعلم هذا بعد.

ـ هل تقصد جمهورية مستعمَرة؟ كيف يمكن أن تكون جمهورية مستعمَرة؟

وهذه المرة توجّه ليس إلى شارل أتانغانا المزهو بتكسوده، والمستمتع بسيجاره، بل إلى الوجوه العديدة التي تجمّعت من حولهما:

ـ جمهورية مستعمَرة

كرّر ذلك وانفجر ضاحكاً وهو يضيف:

ـ الفرنسيون يتسلّون!

قاطعه أتانغانا:

ـ لا، الجمهورية الفرنسية يا صديقي العزيز، نحن مواطنون فرنسيون.

ردّ نغونو على هذه العبارة باقتضاب:

ـ ولكننا لسنا فرنسيين.

هذه الجملة المقتضبة أحدثت صمتاً. كان شارل أتانغانا سيسأله: "وهل أنت مواطن ألماني؟" وكان النقاش سيستمرّ على شكل مشاجرة بذيئة. فمن يجهل أن جوزيف نغونو قد دخل إلى معتقل بعد عودته من ألمانيا، متهماً زوراً بالتواطؤ مع العدو" لأنه عاد من هناك؛ وأنه على الرغم من شهاداته وتأهيله وتجاربه، فإن مواقفه الراديكالية لم تجلب له إلا المصائب؟ وكان عاطلاً عن العمل. والجميع يعلمون أن شارل أتانغانا غيّر طريقة كتابة اسمه الأول، كما عرف الجمع بصورة خاصة قراره بألاّ يعيش من جديد سنوات منفاه في مانتوم عند الباموم.

ومن يجهل أنه هو، شارل أتانغانا، من يستخدمه الفرنسيون لإدخال الكاكاو إلى جنوب الكاميرون ليحل محل الفستق الذي كان حتى ذلك الحين مصدر الدخل الحقيقي لتلك المنطقة؟ ويكفي النظر من نافذته لرؤية مزرعة الكاكاو الشاسعة التي أنشأها "ليعطي القدوة". سرعان ما نسي الفرنسيون صداقاته مع الألمان، وهو الذي خبّأ ضباطاً ألمان في مزرعته في ياووندي حتى عام 1916، حين دخل الإنكليز إلى المدينة. كما نسي الفرنسيون أن الرئيس تبع أصدقاءه الألمان إلى غينيا، وفرناو دو بوو؛ وأنه دافع عنهم في عدة محاكم أوربية، بعد زمن طويل من خسارتهم الحرب. آه، الناس يعرفون حقيقة حياة شارل أتانغانا بالتفصيل، ويعرفون هذه الأغنية:

شارل أتانغانا، الحرب انتهت.

هيه! شارل أتانغانا، الحرب انتهت!

والمدافع كُسرت.

اركض بسرعة، لماذا تبقى هنا؟

وأنتم جميعاً أيها الإيووندو، اركضوا بسرعة!

تعالوا واركضوا بسرعة، أيها الأخوة الأعزّاءَ

من لا يعرف هذه الأغنية التي تلخّص موقفه طوال الحرب؟ والمفوّض السامي الفرنسي أغمض عينه عن "هذه الأخطاء الصغيرة" للرئيس، لأنه يستخدم "كلامه المؤثّر" لإقناع الإيووندو بزراعة الكاكاو، كما توحي له بذلك الإدارة الفرنسية. وأتانغانا الذي كان ينتظر الفرصة لاستعادة السلطة التي جعله الألمان يشمّ رائحتها، لم يفوّت فرصة الدخول إلى مدينته، ياووندي، جالساً على عربة. نعم، الناس يعرفون من يؤمّن ثروته اليوم وبأي ثمن. يعرفون أن شارل أتانغانا يستخدم مئات العمال من إثنيته في مشاتله، ويفرض عليهم ظروفاً أسوأ من ظروف المستعمرين، ويرغمهم على العمل كعبيد. ويعرفون أن رجاله المخلصين يجلدون من لم يدفعوا الرسوم، ويمسكون بهم في الأدغال عندما يركضون للاختباء فيها، ويعيدونهم إلى المدينة مقيّدين. ويعرفون أيضاً أن هذه الحماسة كلّها هي طريقته في جعل المستعمرين ينسون محبته للألمان. على أية حال، ألم يختاروه لأنه الأضعف؟

من البديهي للجميع في يوم العرس هذا، أنه ما عدا التاريخ المشترك بين شارل أتانغانا وجوزيف نغونو، فإن حياتيهما ستتصارع بعنف يتخذ التاريخ شاهداً، وينثر قصصه المخزية في الصالون. فجأةً، لم يعودا أصدقاء، ولا حتى صهر وابن حمٍ. شرفهما بلا حدود، والمأساة الحقيقية هي أنهما اختارا أن يفرغا جعبتيهما في هذه المناسبة.

تدخّلت جوليانا نغونو مرة أخرى، ولكنها لم تستطع منع أخيها من أن يقول ما بقلبه، فصرخت:

ـ أنتي زامبا أوام، يا إلهي، لماذا لا تسهّلوا الأمور، أنتم الرجال؟ هل تريدان أن تقتتلا؟

وساندتها أصوات من خلفها:

ـ نعم اتركا هذا.

ـ واقتربا واشربا كأساً.

ـ نعم، نبيذ.

ـ أحمر أو أبيض؟

ـ بيرة!

ـ زجاجتان من البيرة.

ـ لا يوجد خمر نخيل هنا.

ـ خمر نخيل حقيقي؟

ـ ألا يوجد خمر رافيا؟

ـ وبيرتي؟

ـ لدينا البيرة.

ـ بيرة الذرة.

ـ وبيرة الموز؟

ـ والعرق؟

ـ بيرتي، أيها القذر!

ـ العرق غير مشروع.

ـ ممنوع.

ـ ممن؟

ـ لماذا؟

ـ أكيي، آه يا أخي، تريد أن تشرب أنت أيضاً أم تتكلّم في السياسة؟

حتى الشراب لم ينفع! فنادت جوليانا نغونو زوجها مرة أخرى:

ـ تعال يا شارل، هيا نرقص.

ومشت في فوضى الأصوات المتواصلة، لكنّ الرئيس لم يتبعها. إن مشاجرة أتانغانا ونغونو ليست من المشاجرات التي تنطفئ بسهولة، بل يجب أن تستمرّ إلى النهاية، حتى وإن انتهى أحد المتحاربين بقطع رأسه.

أضاف نغونو ببطء لكي يمنح كلامه مزيداً من الفخامة:

ـ فيما يخصّني، يومَ ولدتُ كنتُ كاميرونياً.

قاطعه أتانغانا:

ـ وكيف عرفتَ ذلك؟

أحدث هذا الردّ حركةً في محيطهما. وأضاف الرئيس وازناً كل كلمة من كلماته موحياً أن الناس يعتقدون أن نغونو فاشي. "ولماذا فاشي؟" تساءل نغونو.

اهتزّ نغونو من اختيار أتانغانا لكلماته. وعبر النميمة قرأ عبارات الوشاية. وخبر زحف موسوليني إلى روما بلغ المحمية وأحدث نوعاً من فقدان الأمن بين المسؤولين الفرنسيين الذين يمضي صديقُه أيامه معهم. لقد خشي الفرنسيون أن يعطي هذا الحدث المستعمَرين، ولاسيما من يقرؤون الجرائد منهم، فكرة "توحيد العرق الأسود". وهؤلاء من يسمّونهم "فاشيين". ونغونو يرى العكس، فذكرى السنوات الصاخبة التي عاشها في برلين هي التي ولّدت ما يمكن أن يكون مطالبة بجمهورية الكاميرون.

كان شارل أتانغانا سيسأل صديقه في أي جهة يقف عند المطالبة المضاعفة بالجمهورية الألمانية التي تلهمه كثيراً، حتى يُفهم معنى السؤال. ولكن "فاشي"؟ فنغونو يتذكّر جيداً النقاشات التي حدثت في برلين، في بيت المنفى، مع مواطنين من الأنواع كافة، وسط أطفال يلعبون هنا وهناك ويضحكون ويبكون. تذكّر ماندنغا الذي لم يكن يكفّ عن الحلم بأنه يغادر بالسفينة إلى الكاميرون التي سيدخلها مع أسرته كلّها "ليفعل فيها شيئاً ما". ويتذكّر نغونو السؤال الذي طُرح عليه مراراً: "لكن ماذا ستفعل؟"ويتذكّر اليوم، وفي لحظة يأس حقيقي، ومسكوناً بمزاج سيئ ومُعدٍ سبّبه فقدان الحرب في عقل الألمان، صرخ: "لقد هُزمنا!"

نظر المؤجّر في عينيه وأجاب:

ـ بل إننا لم نبدأ حربنا بعد، يا بني، فكيف هُزمنا؟ انظر إلى خارطة لقارّتنا ـ قال وهو يسحبه نحو إحدى الخرائط ـ الأسماء الوحيدة التي تجدها عليها، تجدها هنا في أوربا أيضاً. انظر، لديك هنا السودان الفرنسي، والكونغو البلجيكي، والكاميرون الألماني، أو الكاميرون الإنكليزي والفرنسي كما يقولون

اليوم، وموزامبيق البرتغالي. انظر حتى إلى غينيا إسبانية صغيرة! والشيء الوحيد الذي ينقص هو وجود نوبة سويسرية! أين نحن في هذا كله، نحن الأفارقة؟ هل تعلم أننا كففنا عن الحياة؟ هل ترى خطأ المستعمِرين؟ إنه دائماً تصوّر أفريقيا بلا أفارقة، كما على خارطة. لا ترتكب الخطأ نفسه، لأنه سيأتي اليوم الذي سنعيد فيه، نحن الأفارقة، خلق قارّتنا! وفي ذلك اليوم، سيستيقظ العالم على قصف مدافع أبنائنا الأعزة.

هذا ما قاله ماندنغا المؤجّر. وأُضيئت عيناه برؤية انتهاء الاستعمار وقيامة مستقبل أفريقي. ثم أضاف:

ـ ولكن لماذا نعتمد على الآخرين؟ علينا نحن أن ندافع عن أنفسنا!

هذه الذكريات البعيدة ترنّ في روح نغونو في حين أنه في هذا البلد الذي عاد إليه، سمع شارل أتانغانا يحدّثه عن الجمهورية الفرنسية التي تضمـ"نا"، وكما لو أن أتانغانا يقول له: "نحن هُزمنا."

نظر نغونو إلى صديقه الذي، بعد أن انتقل مع أصدقائه الألمان، يرى نفسه اليوم مواطناً فرنسياً، وكظم نغونو ضحكةً أحكمت ثقلها على صدره فجأةً، واستنتج: "إنه لا يستطيع أن يفهمني."

أشخاص عدة تحلّقوا حول المتشاجرين بالكلام، ولم يجرؤ أحدٌ على القفز إلى حلبتهم، حتى جوليانا رفعت كتفيها في حركة لامبالية، لأن زوجها لم يلتفت إليها إلا ليطلب منها كاساً أخرى من النبيذ. وهذه المرة نغونو هو من أعلن أنه عطشان، وسأل ما إذا كان شارل يريد أن يشرب معه كأساً. وحين حمل كل منهما كأسه في يده، نهض رجل النهار، والتفت إلى صديقه، جوزيف نغونو، وناداه "يا أخي"، ثم سأله بعد أن سحب من سيجاره بعمق:

ـ إلى أين وصلنا؟

وما فاجأه كثيراً أن نغونو أجاب:

ـ اذهب وارقص مع زوجتك، فهذا لا يستحق العناء.

كان شارل أتانغانا أكثر من موافق. كيك-ووك انتزعته من مقعده، وسرعان ما أخذ يقفز في الصالون بحركات بطة غير منتظمة ليضحك الحضور. ومع ذلك فهم

يعرفون أن النقاش الحامي لم يُعلَّق. وارتفع صوتٌ أو صوتان يقولان: "تهانيّ يا أخي!" مخاطبين جوزيف نغونو. ولكن هو أيضاً كان ذهنه في مكان آخر. ومن لم يكن ذهنه في مكان آخر؟ هل هنّأه الشخصان لأنه نجح نجاحاً كبيراً: زوّج أخته من الرجل الأكثر لمعاناً ونفاقاً في المحمية؟

كل شخص هنا يرى أن المستقبل انفتاح أكثر منه ساحة معركة. ولم يشعر نغونو من قبل بهذه الرغبة في الانعزال ليدخّن سيجارة. ولم يغلق الباب خلفه حين غادر الجمهور السعيد.

- 8 -

يـــوم الـحسـاب

كانون الأول 1932، ثمة قصص تحتاج لأن تُقال، من أجل المستمع، تماماً من أجل المستمع. وقد تبين لكل شخص كم غيّرت السلطانَ الألفُ قصة التي قيلت في مون بليزان. فقد استعاد وزنه، وانتظمت هيئته، وطلب المزيد. ووجهه يشع بِشراً حين يُسعد بالأمور التي تروى له، كعطر غريب، وبريق روحه يسرّ زوّاره، ويكون ذلك أصح عندما يستمع إلى قصة سمعها قبل أسبوع أو قبل شهر. ويُسرّ نجويا كثيراً عندما يعرف نهاية الحكاية. استغرب بعض الأشخاص هذه الحاجة إلى التكرار، ولكنّ آخرين عدّوا مزاجه الطيّب علامة. ها قد مرّ عامان وهو سجين شقّته. وأذنا الحاكي شريتا أصواتاً متعدّدة من الكاميرون بأسره، ومن أفريقيا بأسرها، نعم، ومن العالم بأكمله، كلّها أتت حاملةً شهادات على حيواتها. وسرعان ما استعاد قوة صوته السابق، ولكنه لم يستعد دقة يده. فما زالت أصابعه تفتقد مهارتها التي كانت قبل مرضه. إنه يفعل ما بوسعه لُيخفي تدهور صحته ليفرّ من شرك روحه. على سبيل المثال، زاد من عمل ذاكرته. وإذن، بالإضافة إلى القصص الطريفة للكون المسجَّلة في كتاب الزمن، فإنه أعاد تركيب شجرة نسب جسمه. والكتابة هي دواؤه الحقيقي والأحرف هي مقادير صحته الحقيقية. وآخر موقع لمعركته مع جسمه، يقع في لوح كتابته، وإبراهيم معلّم الخط، واثق من أنه سيكسب هذه المعركة.

كان نجويا يكتب في البداية ليشفى من مرضه، ولكن سرعان ما اتّخذت الكتابة أهمية مختلفة. الأشكال والأحرف والظلال التي يخربشها بكسل في البداية، وبملل

فيما بعد، سرعان ما أصبحت أشكالاً منهجية. أصبحت صوراً، وجوهاً. ولما كانت الذاكرة رقابةً، سرعان ما اكتشف حدود زوّاره. لقد أدرك أن هؤلاء يروي بعضهم قصصهم للبعض الآخر، وغالباً جداً ما يعودون إلى القصص نفسها بسبب نقص إلهامهم. يكرّرونها قبل أن يرووها له، وغالباً ما يختارون القصص التي تمتّعه أكثر. وربما حذف المعلّمون قصصاً إباحية جداً لا يريدون أن تُروى له. ما فهمه نجويا سريعاً هو أن محيطه لا يهتم كثيراً بخلاصه. وما كان العالم يريده بسيط جداً: هو صحته. وعند ذلك أوحى الأب فوغت أنه ربما يكون قد سمع قصص العالم كلّها، بيد أنه لم يسمع قصةَ القصص بعد، ومن الطبيعي أن يفتح السلطان أذنه مدفوعاً بالإثارة والفضول الذي أيقظه صوت الأب الذي أعلن به الكاهن عن وعده.

فقد قال وهو يبتسم ويحكّ رأسه:

- إنها قصة تلخّص كل القصص التي سمعتَها. ثم توصلها إلى خاتمتها المنطقية، لأنها قصة خلاص.

استغرب نجويا أن يكون الكاهن قد انتظر هذا الزمن الطويل ليروي له هذه القصة، أوليس الخلاص هو ما يسعى إليه دائماً؟ لكن نجويا لم يكن الوحيد الذي أمل ساعة الختام، لحظة التحقيق. والكاهن الملتحي بقي طويلاً في حالة الترقّب. في اليوم التالي أخرج قفطانه وكواه، واكتسب وقاراً، ولكن حين لبسه تآمر عليه غبار المدينة. تبعته الراهبات حاملاتٍ الأواني الضرورية من أجل السر، المحضَّرات لقطف ثمار اعتراف طويل جداً. ويمشي خلفهن نحو عشرين طفلاً وهم يغنّون. ولا وجود لأية علامة مزاح على وجوه هؤلاء الأطفال الذين يلبسون ثياباً بيضاء: فكاهنهم وكنيسته أجّلا يوم الحساب، بحيث أنهما مستعدّان تماماً لوصوله. كل خطوة من هذه الجوقة تنمّ عن جدّية مشهد محضَّر قبل زمن طويل.

سألتُ:

- يوم الحساب؟

- أوه، نعم.

- ردّت سارة.

اجتمع مون بليزان بأسره، ليستمع. ومن نظر في الساحات والبيوت والمطابخ والأسرّة لن يجد فيها أحداً. كلهم هنا رجالاً ونساء وأطفالاً وحيوانات، عيونهم

وآذانهم مغسولة ومنظّفة ومفتوحة على الكلمات التي ستخرج من فم كاهن المعجزات. ألم يصنع الأب فوغت أمام الجميع كرسياً متحرّكاً لم تظهر له حتى الآن إلا الفضائل المحضة؟ أوه، لقد اعتذر المفوّض السامي متذرّعاً بعمل طارئ، ولكن لا أحد في مون بليزان ينتظر قدومه. وحده الأب فوغت شعر ببعض الخيبة، ولكن لا بأس! تكلّم مع راهباته بصوت عصبي وبنبرة لا يستخدمها هنا إلا الأزواج حين يخاطبون زوجاتهم. ولكن يرى الجميع أن الراهبات هن نساؤه على أية حال.

قال:

ـ اعطينني الإنجيل!

وكان كتاباً كبيراً، أكبر من ذلك الذي كان يستخدمه المبشّر غورينغ في فومبان، وصفحاته حمراء بسبب غبار نسيميونغ أو من فرط القراءة. حين رفع الكاهن يده اليمنى، أوقف الأطفال غناءهم الذي ألبسوه حتى الآن كل الحركات، وبدؤوا آفي ماريا بوجه جامد، وأيديهم أمام صدورهم.

ليس المقصود السلطان وحده، بل قدَر الكاميرون بأسره هو ما سيقرَّر اليوم، وفي هذه الباحة حيث نحو مائة شخص يرقبون الاحتفال بصمت. وأحياناً كان الأب فوغت يفتح عيناً ليقيس مقدار تأثير إخراجه لهذا المشهد على هذا التجمّع للوثنيين، واعياً لنتائج غير مأمولة للأشياء الأكثر تفاهة. هو يعلم أن غورينغ كان قد اشتغل من قبل على النفس عند جميع هؤلاء الناس، وقرأ لهم العهد القديم، وبصورة خاصة للسلطان الذي طلب ترجمة غالبية قصص هذا الكتاب إلى الشوموم ـ لكي يغني مكتبته، يجب الاعتراف بهذا. ويعرف الأب فوغت أيضاً القيمة الجيدة لقصة موسى على عبيد باموم، على الرغم من أن أحداً لم يُظهر له الأسباب الحقيقية لهذا الاختيار الملغوز. لقد تصور أن الأمر سهل، أن يذيق سيداً مثل نجويا طعم الأساطير.

قال الأب فوغت وهو يبلّل حلقه مراراً ثم نظر إلى السلطان:

ـ هذه قصة نجي شوا.

فتح كتاب المعجزات على الصفحة المناسبة، الأولى من إنجيل متّى، وقرأ شجرة نسب المسيح الذي سمّاه نجي شوا من باب التكتيك. بكل تأكيد، حين سمع المعلّم النجّار نجي شوا اسمه أُضيء وجهه فرحاً، وضرب رؤوس عدد من متدرّبيه ممن

كانوا لا يستمعون. قرأ الأب فوغت عدة مقاطع، ثم رفع عينيه ليختبر تأثير الكلمات على روح المستمعين. فتح يديه وهو يتكلّم، وبدا وكأنه يدخل في شخصياته. ولم يتوانَ عن ذكر أسماء من الباموم في قصته لإدخالها بسهولة في وعي كلٍّ منهم. لا ريب في أنه كان معتاداً على إحداث بعض التحوير في المعجزات المتعثّرة، ولكن بتقديره، رأى أن هذا هو التحوير الأكثر إهانةً الذي جرؤ عليه من قبل.

أوه، كان الأب فوغت يفضّل ألاّ يفكّر بالبابا، حتى وإن اقتنع بأن الكنيسة الكاثوليكية ستتفهّم حججه. وفضلاً عن ذلك، فإن بيوس الحادي عشر لم يكن قطّ في أفريقيا! لم يعطِ الكاهنُ المسيح اسماً مألوفاً فحسب،-فقد سمّاه نشي، من اسم النهر الذي يعرف الجميع، ويهب الحياة للباموم-، بل إن تلاميذ نجي شوا أيضاً حملوا أسماء يعرفها الجميع. وسُمع أشخاص يصرخون من السعادة، لأن الكاهن لفظ اسم ناسخ أو معلّم منمنمات أو خزّاف أو نسّاج. ما من أحد منهم تخيّل يوماً أن اسمه سيدخل في قصة كبيرة. وكان يحصل أحياناً أن يُسمع بكاءٌ أو ضحك أو همسٌ طويلاً، لأن ممثلاً كهذا لا يستطيع مقاومة استخدام شيء قادر على إيقاظ جمهوره، والأب فوغت لا يستطيع إلا أن يتجاوز الحدود. المستمعون جميعاً كانوا قد سمعوا أسماءهم في القصة، حين أدركوا أن الاسم الوحيد الناقص هو اسم الرجل الذي أتى الأب ليجعله يعتنق الديانة المسيحية: السلطان. إذن بعد أن أدخل محيط نجويا بأكمله في قصته، واجه الكاهن الحاكم، مرة أخرى، في هذه المعركة التي لم يكفّ عن إخراجها.

سأل نجويا متشوّقاً لمعرفة التتمة:

ـ وماذا حصل لنجي شوا؟

ـ لقد تعرّض للخيانة.

وعبرت الجمهورَ صدمة:

ـ ماذا؟

ـ خانوه؟

ـ نعم، خانوه.

قال الكاهن ذلك وهو يتنفّس بقوة.

ابتسم نجويا وضرب الأرض بعصاه. عاودته ذكرياته مع المبشّر غورينغ، الأبيض الوحيد الذي ناداه "أخي". تذكّر ليلة اعترافه التي لم يشفَ منها بعد: مانغا، سامبا، نغوسو. نعم، لقد أمضى السلطان سنوات كثيرة في الحكم لئلا يجهل أن قصة الحب التي رواها الأب فوغت لا يمكن أن تُفضي إلا إلى الخيانة.

سأله، وكانت هذه المفاجأة الوحيدة بالنسبة إليه:

ـ ومن خانه؟

وأضاف صوت ساخط:

ـ ومن يجرؤ؟

هنا، لم يستعر الأب فوغت اسماً معروفاً، بل احتفظ بالاسم الحقيقي للقصة. النار التي أشعلها في أنظار مستمعيه كانت ستحوّل الخائن إلى رماد لو أنه حدّده بين الجمهور. نظر ببطء من حوله، مشدّداً على كل مقطع، ولفظ:

ـ يهو ـ ذا

ـ يهوذا؟

ـ نعم، يهوذا!

ـ يهوذا ماذا؟

ـ يهوذا الإسخريوطي.

ـ ومن هذا اليهوذا الإسخريوطي؟

سأل المستمعون بعضهم بعضاً، كما لو أنهم لم يعودوا يتعارفون.

ـ أرِنا إياه!

قال لهم الأب فوغت وهو يرفع يديه:

ـ إنه شخصية في القصة! ليس سوى شخصية في القصة.

اطمأنّ الجميع، وقالوا لأنفسهم، إن شخصاً يحمل هذا الاسم القبيح لا يمكن أن يكون إلا خائناً. وعملية الصلب قصة سهلة القص، والأب يعرفها عن ظهر قلب، بكل تأكيد، ثم طوّرها مع بعض المأساوية التي غرزت مسامير الصلب في أيدي مستمعيه. والرعب الذي رآه يرتسم على الوجوه كان قد حسَبه، كما كان قد توقّع الصمت الذي سيتلو نهاية العذاب. ثم أغلق الكتاب ومسح فمه المحترق، وانحنى أمام السلطان، تنفّس طويلاً ثم اختفى بين الجمهور. قَدَرُ نجي شوا تتابع من تلقاء

نفسه في نفس كل فرد طوال الليل. والابتسامة على وجه نجويا منحته الأمل بأنه ربما يكون قد بلغ الجوهري.

وكانت ليلته هادئة، ولكن في اليوم التالي أفاق مون بليزان على ولولة النساء والأطفال راكضين من كل ناحية في الممرات. وصرخت الأصوات:

ـ لقد مات.

ـ ماذا؟

ـ لقد مات!

ـ من؟

ـ لقد مات!

هرع الرجال إلى الغابات، في المحيط، وهناك وُجدت جثة النجّار نجي شوا مصلوباً على أغصان شجرة أوكاليبتوس. لم يرتجف أحد، ولا نجويا، لأنه مقتنع بقصة القصص. عدّ الناس ثلاثة أيام، بحماسة المعتنقين الجدد، وأعينهم مصوّبة نحو وجه الميت الذي كانوا واثقين من أنه لا يمكنه إلا أن يقوم من موته ليكمل اللوحة الأسطورية لعذابه. ثمة متحمّسون شهدوا أن لحية نجي شوا قد ابيضّت، وآخرون أكّدوا أن شَعراً على صلعته، وهذه الإشاعات كلّها أسهمت في جعل جثته خرافة. وزوجاته التي أساء معاملتهن في حياته أعلنّه قدّيساً.

خاب أمل الناس لأن الأب فوغت لم يعد إلى مكان قصته لحظة صلب البطل. وإذا لم يفهموا لماذا كان الأب ـ بدلاً من أن يُسرّ ـ غير مستعجل نهائياً ليشهد على يوم الحساب، فقد قبلوا أقلّ من هذا قصة المتعلّمين الذين فاجؤوه في الكنيسة وهو يلعن الشعب، ويتلفّظ بشتائم لم يستطع الأطفال إحصاءها: "هذا الابن الـ....!"

قال أحد الأشخاص في اليوم الرابع:

ـ نجي شوا لن يستيقظ من بين الأموات، لن يستيقظ أبداً!

كان الصوت المألوف الذي لطالما نظر إلى الفرنسيين بعين الريبة. فالمعلّم المعمار لم يذهب حتى إلى رؤية جثة الرجل الذي بنى معه كثيراً من الأبنية، بل اكتفى بلفظ الجملة النهائية: "لن يُبعث".

ردّ عليه بعضهم:

ـ انتظر يا نجي، وسترى، فالميت لن يهرب.
سأل نجي ماما:
ـ هل يستطيع أن يستيقظ؟
قال بعضهم:
ـ الرجل الأبيض قوي، نجي، فلماذا لا تقبله؟
ـ إذا كان أحدهم أقوى منك، فاحمل حقيبته.
ـ لم يمرّ سوى ثلاثة أيام وصباح على موت نجي شوا.
ـ وصباح.
ـ ليس حتى يوماً رابعاً كاملاً.
ـ ليس حتى أربعة أيام.

بعد اليوم الخامس، وحين أتت الشرطة الاستعمارية للتحقيق، وقد نبّهتها رائحة الجثة التي رفض الناس دفنها والتي ملأت المدينة بأكملها بنتنها الخانق، اتهمت إحدى النساء العالِمَ بقطع المعجزة، وكانت الزوجة الثالثة للميت، وأضافت:

ـ لقد تزوّجني للتو، فكيف يمكنه أن يموت؟
فقيل لها:
ـ اذهبي واهتمّي بأطفالك، فقد أصبحتِ أرملة.
ـ أنا حامل!
ـ حسنٌ أنتِ حرة في إيجاد أب لابنك.
إبراهيم هو من أعلن الخبر لأخيه:
ـ أنتَ على حق، فنجي شوا مات حقاً.

حصل لمأساة النجّار انعكاس على عموم الناس بقدر ذل الكاهن. فحين استخدم أسماء من الباموم، رفع المعلّم العنيف الذي كان يجلد متدرّبيه وزوجاته إلى ارتفاعٍ يجهله الرجل. وفجأة راودته فكرة أن يصبح قدّيساً، بعد وعد بالجنية التي كان قد نسيها. من سيبصق على التطويب؟ ثمة شرط واحد ضروري، وهذا الشرط يتطلّب بعض الشجاعة. صرّف نجي شوا بأسنانه قبل أن يموت بطلاً، هو الذي كان قد اعتاد على حياة السوء. لم يرفض متدرّبوه المسامير التي وزّعها عليهم، وهم الذين ينتظرون أول فرصة للانتقام منه. آه، نجي شوا لم يصرخ حتى عندما ثقبوا راحتي يديه

وأضلاعه. أن يُصلب، فذلك هو الأمر الجيد الوحيد الذي يمكن أن يحصل في حياته. ومع ذلك، فإن صلب نجي شوا حدّد أيضاً بداية نهاية مون بليزان. فمن يقبل أن يعيش في ظل سيد لا يجرؤ على أن يعيش حياته حتى النهاية؟ وذاكرة حياته مخزية كذاكرة موته، وهي توسّخ سلفاً أية قصةٍ أخرى لم تُروَ بعد. محا الناس وجهه من ذاكرتهم، بلا نتيجة. دُفن الميت ككلبٍ تحت الشجرة التي صُلب عليها، وحتى تلك الشجرة يبست بعد بعض الوقت. لم يكف أن معجزة الأب فوغت لم تحدث، وأنه جرّ الشرطة الاستعمارية حتى إلى داخل باحة مون بليزان، فإن ذلك أيقظ ذكريات سيئة عن فومبان البعيدة. فقد ذكر الجميع البدايات المأساوية لنفي نجويا، ومنغّصات الإدارة الفرنسية، من نافل القول إن ساعة الانتقام قد أتت لدى نجي ماما الذي لم ينظر قَطّ إلى الأب الملتحي إلا بريبة، ولكنه لم يتصوّر أن مأدبة الانتقام ستكون شهية بهذا القدر، فقال لمن يريد أن يسمعه:

ـ لقد قلتُ لكم من قبل، قلتُ لكم من قبل ألاّ تثقوا بهذا الرجل.

لم تخالفه أصواتٌ كثيرة، وحتى إبراهيم بقي صامتاً.

سمع نجويا بيوم الحساب بأذن أخرى. مأساة الإنسان الذي جلب اللعنة وطلب الصلب ليلبّي حاجة نهائية للصلاة، ذكّر السلطان بالأعماق الوهمية للحكايات ووعودها الكاذبة. خاب أمل نجويا، ولكن كان لديه يقين بأن الميت لم يكتب نسخة أخرى من حياته فحسب؛ بل حدّد نهاية كل قصة. فبعده لا يمكن أن يكون لأية قصة معنى. ولم يعد من قصة ممتعة للاستماع، ولا من حكاية مهمة للقول. وبدت كل جملة مستهلكة فجأةً، وكل كلمة باهتة. وفكرة أن الإمكانية الوحيدة الباقية بعد هذه النهاية للقصة هي أن تصبح كل حكاية واقعاً أضاءت وجهَ السلطان بالسعادة. وحتى جفاف الكلمات في فم الرواة والوعود الكاذبة بالقصص شحبت أمام متعته. في ذلك اليوم، نهض ومشى من دون كرسيه المتحرك. عبر قصص العالم واكتشف أن الشيء الوحيد الباقي هو الواقع النابض بالنهار، مادامت كل قصة هي تمهيد للحياة.

قال عندما وصل إلى الباحة الكبيرة:

ـ أنا خارج من حلم كبير جداً، من حلم كبير جداً.

ولم يترنّح.

- 9 -

فضائل الرسم المتقَن

طوال مرض نجويا، فهم أن جسده هو معلّمه الحقيقي. أصبح عبدَ لحمه وعظامه. وإذا كان اختراع كتابةٍ يعود إلى إرادته في إعطاء شكل لأصوات العالم المتعدّدة ـ وهذا ما فعله على أية حال مع لغة الشوموم من أجل اللغات المتكلِّمة من حوله ـ فإن ذاكرته القوية، ويديه المرتعشتين وجسمه المريض علّموه أنه في غرفته في مون بليزان، وصل إلى نهاية طريق طويل. لم يبق له بعد نهاية القصص إلا أن يمشي طريق حياته من جديد، "أن يبدأ كل شيء من جديد ليعيشه بامتلائه".

أمام آلاف أسماء الرجال الذين رويت له قصتهم من آلاف الأصوات، فهم أن من المتاح له تأمّل التنوّع اللانهائي، ليتبيّن له أن في كل قسم مهما كان صغيراً، مآسي العالم تتكرّر. فبعد النشور المحبَط لنجي شوا، فتح عينيه، ورأى أجزاءً من قصص غير مكتملة ترفرف في الهواء كفراشات. قصصاً تحل محل أديان مع وعودها المتطابقة في السعادة. وما جعله حزيناً، وهو في قمة فرحه المستعاد، هو أن نيبو كان يمحو ما يكتبه بعد كل جلسة سرد. طفرت الدموع إلى عيني نجويا وهو يفكّر بهذه الآلاف من القصص المفقودة.

تذكّر كم كان هامداً أمام القصص التي جلبت له أكبر قدرٍ من الفرح وكم كان وضحيةَ القصص التي هدّدت بإنهاكه. إنه يريد أن يستعيد أحاسيسه، ويعيش من جديد؛ يريد أن يصبح حيواناً، ثعباناً برأسين ينتقل من قدَر إلى آخر كلّما طاب له ذلك. يريد أن يصبح سحليةً تنفصل عن ذيلها المربِك. يريد أن يمتلك القدرة على

تفكيك كوابيسه في حركة متكرّرة من المضغ، نعم، يريد أن يمضغ قصة نغوسو دين والآخرين، يمضغها بهدوء لكي يبتلعها بحسب إرادته. يريد أن يصبح سيّد ذاكرته، وكبقرة، يريد أن يستعيد ذكرى الولائم في أواسط حياته لكي يمضغها مرة أخرى ويستعيد مذاقها. نعم، يريد أن يعلّق جمال الكلمات.

تذكّر نجويا كيف اخترع كتابته، تذكّر أنه طلب من كل شخص من حوله أن يرسم الأشياء الأهم في حياته. النبلاء والرجال والنساء الحرائر والإماء والأطفال والحدادون والنحّاتون، كلّهم تنكّبوا المهمة باهتمام، ولخّصوا حيواتهم على لوح. كلٌّ منهم جعل موسوعة حياته، وقاموس أحلامه المعقول، ومعارفه، وتهويماته، وأمنياته وأحداث حياته، والفنون والأعمال المشتركة في السلطنة، حيةً، ورسم كل شيء على ألواح عديدة. نجويا يتذكّر ذلك، غسل هذه الألواح كلّها وشرب الماء المتجمّع منها، ثم نام.

لم يؤلمه بطنه من قبل كما آلمه في ليلة الظهور الإلهي تلك. استدعى ظلّه عشر مرات في الليل لكي يذهب إلى الحمّام. وفي أثناء بضع ساعات أغمض عينيه أخيراً وهو يمسك مؤخرته بكلتا يديه، فتح حلمٌ موسوعة حياته المفكّكة إلى أشكال صغيرة. أشكال العالم كلّها تلخّصت في ذهنه على شكل صور غريبة. هل كان ذلك في حالة من التنويم المغناطيسي، أم كان ما يزال في الحلم، أم في اليقظة، حين كتب الأحرف التصويرية الأولى من أبجديته ليوا؟ لم يعد يعرف. هو، الذي أكل الموت والحياة وحوّلهما في جسده ليتصرّف بهما بحسب إرادته، الرجل السعيد على وجه الأرض. ذلك لأن حلمه لم يمت. لقد أبقاه على قيد الحياة في كتاب، في ليريوا. يريد أن يسلك من جديد طريق الحياة هذا، ولكن هذه المرة بعدٍّ عكسي. الفرح الذي كان يجلبه له الماضي حوّل يقظتَه في مون بليزان إلى وعد. وبعد إخفاق يوم الحساب، بقي نجوياً نهِماً في بحثه الموعود عن الأب فوغت، عن هذه القصة التي قد تنقذه من أنفاق أفكاره باتّباع الجوهري من الجماليات العابرة. ما يزال متعطّشاً لتلك القصة الوحيدة التي تمنح من جديد جسدَه قدرتَه كلَّها، كما فعلت أبجديته في الماضي بالنسبة إلى أشكال الكون. إنه يعلم، نعم، إنه يعلم أن عمله لم يعد يستطيع أن يحدّه عند حدود فومبان، لأن الرواة الذين زاروه في مون بليزان

فتحوا نوافذ حياته على الكون. لطالما احتاج إلى مترجم ليفهم مفاجآت العالم التي تظهرها له قصصهم، ولكن هذه المرة يريد أن يعيش من جديد لذة الاستماع إليهم بطريقة مختلفة- في نقائهم.

نظر إلى نجي ماما الذي رافقه في تجاربه كلّها في فومبان. المعلّم المعمار، الرجل الذي كان أصل كل اختراع من اختراعاته، والذي كان أول من رأى أحبولة الأب فوغت، ليس لديه ما يقوله. ونجويا لم يلحّ. الحقيقة هي أن النفي أحدث تأثيراً مدمِّراً على خيال المعلّم الشهير. جُرح في روحه، وتزعزعت بديهياتُه، وجُرّد منه مشروعه الأعظم في فنّه، قصر الأحلام كلّها. ترك نجي ماما السّعار يغيّم عينيه المعذّبتين، والغضبَ يمتلك يديه. ظَلَّ بؤبؤه وصوتُ صندله المألوف في الممرات متجذّرين في ذاكرة مون بليزان، ولكن لم يعد يُرى فيه إلا خيال ذلك الذي كان في فومبان!

والتفت نجويا إلى مونليبير الحدّاد أيضاً. المهندس العجوز الذي صنع آلةَ طباعةٍ للسلطان، ظلّ صامتاً. بدا المعلّمان كحُميرتين مغروستين في أصيص زهر. الجذور التي تنمو ستتلق نهائياً الأصيص الذي يحويهما. يبدو أن ياووندي قد جفّفت روحيهما. أما إبراهيم، الأحدث سنّاً في ذلك المجلس، فقد ابتسم. إنه تلك النبتة التي لم تعد تحتاج إلا إلى تربة جديدة لكي تنمو ثانية.

اقترح:

ـ ألاريني، لقد كتبتَ طوال هذا الوقت.

كان نجويا يصغي إليه.

ـ ربما يجب عليك أن ترسم الآن.

الرسم؟ من أين يبدأ نجويا؟ وجوه زوّاره تعبر روحه. تذكّر أنها مختلفة كمفاجآت الحياة. وبعضها أسود كالأبنوس، وبعضها الآخر بشرتها فاتحة كالعرب. ومنها، كالنوبيين، تحوّلت إلى اللون الأزرق من فرط سوادها. وزوّار وجوههم بيضاء كالأب فوغت. ومنهم من هم طوال القامة، ومن هم قصارها، ومن هم أجداد، وضخام الجثة، ونحيلوها. فمن أين يبدأ؟

لو قيل لنجويا إن ما ركّبه في غبَش غرفته، بيديه المرتعشتين هو أشكال هشّة لأمَةٍ لم يُسمِّها بعد لأنها لم تولد بعد، لربما ضحك، لأن سعيه يقوم بصورة خاصة على إعطاء وجه لأشكال أصبحت غير مرئية، وهي على أية حال أكثر تشتّتاً من أن توجد حقاً. وإعطاؤها اسماً يستحقّ العناء أيضاً؟ إن إبراهيم هو من أفهمه أن صورةً هي أقرب إلى وجوه الحياة الألف من آلاف الكلمات، وأن وجه أمٍّ يقول القصص اللامتناهية للأمومة أكثر بكثير من دفقٍ من الكلمات. لقد غدا إبراهيمُ دليلَه وشلالَ كلماته، لأن المعلّم الخطّاط على حق، وقد اعترف نجويا بذلك: فلماذا لا يرسم عملياً؟

سأل:

ـ لماذا لا أرسم؟

وابتسم بعظمة.

تلك هي المرة الأولى التي قبِل فيها السلطان الرأي الفني للأخ الصغير، وليس رأي الأخ الكبير. في الواقع، عوّد جسم نجويا المترنّح صاحبه على شحذ عينيه. وسار من جديد في الطريق الذي سلكه وهو يخترع كتابته، وهذه المرة سار القهقرى. انتقل من الأحرف إلى المقاطع اللفظية، ثم إلى المقاطع الصوتية، ومن ثم إلى الأحرف التصويرية. فعل ذلك استجابة لطلب المعلّم الشاب الذي رآه يرسم أشكالاً مستخدِماً علامات من أبجدية ليوا. نجويا أفضل من كاتب فاشل، أصبح مصوِّراً بارعاً وأخذ ينظر بإعجاب إلى الأشكال التي يرسمها على اللوح. وبدلاً من أن يخرّب الجمال بكلمات، اكتشفه في ظهوره الأصلي. وتركه يزهو كمارغريت غضّة، وسط حشدٍ من الأوراق.

قال الحاكم مستمتعاً:

ـ العين جوهرية.

لم يفهم نجي ماما مباشرة، ولكن كان إبراهيم سيّد جلساته. وأضاف نجويا:

ـ الأذن ثانوية في الواقع.

وذات يوم التفت ورأى ظلّه يروّح رقبته، نظر إلى نيبو وكأنه لم يرَه قطّ، فنفر الصبي.

سأل:

ـ ظلي أبكم، قلتَ لي؟

وهكذا أصبح الصبي أفضل قصة رسمها نجويا في حياته، وأصبحت سارة موديل السلطان. بالمصادفة، ولكن هل كانت تلك مصادفةً حقاً؟ لقد أصبحت النموذج البدئي لهذه الأصوات الغريبة التي ترفرف في الجوار.

- 10 -

احتمالات السلطان

1924، فومبان، لم يشعر نيبو بهذا العناء في جسده قطّ! ظلّ أسابيع عديدة منهاراً على سريره، لا يستطيع أن يحرّك يديه، ولا يستطيع أن يحرّك قدميه. بدا وكأنه محكوم بتلقّي ألم السلطان بجسمه هو، ولكن قبل ثماني سنوات، وعلى طريقته. أليس من السموّ أن يخلق الله الأمّهات؟ غمرت برثا جسم ابنها المتألّم بالحب. ذلك لأن نيبو أصبح وهو مريض، الابنَ الذي انتزعته النساءُ منها، أصبح ذلك الابنَ الذي تحبّه بإرادتها. همست: "هذا كلّه بسبب فتاة"، ودموع حرّى سالت على خدّيها.

نيبو لم يُجب.

رفضت برثا تذكّر أيادي الجنود التي جلدتها، وانتقام الملازم أول برستا. فهي ترى أن هذا نتيجة منطقية لتسلسل أحداث بدأت مع نغونغور. كان بوسع ابنها أن ينظر إلى مكان آخر حين نادته تلك الفتاة، ويتجنّب غضب الفرنسيين والجنود، هذا ما قالته لنفسها. قلبها كأم كان حازماً. إنه يخفق كرهاً شديداً لكل الفتيات، كرهاً ما هو إلا الوجه الآخر لحبّها الجارف لنيبو؛ كرهٌ هو وحده جعلها تقرر أن تمنح ابنَها في سارة حياةً جديدة فيما بعد، كرهٌ سوف تغيّره إلى نسخة جديدة من الحب. وفي هذه اللحظة، الفكرة الوحيدة التي كانت تشغل بالها هي: "تلك القحبة!"

وجه برثا قناعٌ من الاحتقار، لأنها ترى وجهَ نغونغور أمام عذاب ابنها. ارتجفت شفتاها عندما فكّرت بحفيدها الذي انتزعته منها "تلك الفتاة"، وبصقت. والقول

إن نساء السوق جميعاً اتّحدن لإنجاب الطفل! كراهية برثا تشبه ضيق سُعار نجي ماما الذي اتّهم الفرنسيين بأنهم سبب الطقس السيئ. بالنسبة إلى المعلّم، معاناة متدرّبه، وحتى ضربه بالعصا، هي العناصر الأولى لسلسلة صامتة من الاتهامات تَعِد بمصائب أكثر، وتجد أصلها في باريس. مع مواظبة رجل العلم الذي كانه، فقد عدّ الفظاعات الواحدة تلو الأخرى التي ارتكبها الفرنسيون في حق الباموم، ولوى فمه كأنه يشعل صرخةَ تظلّمٍ في روحه.

بكل تأكيد، شعر إبراهيم بالصدمة، هو الآخر، من العنف الأخرق الذي مارسه برستا، ولكنه استثمر أحلامه في الوجه الجديد للإدارة الفرنسية، النقيب ريبير. ولاسيما أنه اقترب أكثر من مدام دوغاست. لو كانت النساء، البيضاوات أو السوداوات، الألمانيات أو الفرنسيات أو الباموم، ذوات سلطة في تلك السنوات، لاخترع الاستعمار لنفسه مظهراً آخر. وربما لما وُجد. إبراهيم فكّر بهذا: الحب، وليس بالحرب، يسود العالم؛ والنساء هنّ إناء حبّ، إلخ. برأيه، من الممكن تحمّل لحظة من العذاب الشديد كوعد بالسعادة، وربما لهذا السبب أتى عدة مرات لزيارة نيبو ولتوجيه كلام مصالحة إليه. لا، لم يكن إبراهيم قدَرياً، ولكن ألمْ يحِن الوقت للبحث عن دروب التهدئة، ولاسيما بعد قصة هذا الصبي الذي كاد أن يفقد حياته؟ لا! إنه ليس جباناً كذلك، لقد عاش طويلاً ما يكفي وبصورة خاصة إلى جانب البيض، لكي يقول لنفسه إن هناك صراعات يستحقّ تجنُّبُها العناء لأنها ليست ضرورية. وقال: "إنها كالنساء، غيورة جداً!"

أصوات برثا ونجي ماما وإبراهيم تلخّص الآراء المتعدّدة التي تتقاطع، وتتلاغى بطريقةٍ ما، في أذني نجويا. السلطان لا يشكو من الإدارة الفرنسية، ولا من عنف برستا، لا. هل المجموعة التي حول إبراهيم أملت عليه ضرورة التصرّف؟ آه، لقد قبِل الحاكم تألّم أحد فنّانيه برواقيةِ أب؛ نعم، قبِلَه، وتعهّد بمعالجة النحّات. كما لم يتدخّل حين قرّرت الإدارة الفرنسية استبدال مونليبير في إدارة ممر الفنّانين. وهذه المرة أيضاً اهتزّت سلطتُه شعبياً، ولكن نجويا تفادى الاستفزاز بلطف قائلاً: "أنا لستُ مجنوناً إلى هذا الحد!"

ففي النهاية، موزي يبياب "ابنه" كما يقول. وفي النهاية، إنه هو، نجويا، مَن علَّمَ موزي يبياب الكتابةَ في أول مدرسة شوموم في فومبان، ونجويا أيضاً هو من نصح فراولين فوهرمان بتبنّيه حين كان ما يزال مراهقاً؛ وهو منَ قبِل أن يتزوّج موزي من أَمةٍ، وتركه يواصل نشاطات الكنيسة المسيحية بعد أن طُرد الألمان من السلطنة. نعم، لقد أغمض نجويا عينيه حين أخذ موزي يُنَصِّر عبيدَ القصر (على سبيل المثال، عبد أمّه نجابدونكي).

ليست قضية مهمة أن يصبح موزي يبياب رجل الفرنسيين، ففي النهاية، أرسل نجويا نفسُه أولاده بمن فيهم ابنته إلى المدرسة الأوربية. ولم يُرغمه أحد على ذلك. "فقدان ابن" لم ينبّهه أحدٌ قطّ. فكل طفل هو مغامرة فريدة. بالعكس، فقد اقتنع أنه أعطى "ابنه" أفضل الفرص التي يمكن أن تقدّمها الحياة. إذن لم يخشَ فقدان أية سلطة حين وُضع ممر الفنّانين تحت إدارة موزي، حتى وإن رأت الإدارة الفرنسية في ذلك تقليصاً من امتيازاته. فالابن المقصود، موزي، متحدّر من عائلة ذات نفوذ كبير، وعلى أية حال، من المقدَّر له أن يشغل منصب والده بين مستشاري القصر. ونجويا يؤمن: "الزمن سيحل سوء التفاهمات، ولن يلبث العقل السليم أن يعود."

بعد الجَلد، أرسل اثنين من أطبّائه إلى بيت برثا وأمر زوجاته أن يحضّرن أفضل وجبة للجريح ولأمّه. أما في قضية مونليبير، فقد وجد وظيفة أخرى للمعلّم المُقال. ولطالما أراد أن يشغل بشكل مختلف هذا الحدّاد الفذ الذي صنع له في الماضي آلةً لسحق الذُّرة الصفراء، فعهد إليه هذه المرة مهمة صناعة آلة طابعة. معاً، منذ ذلك الحين أمضيا لياليهما في رسم المخطّطات وتصوّر الأشكال والصور. في الواقع، نجويا مقتنع بأن العمل، والعمل فقط، يمكن أن ينتزعه من الفوضى التي تنثر العفن على طريقه. لقد أصبحت ورشاتُه ملاذاتِه أكثر من أي وقت مضى.

يبقى قصرُ الأحلام كلّها أكبر ورشة في السلطنة وأكبر طاقم موظّفين عند نجويا. لقد كرّس الحاكم نفسَه له بكل الطاقة التي بقيت لديه. وحيداً بين أنقاض أحلامه المبدوءة، وجد السكون الذي حرمته منه ضوضاء الحياة. وهنا فقط يستطيع أن ينعزل مع معلّميه، بعيداً عن غطرسة الإدارة الاستعمارية الجديدة. حلُمُه يقوم

على إسكات العالم، والفرنسيين بصورة خاصة، بأعماله، وبعظمة أبنيته. هكذا يأمل أن ينتصر على انحطاط عقلهم؛ ويقطع منقار خسّتهم. كان يسمّي القصر الذي يشيده: "أعظم بناء في أفريقيا"، وكان متحرّقاً لرؤية وجوه المستعمرين مستغربةً إقدامَه، وهم الذين جعلوا حياته مستحيلة. كان يرى أن الحس السليم سيعود.

وأمِلَ نجويا في سرّه أن ينحني الفرنسيون أمامه، وملؤهم الاحترام، مثل الألمان الذين كانوا يصرخون في الماضي: "!Donnerwetter" حين يرون إنجازاته. يأمل أن يعترفوا بقوة رؤيته، ويقولوا له عندما يرتفع قصر الأحلام كله عند الغسق:

ـ فران نجويا.

ـ ألاريني.

ـ معلّم.

ـ معلّم.

وكذلك أيضاً:

ـ معلّم.

- 11 -

يقظـة الـفنّان المتألّـم

1924، ظَهَرَ جسدُ امرأةٍ لنيبو في كمال أشكاله، وفي الانسجام التام لملامحه وفي شعر أغنيته. ظهر له في فرحِ معادلة. هل كان جسدَ حلمه؟ نعم، هل كان جسدَ نغونغور؟ كيف له أن يعرف؟ لم يعاوده وجهُ المرأة التي كانت تسكن أحلامَه، لأن أحلامه مصنوعة من أشكال منفصلة يعيد بناءها عند يقظته. عاد الشكل بلا وجه، وصارت تأتيه ليلةً بعد ليلة، وفي روحه المتألّمة، بحيث انتهى به الأمر بأن أخذ ينتظرها على عتبة نومه، متحرّقاً، وحتى في ارتعاشه، ليحلم أحلامَه.

الفن إكسير للروح المتألّمة. عاد ابن برثا إلى النحت لأن المرأة التي بلا وجه أصبحت نادرة على قياس صحته، لأن الأشكال التي كانت تجلب له النشوة خلال شفائه غابت. ومع ذلك، يريد أن يواصل الحلم بها. كلما قَلّ تألمُه قَلّ ظهور امرأة أحلامه في لياليه، وكثر إحساسه بالحاجة إلى إعادة خلقها بقوة يديه. حين بدأ نيبو تمثاله، لم يكن يستطيع النهوض عن الأرض بعد، فأغار أولاً على القدمين اللتين راقبهما بانتباه كبير.

استخدم النحّات الصلصال بدلاً من الخشب أو البرونز أو الحجر، كما تعلّم في مشغل مونليبير، أو كما تعوّد في مشغله في القصر، لأن نعومة التراب مرهمٌ لجسم متألّم. نحت قدمي المرأة بدقة مستخدماً التقنيات التي أخذها عن معلّميه والفن الذي تصوّره وهو يلاحق ويراقب المرأة الأَمة ونساءً أخريات في الشوارع. والبداية من القدمين هي الطريقة الأكثر حذراً في العمل لأن أمّه لا يمكنها أن تتساءل ما إذا

كان تمثال امرأة أو رجل، وستستمتع ببساطة لأن ابنها استعاد قوته وقدرته على العمل.

عاد نيبو إلى النحت لأنه اكتشف أن الفجر ترياق ضد الهزيمة.

قالت له أمه وهي تراه يعمل:

ـ لم يهزموك، لا، لم يهزموك!

والتمعت عيناها، فردّ عليها ابنُها وابتسامةٌ على شفتيه:

ـ ليس لديهم القدرة على ذلك، بل بالعكس، فقد زادوني قوة.

وصمت قليلاً، ثم أضاف:

ـ الألم ألهمني.

أنهى نيبو قدمي التمثال بكل الحب الذي جمعه في أحلامه، وبكل الحب الذي غطّت به أمّه جسده. من البديهي بالنسبة إليه أن التمثال الذي يعمل عليه سيكون وصية حب. وأمه فرحة أيضاً لرؤية عمله، لأنها لا تعرف بعد أن ما ينحته هو قدما فتاة. وكانت تتسلّى بالادّعاء بأن ابنها ينحت لنفسه ساقَين ليمشي كما يفعل في أحلامه. وبالنسبة لنيبو، لا يمكن أن تكون المرأة التي بلا وجهٍ إلا نغونغور.

حزنت برتا حين قال لها أنه سيواصل عمله في مشغله في القصر. حزنت الأم، لكن الفنّان يعلم أن ليس هناك من رقابة أسوأ من رقابة الأم.

في القصر الذي كان قيد الإنشاء، ووسط مجموعة الفنّانين الذين يعملون جميعاً على تحقيق رؤاهم والذين تمتزج تراكيبهم في قصر الأحلام كلّها، يستطيع نيبو أن يدَع ساقَي تمثاله ترتفعان بالطريقة التي تمليها عليه روحه.

عليه أن ينحت التمثال وهو مستلقٍ، لأن جسمه ما يزال أضعف من أن يتمكّن من الوقوف طويلاً. وحتى في هذه الوضعية، نجح في إعطاء جسم تمثاله مؤخّرة أحلامه "المستديرة كثمرتي قرع". وحين أنهى مؤخرة المرأة لاحظ الشهوة التي شعر بها الفنّانون، واستراح قليلاً. ليت زملاءه يلطّفون ألسنتهم قليلاً كما يصقلون موادَّهم! فمن خلال سنواته في ممر الفنّانين، ومن مشغل مونليبير، وبصورة خاصة مع مولوام ونغباتو، عرف النحّات كم يمكن أن يكون بذيئاً لسان الصائغ.

سأله أحد الفنّانين:

ـ دجو، هل تريد المزيد؟

وانفجر الجميع ضاحكين.

ـ ألم تكتفِ من البظر؟

ـ ومن الفرج؟

ـ ونحن الذين كنا نظن أن الفرنسيين بتروا عضوك!

ـ إذن، ما يزال لديك خصيتان!

وتدخّل صوتٌ صديق:

ـ دعوه بسلام.

النكات البذيئة هي الوسيلة الوحيدة للتسلية في أثناء العمل لدى هذه النفوس المتعلّقة بالجمال التشكيلي. وهي طريقتهم في إبقاء أحلامهم متيقّظة في سلال مهملات الحياة. وطريقة في تذكّر أن عملهم يقوم على جعل قبح الحياة مقبولاً.

قال معلّم منمنمات:

ـ إنه ينحت جسم فتاة ليتجنّب الاستمناء.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنه سيضاجع تمثاله!

ـ الله أكبر.

ـ هل سمعتَ هذا الكلام من قبل.

ـ ماذا؟

ـ نحّات يضاجع تمثاله.

أردف أحد الأصوات:

ـ دجو، دجو، دجو، الاستمناء قرب التمثال أمر مفهوم، أما مضاجعته...

ـ إنه مجنون.

الرجل الذي تحدّث كثيراً عن "مضاجعة التمثال" هو نسّاج متوسط السن. هل هذه الوضعية النائمة هي التي ألهبت مشاعره؟ فسجاجيده لا تمثّل إلا رموزاً هي

الأكثر تطويراً، وقد ابتسم نيبو لأن هذا الرجل يتبع المدرسة القديمة، مدرسة مونليبير. فلم يتجشّم حتى عناء الردّ على إهانته.

استغرب أحد الخطّاطين:

ـ فتاة أخرى؟ هل تسعى إلى الحظ العاثر؟

ـ لماذا لا تنسى الفتيات؟

ـ ألم يكفِكَ الألم الذي سبّبنه لك؟

ودافع بعض الفنانين عن نيبو:

ـ هل تريد ألاّ ينحت إلا حيوانات مثلك؟

ـ عناكب؟

ـ ثعابين برأسين؟

ـ فهوداً؟

ـ خيولاً؟

ـ رجالاً على أحصنة؟

ـ وهذا كل شيء؟

ـ دعه بسلام!

لم تشعر جماعة الفنّانين من قبل بهذا القدْر من الانتعاش بفضل عمل فني. توقّف الرسّامون عن الرسم، ونظروا إلى التمثال ولم يغلقوا أفواههم. ورسّامو الوجوه أصابهم الصمت، فقد رسموا مئات الوجوه للسلطان ولأسرته ولسلالته كلّها. واستخدموا أفضل تقنياتهم لتجسيد إمكانيات الجسم البشري. ويعرفون أين توجد الظلال وأين يجب أن يوضع النور لإعطاء أفضل تأثير حقيقي. لكنهم أمام هذا التمثال لامرأة، اكتشفوا فجأةً الاحتمال الناقص لرياضياتهم. كذلك فقَدَ النسّاجون أصواتَهم أمام مهارة نيبو؛ أما معلّمو المنمنمات، فمن يستطيع إقناعهم بأن الصور ما تزال تساوي شيئاً؟ ووقف الخطّاطون مبهورين، كالكتبة.

كلما اتخذ تمثال نيبو شكله، كلّما شعّت الوجوه، وتلعثمت الألسن. كلّ ناظر يرى امرأةً تظهر بوضوح، وليس امرأة فحسب، بل امرأة في الحركة، وليس امرأة في

الحركة فحسب، بل امرأة ينزل صدرُها ليُكسبها روعةً إضافية، امرأة مؤخّرتُها "مستديرة كثمرتي قرع"؛ إنها المرأة التي لطالما حَلُم بها رجال باموم جميعاً!

كمال جسدها أيقظ رغبة الفنّانين الذين أرادوا جميعاً أن يحبّوها، نعم، أن يمتلكوها، نعم، أن يضاجعوها الواحد تلو الآخر، لأن هذا بالضبط ما جعلهم يثرثرون كثيراً من حولها. أيقظت هذه المرأة الرجلَ النائم فيهم ورمته على أقدامها، وهم يفتحون أفواههم في صيحات عبادة. وحدهم بعض الفنّانين، الأكبر سناً، استطاعوا أن ينزعوا أنفسهم من سحرها، ولكنهم ذُهلوا هم أيضاً.

أوه، نعم، الفنانون الشباب عجزوا بكل بساطة عن إسكات أفواههم وهم يشعرون بقساوة تتعاظم بين أفخاذهم. تركهم اعتصامُ نيبو بصمتٍ مُبهم في غمرة ثرثراتهم غير مبالين. ومع ذلك فقد اضطرب هؤلاء الرجال وأطلقوا كلاماً قذراً لأنهم رأوا في تمثال نيبو عملَ معلّم، معلّم جديد، ولأن هذا العمل امتلك أجسادهم وأربكهم كما لم يربكهم عملٌ من قبل.

قال أحد معلّمي المنمنمات أخيراً:

ـ معلّم! معلّمّ!

وكان أولَ من تخلّى عن لغته البذيئة وحوّلها إلى إعجاب، فردّد الجمعُ الصدى:

ـ معلّم!

ـ معلّم!

وتوحّدت الجلبة في كلمة واحدة، ونيبو لم يُنهِ عمله بعد، فما يزال عليه أن ينحت رأس المرأة. وأمضى في ذلك أياماً وأسابيع لأنه يريده أن يُشبِهَ رؤيتَه تمام الشبَه. ولكن، لم يكن لها وجهٌ في أحلامه. لم يشأ أن يعيد نحت رأس نغونغور لأنه يرى أن وجه المرأة التي يعرف الجميع أنها ماتت، والتي ما يزال رأسها المدمّى ماثلاً في ذهن كلٍّ منهم، سيطرد الفنّانين جميعاً من القصر. ولا يريد أن ينحت رأس نجابدونكي لأن الألم الناجم عن فقدها حلّ محلّه وبصورة كبيرة ألم عدم رؤية الابن الذي حملته. كما لا يحب أن ينفجر الجميع ضاحكين أمام وجه نجابدونكي التي يعلمون أنها كانت امرأة برستا.

وأمه؟ إنها أَمَة. فهو لا يريد أن يُنظر إلى التمثال بتعالٍ. لذا قرّر أن يركّب وجهاً من تلاقي الوجوه الثلاثة اللواتي يحبّهن جميعاً ولكن بطريقة مختلفة جداً. العينان أخذهما من نغونغور لأن هاتين العينين أسرتاه وقيّدتاه في بيت الهوى. والأذنان أخذهما من أمّه لأن برثا هي المستمعة الأخيرة لعذابه الطويل. والفم، أخذه من نجابدونكي، لأن يديه ما تزالان تذكران نعومته بوضوح. والأنف أخذه من أمه لأنه برثا، لها أنف حلو كثمرة مانغا.

وبدلاً من أن يوقّع نيبو عمله كما يفعل نجي ماما، رسم ابن وردان وهو يأكل ذيله، وشم رسمه لأول مرة على بطن نغونغور. مع إنجاز رأس التمثال صار كاملاً جداً، امرأةً جداً، دقيقة جداً، بحيث يمكن التعرّف إلى أولادها إذا كان لديها أولاد. ويمكن معرفة وضعها الاجتماعي، والطريقة التي تتمايل بها حين تمشي. امرأة منحوتة وسط نساء باموم الممكنات جميعاً. إنها المرأة التي يرغب كل رجل أن يراها تبزغ لتكسر رتابة حياته وتدخل بيته. ولكنها بصورة خاصة المرأةُ التي لم يكفّ نيبو عن الحلم بها منذ الأزل.

إنها حبّه.

حين قال النحّات: "انتهى"، سمع تهليلاً صاخباً يتعالى من حوله، وصفّق له الفنّانون، وجعل كلّ منهم يؤدّي له علامة الاحترام. نظروا جميعاً إلى عمله المنجَز وبدت عيونهم تؤدّي صلاة سرّية. مشوا حول التمثال وهم يهزّون رؤوسهم. وبعضهم أمسكوا بيدي نيبو وابتسموا بسعادة غامرة. يريدون أن يلمسوا الأصابع التي جعلت الجمال متجسّداً أمام أعينهم. وحين أتى نجي ماما ليرى العمل الذي أحدث صدمة قوية في المشاغل، لم يستطع إلا أن يكرّر ما قاله كلٌّ من الفنّانين: لقد وُلد فنّان جديد. ثم أضاف:

ـ كنتُ أعرف ذلك، ولطالما قلتُه.

كان نيبو قد طلب أن ينتظر معلّمه نهاية العمل، فهو لا يريد أن يُذهل بحكم عينٍ يكنّ لها كل الاحترام. والآن، إنه انتصار، إنه الانتصار. وانفجر فرح نجي ماما حين قبل المعلّم الجديد في صفوف بضعة الرجال، في صفوف هذا العدد القليل من الرجال الذين كرّمتهم فومبان لموهبتهم، وسمّتهم نجي، رجل بكلمات قليلة جداً.

لم يلجأ نجي ماما إلى سيل من المدائح كما فعل المعلّمون الفنّانون الآخرون، بل لاح فرحُه في نظرته فقط، التي لطالما كانت مرتبكة. ثم أضيء وجهه وانفجر ضاحكاً. ضحك المعلّم لأنه رأى الكمال. وضحك الجميع معه لأنهم فهموا أن ضحكة نجي ماما تترجم الفرح الذي عاشه كلٌّ منهم.

حتى المعلّم المعمار لم يستطع أن ينتظر ليرى عيني زميله مونليبير تنفجران أمام تمثال الحب. علموا أن المعلم كان يضحك أيضاً، ضحكته الفلسفية، ضحكة رجل عجوز. ما من أحد أراد أن تفوته كلماته، ولكن الجميع أرادوا أن يسمعوا رنين ضحكته في المشاغل. هل رفع يده وأعلن أن تمثال نيبو بدايةٌ لفن البامون؟ وهل ستكون هذه الكلمات كافية؟ هل هي صحيحة لوصف ما فعله النحّات؟ وماذا عن: "فخر أعمال المعلّمين جميعاً"؟

نيبو نتاجٌ صِرفٌ لأفضل مشغلين ولأكثر معلّمَين احتراماً تنجبهما باموم! هل يقلّل الرجوع إلى التراث من موهبته المحمومة؟ لماذا لا يتم الحديث عن "عملٍ عبقريٍّ"؟ نيبو عبقري حقاً، نعم، هو بعْثُ أفضلِ نحّاتي نوك وإيفي وبينين. إنه تقمّص المعلّمين الذين حفروا بيت الغرانيت، زيمبابوي! هو الولادة الجديدة للعبقرية الفنية الأفريقية التي حوّلت الحجارة إلى أهرام! وهذا ما أدهش العالم! ماذا سيقول المستعمرون؟ نعم، ماذا سيقول علماء الإثنيات الفرنسيون؟ هل هذا مهم؟ أوه، على أية حال تعليقاتهم المشكّكة ظهرت للعلن: "إنه نسخة لصورة شوهدت بكل تأكيد في معرض لتاجر سويسري كان قد افتتح محلاً في فومبان"؛ إنه تقليد أعرج للفن الواقعي الأوربي".

ولماذا المفاجأة؟ فصيغة التبرير في هذه الأرشيفات هي دائماً متطابقة جداً فيما يخص الأماكن! وهي بديهية جداً، نعم! ومع ذلك ماذا سيقول السلطان؟ إذن ماذا سيقول نجويا؟ ماذا سيقول، وهو الذي تُحسن عيناه رؤية الروائع؟ آه، نجي ماما معجبٌ جداً، ولكنه مليء بالعرفان أيضاً. فهو إذن من سيُدخل المعلّم الجديد تحت عين السلطان؛ وهكذا فهو الذي سيهمس في أذن نجويا، وهو يقدّم إليه نيبو: "ألاريني، هذا روح جديدة."

سيقول السلطان "دونيرويتر!" عندما يرى تمثال نيبو، وسيوافقه كل من حوله.

وستكون تلك المرة الثالثة التي يقابل فيها النحّات. في المرة الأولى، كان نيبو عبداً؛ وفي الثانية كان النحّات نصف ميت. وهذه المرة نجويا سيحرّره من لزوم ارتدائه ثياب المتدرّب ومن العبودية. بعثنونه الذي طال أكثر فأكثر، وبشعره الذي طال في ذلك الوقت حتى ظهره، ليس لابن برثا مظهر هذا ولا ذاك. فالسلطان سيجعل منه معلّماً كريماً، نجي. ولم يستغرب أحد أن يكون نيبو الوحيد الذي لم يمجِّد لعمله التاريخي.

لاحظ نجي ماما: "الفنّانون الحقيقيون هم هكذا". ثم أضاف بعد صمت: "شكّاكون دائماً".

- 12 -

فنانـون في السياسـة

إذا كان نجويا قال لنفسه إن نقل مونليبير إلى القصر سيحلّ بعض الصراعات التي تهزّ ممر الفنّانين، فقد أساء تقدير الإهانة التي سيسبّبها استبدال المعلّم العجوز برجل يسمّيه الفنّانون "مجرّد متكلم"؛ رجل إضافي لمصلحة الفرنسيين. مرات عديدة أتاه الفنّانون والحرفيون ليقولوا له إن أفضل المشاغل تُركت للجرذان؛ وذلك لإبلاغه بالموت المخطّط لأفرانهم. وهذه الشكاوى أحزنت السلطان الذي يعطي قيمة خاصة للفنون. كان يطمئن الشاكين دائماً، ويطلب منهم أن يتبعوا أوامر المدير الفرنسي الذي يريد بكل تأكيد، يضيف السلطان، أن يحصل منهم على الأفضل ولكن بطرق مختلفة. وطلب أيضاً احترام مبادرات موزي يبياب الذي هو ابنه، في نهاية الأمر.

ونجويا نفسه عرف لحظات شكٍّ، وغضب، وهي كثيرة. فالأهم بالنسبة إليه يبقى تجنّب الصراع العلني، ولاسيما في هذه اللحظة حيث باله مشغول ببناء القصر الجديد. إنها سنته الثالثة في الحكم، ولم يتشاجر قطّ مع البيض الذين مرّوا على أرضه. وبقاؤه بعد حكمين استعماريين يطمئنه. ولم يكن ذلك بالأمر السهل! ومع ذلك فقد استطاع الحفاظ على بلاده بسلام عام 1914، وكانت فترة مضطربة جداً، عندما يُقال إن العالم كلّه في حالة حرب!

حين خرق مولوام ونغباتو كل البرتوكولات وأتيا ليشكوا موزي يبياب، طلب منهما نجويا أن يهدّئا أعصابهما ويعودا إلى عمليهما. ونصحهما أن يتبعا تعليمات معلّمهما الجديد، فهذا هو واجب المتدرّبين. وقال لهما أيضاً إن دروب الفن

طويلة، وإن أفضل سبيل ليصبح المرء فنّاناً لا يمر بالسياسة، بل بالعمل، وبالعمل، وبالعمل أيضاً. وضرب لهما مثل نيبو الذي يعرف أنه صديق هذين الشجاعين، فقد جرّه الجنود الفرنسيون وسط المدينة وضربوه حتى شارف على الموت، ومع ذلك فقد كظم غيظه وحوَّله إلى جمال وصار أفضل معلّم شاب عرفته باموم.

وأضاف نجويا سائلاً:

ـ كان من الممكن أن يصبح مجنوناً، أليس كذلك؟ كان من الممكن أن يصبح مجنوناً.

ردّ الشابّان البائسان:

ـ نعم، ألاريني.

ـ ولكنه لم يصبح مجنوناً!

ـ لا، ألاريني.

ـ اقتديا به. وسيعود الحسّ السليم إلى البيت.

ثم أضاف:

ـ قلّدا المعلّمين.

بصعوبة تمكّن نجويا من إغلاق أذنيه لمسألة أن يعبّر هذان الشابّان عن غضب يغلي في عروقه هو أيضاً. فعندما نظر إليهما وتذكّر شبابه. طمأن نفسه قائلاً: "سيفهمان يوماً، سيفهمان أن الصمت لا يعني الجبن."

ظن نجويا أن القضية انتهت حين غادره المتدرّبان محنيّا الظهر، يتقهقران في مشيتهما وهما يطلقان المدائح والشكور.

ـ معلم.

ـ معلّم.

ـ ألاريني.

في اليوم التالي أفاقت فومبان على صراخ امرأة مرعوبة. فقد نجا موزي يبياب بأعجوبة من ضربة ساطور من رجل دخل عنوةً إلى بيته، وأرعب عائلته دون أن يؤذي أحداً. فرّ رجل الفرنسيين عبر الأدغال، وفي الليل، ذهب للاختباء في مكتب سيّده.

ذلك الاغتيال الفاشل أحدث صدمة مجنونة. إذ لم تعرف المدينة قطّ حركةً ليلية كهذه. حتى تهديد الحرب العالمية الأولى لم يُخِف الناس بهذا القدر. هزّت المدينةَ ولولات زوجة موزي التي ظنّت أن زوجها قد مات، وكلمات مولوام المتعثّر تُردّد: "يريدون أن يقتلوا السلطان!"

استبدل المتدرّب قتلاً فاشلاً بآخر، متخيَّلاً. استبدل اغتيالاً يخشاه الجميع بآخر يريد أن يسلّي به الجمهور.

صرخت زوجة موزي يبياب:

ـ يريدون قتله!

كرّر الناس الكلمات التي أطلقها مولوام من ساحة إلى ساحة: "يريدون قتله!"

ـ يريدون قتل فران نجويا!

ـ مفون نجويا؟

ـ مفون نجويا.

قال مولوام إنه رأى السلطان، بأم عينه، سجيناً في قصره.

ـ هل نستطيع أن نقبل ذلك؟

لقد رأى نجوياً ضعيفاً، نعم، لقد رآه عارياً. فسأله الناس:

ـ عاريا؟

ـ نعم، عاريا!

ـ هذا غير مقبول!

قال مولوام إن موزي يبياب هو الذي أراد أن يرى السلطان ميتاً. إنه يريد أن يحل محل نجويا بمساعدة فرنسيين جعلوا منه رَجُلَهم. وسيطرته على الممر ليست سوى بداية لحركة أكثر تطوّراً، فمنذ متى شوهدت في فومبان تعاونية من الفنّانين والحرفيين يُديرها متكلّم، "مجرّد متكلّم"؟

سأل صوتٌ في الغبَش:

ـ منذ متى؟

أجاب الجميع:

ـ أبداً.

خاطباً في المجموعة في جوف الليل، أصبح مولوام ذلك الصوت المتَّهِم الذي يدحرِج أصداءه القوية وينزل من هضاب فومبان ليرتمي في وديان باموم بأسرها. وخلال هذا الوقت، أخذ نغباتو يجول في ممرات المدينة، مكرِّراً غضب صديقه الجامح عبر المزارع. وسريعاً ظهرت مشاعل كثيرة تنمّ عن حركات عصبية، بينما راحت أصوات مجتمعة في الساحات تؤلّف هدير عاصفة. لم يتدخّل النقيب ريبير، فليس لديه الوسائل لمنع تجمّعات ليلية كهذه. الجنود الكونغوليون القلائل المكلّفون بخدمته، بصعوبة يستطيعون تأمين مقرّه ضد هذا الفوران.

لم ينم أحدٌ تلك الليلة، ولا ريبير. فقد تخندق في مكتبه وبندقيته في يده وقطرات كبيرة من العرق تسيل على جبينه. وحين فتح باب مخبئه صباحاً، لم يعد يوجد غير مئات من الرجال يحتلّون ساحة مكتبه، وأولئك الذين ردّدوا طوال الليل كلام مولوام ونغباتو الهائج، بل إن عينيه المرعوبتين عدّتا ألفين، لا بل ثلاثة، لا بل أربعة آلاف شخص على الأقل.

ليكن واضحاً أن شعب فومبان بأسره اجتمع أمام مكتب النقيب، وإنْ يكن ريبير قلّل من شأن هذا الحدث في محضر ضبطه، لئلا يعطي انطباعاً بهزيمة الإدارة الفرنسية (أي إدارته بالذات). ومخطّط مولوام زنغباتو فعل فعله. فقد حشدا الحرفيين والمتدرّبين في المشاغل وانتشروا جميعاً عبر الأرض لإيقاظها لغضبهم. وكرّروا العبارة التي ركّبها مولوام على صرخات زوجة موزي يبياب المهووسة: "يريدون قتله!"

وسمع الناس: "يريدون قتل السلطان!"

رأي نجي ماما حضّر الأرضية لهذا الإعصار الذي انفجر هذه المرة. كل رجل كان رجلاً، وكل امرأة كانت امرأة، شعروا بتهديد يجتاز أجسامهم، وهبّوا من أسرّتهم واندفعوا باتجاه القصر.

لم يسأل أحدٌ: "مَن؟"

لأن كلاً منهم يعلم ما يجري منذ زمن طويل جداً، ولم يسأل أحدٌ: "لماذا؟" لأن كلاً منهم يعرف ما يجري في فومبان منذ وصول برستا؛ لا، منذ أن دخل الإنكليز إلى المدينة وتركوا كلباً يموت؛ لا، منذ أن ظهر الألمان عند الباموم. إنه صراع قديم عمره

أكثر من عشرين سنة يجد هنا تعبيره العنيف. وخلال زمن طويل جداً، خلال زمن طويل جداً، كان الصبر ردَّ الباموم على الاعتداءات الأوربية الماكرة. وفي كل مرة كان السلطان يطلب من أفضل جنوده أن يُخفضوا بنادقهم؛ كل مرة. وأطاعه هؤلاء "لكي ينتصر الحسّ السليم"، ولكنهم سرعان ما أدركوا أنهم في الواقع بلا دفاع، وأنهم خُدعوا.

مرات عديدة قبض حرّاس نجويا على شبان وسلّموهم للأوربيين الذين جعلوهم يعملون كعبيد في مزارعهم. بل إن السلطان طلب من جنوده الذهاب والقتال في حرب ليست حربهم، وهزيمةِ شعوبٍ لم تدخل في أي نزاع مع الباموم، وهذا دائماً "علامة صداقة" مع الأوربيين. ونتيجة ذلك، لم يحصل على أي سلام للباموم، بل بالعكس، فقد وجدت السلطنة نفسها وقد أُضعفت مؤسّساتُها، ودُمّرت أهمّ إنجازاتُها، وأُفقر شعبُها.

الغضب يسري في عروق كل امرأة وكل رجل غادَرَ سريره تلك الليلة استجابةً لنداء مولوام ونغباتو، ووجد الجميع أنفسهم أمام مكتب ريبير. تجمّعٌ من آلاف الغاضبين الكبار والصغار. وللنبلاء اتهاماتهم المختلفة عن اتهامات النساء والعبيد، وبكل تأكيد عن اتهامات الأسرى. للأسرى غضبهم الخاص الذي لا يتعلّق بغضب النبلاء، ولا بغضب الرجال.

بعضهم شكا من الرسوم المرتفعة جداً، والضريبة على الرأس التي أدّت إلى سحق كثير من العائلات. وبعضهم الآخر تحدّث عن الأشغال الشاقة في الطرق والسكك الحديدة التي أُجبروا على شقّها، وفي مزارع البن والكاكاو حيث يعملون بالإكراه. وبعضهم الآخر ندّد بوضع قوته المُحيَّد بسبب وصول البيض، وإدخال وسطاء، عبيد فضلاً عن ذلك؛ والطلاب تذمّروا من تعليمهم في مدارس نجويا الذي قُلّلت قيمتُه، ومن شهاداتهم التي لا تضمن لهم أية وظيفة، لأن من تعلّموا في المدارس الأوربية، وحدهم، ينالون الوظائف في الإدارة الفرنسية.

آه، ما الذي لم يُسجَّل في كتاب الغضب؟

بعض الأصوات، أصوات مجنونة بالفعل، أعلنت غضبها من السلطان، واتّهمته بالجبن والخيانة، وبأنه لا يبالي بآلام الباموم ويبيع مستقبل البلد للجرذان. من

يستمع جيداً إلى هذه الأصوات الليلية كلّها، يكتشف إلى أية درجة هي متناقضة، ومستعدة للتصارع بعضها ضد بعض، بل وللاقتتال أيضاً. وما هي إلا مصادفة محضة في التاريخ أن يجد هذا الخشب المتعدّد عودَ ثقاب في شخص المترجم المتحمّس. وهذه الأصوات المتناقضة، هذه الأصوات الفضولية، هذه الأصوات الغاضبة، هذه الأصوات المنتقمة، هذه الأصوات المستفَزّة، توحّدت في صرخة مولوام الوحيدة: "إنهم يريدون قتل السلطان!"

واجتمعت طوعاً حول طلب نغباتو الملحّ: "نريد رحيل موزي يبياب!"

الشيء الوحيد الذي فعله النقيب ريبير أمام هذه الأصوات المتزايدة الصخب عند مطلع النهار، هو أنه استدعى السلطان. بيد أن وصول نجويا لم يحل المشكلة، بل بالعكس. فقد خرج موزي يبياب من مخبئه فجأة وسلّم على السلطان، مُحدِثا سلسلة من الحركات حول الباقي غير مفهومة، تبعها تعثّر مقصود أطاح بعصا السلطان، وزادت الفوضى من الاحتقان. ويدٌ (هل هي يد مولوام؟ يد نغباتو؟) انتزعت قبعة المترجم ورمَتْها أرضاً.

في تلك اللحظة سُمعت طلقة بندقية، والسماء علِّقتْ.

لنقل ما يلي: النقيب ريبير الذي خرج من ليلته الأطول، والتي خلالها فعَلَ به البعوض المهووس فعله؛ النقيب ريبير الذي لم يكفّ ذهنه طوال هذه الليلة عن اختراع العنف الذي ستُذيقه إياه أيادي السكان المحلّيين، والذي يرى كافة السيناريوهات التي قرأها في أسفاره الاستعمارية تجري أمام عينيه؛ نعم، النقيب ريبير الذي تذكّر ما قرأه في محاضر ضبوط سلَفه برستا الذي حذّره بوضوح من "شعب باموم، ومن السكّان المحلّيين بصورة عامة!"- النقيب ريبير خرج من أرقه مرتعش اليدين شفّافَ الروح. بندقية الخدمة التي يمسكها بيده لاقت المئة بندقية التي حملها جنود السلطان تلبية لنداء الليل.

ومع ذلك أعصاب النقيب ريبير الواهنة لا تُلام في هذه القضية، ولا خياله، حتى وإن ضاعفَ بخصوبةٍ رؤى الموت بسبب البتر، وحتى صوراً كابوسية لأكل لحوم البشر مضافةً إلى تمثيلات لأثداء نساء مجنونات. برميل بارود الروح الذي فجّر حُكمَه، هذا مؤكّد، قال له إنه في وضع خطر حقيقي، وطلب منه أن يرفع

بندقيته ويُطلق عياراً في الهواء، واعياً إلى أنه في حال النزاع المسلَّح سيتحوّل إلى مايونيز، هو لا ينوي أن يقتل أحداً. ولا يريد أن يسيء إلى أحد. يريد أن يعطي إنذاراً للجمهور المضطرب، إنذاراً ترجمه بنفسه لكي يفهمه الجميع:

- اهدؤوا وإلا...

- وإلا ماذا؟

قلّةٌ هم الذين سمعوه يُنهي جملته وسط الفوضى التي أوقفتها طلقة بندقيته:

- سأقتل سلطانكم البائس!

لا، لا، ولا، لم يكن نجويا رهينة في يد نقيب خوّاف. المسؤول الفرنسي ليس إرهابياً. الإمبراطورية الفرنسية الكبيرة التي تمتد على ثلاث قارّات، والتي لا تغيب عنها الشمس، "فرنسا الأبدية" ليست بحاجة إلى أخذ الملوك المحليّين كرهائن! هذا مضحك! وأن يوجّه الرماة الكونغوليين بنادقهم إلى شعب أربعة أخماسه غير مسلّحين، وبينهم نساء وأطفال معلّقين بظهورهن، ليس إلا تفصيلاً، استثناء يؤكّد القاعدة.

كرّر ريبير:

- اهدؤوا أو أطلب تعزيزات!

دشانغ لا تبعد أكثر من مئة كيلومتر، وعدد أكبر من القنّاصة يتمركزون فيها. وطوال هذه السنوات، لم يتوفّر في المقر الإداري في فومبان (الذي يسكنه ريبير) حتى سيارة تحت تصرّفه. ولكي ينفّذ النقيب ريبير تهديداته عليه أن يعتمد على قوة أفضل خيوله التي ستستغرق مهمتُها يوماً إن لم يكن يومين. أوه، النقيب هو بكل تأكيد الرجل الأقل هدوءاً في هذا الجمع من الناس المعتادين على وابل من النيران تنطلق في احتفالات نغوون السنوية، وفي الرقص وفي احتفالات أخرى، والذين لم يرتموا أرضاً بعد تحذيره.

- نريد رحيل موزي يبياب!

نغباتو هو من تكلّم. واضاف مولوام:

- نريد مونليبير!

وكرّر الجمهور:

ـ مونليبير!

ـ مونليبير!

وضرب أناسٌ الأرض بأقدامهم وأيقظوا السماء بأفواههم الملتهبة:

ـ مونليبير!

ـ مونليبير!

ـ مونليبير!

- 13 -

مـن قتـل الفنّان؟

قصص ذلك النهار المجنون كلّها شكلية: النقيب ريبير هو الذي أطلق طلقة البندقية الوحيدة التي سمعها الجميع. وبعض الشهادات تؤكّد أنه أطلق في الهواء، لأن بندقيته غدّارة برتييه 8 ملم، موديل 1906 ما يزال الجيش الفرنسي يستخدمها في المستعمرات. وأستطيع أن أقول بكل أمان إن طلقتها التي أُطلقت بسرعة 2300 م في الدقيقة، من بندقية تصل هدفها الذي يبعد بين 3500 إلى 4500 م، تصعد إلى السماء إلى ارتفاع نحو مئة متر قبل أن تسقط من جديد، منجذبة إلى الأرض بحسب قانون الجاذبية الأرضية. وكل منطق يقول إن سرعة رصاصة ريبير ستقلّ في سقوطها لأن القوة الأهم التي تحرّكها لن تكون إلا الجاذبية الأرضية، وبصورة خاصة لأن اندفاعها سيحدّ منه احتكاك الرياح. وهذه الطلقة لا تستطيع أن تسبّب أي خطر حقيقي على أيٍّ كان، وإمكانية أن تقتل رجلاً معدومة. والضرر الوحيد الذي قد تسبّبه هو انتفاخ في جبين شخص عاثر الحظ.

أكثر من ثلاثة آلاف رجل رأوا بوضوح النقيب الفرنسي يتناول بندقيته ويسدّد نحو السماء ويطلق؛ بووم! أن تقول هذه الكتلة فيما بعد إن "الفرنسيين" هم من حاولوا قتل السلطان، مرتبط بكل تأكيد بهذا الغضب الخاص الذي غطّى حكم الجميع منذ اتّهام نجي ماما؛ والذي دفع أياديَ في الغبش لتقوم بقتل موزي يبياب؛ وجمعت الجمهور أمام مكتب النقيب ريبير. "حكم متسرّع" سيقول المؤرّخ. ومع ذلك، أنا أعرف، نعم، أنا أعرف: الموضوعية المطلوبة في تحليل تصرّف الضابط تعادل في كل قراءة تحليل تصرّف نجويا، لأن من المؤكّد مئة بالمئة أن

السلطان لم يكن في قصره حين اجتازت طلقةُ ريبير السماء. ريبير طلب منه أن يأتي إلى مكتبه معتمداً على حضور السلطان وقوته من أجل الخروج من موقف متفجّر.

المحيطون بنجويا يشهدون بوضوح على أن السلطان كان بالفعل مقابل النقيب ريبير حين أُطلقت الطلقة، وأنا واثقة من أن بعضهم يقبل شرب مصل الحقيقة إذا لم تكن هذه الممارسة ممنوعة بأحد مراسيم الملازم أول برستا. ومع ذلك، لم يُدعَ أحدٌ للشهادة، لم يُدعَ أيُّ فمٍ من الثلاثة آلاف المجتمعة أمام مكتب ريبير حين جلس هذا ليبيّض محضر ضبطه! وما بقي في الأرشيف هو خلاصة النقيب الذي كان ثائر الأعصاب، وأعلن أن نجويا وحده يمكن أن يكون قد قتل نيبو؛ نعم، هذا ما كتبه: "قتل نيبو".

ذريعة صالحة لأمور كثيرة، وبخاصة للخروج من مواقف صعبة. وهنا استُبدلت الموضوعية باللامنطق. فالاستعمار ليس منطقياً. فقد لزم كثير من الإرادة الطيبة بعد طلقة ريبير ليقتنع كل واحد من الجمهور من حوله أن السلطان ما زال حياً، وأن لا أحد، ولا حتى ريبير، أراد قتله. فقط وجب على النقيب أن يعطي عدداً معيناً من الضمانات لإخلاء باحته والخروج من القضية. الأولى التي طلبها الجميع، في الواقع، هي استبدال موزي يبياب. ولم يقبلها النقيب ريبير لأن هذا، برأيه، سيبيّن وجود علامة "ضعف" باستبدال شخصية غير شعبية. فيجب أن لا تُبدي الجمهورية الفرنسية أية "علامة ضعف" ولاسيما "أمام السكّان الأصليين" بحسب أحد التعليمات التي ما تزال على مكتب الضابط الفرنسي، والتي تشكّل مشكلته الحقيقية.

ولم يكن ريبير رجلاً يخالف تعليماته. لذا رفض ما اقترحه عليه السلطان، أي استبدال موزي يبياب بإبراهيم الذي يحبّه فنّانو الممر. وفضلاً عن ذلك، فقد رفض ريبير الطلب إلى رماته بخفض أسلحتهم، والانسحاب إلى ثكنتهم. رفض كثير بالنسبة لرجل في حالة ضعف! مرة أخرى، هدّد بطلب التعزيزات من دشانغ، وحتى من ياووندي. وطلب من السلطان وضع شاحنته تحت تصرّف الإدارة الفرنسية لتسهيل الأمور. آه، فمتطلّبات الجمهور لم تسقط أمام حيلة واضحة، فتطوّرت من فمَي مولوام ونغباتو.

رجل الفرنسيين يجب أن يرحل، نعم. عندها اتهم النقيبُ نجويا؛ وقال إنه هو، نجويا، الذي يختبئ خلف هذه الفوضى كلّها، ويدير خيوطها. وأعلن ريبير أن نجويا مسؤول عن كل ما يحدث في فومبان في ذلك اليوم، كما لو أنها ليست مسؤولية السلطان منذ ولادته! وكما لو أن نجويا نفسُه "لكي يعود الحس السليم" لم ينظّف النفايات التي كانت تتراكم في شوارع باموم منذ أن وضع أول أبيض قدمه فيها. كان موقفاً مضحكاً جداً بحيث أن نجويا كان سينفجر ضاحكاً لو أنه لا يعرف أن ضحكته ستهين ريبير أكثر. وذلك أن نجويا يعلم أن الاستحقاقات ثقيلة هذه المرة، ومقيسةً بقدرة تحمّل أعصاب ريبير الذي ليس من الحكمة وضعه تحت ضغط أكثر. لذا قرّر أن يغيّر من لهجته ويتكلّم مع النقيب بلطف، فقال وحديثه مع مولوام ونغباتو ما يزال ماثلاً في ذهنه:

ـ أنا لم أطلب منهم أن يأتوا إلى هنا. في الواقع طلبتُ منهم التسامح مع موزي.

لم يصدّقه النقيب، فكيف إذن؟ ترجمة موزي يبياب لم تساعده في ذلك. فصرخ:

ـ كاذب!

لم يترجم موزي الشتيمة، فهي ستثير غضب شعب باموم الذي لم يسمع من قبل سلطانه يوصف بـ "كاذب".ولكن بكل تأكيد، أناس قلائل هنا، بل لا أحد، قرأ محاضر ضبوط الضبّاط الفرنسيين الذين كانوا كثيراً ما يستخدمون عبارات كهذه لوصف سلطانهم.

أضاف نجويا:

ـ كيف يمكنني أن أطلب منهم المغادرة وأنا لم أطلب منه المجيء؟

وكان سيُضيف أنه مع موقف النقيب ريبير نفسه، ولكن لم يُسعفه الوقت. إذ قال ريبير متوعّداً:

ـ قل لهم أن يذهبوا أو سأنفيك!

نعم، هذا ما قاله الضابط الاستعماري، وموزي ترجمه: "منفى"

لم يكن يوجد مادة في قانون معاملة السكان الأصليين تقضي بإطلاق صرخات تهديد بالنفي في وجه سلطان. ولكن أليس النقيب هو القانون شخصياً؟ على أية

حال ما كان ليتردّد في توقيع مرسوم كهذا، هناك، أمام مكتبه، وأمام الناس جميعاً. ما كان ليتردّد! فرئيسه مارتان في دشانغ، كان سيغطّيه بكل تأكيد "لئلا تفقد فرنسا ماء وجهها". كان نجويا يعلم جيداً أن الناس الأصغر في أرض محتلّة هم الأكثر كبراً، وأن قرار ضابط صغير يعادل قرار المفوَّض السامي. طوال سنوات تجنّب الاصطدام بالأوربيين، وها هو يجد فجأةً قدميه في عجّتهم. استدعى قائدَي حركة الاحتجاج، ووعظهما على الملأ، وسألهما لماذا يريدان باسم نشاري بين أن تعمّ الفوضى في فومبان؟

ردّ مولوام:

ـ الفوضى باتت في البيت، ألاريني.

وفي غمرة غضبه، نسي الصبي حركات الاحترام التي يجب أن يؤدّيها أمام السلطان، الذي سأله:

ـ ألم تعودوا تحترمون أوامري؟

لم يُجب مولوام ولا نغباتو.

ـ أتريدون أن يموت أحد؟

نغباتو سارع إلى الرد:

ـ ألاريني، نحن نريد فقط أن يرحل موزي يبياب.

والتفت مخاطباً جمهور المتدرّبين من خلفه:

ـ أليس كذلك؟

فَمُ ألف شخص ردّ:

ـ لم نعد نريده!

وأكّد مولوام:

ـ ألاريني، نحن جميعاً نريد مونليبير.

وركّز على "نحن جميعاً"، وكرّر الجمهور:

ـ مونليبير!

ـ مونليبير!"

عبثاً. فالنقيب ريبير ما يزال لا يقبل اسم إبراهيم الذي اقترحه نجويا كبديل، للسبب الذي نعرفه من قبل. فرنسا، إلخ. ومع ذلك، هنا، في حالة الحصار، يعلم أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية ليست قادرة على اتّخاذ قرار خاص. لذا احتاج إلى بضع ساعات ليقتنع هو نفسه، وهذا على أية حال ضد إرادته أن يخرج ويقرأ المرسوم الذي يقبل قيادة جديدة في ممر الفنّانين. صفر المتظاهرون ولكنهم لم يصفّقوا. ذلك أن ريبير يريد علامة إرادة طيبة بالمقابل. "لكي يبيّن للإدارة الفرنسية، إلخ." لذا طلب أن يُلقى مولوام ونغباتو في السجن "بسبب "محاولة اغتيال"، "تدمير ممتلكات" (بيت موزي يبياب)، "تحريض على التمرّد"، "تعكير صفو النظام العام"، و بضعة أشياء أخرى سيئة. نجويا لم يعارض ذلك، لا. حتى في القصر أدان بلاطُه الشابّين اللذين اتّهمهما بعصيان أوامر السلطان. وإذ استفاد الباموم من هذا الفتح للحوار، فقد عرضوا بقية شكاواهم: تخفيض الرسوم، رفع القيود على حق الزوج على زوجاته، إلغاء الأشغال الشاقة، إلخ. قطع الضابط الفرنسي استرسالهم، وطلب أن يكون الرجال جميعاً مجرّدين من السلاح قبل التكلّم معه. فخلق هذا احتجاجاً كبيراً، أطال قائمة المطالب، ولكن النقيب ذكّر رماة باموم الفخورين بأن حمل السلاح كان ممنوعاً من الألمان ومن الإنكليز وبالتالي فهو غير شرعي لدى الفرنسيين.

استغرب الجمع:

ـ غير شرعي! وهل الفرنسيون هم الألمان؟

وصرخ رجل:

ـ ماذا؟ غير شرعي؟ ومنذ متى؟

ـ السلطان لم يمنع بنادقنا أبداً.

ـ من تظنّون أنفسكم؟

ـ هل سيوفّر الفرنسيون أمن السلطان؟

إلخ.

في نهاية ذلك النهار الطويل، لبّى ريبير الحاجات الأكثر إلحاحاً للجمهور، وحرّر الشوارع من المحامين الأكثر حماسة. ليس أكثر. وما لم يعرفه الناس هو أنه سجّل

في ذهنه وجوه كل مَن رآهم يحرّضون الجمهور على التمرّد، لأنه ذكر أسماءهم في محضر الضبط الذي كتبه فيما بعد وأرسله إلى دشانغ لكي يُنقل إلى المفوّض السامي مارشان في ياووندي. موزي ييياب أعطاه أسماء هؤلاء المخرّبين، وأضاف المترجم أن معظمهم متدرّبون لدى المعلّم المُقال مونليبير، الأمر الذي جعل القرار التالي للنقيب ريبير أبسط. في الواقع، إن قراره قد اتُّخذ في رأسه حين أُخبر بموت رجل في ورشة القصر الجديد.

ـ أما آن لهذه الفوضى أن تنتهي؟

امتطى ريبير صهوة حصانه مسارعاً مع الجمهور الثائر نحو قصر الأحلام كلّها.

ولم تكن تلك إلا البداية.

- 14 -

معادلة اغتيال

هذا ما حدث: كان الجمهور الذي تجمّع أمام مكتب النقيب ريبير قد بدأ يتفرّق حين ارتمى عبدٌ لاهث على قدمي نجويا. الخوف ينضح من وجه الرجل، ويداه تتحركّان بجنون، وهو يصرخ:

- وومبو-أو، لقد مات!

- ماذا؟

- لقد مات!

- من؟

- وومبو-أو!

حين وصل السلطان وحاشيته وريبير ورُماته إلى القصر، وجدوا جثة نيبو مسحوقة عند أسفل الطابق، وسط قطع التمثال الذي كان يشتغله. ميتةٌ غريبة حقاً، نعم، وميت غريب حقاً! فقد كان النحّات عارياً تماماً، وذَكَرُه ما يزال منتصباً. من البديهي أنه سقط من نافذة قصر الأحلام كلّها مع تمثاله. العمال في القصر أحاطوا به مندهشين. دعاهم صوت السلطان وصوت النقيب ريبير إلى التراجع، فالاثنان يريدان أن يريا بأم أعينهما قبل أن يقبلا الواقع. وهكذا، وللمرة الرابعة يلتقي نجويا بنيبو، ولكن هذه المرة كان ابن برثا ميتاً. سأل:

- ماذا حدث؟

وسأل النقيب:

- مَن قتله؟

بنظرة سريعة وبوليسية قاس الفرنسي أبعاد الجدار الذي يربط النافذة بالأرض. السؤال الاستقصائي الذي انطلق من بين شفتيه قطعته صرخةُ أمٍّ فجّرت قلب الجمهور. إنها برثا. ارتمت على جثة ابنها الذي لطالما أحبّته، ولكنها لم تستطع إنقاذه. أخذت تضرب صدرها وتكشف جسمها المغطّى بدم نيبو، وفمها المتّجه نحو السماء ليحرّر ألم بطنها الذي سبّبه أهمُّ ما في حياتها. صرخت:

- يا بني!

كررت النسوة من حولها صرختها:

- يا بني!

- يا بني!

- يا بني!

- من قتل ابننا؟

- وومبو-أو!

جسدها شبه عارٍ، ويداها مرتفعتان إلى السماء، وصرختها اللامتناهية تمزّق الكون في ارتعاش أبكى الجميع. نجويا، هو أيضاً، لم يستطع أن يتماسك أمام هذا النحّات العبقري الذي رفعه إلى صف نجي قبل عدة أشهر فقط. بكى السلطان. مونلييبر ونجي ماما وإبراهيم، ومعلّمو المدينة جميعاً، وآخرون أحزنهم هذا الفقد. تجمّع الجمهور حول الأم الثكلى، وبكى معها.

في الواقع، السلطنة بأكملها ارتاعت لموت الفنّان. والكاميرون بأسرها، أوه، ماذا أقول، أفريقيا بأسرها بكت فقيدها! كل أولئك الذين علموا بأحداث ممر الفنّانين وعبّروا عن غضبهم في مطالب المظاهرة بات لديهم منذ ذلك الحين أول ميت، وسؤال وحيد على شفاههم: "من قتل نيبو؟"

الإدارة الاستعمارية الفرنسية (ريبير)، لم تنظر قطّ بعين الرضا إلى أن يقوم نجويا ببناء قصر الأحلام كلّها. ولطالما أرادت أن توقف هذه الورشة، ودفعُ السلطان إلى الإفلاس كانت الوسيلة لذلك.

الموت الذي حدث في القصر أعطى النقيب الذريعة التي يحتاجها رؤساؤه، وكذلك حركة الاحتجاج التي هزّت ممر الفنّانين أوحت إليه بتقرير قوي جداً.

طلب أولاً إخلاء مكان المأساة، وأُطيع. فقد حمل الجمهور الحزين الجثمان بعيداً عن الأحياء. واندفعت مئة يد لتواسي الأم التي رأت جسم ابنها مقطّعاً على الأرض.

بعد أن عاد النقيب إلى مكتبه كتب بسرعة تقريراً من ثلاث عشرة صفحة إلى رئيسه في دشانغ، تقرير انتهى بخلاصة عملية وباتهام فاضح لم يجرؤ على الإفصاح عنه شفهياً أمام جثة نيبو. والخلاصة هي: "يجب أن نفعل شيئاً ما."

الـ "ن" التي قالها ريبير تعني "الإدارة الاستعمارية"، والتي تعني في فوبان ريبير نفسه بالتأكيد.

أما اتّهامه فكان صريحاً: "نجويا يقف خلف هذه الفوضى كلّها."

هذا النوع من الخلاصات والاتهامات لا يحتاج القائد مارتان في دشانغ إلى قراءته مرتين. فهو ينتظره. ربما سأل المفوّض السامي في ياووندي بملاحظة سريعة: "لماذا؟"، فأرسل إليه مارتان كروكياً عن القصر الذي كان قيد الإنشاء وقد رسمه نجي ماما، وكان ريبير قد ألحقه بتقريره لدعم اتهاماته. بين قوسين: النقيب صادره واستخدمه ليبرهن على أن بناء نجويا لا يتطابق أبداً من أبسط معايير حماية العمّال.

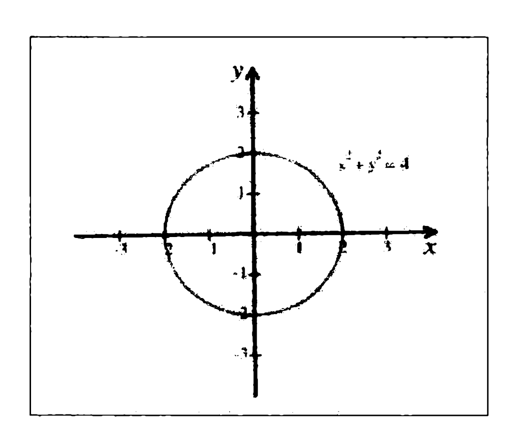
كروكي القصر، المغطّى بملاحظات مكتوبة بخط الأكاكو، حتى وإن كان مصدر اتّهام هام، حيّد اتّهام ريبير على مكتب المفوّض السامي الذي أرسله إلى المتحف الإتنوغرافي في باريس من أجل "المزيد من التحليل"، ومن هناك مرّت الخارطة إلى العالِم في الإدارة الاستعمارية دولافوس في السنغال، لكي "يحدّد هذا الأخير ما إذا كانوا في صدد ذكاء محلّي حقيقي".

هذا هو السبيل الذي سلكه التقرير الذي اتّهم نجويا. وقد ذُكر قصر الأحلام كلها في مقال علمي حول كتابة الباموم وحول أعمال نجويا التي كان يشتغل عليها دولافوس آنذاك. ومن نافل القول أن مقالاً كهذا لم يغيّر قرار ريبير، لأن غضبه يومذاك أمام الميت في القصر كان بلا حدود، ورغبته في تطبيق العدالة الفرنسية لا يمكن أن تنثني أمام العالم.

قال له معلّم فنّان من باموم، وهذا بديهي في ذهن كل شخص، إن موت نيبو هو التضحية الضرورية لبناء سليم للقصر، نعم، وجب على النحّات أن يموت لكي

تتقدّم الورشة منذ ذلك الحين بهدوء، وما كان من النقيب ريبير إلا أن صرخ: "تطيّر!"

منطقه الديكارتي فرض عليه هذا التفكير، كميكانيكية البندقية ذات الطلقتين اللتين تحملهما على جانبيها، وقراره "بالانتهاء من السلطان" قوي بحيث أن له وضوح منظومة إحداثيات ببعدين:



مع المتغيّرات:

X^2 = موت نيبو

و y^2 = قصر نجويا

ولا يمكن أن تكون النتيجة إلا:

4 = يجب أن يُنفى نجويا من فومبان.

تنبّه الحرفيّون إلى عري الفنّان الميت الذي فسّره ريبير بأن بعض العبيد ما يزالون يمشون في الشوارع بساتر عورة فقط، وهذا على الرغم من أمر سَلَفه وحتى الألمان بستر العورات. و"ذَكَرُ النحّات المنتصب بصورة غريبة" لم يغيّر من قراره، بل بالعكس. وقد ذكر الحرفيون تمثال المرأة في أثناء الحركة الذي كان الفنّان قد انتهى

منه للتو، وأبرزوا ميتافيزيقا ممكنة لفنّان، وأن ريبير انفجر ضاحكاً. بل إنهم قالوا إن التمثال كامل جداً بحيث أن منطق إنهائه يقول بأن يعيش "ينهض ويمشي" وأن النقيب استمتع بهذه "الحماقة الحقيقية".

نظرية العميدة تقول إن والد نيبو عاد من بين الأموات ليقتل ابنه. ولا ريب في أن غضب الكلب منطقي. فهو لم يكن على أية حال أول ضحيةِ قَتْلٍ يصبح قاتلاً ويعود سعيداً من الجحيم. على الأقل، هذا ما رأته سارة، وأنا أميل إلى عدم مخالفتها. ومع ذلك، حماقة أو ليست حماقة، هذا ما حدث، بحسب شهادة العبد الذي أعلن خبر موت نيبو لجمهور فومبان المذهول. فقد سمع الرجل صوتاً متكرّراً في مشغل نيبو، صوت شخصين يمارسان الحب. وحين ذهب ليستطلع (وقد اعترف بذلك ليس من دون خجل)، رأى مؤخّرة النحّات تتحرّك حركةً منتظمة بين ساقي امرأة. ابتسم، بالطبع، وتنحّى بعيداً "وقد شبع من المشهد". لقد كان نيبو، وهذا كلامه أيضاً، ما يزال في سنّ تمكّنه من القيام بهذه الأمور".

لاحظ الرجل:

ـ فالفنّانون لديهم دائماً نساء في مشاغلهم.

كيف له أن يعلم أن المرأة المقصودة هي تمثال؟ بل كان يعتقد أنها موديل.

ـ الفنّانون ينامون دائماً مع موديلاتهم، أليس كذلك؟

وسرعان ما سمع الصرخة النموذجية التي يبلغ ذروتَها هذا النوعُ من الممارسة الفنية.

ـ وأنتم أيضاً، لم تتمكّنوا من تخيّل أنه طار، أليس كذلك؟

بكل تأكيد لم يرَ أحدٌ في فومبان أحداً يطير في الهواء. ووصفُ العبد رنّ في آذان الفنّانين الذين اشتغلوا إلى جانب النحّات، ويعرفون الشهوة الغريبة التي أيقظها تمثاله لديهم عندما رأوه نائماً على الأرض. لقد أُسعدوا جميعاً لعدم تمكّنهم من تلبية رغبتهم في "مضاجعة التمثال" التي عبرت عروقهم: "لا نعرف أبداً."

كان لقصة العبد صدى خاص جداً في أذني برثا المعنّاتين. لقد رأت ابنَها مرة أخرى مرتبطاً بلعنة "الشيطان". قبضة الأم الرؤوم تكوّرت، تكوّرت، وهذه المرة لم تنفتح. فالمرأة التي كان بوسعها أن تقتلها منذ زمن طويل تحوّلت إلى غبار حين

سقط التمثال مع ابنها من الطابق الثالث من قصر الأحلام كلّها. لامت برثا نفسها على تأخّرها. وقالت باكية:

ـ كان يجب عليّ أن أقتلها.

لا يعنيها كثيراً ما إذا كانت تمثالا، بل أضافت:

ـ تلك الفتاة قتلت ابني!

سأل العبد في نهاية حكايته المرعبة:

ـ ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا أنها كانت ستقتله، أليس كذلك؟

فتساءل الفنّانون مفزوعين:

ـ وكيف كنا سنعرف أنها روحٌ؟

وعادت عيونهم لتنظر إلى تمثال المرأة "ذات المؤخرة المستديرة كثمرتي قرع". لقد عرّوا "هذه المرأة" التي أصبحت مصّاصة دماء. حتى جمالها لم يعد يوقظ أفكارهم الأقذر، وكلماتهم الأمدح. وقال هؤلاء الحكماء لأنفسهم: الكمال لا يبقى أبداً من غير عقاب. لقد ابتهل نيبو إلى إلهة، إلهة الجمال، وهذه أتت وقتلته! قتلته ثم اختفت ككل النساء الأخريات اللواتي أفهمنه بطرق مختلفة الدلالةَ المدمِّرة للحب. هذا ما فكّر به الفنّانون، والدموع في مآقيهم.

سألت برثا يائسة:

ـ وكيف لي أن أعرف أن الشيطان سيعود؟ كيف؟

كانت تفكّر بنغونغور، وبمن غيرها؟ آه، الأم الثكلى لا تفكّر إلا بـ"تلك الفتاة"! ومع ذلك، وبطريقة معينة، إنه العَود الأبدي لهذه الفتاة نفسها في حياة ابنها الذي أعطاها فيما بعد إرادة قتل نيبو جديد في العالم، حتى لو لم يكن ذلك إلا برواية أحداث حياته الطارئة، فلا شك بالنسبة إليها: الشيطان قتله. ومن لديه الشجاعة ليقول لها إنها ليست عقلانية؟ من، نعم، من؟

نحن نعرف ذلك: الاستعمار ليس منطقياً، هو الآخر. فهذه المظاهر، العرجاء كلّها على حدّ سواء، الأول مثل الثاني، في قصة العبد، ورأي الفنّانين حول موضوع نيبو والروايات الأخرى المختلفة كلّها حول موته لم تجد مكاناً لها في نثر ريبير المكسور، حين رفع القضية برمّتها إلى رؤسائه في عام 1924.

برأي ريبير الذي لم يشهد السقوط، لا يوجد إلا شخص واحد يمكن أن يقتل نيبو: السلطان. كما لا يوجد إلا شخص واحد يمكنه أن يحشد جمهوراً كهذا أمام باب مكتب الإدارة الفرنسية: نجويا.

فكيف خمّن ريبير أنه بالنسبة إلى الأشخاص الكثيرين في فومبان، وفي الروايات المتعدّدة لمقتل الشاب التي تتهم "الفرنسيين"، أنه هو، هو تماماً، النقيب ريبير، من قتل نيبو؟ وأولئك الذين عبّروا هكذا عن الاشمئزاز العام حملوا خبر التآمر عبر المنطقة التي سمعت بوضوح طلقاً نارياً، طلقاً واحداً، هو، النقيب ريبير من أطلقه.

قالوا: "اسمعوا، طلقة ريبير القاتلة فعلت بالضبط ما تريد الإدارة الفرنسية أن تفعله. فبعد أن انطلقت في الهواء تعرّجت وعادت إلى الشارع الذي يمتد من ممر الفنّانين إلى مركز المدينة. تجاوزت سوق البهارات الذي كان خالياً، والحمد لله، وشقّت طريقها عبر حي النساء، ثم عبر باحة القصر الكبيرة التي كانت خاوية، والحمد لله، ودخلت من الباب الكبير إلى القصر واجتازت الاثنتين وأربعين درجة للطوابق الثلاثة للقصر، ثم مرّت من باب مشغل نيبو الذي كان فيه ثقب، لسوء الحظ، وقوة دفعها تبلغ 1623 متراً في الثانية، فدخلت في قلب النحّات بدلاً من أن تسبّب له مجرّد انتفاخ في رأسه، فرمته عبر النافذة مع تمثاله الذي كان يمسك يده في تلك اللحظة، أنهت بذلك حياة هشّة وحوّلت قمة فن الباموم والفن الأفريقي إلى غبار.

صرخ الناس:

ـ يا للخسارة! أوه، يا للخسارةّ!

ورأوا أن هذا هو قَدَر نيبو. هذه قمة رحلته، وبحثه عن الكمال، وفي الكمال انتهى بحثه. كل شيء بدأ وانتهى مع امرأة.

صاح الفنّانون وهم ينظرون إلى بقايا التمثال الميت:

ـ يا للمصيبة! لقد سقط بين يديها ومات!"

لو كنتُ موجودة، أنا برثا، كنتُ سأقول للنحّات الميت: "أوه، أنتَ، أنتَ، يا من لم تعبّر في حياتك عن الألم بل عن الحب، انظر في أي معطف للألم انسحقتَ!"

كرّر صوت من بين الجمهور:

ـ قُتل!

وقال آخر:

ـ نعم قُتل، وبرصاصة فرنسية!

بالتأكيد رددت آلاف الأصوات هذه الحقيقة:

ـ حقيقة؟

أكّد أصدقائي في نسيميونغ: "المسافة التي قطعتها طلقة النقيب تبقى ضمن حدود غدّارة من طراز برتييه 8 مم ليبيل. منطق، همممم؟"

ومع ذلك لم يشأ الضابط الفرنسي أن يستمع إلى اتّهامات كهذه قليلة الديكارتية. وقد تدعّم قراره بالسلطة التي لديه بكتابة روايته الخاصة حول وفاة نيبو في محضر ضبط، سلاحه الأخير الذي سيرسله إلى دشانغ بوساطة الفرسان. وقد كتب النقيب ريبير في تقريره خلاصته عدة مرات بأحرف كبيرة وباللون الأحمر، وحتى وضع خطّاً تحتها: "لكي يعود السلام إلى باموم أخيراً، وشدّد، يجب أن يُنفى نجويا."

وحذّر بقوة من استخدام الرواية التي كتبها السلطان في ساأنغام، ومن النتائج المختلفة تماماً التي توصّل إليها نجويا. كذلك حذّر المؤرّخين المقبلين الذي وجدوا رواية السلطان، لأنه يقول، في غمرة خبث نجويا، اخترع خطّاً تماماً لكي يُخفي عنا أفكاره وأفعاله."

والـ "نا" تعني بالتأكيد "الإدارة الفرنسية"، كما ضم نماذج عن هذا الخط كملحق لنصّه. وما لم يستطع توقّعه هو أن رئيسه مارتان تأثّر كثيراً بصور الأكاوكو عند نجويا، بحيث أنه أمضى حياته الباقية في فهم هذه الأحرف التصويرية للسلطان، احتفال كان تتويجه الترجمة المتأنّية لذواكر الباموم. وريبير الذي كان في فومبان لم يتطوّر أبداً. ومع ذلك أضاف في تقريره: "نجويا قدّم لنفسه سيارة لإهانة الإدارة الفرنسية أمام شعب باموم"، واختتم قائلاً: "إنه رجل ذو وجهين."

هل يقصد أن نجويا لديه موهبة كليّة الحضور؟ أوه، بكل تأكيد هو لا يوحي بأن قوة السلطان كبيرة جداً، بحيث يكون أمامه في جمهور يعدّ آلاف الأشخاص،

وفي الوقت نفسه في قصره، حيث قتل النحّات الذي رفعه إلى رتبة نجي قبل عدة أشهر! ربما لم يقل ريبير سوى أنه سجّل كتابةً تهديداً كان قد صاغه شفهياً، فما قاله ضابط مستعمر علناً سيصبح عاجلاً أو آجلاً قراراً للإدارة الاستعمارية.

بعد أن أصبح الناس صُمّاً بسبب ضجيج القصص والتجاذبات والنظريات والاحتمالات، ولم يشتبهوا بشعور الهزيمة الذي سكن نيبو نفسه عندما أنهى تمثاله؛ شعوره بوصفه فنّاناً، لأنه لم يستطع أن يُحيي تغونغور من جديد، على الرغم من أنه أعاد خلقها في تمثال كامل. إذن لم يشكّ أحدٌ في قنوطه لأنه لم يبلغ كمال الفن إلا ليكتشف حدوده. هل فكّر المنظّرون في موته بأنه فهم أنه في عنائه قرّر أن يلحق بمحبوبته إلى الموت، وأن يلقي بنفسه معها من نافذة قصر الأحلام كلها. فالموت هو حدّ الفن، أليس كذلك؟ ومع ذلك، كيف تسنّى للناس أن يفكّروا بالانتحار؟ ولماذا؟ ففي النهاية، المسؤولون الفرنسيون وخصومهم في فومبان متفقون على أن رجلاً من الباموم لا ينتحر لسبب كهذا.

- 15 -

الوجوه المضاعفة لانعدام السلطة

لم يشعر نجويا قطّ بأنه مجرّد من السلطة كما في ذلك اليوم أمام اتهام ريبير؛ لا الباموم. فقد سمّاه برستا وريبير ومارتان ومارشان ومسؤولون استعماريون آخرون بكل الأسماء في تقاريرهم وتصاريحهم، وقالوا:

- مستبدّ.

وقبِل الباموم.

- رجل لا يحترم الحياة الإنسانية...

وقبِلوا.

-..يُبقي مئات النساء سجينات في حريمه.

وقبلوا.

- ملك يملك حياة رعاياه وأملاكهم.

وقبلوا.

- طاغية.

وقبلوا.

- متعدّد الزوجات.

وقبلوا.

- مناصر للعبودية.

وقبلوا.

- حاكم مطلق دموي.

وقبلوا.

حتى "أسود" قبلوا. أما:

ـ قاتل؟

الباموم يملكون آلاف الأجوبة. ومع ذلك كل ما لديهم ليقولوه أصبح بلا معنى أمام ذلك الاتهام الظالم. اقترحوا آلاف النظريات حول موت نيبو، ولكن تفسيراتهم ديست كلّها. ملؤوا باحة القصر الكبرى بوجوههم المستغرِبة، ولكن بدا وكأن الساحة بقيت خالية تماماً.

ـ نجويا قاتل؟

إنهم يمسكون بمأساة بين أيديهم، وحتى دموعهم كانت ضعيفة كأمطار موسم جاف. فومبان، لا، الباموم كلّهم بكوا الفنّان الميت، واكتشفوا فجأة أصلب مدافع عنه. حين تفرّق الباكون في المدينة، حاملين جثمان نيبو، وحين تجمّعوا في باحة بيت برثا ليعطوا النحّات الحِداد الذي يستحقّه، ما بقي بين أنقاض قصر الأحلام كلّها هو صمت عميق.

ولمّا عاد ريبير إلى مكتبه وقّع مرسوماً يمنع أشكال المظاهرات الشعبية كافّة. حتى الأطفال يجب أن لا يصرخوا. وحتى السحليات لا ترفع رؤوسها لتسأل السماء. والكلاب أيضاً لا تنبح. في صمت الموت الذي لفّ المدينة، لو استمعوا بانتباه لسمعوا خفقان سعار مراوغ. إنه غضب مدينة، غضب عالم عمره أربعمائة سنة، غضب قارّة عجوز، وكون دهري، هو الذي ديس، وهو الذي يُسكت حنقه. إنه غضب ساطع في جسم متحرّق، نار اشتعلت في جسم نجويا كعلائم منذرة لسقوط، نعم، لسقوطه، نار تتأجّج في جسده وتلامس صدره وتُحرف عروقه مستعدة لأكلها كبركان مجنون.

لم يكن السلطان ضحية جسمه الخائر بعد. لم يعد يستطيع السيطرة على يديه، هذا كل ما في الأمر. ويداه ترتعشان. ترتعشان. فجأةً اختراعاته بدت بلا فائدة، ولم يعد لحياته معنى. وحين عاد إلى قصره، منهكاً، وحين مشى في مشغل الفنّانين، الفنّان الميت، صفعه الصمت. في هذا المكان الذي كان طافحاً بالحياة فيما مضى، اصطدم بغياب الشاب الذي لم يلتقِ به سوى أربع مرات، ومع ذلك فقد بيّن

له العظمة التي يمكن أن تنتجها الباموم. قدّر فجأةً الثمن البخس لكل تسوياته. وبدا أن ابنه هو الذي قُتل. ضرب الجدار بعصاه، وصرخ:

ـ اللعنة! اللعنة!

دُهش الجميع لأن نجويا لم يتكلّم قطّ بلغة العبيد البذيئة. ولكنه أضاف:

ـ اللعنة!

لم يعد بوسع السلطان أن يسيطر على لسانه، ولا أن يوقف يديه. وسقطت عصاه على آلة النسّاج، فصرخ هذا:

ـ اللعنة!

التوى فم نجويا. فلم يعد يجد إلا الكلمة نفسها، وأخذ يكرّرها بلا توقّف. صرخ نجويا، انفجر، لتفهم السلطنة، ولتفهم زوجاته المئة وأولاده أيضاً. وكل واحد هنا عرف أن قدر أرضه أصبح مأساوياً. والسلطنة وجدت إناء لاحتواء دموع سيّدها، وحتى أجداده ساعدوه.

صرخ نجويا وهو يضرب صورة:

ـ اللعنة!

دمّر عمل فنّانيه، ورمى بمخطوطاتهم، وآلاف كلمات مكتبة القصر طارت. رآه بعض الخطّاطين والمنمنِمين قادماً فسارعوا إلى حماية أعمالهم. خبّؤوا كتبهم تحت آباطهم وحول بطونهم وتسلّلوا بعيداً عنه. والكتب التي أنقذوها بهذه الصورة من غرف القصر ما تزال حتى اليوم منتثرة في باموم بأكملها، مخبّأة في صناديق أو مدسوسة تحت أسرّة ورثة ليلة الهزيمة الكبرى، بعيداً عن غضب نجويا غير المحدود.

عصا السلطان هوت على ظهور الفنّانين، لكن هؤلاء لم يصرخوا لأن أجسادهم المتألّمة كانت منشغلة بحماية نتاج أيديهم. كانوا يفضّلون الموت من أجل الذود عن أعمالهم. للأسف، فإن الغضب الذي لا يُصيب الشخص الموجَّه إليه، يصبح مدمِّراً للنفس. يولد في الأمعاء ويسيطر على الحلق ويحلّ الكلمات كلّها في الجمر. ويصبح الجسم سجينه، فهذا الغضب هو عطسة مخنوقة. والفوضى التي حدثت في مشاغل القصر هي انعكاس للصمت الذي ترك به نجويا الفوضى تنتشر في بلاد

الباموم منذ وصول أوائل البيض في عام 1902. العنف يسكن في انعدام السلطة، لأنها سلطة منعدمة منذ اثنتين وعشرين سنة، هي التي رسمت مسار عصا السلطان.

ـ الجرذان!

وقعت عيناه فجأةً على آلة طباعة مونليبير. وبدلاً من أن يحمي المعلّم العجوز عمله بذَلَ جهودَه لتهدئة سعار نجويا. إذ قال لنفسه لننس الألقاب المعتادة، فناداه:

ـ نجي ما يوام.

لم يُجب نجويا.

ـ مفومباام.

يعرف المهندس العجوز أن هذين الاسمين اللذين أطلقتهما جدة نجويا عليه كانا يدفعانه دائماً إلى الابتسام. إنهما اسما مديح خاص. بيد أنهما فقدا تأثيرهما هذه المرة.

ـ منكولاشون.

وهذا الاسم أطلقه والد نجويا نسانغو عليه. لكنه لم يُسهم في إطفاء غضب السلطان. وهنا جرّب المعلّم الحدّاد الأمثال، فقال:

ـ فرا نجويا، حتى طوال فصل المطر يحتفظ النهر باسمه.

وهذا أيضاً لم ينفع، فانتقل العجوز إلى القصص:

ـ منكولاشون، هل تتذكّر ما يفعله الأسد حين يُصاب بسهم؟

ـ ماذا؟

وبدأ المعلّم بسلسلة من الجمل، ثم كرّرتها جوقة زملائه الذين اقتفوا أثره في كل قطعة إضافية. نجي ماما، إبراهيم، نجي شوا... وكانت حكاية.

أمرهم نجويا:

ـ اصمتوا!

كلّمهم السلطان كما يكلّم متدرّبين، فرنّ صوته في الصمت المخيّم على أرجاء القصر. من يجرؤ على قول كلمة واحدة؟ غضب كبر خلال زمن طويل كغضب

نجويا، غضب له أبعاد ألم باموم لا يمكنه أن يهدأ بمخادعة الكلمات. إنه بحاجة إلى إعادة خلق الدمار الذي لطالما رفض سلطان باموم أن يراه "لكي يعود الحسّ السليم"؛ إنه بحاجة إلى إعادة اختراع فوضى الحياة في فومبان خلال السنوات الأخيرة لكي يهمد. إنه يحتاج إلى أن يُعبّر عنه في تكرار الصاعقة التي ضربت شجرة الحُميرة الدهرية في مركز المدينة. نعم، إنه يحتاج إلى إعطاء صوتٍ لصمت المجنَّدين الأغرار الذين انتزعهم نجويا من عائلاتهم وأعطاهم لأصدقائه المستعمِرين. إنه عجزٌ، ذلك السعار الهائل الذي كان يحتاج إلى أن يُعاش بامتلائه. أصبح المعلّمون صغاراً أمام عنفه، إذ صرخ بهم من جديد، مرةً بعد مرّة:

ـ اصمتوا! اصمتوا! اصمتوا!

بدا وكأنه يكلّم أرواحاً، كما لو أن صرخاته العنيفة الهوجاء، وعصاه المدمِّرة، يهزّها في الوقت نفسه التاريخُ، والشبّان الباموم الثلاثة الذين كانوا تحت إمرته، والذين دخلوا بخطيئة منه إلى المعتقل، بسبب خطأ في الحكم:

ـ نغباتو! مولوام! نيبو!

ولكن أيضاً، بدلاً من أن يسمّيهم نجويا بأسمائهم، سمّاهم:

ـ سامبا! نغوسو! مانغا!

ثم:

ـ نغباتو! نيبو! مولوام!

التاريخ لا يكذب. إنه يتكرّر دائماً. واللغة الدنيا للسلطان هي مطرقة، مطرقة تضرب الأفق:

ـ سامبا! نغوسو! مانغا!

ـ مانغا! نغوسو! سامبا!

مطرقة نجويا تكسر كلَّ ما تجده في طريقها، كل شيء. لكنها توقّفت فوق آلة طباعة العجوز مونليبير. هذا الجهاز يملأ المعلّمَ فخراً، حتى وإن لم ينتج بعد النتائج المرجوّة. إنه ثمرة عدة سنوات من العمل، وقد طلب أفضل الحدّادين في المنطقة. إنه عمل دقّةِ معلّمٍ شبه أعمى. وقد انتصرت هذه الآلة على عدة تجارب، بيد أن رؤية نجويا الواضحة وملايين كتب مكتبة المستقبل التي أُنتجت بتبادل بسيط

بالأحرف، بقيت غير ممسوسة في ذهن جميع أولئك الذين عملوا على إنجازها. المطبعة هي قمة البحث الفكري للسلطان، وللكاتب. وكان من المفترض لها أن تشغل المكان الرئيس في قصر الأحلام كلّها، الصالون الكبير، لكي تشعّ التاريخ من هذا المكان، وتُعطي قصصَ الأرض جميعاً مركز الثقل وإعادة الإنتاج. هذه المطبعة اللامتناهية هي التي سُلّمت فجأةً، وفقدت معناها فجأةً.

الآلات التي صمّمها نجويا، كلّ آلاته، بدت له فجأةً مثل الألم الذي في قلبه والذي جعله دائماً يقبل التسويات. أصبح الفن مظلة مصيبته، الجدار الذي بناه أمام وجوده ليتوقّع موته، وتحوّلت الكتابة إلى تجارة مع الجبن. أليست الكتابة هي الهروب من تعقيد الحياة نفسها للالتجاء إلى الأبجديات العقيمة وإلى سحر الكلمات؟ الأحرف هي رقص منحلّ مع الأشباح! الكتابة تعويض للحياة؛ إنها فك للالتزام، إنها لعبة طفل. أدرك نجويا أن تجاربه مع الأحرف التصويرية والظواهر، والمقاطع التصويرية والكلمات، مع الحكايات والقصص، ومع الحيوات والأحلام؛ هذه التجارب كلّها التي أوصلته من الطرائف إلى مطبعة، لم تكن ممكنة إلا لأنه استقال منذ النهاية أمام قوى التاريخ التي أحكمت قبضتها على عنقه. لقد هجر شعبه، والتجأ إلى وعد المشاغل بالخلود.

بدا له الموت على هيئة الكتاب الخفي الذي يكتبه منذ البداية، وأصبحت المطبعة الآلية الأكثر سوءاً لاستقالته السياسية. لقد أصبحت العلامةَ الأوضح لمصنع الخزي الذي يبنيه بدءاً من داخل قصر الأحلام كلّها. صارت الكتابة كابوس نجويا الحقيقي، وصارت المطبعةُ مظهره الأكثر نتانة. لذا رفعها بكل قواه، وبقي صامتاً للحظة، بينما وقف من حوله معلّمو العمل، والمعلّمون الفنّانون، ومتدرّبوهم، غارقين في صمت هو الأكثر حدةً، وقد أذهلتهم رؤيةُ غير المتوقَّع.

صرخ نجويا من جديد:

ـ اللعنة!

ثم حطّم آلته على الأرض.

ألف قطعة معدنية انتثرت من حوله، ثم اندفع خارج مشغل نيبو. بدا وكأن فعلاً نهائياً، قوياً، ووحشياً ولاإنسانياً تمكّن من تأجيج سعاره. ذهول الفنّانين جميعاً

انتشر في أرجاء المدينة، وعبر الممرات، ودخل إلى البيوت، وانحلّ في نهر نشي، مع قطع آلة الكلمات التي جمعتها من جديد دموع مونليبير الذي قفز على الآلة، لكنه لم يستطيع منع تحطّمها. جمع العجوز الأنقاض، وبيديه المرتعشتين حاول أن يعيد تركيب الآلة المحطّمة. أوه، ضياع معلّم العمل لا يمكن إلا أن يسيل في نهر أكبر، أكبر بكثير، في دموع برثا التي حاول أن يعيد تركيب عظام ابنها المنفصلة.

وأُضيفت إلى دموع الرجل العجوز دموع باموم بأسرها العاجزة عن إنهاء الجملة التي عبّرت عن شقائه، بدءاً من دموع الفنّانين جميعاً. بكى هؤلاء الرجال لأن معلّمهم بكى، والذي هو أيضاً بكى لأن أمّاً في مكانٍ ما من المدينة تبكي ابنها. قال الجميع: "يا له من فقد! يا له من فقد!"

للذكرى، إليكم كيف اكتشفت مدام دوغاست ألم مونليبير العجوز في كتابها كتابة الباموم: "يوجد الآن رجل أبيض اللحية، ولكنه ما يزال يبكي حين يروي لكم هذه القصة المأساوية." لم أفهم لماذا لم يخرج نجويا من قصره ليعبّر عن غضبه الشديد أمام الجميع. لقد بقي اعتكافه لغزاً بالنسبة إلى كثير من الناس. على أية حال هناك من هم مقتنعون، مثل نجي ماما، بأن نجويا يعيش حِداده الخاص. فالسلطان غاضب من نفسه بصورة خاصة لأنه لم يستطيع أن يدافع دفاعاً كافياً عن الباموم. إنه معمور بعقدة الذنب وبشعور ثقيل بالندم عاوده فيما بعد، عاوده في ياووندي وطرق أبواب روحه.

بعد هذه الأحداث بعدة أشهر فقط، استيقظ شعب فومبان على أصوات آتية من القصر. قفز الناس من أسرّتهم واجتمعوا في باحة قصر الأحلام كلّها.

ـ وومبو-أو!

سأل بعض الأشخاص:

ـ أيضاً؟

هذه المرة، أصوات المدينة التي بلا عزاء لم تعش الحِداد على عبقري الشكل، ولم تبكِ دمار آلةٍ عجيبة. بالعكس، فإن رحيل رجل عظيم أصابها بالذهول. شاحنة نجويا تقف أمام باب القصر، أمام الجمهور، الصامت أيضاً. بالإضافة إلى السائق حوت السيارة أربعة مقاعد لأربعة أشخاص، وهذه المقاعد شغلها السلطان

ومحظيته في تلك اللحظة ندايي، ومعاوناه نجي ماما وإبراهيم. نجي شوا ومولوه ونغوتان والأولاد الآخرون جلسوا مع الخدم في المؤخرة، حيث تكوّم أغصان الموز عادةً. والزنوج لحقوا بهم سيراً على أقدامهم. ذلك اليوم، الشاحنة وقافلتها لم توصل نجويا وحاشيته إلى ياووندي. فقد استراحوا أولاً، استراحوا طويلاً جداً في مقر الإقامة السلطانية في مانتوم، لأن ذلك ليس إلا بداية نفي مدته عشر سنوات، وفي نهايته، عام 1931، نزل السلطان على هضاب نسيميونغ في مون بليزان.

ما قاله ريبير يوماً بصيغة تهديد، أصبح مرسوماً إدارياً. لكن هذا ليس فيه شيء استثنتائي-على أرض مستعمَرة بالتأكيد.

ـ16ـ

محادثة المدخِّن مع سيجارته الوحيدة

في عام 1924، كانت فومبان تعيش في سلام هادئ؛ وكذلك ياووندي. غادر جوزيف نغونو وهو ثمِلٌ حفل زواج أخته أبكر مما يفعله أي شقيق زوجة. كان ثملاً جداً بحيث أنه سقط مراراً وهو يمشي، وتساءل: "ماذا حلّ بي؟"

ضرب رأسه ليصحو. سمع صوتاً يقول:

ـ أنتَ أيضاً ضعتَ!

ـ أنا؟

ـ نعم، أنتَ أيضاً.

ظلّه هو الذي حدّثه. فقد عاد إلى الكاميرون ليُدرك أن بلداً محتلاً لا يمكن أن يكون بيتاً لرجل حر؛ وأنه لا يستطيع أن يسمّي بلاده ملكيةً فرنسية. لقد أدرك، وهذا ما روّعه، أن المكان الوحيد الذي كان حرّاً فيه هو ألمانيا في أثناء الحرب. وأدرك أن الكاميرون وهو تحت الاحتلال الفرنسي لا يستحقّ أن يكون في سلام مع نفسه. أوه، إن هذا البلد بحاجة إلى أن يُهزّ! في ليلة العاصمة تلك، وعلى هذا الطريق الخالي من البشر، ومن الحياة، شعر بقلبه يخفق لبيت المنفى في برلين. ظن أن الجميع سيفهمونه هناك، فروّعته هذه الفكرة.

سأله ظلّه:

ـ أين بيتك؟

عرف نغونو أنه مثير للضحك، ومع ذلك أجاب:

ـ إيلانغ!

هو يعلم أنه، بتوكسوده المستعار، وغير المقيّف على جسمه، وبربطة بابيّونته المحلولة، وبظلّه المتكلّم، سيكون فريسة ممتازة لأول فصيل من الشرطة الاستعمارية. وسيكون ذلك قمة نحسه، والسقوطَ الحقيقي لملاك في الظلام: أن يُقبض عليه ثملاً في شوارع ياووندي، وتدينه الشرطة الاستعمارية! أوه، نعم، سيوصل صهره شارل أتانغانا ورقة إلى أصدقائه، ولِمَ لا يكون إلى مدير السجن نفسه، السيد بوبيل الذي يقيم معه علاقة ودية جداً، ولكن بأي ثمن؟ هنا فكّر جوزيف نغونو بالدكتور مولت الذي لطالما ساعده في ألمانيا. وبدلاً من أن يصمت شارل أتانغانا كهذا الأستاذ البشوش، اتّخذ مكان ظل نغونو العدواني وسأله: "ماذا تظن؟ وأين تحسب نفسك؟"

ما كان جوزيف نغونو ليردّ عليه لأنه يعرف على الأقل شيئاً واحداً: لن يخرج من هذه المناظرة منتصراً.

لأنه يريد أن يتجنّب هزيمة مذلّة، سارع إلى الاختفاء في مزرعة كاكاو للرئيس حين سمع هدير محرّك خلفه. ولمّا وجد نفسه في المزرعة أخذ يمشي، مجتازاً شجرة كاكاو بعد أخرى. إنها مزرعة شاسعة تحوي الشجرة نفسها، ولها الطول نفسه والحجم نفسه، في تكرار لامتناهٍ. هذه الرتابة جعلته يتقيّأ الفكرة الأخيرة التي وجّهها إلى صهره: "وحدهم الأشخاص الزائدون يمكنهم أن يزرعوا هذا الخراء في كل مكان."

يستطيع نغونو أن يتقيّأ، أوه، أن يصرخ، أن يفعل ما يريد في مزرعة شارل أتانغانا هذه، ولن يسمع أحدٌ صوته. بوسعه أن يشتم هذه الأشجار، ويبصق على شكلها الموحَّد، ويسألها ما إذا كانت تتخيل مستقبل أفريقيا هكذا: في تكاثر الخراء إلى ما لا نهاية. نعم، سألها عمّا كبر في المكان الذي هي فيه، وما إذا كانت تملك ذاكرة الأرض التي تنمو فيها. لم تستطع الأشجار الردّ عليه. وتابع، وسألها ما إذا كانت تعرف من سكن هذه الأرض التي تشغلها الآن، وما إذا كان أولئك الأشخاص الذين حلّت محل حياتهم مسرورين لرؤية مستقبل فستقهم يُدمَّر، هذا الفستق الذي كانوا يستطيعون أن يصنعوا منه حساءً مبهَّراً على الأقل. سأل أشجار الكاكاو

ما إذا كانت تعرف أنها نتاج الأعمال الشاقة للآلاف، ونتاج الحلم الفارغ لبعض الناس:

ـ أشخاص فارغون بقدر ما هي بذرتها زائدة.

استراح ليبحث عن صيغة جديدة، فكرّر:

ـ بذرة زائدة.

إنه يحب هاتين الكلمتين: "بذرة زائدة".

ـ أشجار زائدة زرعتها عقول فارغة، وأيادٍ أسيرة.

ثم:

ـ زمن زائد مسكون بأشخاص زائدين.

كان نغونو سيتابع. وفي غمرة سخطه لم يُدرك إلا بعد فوات الأوان أنه تاه في هذه الغابة. هل الكحول هو الذي يُثقل قدميه؟ أخذ يحسّ بثقل الكيلومترات، ومع ذلك كان في المكان نفسه، بين أشجار الكاكاو نفسها، مقابل الشجرة نفسها. قرّر أن يواصل سيره، ويتابع طريقه إلى داخل مزرعة الكاكاو، فوجد نفسه أمام الشجرة التي فارقها للتو، فصرخ:

ـ اللعنة! ألا يوجد مخرج هنا؟

لو قيل له إنه ضاع داخل متاهة لانفجر ضاحكاً. فبرأي جوزيف نغونو، إن بناء متاهة يتطلّب ذكاء وكرماً ولعباً وسعادة. وهنا كل ما يراه من حوله هو البؤس الممنهج والمخطَّط، والفراغ: "الفراغ الزائد". قال:

ـ أنا تائه في الزائد.

ولكنه ضحك هذه المرة لأن هذه الفكرة نفسها بدت له حمقاء، ومع ذلك أضاف:

ـ أنا سجين الفراغ...

صمت، ثم أضاف مازحاً:

ـ في سجن من فراغ.

وصارت ابتسامته ضحكةً، ثم كرّر كلمة "فراغ" مراراً، وفي كل مرة كانت الكلمة تتقافز على الأشجار من حوله: "فراغ، فراغ، فراغ"

فجأةً رغب نغونو في التبوّل. باعد كثيراً بين ساقيه ليحفظ توازنه ثم أمسك ذكَره بيديه وسكب بوله على جذر شجرة كاكاو. بال، وبال، وبال. استند إلى شجرة الكاكاو لكي يبول بشكل أفضل، ووجّه نظره إلى السماء المغلقة. بدا وكأن لديه إناء واسعاً بدلاً من كليتيه. وبعد أن انتهى شهق بعمق وبصق على بوله. فتّش في جيبه فوجد علبة سجائر، فقال مرة أخرى:

ـ فارغة.

لم يجد إلا سيجارة واحدة في علبته. تفحّص سيجارته الوحيدة فوجدها مجعَّدة كروحه. أراد أن يكلّم سيجارته ويسألها ما إذا كانت تريد أن تصبح إصبعه الذي فقده في برلين. اتّسعت ابتسامته حين وجد علبة ثقاب. أشعل نغونو سيجارته الأخيرة، وسحب منها بنهم، ثم ترك الدخان يخرج من منخريه. نظر إلى عود الثقاب المشتعل بين أصابعه، وإلى علبة السجائر الفارغة، وقال:

ـ فراغ في الفراغ.

كل شيء يسلّيه. سحب سحبة عميقة أخرى من سيجارته، أدخلها إلى رئتيه ثم أطلق الدخان على دفعات صغيرة. لم يكن يريد أن يبدّد هذا الدخان الذي شعر به في جسمه. وبالمقابل فإن عود الثقاب يخمد بسرعة، لقد شكّل دائرة من الضوء حول يده، وسرعان ما انطفأ هذا النور الإعجازي، هو أيضاً. أشعل النار في علبة السجائر. انطلقت النار من أعواد الثقاب في بريق جعله يقفز. النور حوّل الأشجار من حوله إلى جدار. رأى أشجار الكاكاو ترقص وتتلوّى ثم تتخذ أشكال ظلال. لم يكن الضوء كافياً ليعطيه الوجه النهائي لهذه الأرواح من حوله. أراد أن يُنقذ الظلال! شعر أن قلبه يسرّع من إيقاعه! شعر بالسعادة! ونار سعادته ستنطفئ قريباً هي الأخرى. الجمر أحرق أصابعه. لم يُبقه إلى الأرض إلا عندما صار عاجزاً عن تحمّله، ثم رآه يخمد برخاوة. كم لفّه الحزن حين غطّى الظلامُ العالم من جديد! فكّر: هل الفراغ يكسب دائماً؟

النور الوحيد من حوله يأتيه الآن من سيجارته.

- 17 -

مزرعة أشجار كاكاو الطريق الغامض

وجها طفلَي جوزيف نغونو هما اللذان حثّاه على الخروج من مزرعة الكاكاو. في جوف الليل ميّز فجأةً عيني كارل الضعيفتين، وابتسامة سارة. الأنوار لم تنطفئ هذه المرة. بالعكس، بدا له من البديهي أن ولديه وحدهما يجعلان هذا البلد الفارغ قابلاً للعيش بالنسبة إليه؛ إنهما يسكنانه بحياتهما. شعر أن الكاميرون أمة، وهما شعبها. وهذا البلد هو الشيء الوحيد الذي يملكانه. وإذا ما أراد، هو جوزيف نغونو، أن يكون ساكناً فيه، عليه أن يكون طفلهما. فكرة أن يصبح ابن ابنيه جعلته يبتسم في الغبش. فكّر: عليه إذن أن يعيش حياته بشكل عكسي. بدءاً من النهاية إلى البداية، من الخلف إلى الأمام. النهاية هي بداية أيضاً، آه! قال:

- كانت حياتي أكثر تناثراً من أن أستطيع أن أعيشها في مكان واحد.

وتملّكت جملةٌ عينيه:

- العالم هو بلدي!

وانفجر نغونو ضاحكاً لهذه الفكرة، ثم تبيّن له:

- لا أستطيع إلا أن أكون محكوماً بالعزلة، فبلدي شاسع جداً.

صمت من جديد، سحب حرارة عميقة من سيجارته، وترك قطرات دخان في الظلام، ثم كرّر:

- العالم هو بلدي. لا أسرة!

هذه المرة صُوَرُ سجنه في معتقل حين عاد إلى الكاميرون هي التي خطرت بباله. وما آلمه أشد الألم هو كلمة "عائلة". الوجه الآخر للتيه هو العزلة. هل أحب

يوماً زوجته سالا؟ فهي التي أعطت معنى لهذه الحياة التي عاشها في كل مكان. وهذا المعنى يراه في وجهَي طفليه اللذين أنجبتهما. تراكمٌ من وجوه أصدقاء يتبع طفليه، ولكن أيضاً جملة من الفرص الضائعة، والصداقات الخفيفة والعائلات الهاربة. نغونو مسافر طوال حياته، يبحث عن بلدٍ واصَلَ الهرب منه. سلك دروباً غير مؤكّدة فلم توصله إلى أي مكان. واليوم، وهو سجين ظلام مزرعة الكاكاو هذه، يستمع إلى خفقان روحه، والظل المخاتل الذي لطالما حاول الهروب منه ها هو يظهر أمامه، رفيقَ نحسه اللامحدود. للمرة الأولى منذ عودته إلى مسقط رأسه، لأول مرة، يفكّر بالمرأة الألمانية، فغمره الخزي. تساءل:

ـ ترى ماذا حلّ بهيلدة؟

فكر بأن لديها أولادها.

ـ هل تزوّجت ثانيةً؟

متى كفّ عن التفكير بها؟ هل أحبّها؟ قبحُ الحياة يُظهر الأسوأ عند الإنسان! ترى هل هو قادر على الحب؟ هل جعله ألمُه غير إنساني؟ هل يكره البيض؟ وهل أصبح عنصرياً، هو أيضاً؟ هل هو فاشي كما وصفه شارل أتانغانا؟ ارتعد نغونو لهذه الفكرة، واعترف بأن كلمة صديقه القذر جرحته. ثمّة حدود، حتى للمفردات! ومع ذلك، فقد تراجع أمام فكرة أن تكون هيلدة أحبّته حقّاً. هل أبقت إيمانها به غير ممسوس، كما تفعل النساء غالباً "في مكانٍ ما من أنحائهن الحميمة"؟ أرعبته هذه الفكرة. وفكّر بأخته. فقال لنفسه: "لجوليانا زوج الآن، فهل تحبّه؟"

لم ينظر قطّ إلى صهره شارل أتانغانا بهذا القذْر من الاحتقار الذي ينظر به إليه اليوم. صور حفل الزفاف عبرت خاطره، فذكّرته بشيء هو نفسه لم يمتلكه قطّ، ألا وهو أن المؤجّر لم ينسَ أن يبني من حوله في برلين، في الوقت نفسه الذي كان يحلم ببلاده: العائلة. حتى شارل أتانغانا له عائلة الآن. وهو، جوزيف نغونو، ماذا عنه؟ لم يتزوّج أمَّ أولاده بعد. ولم يعترف بعد بأولاده على أنهم كذلك! لقد أفرغ غضبه في نقاش سياسي مع صديقه؛ وثمل حتى الموت لكي ينسى هذه الخطوة الناقصة؛ وها هو يضحك من تصرّفه الأخرق. تساءل: "هل هذا غيرة؟"

رأى نفسه في الغبش، بينما صديقه في الضوء. قال بالإيووندو:

ـ هذا القذر يمشي دائماً في الجهة المشمسة من الحياة.

انفجر نغونو ضاحكاً من هذه الصورة لعلاقته مع الرئيس. ومع ذلك فقد أدهشه ظهور هذا المظهر من شخصيته: الغيرة. وهو ما يزال يضحك امتلكت عيناه الأشجار من حوله، وتاهتا على خط اللانهاية لأشجار الكاكاو. فكّر فجأة: "هذه هي إذن حقيقة عائلة سعيدة، زَرْعُ بيتٍ للسعادة."

ما رآه جوزيف نغونو كان قبيحاً، وهو لا يستطيع أن يخبّئه خلف وجه عائلة شارل أتانغانا المبتسم. رأى هذه المزرعة البائسة؛ الوجوه الممزّقة لهؤلاء الآلاف من الأشخاص الذين لا يعرفهم، والذين ضحّوا بحياتهم وبصحتهم، ومع ذلك كانوا، هم أيضاً، أصدقاء وإخوة وأخوات. هؤلاء الأشخاص يراهم مقيَّدين، جالسين على جانبي الطريق ينتظرون العمل في مزرعة شارل أتانغانا. وهم من إثنية صديقه، من الإيووندو. رآهم يعشّبون أشجارَ كاكاو الرئيس مقابل لا شيء عملياً، ويعاملهم معاملة أدنى بكثير من معاملة البيض لهم، وذلك فقط لكي يحصل شارل أتانغانا على حفل الزفاف الأكثر ترفاً في المستعمرة! وهو حفل زفاف أخته هو أيضاً! أدرك نغونو أن من المستحيل حقاً أن يعرف الإنسان ثمن السعادة، وفي الوقت نفسه أن يكون سعيداً. غمره الحزن، وتبيّن له أنه أنهى سيجارته. رمى عقبها الحارق أمامه ونظر إلى احمراره يرسم خطاً في الهواء المظلم.

هل هذا هو خياله الذي يريد أن يفرّ منه؟ لا يستطيع أن يعرف لأنه الآن في الغبش. مشى عبر المزرعة، مصطدماً بالأشجار، ثم مشى. لم يعد ثملاً، بيد أن وضوح عقله لم يساعده. يريد أن يكون ثملاً. ومع ذلك، كفى ضياعاً. لديه دوار، والأشجار لا تمنحه سرّها.

جلس تحت إحداها، أغمض عينيه وأخذ يحلم. فكّر بطفولته. أليس هذه لحظته الوحيدة التي يستطيع أن يقول فيها بلا تردّد إنه سعيد؟ رأى نفسه يضرب بالوناً تحت المطر، عارياً، ويفكّر بكارل. ورأى فجأة أن ولديه يعيشان الحياة نفسها التي عاشها. ليس لديهما من جديد يقولانه له ولا لتقديمه له، لأن حاضرهما هو ماضيه. وتخيّل أن مستقبلهما سيكون حاضره، وهذه الفكرة أحزنته حزناً عميقاً. فكّر: "نحن جميعاً سجناء."

رفع إلى أشجار الكاكاو نظرةً نارية، فهي تسجن مستقبله أكثر من أي شيء آخر. أراد أن يصرخ، يشتم. ولكن مَن؟ ربما يسمع ضيوفُ عرس الرئيس صوتَه. صرخ، فلم يُجبه أحد. صوته تقافز على الأشجار وعاد إليه خائباً. ربما طغى صوت الموسيقا على كل صوت آخر، أم أن الفرح هو الذي يُصمّ الجميع؟ السعادة أنانية. أغمض عينيه وقرّر أن ينام. رائحة التراب الممتزجة برائحة الكاكاو دخلت إلى وعيه. أفاق منتفضاً. فتح عينيه على اتّساعهما واكتشف أنه لا يستطيع أن يتنفّس. الدخان يملأ المكان. فهم بعد فوات الأوان أن التربة قد التقطت نار عقب سيجارته، حيث رماه. والأشجار أمامه التهمتها نيران مجنونة. صرخ بالألمانية:

— Scheisse! اللعنة!

تُرى ما الذي وسّع دائرة النار بهذا الشكل؟ تساءلتُ مصدومةً. هل هو الهشيم؟ أم أن بولته المنتقمة تحوّلت إلى بترول؟ أم إنه، في غمرة يأسه الغاضب، بال ناراً على هذه الأشجار؟ كيف كان ذلك ممكناً؟ صرخ من جديد:

ـ اللعنة!

أخبرتني سارة أن والدها لم يحمل بترولاً حين غادر عرس حفل الزفاف. فكيف حدث ذلك؟ الريح حملت الجمر عبر المزرعة، قالت العميدة، فكيف أخالف كلامها؟ هضبتا مفولييه ونسيميونغ التوأمان لعبتا كرة المضرب مع النار، قالت أيضاً. ثم قالت لي إن والدها فهم أن لديه القدرة على تغيير حياته. وأن صداقته مع شارل أتانغانا هي مصدر إكرام أيضاً. وأوضحت أن نيّة جوزيف نغونو لم تكن القيام بفعل جرمي، ناهيك عن القيام بفعل ثوري. لقد فقَدَ أوهامه، واكتشف سعادةً تشكّل هي، سارة، وأخوها وجهها المثلّثي. نعم، لقد كان في السابق مثالياً، حالماً، ماركسياً، قومياً، أو ماذا أيضاً، شاعراً. لقد خرج مختلفاً من مزرعة صديقه، خرج منها رب أسرة.

ولمّا اشتعلت مزرعة إشراقه، شعر بالخطر. ولم يكن لديه إلا ثيابه ليكافح النيران. خلعها وحاول أن يصارع النيران بالتكسودو. للأسف امتدّت النيران بالسرعة التي يسمح بها فصل جفاف ياووندي. صارع نغونو النار وصرخ بكل قواه. وصرخ وصارع ألسنة اللهب. اشتعلت سترته فرماها بعيداً، وحبس آخر نفَسٍ لديه وركض

نحو داخل المزرعة الذي لم تمسسه النار. حتى وسط ذلك اليأس، لم تُرِهِ الأشجارُ طريقَ الخروج. قريباً سيصله اصفرار النار القاتل. بدت له مشاعل مضمومة بشكل موحَّد من أشجار الكاكاو لتبني أمامه جداراً خانقاً وحاقداً يسدّ طريقه نهائياً. صرخ:

ـ النجدة! النجدة!

ولم يُجبه أحد.

ـ النجدة!

ذاك الصوت الذي كرّر صرخته هو صوت النار وهي تجعل الأغصان والأوراق تطقطق من حوله، امتلك عالم جنونه. لا يمكن قياس كمية الأمل، بل نتائجه فقط. فتح جوزيف نغونو فمه وصرخ بكل ما أوتي من قوة، مرةً أخرى، لكنه لاقى الصدى المنغّم لصوته. بدأت ألسنة اللهب لحناً يعرفه، أغنية عميقة كأغنية الموت. إنه نشيد تنشده جوقة الأشجار. سمع أبياتاً يعرف معانيها، وإن كان لا يعرف كلماتها كلّها. إنها أغنية حب، أغنية حب غير مُشبَع. إنها شكوى بلد ضائع، أغنية سامية جداً ومؤثّرة جداً بحيث امتلأت عينا نغونو بالدموع. ومع ذلك غنّى أغنية النار، واستبدل الكلمات التي تنقصه بالأسماء التي يريدها. بدأ بأسماء الأشخاص الذين قصّر في حبّهم. نادى زوجته الألمانية هيلدة، ثم أمَّ طفليه، سالا، ثم نادى طفليه سارة وكارل، وأخته جوليانا. بل نادى اسم صديقه شارل أتانغانا.

استحضر هؤلاء الأشخاص فرداً فرداً في قلبه، ووصل إلى أبيه وأمّه، وجدّه والروح السلف لياووندي، إيسينغان. ثم تابع مع جميع الكاميرونيين الذين يعرفهم. نادى المؤجّر في برلين، ناداه عدة مرات ماندنغا! ماندنغا! ماندنغا! وسالت دموع على خدّيه. ونغوسو دين، لم ينسه، حتى وإن لم يلتقِ به قطّ. ثم رئيس هذا الأخير، مانغا بيل، سامبا. نادى الكاميرونيين في الشتات الذين يعرفهم. وذكر أسماء أعضاء الفرقة المسرحية الجوّالة التي ملأت سنواته في فترة ما قبل الحرب. نادى اسم تيوفيلوس وونجا، واسمَ زوجته مارثا، وأسماء أولادهما الأربعة. ولويس برودي الذي لا يعرف أسماء رفيقاته المنتشرات عبر ألمانيا. لويس برودي الذي لم يُحصِ أسماء أبنائه الكثر "لأن ذلك يجلب النحس"، ناداه أيضاً، ثم مارتن ديبوبي الذي

كان يعمل في القطارات، ولم يكن قطّ مستعدّاً لحضور الاجتماعات، يلعن باستمرار "عمل البيض". ومَن غيرهم، ومن غيرهم، نعم، ومن غيرهم نادى أيضاً؟ لقد قال حتى اسم تلك المرأة من جنوب غرب أفريقيا التي التقى بها في فرانكفورت ذات يوم، ولكن هل كانت آتية من روديسيا؟ كان يظن أنه نسيها منذ زمن طويل، نياشا، ومن غيرها؟ نادى الناس جميعاً من قلبه، أولئك الذين سمّاهم "عائلته"، كما لو أنهم وحدهم مَن لم يستطع أن يحبّهم كما يجب، يستطيعون أن ينقذوه من اللهب. فتوسّل إليهم:

ساعدوني! لا أريد أن أموت هنا!

- 18 -

روح الكاكاو

هذا ما قالته لي سارة: لقد بلغ والدُها مستوى من الوعي بحيث أنه لم يعد يريد أن يصبح سوى أبٍ سعيد. لم أستطع سؤالها كيف عرفت ذلك، كما أني لم أسألها كيف عرفت تفاصيل تفكيره المسجون ضمن حدود مزرعة كاكاو. أعرف أنها استحضرت هذه القصة إلى ما لا نهاية. وتخيّلتُ أنها ككل يتيمة روت لنفسها قصة موت والدها بحيث أنها أصبحت واقعية. والسبب! نصحتُ شبّان نسيميونغ:

- أبدوا لها احتراماً.

تدخّل آرونا:

- بطريقة معينة نحن نخترع قصتنا، أليس كذلك؟

أجبتُه:

- بشرط أن تجعلنا سعداء.

سارة تريد أن يتغيّر والدها، ومن كان سيمنعها من ذلك؟ بعض الأسئلة تبقى مفتوحة، أسئلة طرحها عليّ أصدقائي في نسيميونغ فيما بعد:

- هل تصدّقين أن سيجارة يمكن أن تُحرق مزرعة كاكاو بأكملها؟

كيف لي أن أعرف؟

- وهل تعتقدين أن البول يمكن أن يُشعِل مثل الكيروسين؟

هنا أردتُ أن أطلب منهم: "اذهبوا واسألوا سارة!"

لم يكفّوا:

- هل تعتقدين أن الريح تنقل النار؟

"ماذا يعرف هؤلاء المدنيون عن النار؟" ردّت الأم العجوز وهي تضرب بقدميها كما تفعل الكاميرونيات اللاتي يُجدن وحدهن القيام بذلك.

مهما تكن التفسيرات والنظريات، يبقى أن معركة نغونو لم تنقذه. فقد نبّهت النار الصفراء التي لوّنت السماء، وليس صرخة رجل سجين موته، المحتفلين بزفاف الرئيس. أو بالأحرى، لا، فإن سارة التي كانت ما تزال طفلة حينذاك هي التي أخبرت أمها:

ـ ماما، النار!

وأشارت بإصبعها إلى الباحة، وكانت أمها في تلك الليلة منشغلة البال ككل الكبار. فكرّرت الأم مذهولة:

ـ النار!

وفي اللحظة نفسها سأل شخص ينظر إلى الخارج:

ـ أليست هذه نار؟

ولكن الراقصين لم يسمعوه.

ثم صرخ رجل آتٍ من الخارج:

ـ النار في الأدغال!

عندها فقط تنبّه الجميع.

ـ نار في الأدغال!

ـ نار!

وصرخ رجل:

ـ المزرعة تشتعل!

ـ نار!

هذه المرة أصيب الراقصون بصدمة فوضوية. ركض الجميع نحو الباب. الأزواج نسوا زوجاتهم: والأطفال، ومنهم سارة، تُركوا في داخل البيت. الراقصون مشوا فوقهم، لأن بعضهم سمع أن مقر إقامة شارل أتانغانا هو فريسة النيران. وحين ركض الجمهور مذعوراً نحو مزرعة الكاكاو، حاملاً المياه لإطفاء الحرائق، كان الأوان قد فات. الضيوف المرتبكون وجدوا هناك سكّان الحي بأكمله يصارعون النار، وقد

أنهكوا أنفسهم في صراع خاسر سلفاً. لا يوجد إلا عربة إطفاء واحدة في ياووندي، ووصلت ذلك اليوم متأخّرةً جداً. في الواقع، لم يأتِ رجال الإطفاء إلا ليكتبوا في تقريرهم أن مزرعة الكاكاو التي أوجدها "شارل أتانغانا، الرئيس الأعلى للإيووندو لكي يكون مثلاً لشعبه ويوصله إلى العصر الجديد من التقدم والازدهار، صارت رماداً. سأل الضابط الأبيض المكلّف بالتحقيق:

ـ هل هو فعل فاعل؟

وتفحّص المدعوين بعينيه. ثم أضاف:

ـ هل تعرفون من فعل هذا؟

كيف لضيوف الرئيس أن يجيبوا؟ لو لم يتدخّل شارل أتانغانا لأوقَفَ الجنودُ الجميع، من ضيوف أو غيرهم. أما هو، فكان منهاراً بالتأكيد، ولكن ليس مهزوماً. هو يعلم أن مشروع الكاكاو أكثر تقدّماً من أن تستطيع النيران التهامه. فقد استثمرت الحكومة الفرنسية فيه ملايين وملايين الفرنكات، وأشجار الكاكاو تضاعفت في كل مكان في جنوب الكاميرون. وإتلاف المزرعة فعل يائس لا يمكنه إلا أن يُضحكه في اضطراب هذه الليلة المضاءة.

قال للضابط الفرنسي:

ـ وحده المجنون يمكن أن يفعل هذا! وحده المجنون!

بالنسبة إلى سارة، بطبيعة الحال لم يكن والدها مجنوناً. بالعكس، قالت لي، لم تستطع النار التقدّم بهذه السرعة إلا لأن مئات الأشخاص ضاعفوا سعارها. وقالت لي: من ضيوف حفل الزفاف من خرجوا ليصبّوا البترول على اللهب، بدلاً من الماء. وأكّدت أن بعضاً منهم بال على أشجار الكاكاو، فكثير منهم لا يريدون كاكاواً في حياتهم. وهكذا، من قمم نسيميونغ، أضاءت النارُ العظيمةُ العاصمة. النار هي الذكرى الحقيقية الأولى عند سارة، وهي أول ذكرى تحملها عن والدها.

هل هي ذكرى حِداد؟

خلصت إلى القول:

ـ النار قتلته.

وفي الليل كانت تسمع أحياناً صوته يناديهما، هي وأخاها. حين روت لي هذه القصة، بدت وكأنها ما تزال تراه يحترق. سالت دموع على خدّيها، ونظرت إليّ، حزينةً، فأنا لا أستطيع أن أنقذ "أباها المسكين".

قلتُ مواسية:

ـ جسده غذّى أرضنا.

فابتسمت سارة.

بوسعي أن أرى نيران تلك الليلة تلتهب من جديد في عينيها. نعم، بدت وكأنها أصبحت أباها. أفراد إثنيتها الذين أمرهم شارل أتانغانا أن يعيدوا زرع أشجار الكاكاو في أرضه، رفضوا أن يضعوا أقدامهم في تلك الأرض الملعونة. وبعضهم قال إنه رأى في ذلك الحقل رجلاً يمشي ليلاً، كما لو أنه يبحث عن طريقه بين ما بقي من أشجار. والرجل لفظ أسماء:

ـ مجنون؟

ـ لا، ميت.

ـ ميت ميت؟

ـ ميت ميت.

وقال العمّال إن الميت ناداهم بأسمائهم أيضاً:

ـ بأسمائنا الحقيقية.

ـ حتى أسماء زوجاتنا.

ـ وأولادنا.

ـ إنه روح.

ـ هذه المزرعة ملعونة.

بالطبع، انفجر شارل أتانغانا ضاحكاً. بيد أن ضحكة رئيس، مهما يكن أعلى، لا يمكنها أن تُنبت أشجار كاكاو. عندها وظّف عمالاً من الباميليكيه. ومن منفاه في دشانغ، احتفظ عنهم بذكرى طيبة جداً. دفع لهم أجوراً معقولة، وأضاف إليه تأميناً ضد المرض، وهذا شيء لم يكن من قبل في المستعمرة طوال السنوات كلّها. وكان عرضاً لم يستطع أولئك الرجال تجاهله. فرؤية المال جعلتهم ينفرون كتلاً من

هضابهم الأصلية، ويواجهون في ياووندي لعنةَ الروح الحرّاقة. ولكن هذه المرة، التربة هي التي تمرّدت.

ـ أم إن بذرة الفرنسيين لم تكن جيدة؟

إذ لم تنبت أشجار الكاكاو.

لعن العمّال بصوت ليس قوياً:

ـ بذرة سيئة! كاكاو سيئ!

وقالوا أيضاً:

ـ كاكاو سيئ!

تكلّم الناس طويلاً عن مزرعة الكاكاو التي التهمتها النيران التي رفضت أن تَلِد عارها المُطابق. وإذا روت المدينة مليون قصة عن الرئيس الأعلى، فإنها لا تزيد إلا من لغز هذا الرجل. قصة الروح في بيته معروفة. والناس جميعاً يعرفون أن شارل أتانغانا كان يحتفظ في جيب سترته اللامعة بمفتاح يُقفل به الغرفة المسكونة. تساءل الناس: "لماذا كانت معه سلسلة ذهبية متدلّية من جيب سترته؟ إن لم يكن من أجل الإمساك بروح النار، ومنعها من إحراق بيته؟"

لم توجد جثة جوزيف نغونو المتفحّمة إلا بعد وقت طويل. وسرت قصة روحه السوّاحة في العاصمة. وقال أناس إن "أخاه"، شارل أتانغانا، باعه للفرنسيين، ذلك أن وفاته تزامنت مع فترة بدأ طوالها عمّال الورشات والصناعات الفرنسية يطالبون بأجور أفضل. حتى أولئك الذين لا يعرفون قصة الروح تكلّموا عن "رجل " مات في مزرعة، "في النار" التي ليس هناك من وقاية مسبقة منها. هذا المصير المأساوي ذكّر المعذّبين بظلم ظرفهم الخاص.

ثمة من تأثّروا بالراتب الذي وعد به شارل أتانغانا العمال، وكان يتجاوز بكثير راتب الكلب الذي يعطيهم إياه رب عملهم الأبيض ـ حتى إن لم يأخذ أيٌّ من عمّال الرئيس راتبه بعد. تتذكّر سارة أن تمرّدات حدثت هنا وهناك في المحمية، وسارت مظاهرات في شوارع ياووندي. كانوا أناساً يطالبون بـ "الراتب نفسه الذي يأخذه البيض". وسرعان ما طالبوا "بالمعاملة نفسها في مزارع الكاكاو كافّة" وبعد ذلك "في كل أنواع المزارع"، وفي "الورشات كلّها"؛ وطالبوا أيضاً "بشروط العمل

نفسها بين البيض والسود". وفي النهاية، لم تعد التمرّدات تطالب إلا بالمساواة والحرية.

وتذكّرت العميدة أيضاً أن روح والدها ألهمت المتظاهرين بالكلام أمام بنادق الجنود. لقد حوّل اكتشاف مزرعة كاكاو شارل أتانغانا إلى مقبرة لا يريد أحدٌ الاقتراب منها.

أقسم الرئيس:

ـ تطيّرات!

إنه الوحيد الذي يفكّر هكذا بالإضافة إلى أصدقائه المستعمِرين. حتى الضبّاط الفرنسيون لم يستطيعوا إقناع الشعب العنيد، ولا التربة، بمتابعة العمل في مزارع الكاكاو. وفي النهاية لم يكن أمام شارل أتانغانا من خيار سوى ترك أرضه لأول قادم. وحدهم الأجانب يمكنهم أن يقتنعوا ببناء بيوتهم فيها. فأعطى جزءاً، الأول إلى المبشِّرين الكاثوليك، حين دق بابَه أولُ كاهن منهم حاملاً بين يديه اليقين بالتمكّن من " القيام بمعجزات في هذه الأدغال". ولم يطرح عليه أتانغانا إلا سؤالاً واحدا:

ـ هل يمكنك أن تطرد الأرواح أيضاً؟

ـ الروح الإلهية ستسكن هذا المكان، وستجعل من هذا البلد أرض معجزات.

ولمّا كان أتانغانا كاثوليكياً متحمّساً، فقد فهم كلمات الكاهن كما يريد الدين، وأجاب:

ـ آمين.

سمّى ما بقي من المزرعة: "مون بليزان"، ربما ليُبعد اللعنة بهذا الاسم الذي سمعه في أثناء إحدى رحلاته، وترك في نفسه ذكرى سعيدة عن أسفاره الطويلة. هل سيدعو الرئيسُ نجويا إلى العاصمة لكي يساعده هذا على جهده الأخير على تشجيع المزارعين القادمين من الغرب على السيطرة على روح الكاكاو، بإخضاعهم إلى سلطة يعرفونها من قراهم؟ ولِمَ لا؟ على أية حال، لطالما كان لصداقته وجهٌ مزدوج.

اقتنع نجويا بأن يغادر مكان عزلته في مانتوم والإقامة في ياووندي، في عام 1931، وقرّر أن يقود شاحنته الحمراء في مدينة الهضاب السبع، والإقامة مع

حاشيته على قطعة الأرض هذه التي قدّمها له شارل أتانغانا بكرم، فهو الذي تفضّل على صديقه. بيد أن السلطان لم يكن يعلم أنه يطوي بذلك فصلاً شاقاً. والباقي نعرفه من قبل، إنه قصة سارة.

- 19 -

الطيران السامي لنزهة مدينية

على الرغم من أن سيارة شارل أتانغانا أصبحت في تلك الأثناء حضوراً دائماً في الباحة الكبرى لمون بليزان، لم يعتد الأطفال على صوت محرّكها. كل مرة يعلنون عن وصول الكاديلاك بأصواتهم السعيدة، ويواكبون انطلاقها بصراخهم وأغانيهم ورقصاتهم. وإذ يركضون في الغبار الذي يثيره المحرّك موقظاً البيوت، ويصرخون مع هدير تلك الآلة، فإنهم يحوّلون ظهورات شارل أتانغانا إلى احتفال دائم.

هذه المرة وصل الرئيس كما يقول هو نفسه: "لإخراج السلطان". وكان الوقت مناسباً جداً. واعترفت سارة بذلك. فبعد سنتين من العزلة، حان الوقت لنجويا للخروج من بيته، ومن ممرات مون بليزان، ومن الباحة الكبرى، ومن المنطقة المسوَّرة، ليشم هواء المدينة. على أية حال كانت الشمس ساطعة بقوة، منفتحة في السماء مثل برتقالة ناضجة. لم يعد من مسوّغ للبقاء بين الجدران، لا، إن شارل أتانغانا يعاني في تصديق أن نجويا لم يرَ شيئاً من العاصمة طوال هذه المدة، فجعل من ذلك قضيتَه الشخصية. وأعلن:

- سأريك مدينتي.

وكان نجويا قد فعل معه الشيء نفسه بالنسبة إلى فومبان، عندما زاره فيها قبل نفيه. في الواقع، إن فكرة المشي في الخارج هي التي سرّت السلطان. بل كان أكثر من سعيد لهروبه من متاهة مون بليزان، ولو للحظة، ومع ذلك، سأل:

- إلى أين سنذهب؟

وبرقت عيناه انتظاراً لجواب شارل الذي قبِل بابتسامة واسعة:

ـ إلى المدينة.

في فومبان كان يلزم ساعة على الأقل لإلباس السلطان. وكان يلزم وقت أكثر لإلباس هذا الرجل المعاق منذ زمن طويل، ولكنه لم يفقد شيئاً من غروره الطبيعي. طلب نجويا ثياباً خفيفة، واختار بنفسه غندورة سوداء وحمراء على طراز بامندا، ثم أمر:

ـ عطر! عطر!

مع أنه كان معطَّراً. سأل بقلق:

ـ نحن نخرج فقط، أليس كذلك؟

ـ بكل بساطة، ولكن بعد سنتين يُعدّ الخروج إنجازاً، أليس كذلك؟

ـ جولة فقط؟

رد شارل مازحاً:

ـ القمر سنزوره غداً. لا صور اليوم، ولا زيارات مفاجئة، بل مجرد جولة.

ركب والرئيس السيارة المذهّبة، ونيبو الظل جلس في المؤخرة، بين المعلّم المعمار وإبراهيم، وهو يمسك بعصا السلطان. كان الثمن الذي على شارل أتانغانا أن يدفعه لجعل السلطان يجلس إلى جانبه، هو الانفصال عن "عزيزته جوليانا"، ولكن هذا يستحقّ العناء. وقال وهو ممتلئ حبوراً:

ـ هذا من أجل اليوم فقط.

جعل الحرس السلطاني يجري خلف السيارة، واتخذت النزهة شكل استعراض، واعترفت لي سارة بأنها لم تركب سيارة من قبل، وأن تجربتها الأولى تتم في موكب، أليس هذا أفضل؟ لأن سيارة الرئيس تسير ببطء، وتعطي الانطباع بأن السيارات كلّها تسير على البطيء. الكاديلاك المذهّبة معروفة جيداً في المدينة، ولا يجتاز الموكب ساحة إلا ويلتفت إليها الناس ويطلقوا صرخات فرح. في الواقع إنهم فرحون جميعاً بصوت السيارة وأغنيتها الجديدة جداً هنا! وأعينهم الفضولية تضيف إلى تقدّمها نوعاً من الكرامة، وبعضهم ينضمّون إلى الموكب ويمشون معه طويلاً.

لطالما كان نجويا يحب أن يسير في شوارع مدينته فومبان. سأل صدقه:

ـ هل يوجد سوق هنا؟

أجاب أتانغانا بلا تردّد:

ـ ليس واحدة فقط!

وأخذ يعد بأصابعه على المقود:

ـ يوجد... سوق للأحذية... وسوق للفحم.... وسوق للبهارات، وبالتأكيد سوق للفواكه وسوق للنساء، وبالتالي سوق للرجال... وسوق للملابس.....

يا لفخره واعتزازه أن يكون في ياووندي، ليس سوقاً واحدة فقط، بل العديد من الأسواق لتقدمها إلى الفومبانيين. كان قد استخدم أصابعه كلّه، وهو ما يزال يعد، ثم سأل:

ـ هل تعلم أنه يوجد ممرات الآن؟

وأدرك أن صديقه لا يعرف ما معنى ممر، فسارع إلى التوضيح بأن المقصود "سوق للبيض"، لكن هذا لم يساعد. كان شارل أتانغانا نفسه لم يرَ ممراً إلا في باريس، فختم قائلا:

ـ حسنٌ، لنذهب إلى الممر.

من مون بليزان، هذا يعني اجتياز الهضبة والمرور أمام القاعدة العسكرية الفرنسية والمقر، باختصار، الدخول إلى الجزء الأبيض من المدينة. وحين وصلت السيارة إلى الهضبة بات من البديهي أن تصبح نزهة الرؤساء حدثاً تاريخياً. تجمّع أناس حول الموكب وأرغموه على التوقّف. ولم يتحرّكوا حتى عندما حاول جنود نجويا أن يطردوهم. وكان شارل مرتاحاً، فقد أخرج يده من السيارة وحرّكها، فحيّاه السكان بفرح. بدت المدينة وكأنها تلمس صانع معجزاتها.

كم هو هذا مختلف عن العشرينيات، حين كان هؤلاء الناس أنفسهم فرحين باحتراق مزارع الكاكاو التي يملكها! الجمهور طفل ساذج جداً! عشر سنوات مرت، عشر سنوات وأصبح شارل أتانغانا الرئيسَ الأعلى. يمكن التأكّد من ذلك من نظرة هؤلاء الناس جميعاً وكأنهم منجذبون على طول طريقه بتأثير مغناطيسي. من الصعب تخيّل سلطة أقوى في ياووندي، وأن هذه السلطة هي المفوّض السامي

الفرنسي مارشان. يُظنّ وكأن البلد لم يعد محمية، وأن شارل أتانغانا صار رئيسَ هذا البلد.

وفيما بعد، حين توقّف الرئيس أمام محلٍّ، شعر نجويا بالحزن، فمن المؤلم له أن لا يتمكّن من وضع قدمه خارج سيارته، وبكل بساطة أن يمشي هو أيضاً في الشارع. هنا في ياووندي، يعلم أن لديه حرية الحركة التي لم تكن لديه قطّ في فومبان. ولكن جسمه، آه! عاد شارل أتانغانا بسرعة وبيده صحيفة، وأعلن وهو يجلس في السيارة:

ـ أخبار عن ألمانيا.

هو يعلم أنها تهمّ أصدقاءه، فألمانيا سرّهم الشخصي جميعاً. قرأ العنوان: "تعيين أدولف هتلر مستشاراً"

سأل الباموميون الثلاثة بصوت واحد، وبعيون جاحظة:

ـ الملازم أول هتلر؟

أجابهم أتانغانا وهو يهزّ كتفيه:

ـ لا تسألوني، فأنا قد غادرتُ ذلك البلد.

نبرة صوته تترجم مشاعره. أُغلق الموضوع للحظة، للحظة فقط. لم يحصل نجويا على صحف منذ زمن طويل، عملياً، منذ أن عادت نغوتان إلى فومبان. أدرك كم هو مشتاق إليها. فحيويتها لطالما منحته القدمين اللتين لا يملكهما. ومع ذلك، فقد اعترف بأنها تقوم بعمل لا يُقدَّر بثمن في باموم. يعلم أنها حمّست السكّان هناك بطريقة عجز عنها ممثله فومبويوم، وحتى وريثه نجي مولوه. فقد حصل على رسالة منها مؤخّراً، تُخبره فيها عن ثمار تدريس الطبقة النبيلة، وأن أولادها قُبلوا في المدرسة الابتدائية عند مدام دوغاست! آه، فكّر السلطان، الأهم هو أن تبقى مع عائلتها، وأولادها، وأضاف الأب: "هناك يجب أن تكون".

واليوم استطيع أن أقول هذا: المستقبل يسير بخطا حثيثة، ونغوتان ستعود قريباً إلى ياووندي، مطلّقة، وتاركةً زوجها الذي أصبح "خائناً" في فترة غيابها، وتزوّج زوجة خامسة. ستتزوّج من إبراهيم الذي تسمّيه "إبراهيمو" العزيز الذي أحبّته منذ طفولتها. وستصبح الزوجة الرابعة للكاتب، ولن يكون هذا كل شيء: فستنسى

مدام دوغاست هذه المرة كرهها لتعدّد الزيجات الذي طالما كان يبرّد حبها "لكل ما هو باموم"، وستبارك بفرحٍ زفاف "أعظم صديقين لها في فومبان، وستقدّم لهما هدية خاصة من أوربا": ساعة جدارية أتموس، موديل 1928. وهذا الزواج سوف يكون لسنوات مرجعاً فيما يخصّ الموضة.

وبالعودة إلى الحاضر، فإن عيني نجويا لا تريان في الواقع مستقبلاً معقّداً إلى هذا الحد. لقد وقعتا على صورة الرجل ذي السترة الداكنة الذي يشكّل موضوع عنوان الصحيفة، وتساءل: "هل هذا هتلر أم لا؟"

ثلاثون سنة مرّت، وذاكرتهم تحبك المقالب له. تساءل أيضاً: "هل قبِل الألمان هذا؟"

ومع ذلك يتذكّر كيف غضب الباموم حين جلس هذا الضابط الغبي، الملازم هتلر على عرشه؛ وكان ذلك في عام 1903. فكّر: صور بعيدة لحياة بعيدة، هي الأخرى، ثم ناول الصحيفة لنجي ماما. الحياة في الجوار أكثر حيويةً. الصرخات والضحكات والوجوه المعرّضة للشمس، والحركات المسرحية جعلت نجويا سعيداً. ثم كل هؤلاء السود الذين يلبسون على الطريقة الغربية! رجال يتنقّلون على درّاجات، يسيرون بسرعة ويتعرّجون بين المشاة، دون أن يعرفوا جمال حركاتهم غير المبالية. ظنّ السلطان أنه تعرّف إلى نغوسو دين بين الجمهور. فتح عينيه، فإذا به شخص آخر. ثم سرعان ما ظن أنه رأى نيبو، ومولوام ثم نغباتو، قبل أن يتبيّن له أن المدينة هي التي تحيك له المقالب مرة أخرى. هؤلاء الناس جميعاً يمشون أو يركبون أو يتقدّمون نحو حلم أو كابوس لا يمكن لأحد أن يعرفه. إنهم كقطط تتلاحق إلى ما لا نهاية مطوّقةً ظلّها حتى تسقط مغشياً عليها.

قال صوت إبراهيم من مؤخرة السيارة:

ـ اقرأ هذا يا رئيس المجموعة، غورينغ نفسه أصبح....

لكن نجويا لم يعد يريد أن يستمع. الماضي يجب أن يُحلم به من جديد لكي يكون قابلاً للعيش؛ فما بالك بالمستقبل؟ سهولة الحياة في فومبان، وكسل الخدم الذين كانوا يجلسون أمام القصر، كانا صدى بعيداً لباقة الحياة التي انفجرت في تلك الحاضرة. بدا وكأن البلاد بأسرها تتعاطى الفرح بسلطان عاد إلى الحياة، في

رقصة للظلال. أمام محل للحيوانات وقفت امرأة سوداء بملابس غريبة تجذب انتباه رحال باموم. نجي ماما هو أول من رآها فهمس:

ـ هذه المرأة غريبة!

كان يكلّم أخاه الذي قطعته قراءة الصحيفة عن العالم، ولكن كلماته نبّهت الرجال الثلاثة الآخرين. المرأة تضع مظلة بألف لون على رأسها، وبيدها الحرة تمسك كلباً، وهو مخلوق في منتهى القبح، يرفض أن يتحرّك، وينبح نباحاً مزعجاً. لم يرَ أيٌّ من رجال السيارة المذهّبة كلباً كهذا. سأل نجي ماما:

ـ هل هذا جرذ أم كلب؟

فردّ إبراهيم:

ـ اسأل هذه المرأة.

وأبدى نجويا المزاج الطيب الذي للأخوين فسأل:

ـ هل هذا كلب أم رجل؟

وانفجر الرجال الثلاثة ضاحكين، والرئيس الأعلى أيضاً، ونظر في المرآة العاكسة. وحده نيبو لم يتحرّك. فالصبي يمسك بصدره.

سأل الرئيس:

ـ ألا تريدين كلباً كهذا، يا سارة؟

- 20 -

عمى متعدّدي الزوجات المفاجئ

كرّر الباموميون الثلاثة:

ـ سارة؟

الناس جميعاً في مون بليزان يعرفونها على أنها نيبو. ولمّا كانت بلا صوت، فهي لا تستطيع أن تخالف الاسم الذي أطلقته عليها الأم القاسية. على أية حال، في نهاية الألف قصة لبرثا، ألم تهاجر روح الابن الفقيد إلى أشكال جسم الفتاة؟ والميت البعيد ألم يستعِد حياته في هذا البطن الذي هضم عذاباته قصةً بعد قصة؟ طوال سنتين، جسم سارة لم يُفشِ سرَّه. فالحجر الساخن الذي سحقت به نهدَيها، فعل فعلَه على ما يبدو؛ ولكن بدا الأمر أيضاً كما لو أن قرار الفتاة الصغيرة بمنح نيبو حظاً آخر علَّق نموَّها. فحتى في سن الثانية عشرة لم يكن لديها نهدان.

في تلك الأثناء، جعل نجويا منها موديله، واهتم برسم ملامح وجهها. لم يتمكّن حتى ذلك الحين من الوصول إلى كتفيها. لقد تألّم في هذا الرسم من ظلّ، لأنه أول وجه يرسمه. ورسمُ العينين والأنف والفم والأذنين سبّب له كثيراً من المصاعب. وقد ساعده قليلاً أن يكون للصبي تقاسيم أنثوية لأن ذلك ميّزه. أليس الجمال تقاطعاً لاختلافات متنافرة؟ ومع ذلك لم يتمكّن نجويا من إنهاء رسم نيبو، على الرغم من جهوده كلّها. فيداه ضعيفتان، أم الضعف عرا روحَه؟ من يستطيع أن يقول له إن هاوية جسم نيبو هي التي تفرّ منه؟ وأن الألف وجه للصبي هي التي تُربكه؟

شجّعه إبراهيم. وبألف مديح أظهر له صحة خطوطه، ووجب عليه أحياناً أن يمسك بيده ليدفعها إلى الأمام، ولكن لا شيء حدث. بنى السلطان جسم الصبي حول الوجه الذي فكّكه إلى خطوط. لقد اعتقد أنه قبض على الجوهري فيه، وها هو صديقه يُظهر له ما لا يُصدَّق: الصبي الذي أمضى أيامه في رسمه هو فتاة في الواقع. والصدمة التي أصابته هي صدمة فنّان أصيب بالعمى طويلاً أمام موديله، ثم ظهر له فجأةً جماله الجوهري.

ـ هل تمزح!

نجي ماما هو الذي رد. والتفتت العيون كلّها نحو سارة، فكرّر المعلّم المعمار:

ـ أنت...

فأتمّ أخوه:

ـ بنت؟

أجابت سارة بالإيجاب. وجب على نجي ماما وإبراهيم الامتناع عن إنزال ملابس الصبي لكشف الفتاة التي اختبأت لزمن طويل. فكيف كان ذلك إذاً؟

هناك، وسط المدينة الحيوية، ووسط الأصوات الأكثر حرارة في السوق المركزية جمّدت المفاجأة الرجال داخل سيارتهم، وأعينهم متّجهة صوب الفتاة الصامتة.

كرّر نجويا:

ـ بنت؟

خاطب شارل أتانغانا متعدّدي الزوجات المحيطين بسارة:

ـ لا تقولوا لي إنكم لا تميّزون عطر فتاة!

استغرب ذهولَ صديقه السلطان، ولم يستطع إلا الضحك من هذا. واكتشاف سارة مضحك لهذا الرجل الوحيد الزوجة، الذي أضحكه أن لا تستطيع ستمائة وإحدى وثمانين زوجة لنجويا أن يساعدنه على التعرّف إلى امرأة.

وألحّ بالسؤاال متوجّهاً إلى نجي ماما وإبراهيم:

ـ لا تقولا لي إنكما لم تكونا تعرفان، على الرغم من نسائكما جميعاً!

وكرّر نجويا:

ـ بنت!

وتذكّر جميع المرآت التي رأته فيها عارياً. أما نجي ماما فقد تذكّر القانون الذي ينظم أن يكون ظل السلطان صبي. لم يخطئ في حياته كهذا الخطأ. وتذكّر أيضاً وجه نيبو المرتعد من البرد حين وصل متأخّراً إلى العمل، ودخل إلى حياة نجويا كموديل. وتذكّر إبراهيم جلسات الرسم فقط، وذُهل هو الآخر. أما سارة فلم تُصدم أبداً. فقصة نيبو انتهت بالنسبة إليها. ليس لأنها عاشت في نهاية قدر تلك الشخصية، بل لأنها قبل أيام قليلة فقط نهضت من فراشها فوجدت لطخ دم عليه. ركضت إلى برثا معتقدة أن مأساة نيبو هي التي جعلتها تنزف. لكن الأم الحنون انفجرت ضاحكة وأخبرتها أن هذا أمر يجب أن تعايشه من الآن فصاعداً، وقالت:

ـ هذا دمكِ أنتِ.

لم تستطع سارة أن تفهم، فأضافت:

ـ أنتِ امرأة الآن.

كانت سارة تعلم أن نموّها لا يمكن أن يكون إلا هزيمة الأم. ومع ذلك، في ذلك اليوم، لم تعش أية إشارة هجر في نظرة برثا. بطريقة معينة، تحرّرت الأم المتأخّرة، وهي تروي قصتها، من حياتها الملعونة ومن عذابات روحها، ويمكنها أن تقبل ابنة الآخرين كما أتتها. إنه التحرّر المتأخّر جداً هو الآخر: قالت لي العميدة، لأن سارة لم تعد فتاة صغيرة، ثم إن قوانين القصر كانت أكثر صرامة: الدورة الشهرية للفتاة تدل على نهاية إقامتها عند الأم الرؤوم؛ هذه هي الإشارة بأن عليها أن تُعطى لغرفة نوم السلطان. وداع الأم أثار تعاطف سارة، وبالعطف نظرت برثا إلى الفتاة بعيني حب. إنه حب بحثت عنه برثا كما فعلت سارة حتى ذلك الحين. قبلته سارة على الرغم من أنه أتاها من باب غير متوقَّع. عانقت المرأة الشابة الجديدة ولفظت اسمها لأول مرة: "سارة".

كرّرت اسم سارة عدة مرات كما لو أن هذه هي طريقتها في اختراع حريتها بدءاً من حرية امرأة أخرى. وفي ذلك اليوم غادرَتْ مون بليزان.

لقد ابتلعت العاصمة بقية قصتها.

وبالعودة إلى شارل أتانغانا وسيارته المذهَّبة، قال الرئيس:

ـ هذه ابنة أخي، أتذكر؟

كيف لنجويا أن يذكر؟ إنه يعيد بناء ذاكرته خطوة خطوة، قصة بعد أخرى، ولزمه سنتان لاستعادة مهارة أصابعه، وكذلك حيوية عينيه. وأدرك أنه، وإن استردّ حيوية ذهنه، فما يزال بحاجة إلى التنفّس لكي يعيش حياةً حقيقية. نساء يتدافعن حول سيارته، ووجوههن منسحقة على زجاجها. يردن أن يُظهرن لهذه القمم روائع تجارتهن. سارع الحرس إلى إبعادهن لكنهم لم يستطيعوا إسكات أصواتهن:

ـ بصل؟

ـ بندورة؟ بندورة؟

ـ أيها الرئيس! أيها الرئيس!

ـ ملح؟

ـ هل تريدون فلفلاً؟

ـ برتقال؟

ـ أرخص؟

ـ أرخص ما في ياووندي!

ـ في الكاميرون!

ـ في العالم!

صوت السوق الغني تضخّم وبفعل قوة ابتلع المركبة التي تحوّل فيها سرٌّ إلى بداية قصة امرأة. فمن داخل سيارة حبث بربن الصمتُ، وسط النساء، بدأ شارل أتانغانا يروي قصة سارة. هناك، في وسط ياووندي، قشّر ـ كبصلةٍ ـ بكلماته الفتاةَ التي ما تزال صامتة، بينما كانت النساء في الخارج يلوّحن أمامه بالبهارات التي يردن أن يبعنه إياها. هناك كشف لنجويا الفتاة التي أهداه إياها فيما مضى. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، فقصة نيبو هي قصة فتاة صغيرة، وقصة مدينة في الوقت نفسه. إنها قصة عاصمةِ بلدٍ يظهر في حقائقه المخبَّأة، وفي طرقه المغطّاة التي ترنّ في أربعة أركان الأرض، وتدهش العالم في تهديدها البعيد لتتقطّر عطوراً بلا نهاية.

كيف تسنّى لنجويا أن يعيش هذا الزمن الطويل في هذه المدينة دون أن يتنبّه لقصصها؟ وجوه هاته النسوة كلّها على الزجاج، نعم، هذه الوجوه كلّها التي

تتفكّك إلى تكشيرات من الكلام أصبحت خرساء بوساطة الزجاج الذي أغلقه نجي ماما وإبراهيم؛ ألا تُظهر هذه الوجوه كلّها فجأةً وبمفردات لامتناهية هذه القصة الغريبة التي بدأت على شفتي الرئيس؟ هذا الفرح الجوهري للمكان الذي منح نجويا الحياة من جديد، كيف كان بوسعه، كيف كان بوسعه أن لا يشعر به طوال هذه المدة؟ قال:

ـ كنت أعمى عن الحياة.

صحّح شارل أتانغانا:

ـ لا يا صديقي العزيز، فقد كنتَ مريضاً.

وأضاف إبراهيم:

ـ ها قد بدأتَ ترى من جديد!

وأضاف نجي ماما كلماته إلى كلمات الآخرين:

ـ وتسمع.

ـ وتتكلّم.

ـ وتشعر.

ـ وتمشي.

ـ وتعيش.

حين نظر نجويا إلى نيبو، رأى الآن فتاة، هي أيضاً فتاة ترتعد من البرد، فتُظهر وجهاً في ثياب الصبي التي ترتديها، وتبتسم له بحياء. أحب السلطان ما رآه، وابتسم هو أيضاً. فذلك يعني أنه سيتمكّن بلا تردّد من إنهاء رسم الصورة غير المنجزة برسم النصف الأعلى من جسم الفتاة، الفتاة المبتسمة. نعم، ابتسمت سارة، فحوَّلَتْ ابتسامتُها جسمَها إلى سعادة. كانت سارة متأكّدة حتى داخل باحتها من أن اكتشاف نجويا كان بداية قصتها الحقيقية.

المسألة الوحيدة؟ هي الرئيس الذي رواها لأصدقائه. ما كان لديها الشجاعة ولا الحق على أية حال، بالكلام، على الرغم من أن السلطان تمنّى ذلك.

بدأ الرئيس شارل أتانغانا وهو ينظر إلى الفتاة في المرآة العاكسة، مبتسماً هو أيضاً:

ـ هي تُدعى سارة.

وامتلأت سارة فرحاً.

تابع الرئيس:

ـ وماذا يمكنني أن أقول غير ذلك؟

ثم صمت مفكّراً.

بدأ من النهاية التي كانت بدايةً أيضاً. روى قصة صديقه جوزيف نغونو، وقال كيف استطاع هذا الأخير أن يبقى على قيد الحياة بعد أن هاجمته عصابة من العنصريين في برلين، ثم مات في مزرعة الكاكاو "في بلاده، حيث يوجد مون بليزان نفسه"، وأضاف:

ـ القضية لم تُحلّ. لكن الحل سيأتي.

وصمت، ثم قال:

ـ نعم، الحل سيأتي ولو بعد عشرين سنة.

ومع ذلك فقد أوضح أن الملف تعرّض للتبريد لأن المفوّض السامي استخلص، بعد أن قرأ محاضر ضبّاطه، أن جوزيف نغونو توفّي في نار أشعلها بنفسه. فعلّق أتانغانا:

ـ هذا غير منطقي.

فالرئيس الأعلى لا يريد أن يصدّق أن "أخاه" أشعل النار في مزرعة كاكاوه.

ـ لا يمكن أن يكون فعل هذا.

ثم قال إنه لا يستطيع أن يحبس دموعه كلّما فكّر بذلك، فهو يشعر بمسؤوليته عن وفاة جوزيف نغونو الذي غادر حفل الزفاف دون أن يخبر أحداً. نعم، اعترف الرئيس بأنه لم يجد بعد "الكلمات المناسبة" ليواسي عزيزته جوليانا، أخت صديقه الصغيرة. ثم سأل سارة بلغتهما، وعبر المرآة العاكسة التي لا تُظهر إلا وجهها:

ـ والدك كان أخي، أتعرفين ذلك؟

ثم قال مخاطباً السلطان:

ـ لقد كنا هكذا.

وحين قال "هكذا" باللغة الفرنسية ألصق سبابته تحت المقود. ثم أضاف:

ـ لقد كبرت عند عمّها أوونا، ولكني أردتُ أن تأتي إلى عندي.

وصمت. ثم أضاف بالإيووندو:

ـ أنتِ ابنتي، أتعرفين؟ ولكن أريد أيضاً أن تعيشي عند صديقي هنا.

ثم فكّر وصحّح:

ـ عند أخي هنا، أتعرفين؟

لم تكفّ سارة عن الابتسام: ففي النهاية، ماذا يعرف شارل أتانغانا؟ لو قالت له إن في جسدها تلتمع عدة أرواح، فهل سيصدّقها؟ ومع ذلك، ابتسمت سارة لأنها أدركت أنه ينظر إليها في المرآة العاكسة؛ فعندما تنظر في المرآة العاكسة، فإنما ترى وجهها هي. والرئيس ينظر إليها نظرات حب، مثل نجويا الذي لم يكفّ طوال هذه الأيام الأخيرة عن النظر إليها ليرسم صورتها بشكل سيئ، فهل يستطيع أن يلتقط تشابك ملامحها؟ آه، سارة لا يحقّ لها أن تقاطعه وأن تتكلّم بصوتها وسط هؤلاء الرجال! أنت ستقول قصتها، وهل كانت ستفتح فمها في هذه السيارة وتروي قصة أمّ ظلالٍ بكل تأكيد لا يعرف السلطان اسمها على الرغم من أنها صنعت معظم زوجاته؟ هل كانت سارة ستصف كيف أنها كانت فتاة صغيرة جداً حين استطاعت أن تحوّل قبضة برثا الرهيبة في الماضي إلى ضمة أمٍّ محبّة حقاً؟

لكن سارة كانت ستقول أيضاً كيف اخترعت أمومة بقبولها أن تصبح الابن الذي لم تكفّ برثا عن البحث عنه في أجساد الفتيات. سارة كانت ستقول كيف استمعت إلى قصة لم تُصنع من أجل فتاة في التاسعة من عمرها، تماماً لكي توقظ أماً لاهثة في جسم امرأة بلغت سن اليأس. وقصة هذه الأم كانت ستكون قصة نيبو، الفنّان المعلّم الذي من المؤكّد أن السلطان تذكّره بهلع. تعلم سارة أن قصة النحّات ستثير دموع كل الرجال من حولها. وهل سيكون لديهم دموع على خدودهم أيضاً إذا روت تتمة قصة حياتها بعد موت والدها في مزرعة كاكاو شارل أتانغانا؟ هل سيكون إذا ما روت قصة أمها سالا التي لم ترها بعد ذلك؟ أم قصة أخيها كارل الذي لم يزرها إلا مرة ليقول لها إنه على الرغم من حداثة سنه، يريد أن يصبح قنّاصاً، لأنه هكذا يستطيع أن يقتل من يريد، بمن فيهم عمّه أوونا"؟ آه،

لا ريب في أن الرئيس سينفجر من الغضب إذا ما بيّنت له هوية اليدين اللتين أضرمتا النار في مزرعته. أو بالأحرى، سيقول إنه يعرف ذلك منذ البداية!

سيقول:

ـ أعرف منذ البداية أنه... أنه شخص تافه.

ابتسمت سارة، ولكن في الواقع، هي التي ذرفت الدموع. هل كان ذلك لأن البهارات تخنقها بروائحها النفّاذة في هذه السوق الخانقة؟ وهل كان هذا بسبب صمت هؤلاء النسوة اللواتي يطلقن الإشارات خارج النوافذ المغلقة؟ أو هل هذا بسبب الألف قصة وقصة للعالم التي تتلخّص داخل هذه السيارة، في المدينة؟ وكذلك هل هذا بسبب قوة مفاجئة تسجن معدتها ورئتيها وحلقها وأنفها في جمر ملتهب؟ لقد تشنّجت سارة، فتحت فمها وبحثت حولها عن يد أو قدم أو سند، أمسكت بمقاعد السيارة، وركبتيها وركبتي نجي ماما وإبراهيم، ثم صدرها، فتحت أنفها في السيارة لتتنفّس الأوكسيجين الذي ينقصها، وأغلقت فمها ولكنها فتحته ثانيةً، بعنفٍ هذه المرة وأخرجت اشمئزاز القرن: "آآآ....آآآ....آآآ... آآآتشوم!"

تناثرت صحيفة إبراهيم. وحين أعادت سارة فتح عينيها، ألْفت الوجه الممتقع للعالم بأسره ينظر إليها. عطستُها الفريدة هزّت السيارة المذهّبة مرتين. والنساء من حولها بقين معلّقات. مسحت الفتاة عينيها وأنفها بظاهر يدها، وقد أذهلها الصمت الذي أوجده صوتها. الرجال يراقبونها.

أخيراً سألها شارل أتانغانا وهو يناولها منديلاً:

ـ آكييه، هل تريدين أن تلتهمينا جميعاً أم ماذا؟

وابتسم.

خاتمة

لم تكن هذه قصة للنشر

توني موريسون، *beloved*

بلا عنوان

التاريخ بيتٌ من ألف قصة. إنه بناء كثير الغرف، وله باحات وممرات وطرق وأبواب ونوافذ؛ إنه متاهة، نعم، هو تسلسل منطقي متعرّج من سلاسل الذاكرة، ولكنه بيت ذو طوابق أيضاً؛ هو تجمّع من الوشوشات والهمسات والطُّرَف والنكات والصرخات والمُزاح والضحكات؛ إنه ذكرى سرمدية. إنه مجرى الشباب وعرض للأحلام؛ وليمة من الزومبيات ومرهم. إنه الحَكَم الحقيقي على أخطائنا وعلى نجاحاتنا. هو سيّد عنيف يقف أمامنا. التاريخ هو مستقبلنا الوحيد. آه، كم هو يسيرٌ تخيّلُ عالمٍ ماضٍ، حيث أفريقيٌّ مشيًّأ يلتقي بأبيض هو الآخر مُشيًّأ في مبارزة مأساوية، في معركة موت وحياة؛ الأول يحمل سهماً، والثاني مدفع! وكم من السذاجة أيضاً وضع سلاسل المستعمِر للبدء مرةً أخرى بمعركة الساكن الأصلي، على الرغم من أنه وُلد وترعرع مستقلاًّ! أو عندما يشعر الإنسان في داخله بظهور غثيان طاغٍ جداً في مواجهة قارة تجري وهي عمياء لترتمي في أحضان الشيطان؛ أو التاريخ الذي يستعجل في معسكرات المأساة! تذكّرني قصة سارة بأنه عندما أيقظت رعود الحرب العالمية الأولى العواصمَ الأوربية مع أغانيها المجنونة، فقد تردّدت أيضاً في مدن أفريقية عديدة كنشيد دمار.

مباركون هم الذين فهموا، في نار عام 1914، في فومبان كما في برلين، أنهم لا يدخلون في بيت الحضارة الكبير، بل في ممرات القتل الجماعي، لأن ملايين القتلى في الخنادق وفي ساحات معارك تلك الحرب العالمية تركوا عدة أرواح، سوداء، أو بيضاء، مجروحةً إلى الأبد. ومباركون أيضاً أولئك الذين امتلكوا في عام 1933 في

ياووندي أو في باريس، في فومبان أو في برلين، رؤية ثاقبة ما يكفي لمعرفة أن مستقبلهم ينادي أتوناً كبيراً، أكبر بكثير من ذلك الذي فرّوا منه! هؤلاء القلّة، هؤلاء المختارون من تاريخ جنون، ليكونوا نجويا أو نغونو أو أتانغانا أو برثا، كانوا يعرفون أنهم يتأرجحون بين عالمين، ليسا العالمين اللذين تتحدّث كتب التاريخ عنهما. لا. فبعد أن سمعتُ قصصهم، أستطيع أن أقول إنهم كانوا يتأرجحون بين حاضرٍ مظلم حقاً ومستقبل أكثر ظلاماً. هذا القدر الكتيم كانوا يتقاسمونه مع المستعمِرين الذين أتوا إلى حيواتهم، سواء أكانوا فوهرمان أو الأب فوغت، برستا أو غورينغ أو هيرتلر، ولكنهم للأسف لم يجدوا لغة إنسانية تكفي ليتحدّثوا عن قدَرهم المشترك. مهما كانت الحالة، فإنهم إذ دخلوا في مستقبل غير مؤكَّد، وأفاقوا على أطلال بيوت مهدّمة، وبأيديهم الأدوات القليلة التي اخترعوها-أبجديات وكتابات تصويرية ورسوم ومحاضر ضبوط وكتب وتماثيل، إلخ- ليحوّلوا مخاوفهم وأحلامهم إلى صور للحياة، فقد أصابتهم النار التي تقسّي قرميد الحاضر. فتاريخهم هو لحم أرضنا الخافقة.

غادرتُ الكاميرون دون أن تقول لي سارة ما حدث بعد أن قُشّرت في السيارة المذهّبة، وسط المدينة تماماً. غادرتُ ياووندي مع قصة نيبو المنتهية نوعاً ما في ذهني، وكذلك مع قصة سارة وهي في بدايتها الأولى. رافقني شبّان نسيميونغ إلى المطار، وهم يحملون أيضاً قصة الأم العجوز في بطونهم، وأنا نفسي رأيتُ كم غيّرَتْ حياتَهم. قال لي آرونا إنه قرّر أن لا يتزوّجني بعد الآن، وهذا ما أضحكني لأننا أصبحنا أصدقاء. وسألتُه:

ـ ألم أقل لك إن لي زوجاً؟

وضحك بدوره وقال متأسّفاً لأني لم أخبره بذلك منذ البداية:

ـ أنتِ أيضاً، أنتِ متاهة.

لمتُه قائلة:

ـ لم تسألني أبداً!

فلاحظ فجأةً:

ـ بل أنتِ لم تقولي لنا قصتكِ.

ـ ولمَ تسألني عنها كذلك.

ـ هل هو أمريكي؟

ـ مَن؟

ـ زوجك.

ـ حسنٌ...

بعد شهرين من وصولي إلى الولايات المتحدة وجدتُ مغلّفاً من الكاميرون في صندوق رسائلي، مغلّف مغطّى بالطوابع. وكان يحوي رسالتين، وإحداهما نصٌّ جميل إلى أقصى الحدود، مكتوب بخط الليوا الذي أوجده نجويا، بينما كانت الثانية باللغة الفرنسية موقّعة جماعياً من أصدقائي في نسيميونغ. بدأتُ بقراءة رسالة أصدقائي لأنها أسهل قراءةً. أخبروني أن سارة تُوفّيت، وأن الحي بأكمله شارك في دفنها دفناً كريماً بحسب عادات الباموم على الرغم من أنها كانت من الإيووندو. وأخبروني أيضاً أن نسيميونغ قرّرت أن تبني لها نصباً تذكارياً، وأن تحوّل الحجرين اللذين بقيا من مون بليزان إلى بيتٍ كانت هي ذكراه الأخيرة. وبهذه الطريقة، تُضيف الرسالة، يأمل هذا الحي الفرعي "جذب السيّاح". حتى في الغبار البعيد لهذه الرسالة الجماعية اشتممتُ رائحة لقية مالية لآرونا.

ولكن تتابع الرسالة أخبارها فتقول إن سارة دُفنت على أنها عميدة الحي التي كانتها. وهنا فاضت دموعي، لأني تذكّرتُها فجأةً وهي في باحتها وسط دجاجات في ياووندي، وقدماها متقاطعتان أمامها؛ تذكّرتُها وهي تمضغ التبغ وتبتلع عطساتها لتروي لي قصة حياتها. بل إني أحسستُ بحرارة أصابعها تمرّ عبر شعري لتحوّل رأسي إلى تلك التسريحة البالية التي جعلتها تضحك وهي تمتدحني، لأن تلك التسريحة كانت من وحي حياتها. وما أزال أحسّ بأنفاسها على كتفي حين كانت تضفر شعري، وأتذكّر كيف كانت تجذبني نحوها، وتهمس في أذنيّ الأجزاء الأكثر إدهاشاً، أو التي لا تُصدّق، والحق يُقال، من قصّتها، بعيداً عن نمائم الحي وأصدقائي. تذكّرتُ سارة وهي تضفر شعري، تمسك برأس جزءاً جزءاً، فتبقي هكذا ذهني صاحياً. نقلتني، وفي الوقت نفسه غمرتني بسماء ذكراها الدائمة التي سجّلتها على رأسي، في الجمال المركّب لضفيرة طويلة جعلت كثيراً من النساء السوداوات في

الولايات المتحدة يستوقفنني ويسألنني عمّن صنعت لي هذه الضفيرة. كنتُ أركض إلى الحمّامات وأنظر إلى نفسي في المرآة، وما أزال أراها خلف ظهري وهي تغمزني غمزة متواطئة. أغمضتُ عيني ثم نظرتُ من جديد، فابتسمت لي هذه المرة، وسألتني:

ـ ماذا تعرفين؟

ـ لا شيء.

كرّرت وهي تضحك وتبغُها معلّق أمام منخريها:

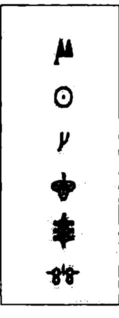
ـ دائماً لا شيء، دائماً لا شيء، ألن تتعلّمي التاريخ عندكِ هناك؟

وكانت تقصد: الولايات المتحدة.

فبم أجيب؟

سارة! آه، سارة!

ما يزال صوتها يرنّ في أذني، صوتها الذي روى لي القصص الأكثر استعصاء على التخيّل بنبرة هي الأبسط؛ ومع ذلك، لم أستطع أن أحبس دموعي حين ترجمتُ رسالتها. إنها قصة حياتها في شقة نجويا بعد اكتشافها العلني. وروت لي هذه الحياة الجديدة بتفاصيل ظننتُ أنها عاجزة عن الإتيان بها، بشرف كان طريقتَها في الانتهاء من بيت الأرواح الذي لطالما كانه مون بليزان بالنسبة إليها. وانتهت رسالتها بعبارة رمتني أرضاً:



ثم أصبحتُ زوجة السلطان، أتسمعينني؟

شكر ومصادر

هذه الرواية تُظهر حقاً كاميرونيين وأفارقة متعلّمين جداً: ومواطنين عالميين حقيقيين، وإذا كان من المغالطة التاريخية أن نأمل أن يحصل لسينيكا Sénèque على دكتوراه، وعلى مستوى معيّن من التبحّر ضروري بكل تأكيد لفهم كتاباته، فالتاريخ الإفريقي أراد أن يكون كاتب هذه الرواية متعلّماً، وأن يكون قد نشر كتباً باللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية، ليُدرك كم هو أمّي أمام مكتبة نجويا التي هي مفتوحة في مسقط رأسه، ياووندي، في قلب الأدب الكاميروني والأفريقي، إذاً، وإن كانت ما تزال مغلقة على أحرفهم الحديثة. للدخول في محادثة مع هذا العالم من الأحرف التصويرية والفونيمات والكلمات والأحرف والكتب؛ ومن أجل إحياء أبجديات الليوا والأكاوكو من جديد، كان من الضروري تغيير قدر عدد كبير من الشخصيات والتواريخ، لكي تناسب حقيقة الخيال. فليفهم أخلاف هذه الشخصيات الشهيرة ويسامحوا!

الكتب المستخدمة أكثر من أن تُذكر هنا، لأن هذا الكتاب ليس أطروحة تاريخية، بل هو عمل خيال. ومع ذلك، فإن مملكة الباموم، مراجع تاردي، وكتابة الباموم لدوغاست وجيفريس، و Die Bamum-Schrifi لشميت Schmihh، ومقال دولافوس Delafosse حول لغة نجويا الملكية السرّية، والأبحاث في الأحرف التصويرية لجيري Gearay، وبخاصة بحث Mandu Yenu و Bilder aus Bamum الذي نشرته مع ندام نجويا، وأبحاث توشيشيرر Tuchscherer ورسوم باموم التي يمكن أن نرى فيها رسوم إبراهيم، كانت مناجم معلومات. والأرشيف

الاستعماري الرقمي لجامعة فرانكفورت، وجامعة جنوب كاليفورنيا، والأرشيف السينمائي الألماني في برلين، وكذل المركز القومي للسينما في باريس، ومواقع على الإنترنت، أظهرت لي ما يمكن أن يكونه العالم الذي أبحث فيه. والكل تم إحياؤه بمعرض فوتوغرافي لتلاميذي في دورة "Tropical Germany" في فاسار كوليج في الولايات المتحدة.

لن أستطيع إيفاء باربرا كوينكر حقّها من الشكر لأنها أصرّت على فكرة "نجويا"، وكذلك كريس أباني لأنه سهّل بعض الأمور، ونياشا باكاري، لأنها عبرت ممرات هذا النص باللغة الإنكليزية أولاً، في مخطوط قرأته بأناة، ثم باللغة الفرنسية، وكونراد توشيشير لحماسته الفريدة حقاً، ولمعرفته كمؤرّخ التي وضعها تحت تصرّفي كليّاً، ولأنه أعطاني بكرم جم تعليمات خط الليوا الذي أستخدمه في النص، والأكاكو الذي أستخدمه في بداية الفصول، وهو خط اشتغل عليه مع عمرو نشاري وجيزن غلاري ولوربيشيه، آه، يجب أن تصدّق في نهاية المطاف! هذا كتاب الكتب، تمجيد إذاً لكل المكتبات الأفريقية القديمة، وكتّاب سير القدّيسين المنسيين، وبصورة خاصة لأولئك الذين حرثوا في ظلام عصر واسع جداً لا تعبّر عنه كلمة "استعمار" تعبيراً وافياً. ولكن هذا قبل كل شيء تمجيد لكتاب فريد، جامع رائع للذاكرة التي بُدئت في فومبان حوالي سنة 1908، وانتهت نسختها الأخيرة في 19 حزيران 1921، في مانتوم، في الكاميرون، وأعني: ساآنغام السلطان نجويا.

بالتيمور 2006 ـ بروكلين 2009.

المحتويات

يرقص بطنها تبعاً لحركة جسمها الخفيفة. إنها مثل نغونغور تماماً!
لقد رأى صديقته آلاف المرات في أحلامه: لكنه لم يرها رؤية كاملة كهذه قطّ. إنه لا يحلم.

تاه النحّات في أفكاره حول المقارنة بين الحيوانات والبشر، أصوات وخطوات، جسد وموسيقى، حين أدرك فجأةً أن المرأة قد توقّفت وحيّت امرأة أخرى، وتبيّن له أن جسمها في الثبات له هالة مشابهة لهالته في الحركة. مكثت معلّقةً في نصف مشية، لا تتحرّك، وفي الوقت نفسه تبدأ حركة المشي. المشي مسجَّلٌ في جسمها الثابت، كجمع من الأوضاع على تمثال أصلي. والنتيجة مدهشة. فلديه هنا الوحدة التي لطالما بحث عنها: رقم الهناء.

أضاف نيبو هذه الرؤية الكاملة لجسمها إلى الأشكال التي حصل عليها في أحلامه. ارتسم كلُّ شيء بوضوح شديد في ذهنه، كما لو أنه كان يميّز بين كل عضلة من عضلات المرأة التي تمشي، وكل عظم من عظامها، وكل عصب من أعصابها، ويمكنه أن يحسب طول خطوتها، ثم خطوة، ثم خطوة أيضاً. دون أن يتمكّن من إطفاء شكواه التي فرّت من بين شفته.

إنها قصيدة جمال.

بدأ وهو يصلح وضع مئزره:

أيتها المرأة، أنتِ معلّمي!

كيف سيتنبّه نيبو إلى العيون التي تراقبه وهو غارق في أفكاره؟ إذن بذل اكتشف عيونَ السوق جميعاً. إنها عيون نساء، وكلّهن إماء، جالسات خلف بضائعهن. لم يتوقّف نيبو في سوق البهارات قطّ، ودفعة واحد أدهشه العري الآسر لجمهوره. أفاق من معادلاته عن امرأة في الحركة، ووجد نفسه في تجمّع معادٍ. إنه رجلٌ، هو الرجل الوحيد الموجود، وليس لديه سوى رغبة واحدة: أن يغطّي جسمه العاري.



"تمـت ترجمـة هـذا الكتاب بمسـاعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الـدولـي للكتـاب للترجمة والحقوق"





دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339
9789933477684